الفكر الشرقي القديم

وبدايات التأمل الفلسفي

الدكتور جمال المرزوقي



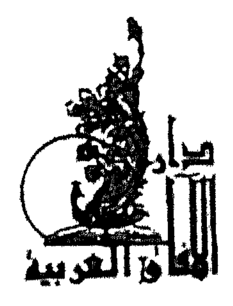
اهداءات ٢٠٠٣

الدكتورة/هدي سعد
جامعة عين شمس-القاهرة

الفكر الشرقي القديم

وبدايات التأمل الفلسفي

الدكتور جمال المرزوقي



الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

رقم الايداع	١٠٦٠٣ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى	977-5727-67-7



القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران

مدينة نصر - ت : ٢٦١٠١٦٤

إهداء

إلى مصر
أم النيل والهرم
أم القيم والقمم



جمال المرزوقي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يُشير كثيرٌ من كُتّاب الغرب إلى الحضارة الإغريقية كما لو كانت حدثاً فريداً تتضاءل إلى جانبه ما قدمته كل حضارات الشرق القديم، فبينما كانت مدنيات الشرق السابقة على مدنية الإغريق- في رأى هذا البعض من الكتاب- ذات كفاية بالغة في الأمور العملية فإنها كانت جدباء من الناحية العقلية، لقد مارس ملايين الناس الحياة وخبروها قبل الإغريق فماذا فعلوا بها؟ لا شيء، لقد ماتت خبرة كل جيل بانتهائه.

إن الإغريق هم الذين ابتكروا الأدب وأوصلوه إلى حد الكمال، إن شعر الملاحم والتاريخ والفلسفة بكل فروعها والاقتصاد والرياضيات وكثيرٌ من العلوم الطبيعية كلها تبدأ بالإغريق . وقد مال أشياع هذا الرأى تدريجياً باتجاه فكرة "المعجزة اليونانية " و "أصالة الفكر اليوناني" و" الشعاع الخاطف" في بحر من الظلمات، حتى أصبحت النظرية عند بعضهم تعني القول بأن اليونانيين غير مدنيين في "علومهم" و" فنونهم"و "فلسفتهم"، بل" وأديانهم " لشيء شرقي، وإن كان هناك أثرٌ ما في "الفنون" و" الفلك"، فإن القفزة التي قدمها اليونانيون في هذا المجال تلغي هذا الأثر وتلاشيه، وينتهي أصحاب الصورة المتطرفة لهذا الرأى، إلى جعل علوم وفكر اليونان الطبيعيين نتاج العقل اليوناني الخالص.

وهذا الرأى، على غلوه- أو على خطئه- له أنصار كثرٌ في الغرب، ومن العجب أن يكون له أنصار كثرٌ في الشرق أيضاً.

فهذا (زيلر) يرى أن الفلسفة الإغريقية ابتكار إغريقي لم يشاركهم فيه أحد، وأننا لا نجد عند الأمم التي قبلهم فلسفة بمعناها الصحيح القائم على التفكير المستقل عن الدين، وظهور الفلسفة اليونانية يعود – في رأيه- بالدرجة الأولى لمواهبهم الخاصة مثل القدرة على الفهم والقدرة على التخيل، والقدرات العقلية والانفعالية، وقد اجتمعت كلها بشكل مثمر.

وهذا (برنيت)- أحد أكبر من يدافع عن "الأصالة المطلقة" للعلم والفكر والدين اليوناني- يذهب إلى أن آراء البابليين والمصريين في تفسير خلق العالم من

المادة، آراء أسطورية، وعلومهم لم تصل إلى التنظير أو التجريد العقلى، بل هـى عملية بحتة، بينما هى نظرية وعلم بحت منظر ومجرد عند اليونان.

ويقول (برتراندرسل): في كل التاريخ ليس هناك شيئ أكثر إثارة للدهشة- بل ما لم يكن في الحساب - كالظهور المفاجئ للحضارة في بلاد اليونان، إن كثير من مقومات الحضارة كان قائما منذ آلاف السنين في مصر وفي بلاد ما بين النهرين، ولكن عناصر ظلت تنقص هذه الحضارات إلى أن زودها بها الإغريق، إن ما ابتكروه في المجال العقلى شيئ فريد: لقد ابتكروا الرياضيات والعلم والفلسفة، وهم أول من كتب التاريخ، وحتى العصر الحديث مازال هناك من يتحدث عن العبقرية اليونانية كما لو كانت معجزة.

وقارئ مثل هذه الآراء لا يفوته أن يلاحظ أن أصحابها يتحدثون بلغة جد قريبة من فكرة " التفوق القائم على الجنس"، فهم يتحدثون عن الشعب اليونانى بأنه وحده الذي استطاع أن يسبر أغوار الطبيعة والمجتمع ونفسه بحياد العلماء، ويرون أن مما ساعد على هذا خواص يمتاز بها العقل اليونانى مثل الإحساس القوى " بالحقيقة" والقدرة الفائقة على "التجريد"، ومكنهم هذا من تأسيس الفلسفة وقضاياها.

ولابد أننا قد ضقنا ذرعاً بهذه اللغة "التفاخرية" التى تنضح بفكرة "الاستعلاء"، ونتطلع إلى مزيد من الأدلة المفحمة لإزالة هذه الأوهام التى طالما رددها دعاة هذا التفوق، وأصحاب هذه اللغة التى تؤكد تعصبهم العنصرى، ونرى أن الحضارة الإغريقية- وقد نشأت متأخرة عن حضارات الشرق جميعاً- قد أفادت منها، بل إن الحضارة الإغريقية طوال تاريخها تستمد من الحضارات المجاورة عناصر تراثها بفضل رحلات كبار مفكريها وبخاصة إلى مصر، فضلاً عن رحلات الأجانب إليهم، يقول هيجل:

إن الأصول الأولى للحضارة الإغريقية كانت مرتبطة بقدوم الأجانب إليها، وكان الإغريق يشعرون تجاههم بشيء من الامتنان.(1)

---

(1) **Hegel G.W.F: The philosophy of History tran. by J.Sibree, P.228.**

وبالتالي فإن الاعتقاد بأن شعباً، كاليونانيين مثلاً، قد استأثر بالبحث العقلي، والتنظير والإبداع، وأن الشعوب الأخرى نقلت عنه وتأثرت به، اعتقادٌ أثبت المزيد من التحرى والتمحيص خطأه وتحيزه.

ويوجد كتاب لباحث أمريكي هو الأستاذ "جورج جيمز " بعنوان (التراث المسلوب: اليونانيون ليسوا واضعي الفلسفة اليونانية، ولكنهم شعب شمال أفريقية وهم المصريون، نشرته المكتبة الفلسفية بنيويورك سنة ١٩٥٤، وأُعيد نشره في سان فرانسيسكوا سنة ١٩٧٦) وفيه يعرض المؤلف لحياة أشهر فلاسفة اليونان، سقراط وأفلاطون وأرسطو، ويستعرض مذاهبهم، مقرراً أن الإلهيات التي كانت تدرس في منف هي أساس كل المذاهب التي تكون الفلسفة اليونانية.[1].

ويؤكد (سارتون)، أن من السذاجة القول ببدء العلم في اليونان، ويرى أن إهمال العلم الشرقي والإطار الذي نشأ فيه، سببُ أفسد هذا العلم ومدى قيمته وجدته، ويطلق -سارتون -على تقدم اليونان الرائع في ثلاثة قرون "معجزة" تثير الإعجاب والحيرة، ولو أنه يؤكد مراراً إنه متصل بما قبله، وحتى الفلسفة فيه هي زهرة لسلسلة طويلة من جهود ليست يونانية فحسب، فهي - وكذلك الشعر الهوميرى- نهاية لابداية.

ويناقش اشتراط التجريد ليكون العلم علماً، ويذهب إلى أنه لا حدود للتجريد، ولا أوصاف معينة محددة له حتى نقول هنا بدأ، وإنه منذ اخترع أول إنسان أو أناس العدد واللغة كان هناك تجريد، فالإنسان منذ نطق يكون جرّد، فكل كلمة هي تجريد، وكل تجريد هو سلسلة من الممارسات العلمية الطويلة، وسلسلة من العمليات العقلية العليا، كالتحليل والتركيب، وبالتالى يتأكد خطأ ادعاءات ابتداء التنظير والعلوم النظرية مع اليونان.

وعلى العكس، فإن ما قدمه الإنسان قبل اليونان، هو كالمحيط بالنسبة لما قدمه اليونان، ومن الغلط الشنيع بعد هذا أن يدعى مُدع أن العلوم بدأت،

---

[1] George G.M. James: stolen legacy: The Greeks were not the authors of Greek philosophy, but the people of North Africa, Commanly caled the Egyptians, San Francisco. Julian Richardson Associates publishers, 1976.

وكذلك سائر الفنون .. الخ مع اليونان، أو أن ما قدمه هؤلاء معجزة تستعصي على التفسير.

ومن الكتب الهامة والجادة التي قوضت مفهوم "المركزية الأوروبية" وأثبتت دور الحضارات القديمة (المصرية بصفة خاصة) في التأثير على الحضارة اليونانية، ومن ثم على الحضارة الأوروبية المعاصرة، كتاب "أثينا السوداء"، أى أن أثينا ليست بيضاء، بمعنى أن مصدر حضارتها ليس الغرب الآرى، بل أفريقيا السوداء، أو الشرق السامى في آسيا، لذلك وضع مؤلفة- مارتن برنال- عنواناً فرعياً "الجذور الأفريقية الآسيوية للحضارة القديمة"(1)، والكتاب كله- في أجزائه الثلاثة- ملحمة في تاريخ مصر، وأنشودة لدورها في التاريخ، وفضلها على الحضارات الشرقية والغربية على السواء.

والآن يبدو أن على كاهل الذين ينكرون تأثير الشرق في الحضارة اليونانية، أو يبخسون قيمته، من العبء، في إقامة الدليل على رأيهم، مثل ماعلى كاهل خصومهم، فالذين ينكرون إمكان قيام فكر نظرى في الشرق، وتأثر اليونانيين به، يعوذهم التقدير الكافي للحضارات الشرقية القديمة وتعوذهم الخبرة بأحوال الإنسان، وكلا وجهى هذا القصور كان يمكن الإغضاء عنه منذ قرن مضى، أما اليوم فلا عذر لأصحابه.

كما أنه من الجهل تماماً أن يحذف الإنسان دور وأثر أية خدمة يقدمها الإنسان مهما كانت، أو بدت ضئيلة، في مجالات العلوم، واستكشاف الطبيعة، والحرف، والاختراعات، وشتى المجالات الأخرى، كما أنه من المبالغة وعدم الصواب تفخيم هذا الدور أو ذاك، إلى حد نسيان الأدوار التي مهدت له، أو التي تلته، كما فعل أنصار المعجزة اليونانية، كذلك فإنه من الخطر عزل الأمور بعضها عن بعض في مجال التقييم، إن أى اختراع الآلة أو تحسين لها، يتضمن عمل البشرية كاملة، ومن ذلك، كم يظهر مجانباً للعدل والموضوعية قول من تعصب للعبقرية اليونانية، عن الدور العالى الابتكارى المحض لليونان، والدور الضئيل لسائر من سبقهم، إن الخطوة الأولى التي يخطوها الطفل عند أول تعلمه المشى

(1) **Martin Bernal: Black Athena, The Afroasiatic roots of classical civilization, Rutgers University press. New Braunswick, New Jersey, U.S.A, Vol.1, 1785 - 1985, 1987, Vol.2, 1991, Vol.3, In print.**

ليست أصغر ولا أبطأ ولا أقل أهمية ودلالة على القدرة، من عدوه السريع فيما بعد إلاّ بمنظار انعزالي جامد ومتعصب.

ونتيجة لما تقدم، نستطيع أن نقول:

إن فلاسفة اليونان ليسوا أول من بدأ الفلسفة والعلم والتجريد أو التنظير، فإنه ليس هناك وقت ولا مكان، يمكن أن يقال إنه فيهما أو معهما بدأ العلم والتفكير والتعميم، فلم يعد مقبولاً الرأى القائل بأصالة الفكر اليونانى، وبأن من سبقهم لم يصلوا إلاّ إلى طور العلم العملى فقط، ويقوى من عدم القبول هذا، ما قدمته حضارات الشرق القديمة من إنجازات في مجال العلم والمجالات الأخرى، قبل اليونان بوقت طويل.

إن البحث الموضوعي الهادئ، يؤدى إلى الاعتراف بوجود "قفزة" أو تبدل كيفي في مسار الحضارة البشرية، حصل مع مجيء الحضارة اليونانية، إلاّ أنه تبدل حدث من تجمع كمى هو حصيلة ما كسبته البشرية من تقدم قبل اليونان.

وهذا الكتاب (الفكر الشرقى وبدايات التأمل الفلسفي) محاولة نؤكد بها على تلك النتيجة التى انتهينا إليها، وهو -الكتاب- يشمل عشر فصول،

- ناقشنا فى الأول منها (الأصالة الشرقية) بين الإنكار والتأييد، وانتهينا فيه إلى أن مدارس الفكر الأوروبي العنصرية التى زعمت تفوق الجنس الآرى الأبيض، لا تستند إلى حقيقة من التاريخ، وإنما تقيم دعواها على فلسفة عنصرية عدائية دعائية، فالعقل الشرقى لا يقل عمقاً وأصالة عن العقل الغربى، وأن جميع ما يحويه التفكير الإغريقى، يبدو أمامنا على حقيقته، إذا عرض تحت ضوء العلاقات بين الشرق والغرب، ولن نقع في خطر الجهالة إذا ما عمدنا إلى جمع معلومات عن حالة (التفكير النظرى) في أهم الحضارات المحيطة بالأفق الإغريقى، وهى حضارات الشرق القديمة.

وتأتى الفصول من الثانى إلى العاشر، تفصيلاً لـ " حالة التفكير النظرى" - هذه - في حضارات الشرق القديمة.

- فيعرض الفصل الثانى (للعقيدة المصرية القديمة)، مبيناً أشكالها، وكيف أنها مظهر مرئى لقوى مقدسة مجردة، ومتناولاً موضوعين على قدر كبير من

الأهمية، في الكشف عن حالة التفكير النظرى عند المصرى القديم، وهما (نشأة العالم) و(قدر الإنسان مصيره).

- ويتناول الفصل الثالث (إخناتون) موضحاً كيف أنه يعد أول ثورى في العالم يسعى لصياغة توحيد عالمى، وكيف ثار على التقاليد اللاهوتية، منتصراً لعقيدة التوحيد، وصار بذلك أول مغرد في التاريخ يترع إلى التوحيد.
- ويكشف الفصل الرابع عن أن المصرى القديم، صاحب أقدم (تجديد اجتماعى) في العالم، فيبين معالم هذا التجديد، متناولاً بعض التجارب الحياتية التي سجلها وتركها لنا حكماء مصر القديمة، والتي تعكس وعياً اجتماعياً وأخلاقياً رائعاً.
- أما الفصل الخامس، فيُحَلل بعض معالم (الحس السياسى عند المصرى القديم)، وكيف أن الصلة بين الحاكم والمحكوم ينبغى أن يكون أساسها العدل والمساواة بين الجميع، كما يُظهرنا - هذا الفصل - على ما نشأ في مصر القديمة من وعى اجتماعى بعدم السكوت على الظلم، وضرورة أن يعود الحق إلى أصحابه، وعناية المسئولين بالنظر في مظالم مرؤسيهم وأنصافهم.
- ويجمل الفصل السادس (الأفكار الفلسفية) في حضارة مصر القديمة، علمياً وفنياً ودينياً وفلسفياً.
- ويؤكد الفصل السابع، أن بدايات فلسفية في الطبيعة والأخلاق، ظهرت في وادى الرافدين، وكان لها دورها المؤثر في تكوين الفكر العالمى.
- ويتناول الفصل الثامن (الفلسفة الهندية) موضحاً سماتها، وبداياتها، كما تبدو في التأملات المسجلة في نصوص (الفيدا) و(الأوبانيشاد) والتي تحفل بالفكر التأملى والتصورى فيما يتعلق بطبيعة النفس والواقع.
- ويُعالج الفصل التاسع منهج (البوذية) في كيفية تجاوز المعاناة وتحقيق الاستنارة، كما يلقى بعض الضوء على (جوتا ماسدهارتا- بوذا) الذي يعتبر من أوائل المفكرين الذين أعلوا من شأن العقل، وأكدوا سلطان الإنسان على أفعاله، وأن بيده وحده توجيه مصيره.

- أما الفصل العاشر، فيحلل (بدايات) الفلسفة الصينية بين كونفوشيوس ولاوتسو، مبيناً كيف أن الكونفوشية فلسفة إنسان اجتماعية، وكيف أن التاوية قد أكدت على الأسس الميتافيزيقية للطبيعة.

وقد ذيلنا الكتاب بملاحق تضمنت بعض النصوص المصرية القديمة، التي توثق للأصالة المصرية القديمة، وقيمة إسهاماتها التي قدمتها في تكوين الفكر الإنساني.

وبعد، فأسأل الحق تبارك وتعالى، أن يكون الجهد المتواضع الذي بُذل في هذا الكتاب محققا للفائدة المرجوة منه.

والله ولى التوفيق.

المعادى في: ١٤ أكتوبر ١٩٩٦م		**دكتور جمال المرزوقي.**



الفصل الأول

"الأصالة الشرقية" بين " الإنكار والتأييد"

ويشمل:

أولاً : تمهيد

ثانياً: " منكروا" الأصالة الشرقية

١- زيلر

٢- الكسندر

٣- برنيت

ثالثاً: " مؤيدو" الأصالة الشرقية.

١- سارتون

٢- هوهوز

٣- أورسيل

٤- توملين

٥- كولر

٦- "برنال" وموسوعته "أتينا السوداء" والأصل المصري -الشامي للحضارة اليونانية.

رابعاً: تعقيب.



أولاً : تمهيد:

أجمع جُلّ الباحثين في تاريخ الفكر الإنساني، أنَّ من أجل ما تركه الإنسان من أثر يتمثل بالإبداع الفكري الفلسفي، فالإنسان أمتاز عن غيره بفكره وقوته العاقلة المدركة، حيث لا حظ ظواهر الكون على اختلافها، فتصورها، وكون له فيها رأيا، ثم راح يبحث عن عللها، وعلاقاتها بها، وتأثيرها عليه، فإن فعل الإنسان هذا قلنا عنه أنه يتفلسف، بمعنى أنه فكر فيما يحيط به من ظواهر ومتغيرات، محاولاً الإجابة عنها من خلال التساؤل، عن حقيقة الأشياء وأصلها، وصلتها مع بعضها، وصولاً إلى (موقف) يشيع (الطمأنينة) في (داخل الإنسان)، ويطرد الخوف والتردد والخشية من أسرار هذه الظواهر من داخله، ويزيل شكه.

فيتفلسف هنا، يعني البحث في ماهية الأشياء وأصولها، وعلاقتها بالإنسان، وعلاقة الإنسان بها، وهذا فعل يمارسه كل إنسان راجح العقل، يدرك أن له في حياته وعلاقاته وتأثيراته، بُعداً أخلاقياً واجتماعياً وإنسانياً.

فالإنسان مفطوراً على حب الاستطلاع، هذا الاستطلاع هو الفلسفة، الذي يقوى بقوة العقل وحدته، وسعة آفاقه، ويحمل على طلب معرفة "الحقائق الكبرى" والأساسية في الوجود والحياة.

و لم تنشأ الفلسفة بمعزل عن منجزات الإنسان العقيدية والعلمية والحضارية، ولا يمكننا أنْ نفهم تلك المنجرات إذا لم نتابع الذخيرة الفلسفية للمجتمعات المختلفة، ألم يكن تاريخ الفلسفة -على رأى هيجل- هو تعبيرٌ عن تاريخ العقل والوجود، ومنطقها هو القانون المثلث الذي يحكم تجليات العقل في عالم الطبيعة، فكانت النظم الاجتماعية والفنون، والأديان، والعلوم؟[1]

فالفلسفة، إذن ملتصقة بالحضارة، ومن غير الممكن تصور قيام حضارة أصيلة دون فلسفة بمستواها إلى الحد الذي دفع جون ديوى إلى اعتبارها قوة

---

[1] هيجل: محاضرات في فلسفة التاريخ، ترجمة د/ إمام عبد الفتاح إمام، الجزء الأول، القاهرة ١٩٧٤م، ص ١٥٩، ١٦١، ٢٢٠.

تاريخية حاسمة تقترن بكل تغير يطرأ على الحضارة، واختلاف الحضارات على هذا الاعتبار، متأت من الاختلافات الفلسفية التي تنشأ بموجبها[1].

وإذا كانت الفلسفة لها هذا التأثير الضخم في حضارات البشرية، فإنه لا يمكن فصل الفكر الفلسفي عن بيئته الحضارية والتاريخية، والفكر الفلسفي،ماهو إلا حصيلة أفكار البشر خلال التطور التاريخي للإنسانية .

ونشأة الفلسفة-بهذا المعنى- صارت منذ عصور بعيدة مشكلة بين المشكلات التي تدرسها الفلسفة في محاولة للإجابة عن السؤال: أين نشأت؟ أعند اليونان أم في بلاد الشرق القديم؟

وقد انقسم الباحثون حيال هذه المشكلة- أين نشأت الفلسفة- إلى فريقين: الأول : يؤيد النشأة في بلاد اليونان، ويرى أن الفكر الشرقي لم يكن سوى فكر لاهوتي من ألفه إلى يائه!

أما الآخر، فقد رأى أنَّ هناك فلسفة شرقية خاصة ترتبط بالدين أحياناً، وتنفصل عنه أحياناً أخرى[2].

ولقد كان أرسطو أول من ردها- الفلسفة- إلى بلاد اليونان، عندما ذهب إلى أنَّ طاليس هو مؤسس الفلسفة الطبيعية، أي - على حد شرح فريمان[3] - ما هي الحقيقة وراء الظواهر ؟ أو ما هو المبدأ الأول للأشياء.

وقد أختلف الباحثون كثيراً في قول أرسطو هذا وتخريجه، لذلك نضع النص كاملاً في الكتاب الأول من " ما بعد الطبيعة" يبدأ أرسطو بتوضيح معنى الحكمة أو الفلسفة، وينتهي إلى أنها المعرفة بمبادئ وأسباب معينة[4]، ثم يوضح

---

(1) الدكتور زكريا إبراهيم: مشكلة الفلسفة، طبعة منقحة، القاهرة ١٩٧١م، ص ٢٣٦-٢٣٧.

(2) راجع مقدمة الدكتور إمام عبد الفتاح لترجمة كتاب جون كولر "الفكر الشرقي القديم" عالم المعرفة، الكويت، العدد ١٩٩، ١٩٩٥م، ص ٩.

(3) **Kathleen Freeman: companion to the pre- Socratic philosophers oxford, 1966. P.52**

(4) **Aristotle: Metaphysics A,I, 981**

·he Western world No 8 vol., Chicago 1952.

أسباب الأشياء والظواهر، فيردها إلى أربعة أسباب هي الصورية والمادية والفاعلية- سبب التغير والحركة- وأخيراً الغائية، ويقول إنه وضح ذلك في كتاب "الطبيعة"

وأنه من الخير- يستمر أرسطو- أن نستأنس برأي الذين تقحموا البحث في الوجود وفلسفوه قبلنا"[1]

" وبالنسبة للفلاسفة الأولين، فإنّ معظمهم يعتقد أنّ المبادئ التي هي من طبيعة المادة هي المبادئ الوحيدة للأشياء، والتي منها تتكون جميع الأشياء، وهي الأول الذي منه جاءت، والأخير الذي تنحل إليه الأشياء، وأنّ الجوهر باق مع أنه يتغير في أحواله، وهذا ما يقولون إنّه العنصر أو المبدأ للأشياء، ومع ذلك فإنهم - والحديث مازال لأرسطو- غير متفقين جميعهم على عدد وطبيعة هذه المبادئ، طاليس مؤسس هذا النوع من الفلسفة يقول إنّ المبدأ هو الماء (ولهذا السبب أعلن أنّ الأرض تستقر على الماء) ومن المحتمل أنه استمد الفكرة من رؤيته أن الغذاء لجميع الأشياء هو الرطوبة، وأن الحرارة نفسها تتكون من الرطوبة وتبقى حية بها. (وإنّ هذا الذى تتكون عنه الأشياء هو مبدأ جميع الأشياء) وقد استمد طاليس هذه الفكرة من هذه الحقيقة ومن حقيقة أنّ بذور جميع الأشياء ذات طبيعة رطبة، وأنّ الماء هو أصل الطبيعة الرطبة في الأشياء، ويعتقد البعض أنه حتى القدماء الذين عاشوا قبلنا بمدة طويلة قبل جيلنا الحالي، وكانوا أول من كون تصورات عن الآلهة، توجد عندهم فكرة مشابهة عن الطبيعة، لأنهم جعلوا المحيط أباً للخلق، ووضعوا القسم بالآلهة وكأنه القسم بالماء، لأن ما هو أقدم فهو يُحترم، وإن أكثر الأشياء شرفاً هو ما يقسم به بين الأشياء؛ ولسنا متيقنين من احتمال أن يكون هذا الاعتقاد من الطبيعة بدائيا وقديما، ولكن على كل حال يقال: إنّ طاليس أوضح نفسه حول السبب الأول للأشياء هكذا" [2]

---

[1] Aristo : Met, Book 103, 983b.

[2] Aristo , Ibid., 984a.

وقد أورد الدكتور كريم متى نص أرسطو هذا موجزاً في كتابه: الفلسفة اليونانية، بغداد، ١٩٧١ ص ٢٧-٢٨.

هذا النص فُهم من قِبَل بعض الباحثين المحدثين بأنه يقول بصراحة، بأنّ الفلسفة الطبيعة المقطوعة الصلة بالميثولوجيا، والتي تفسر الظواهر الطبيعة تفسيراً طبيعياً تقوم على ملاحظة الأشياء نفسها، إنما بدأت مع طاليس، وأنّ الفلسفة لم تكن لها قائمة قبل ذلك [1].

على أنّ نص أرسطو السابق يشير إلى أنّ طاليس بقوله بالماء كمبدأ أول للأشياء ربما يكون متأثراً بالأساطير القديمة القائلة بأنّ أصل الأشياء هو الماء، كما أنّ ذات النص يقترح أن يكون طاليس متأثراً بالأساطير المصرية عن أصل الخليقة[2]

ولابد أن نشير هنا إلى أنه إذا كان أرسطو في " ما بعد الطبيعة" لا يبدأ بالشرقيين كأول من تفلسف في الأشياء، بل يذكر فقط رجال الدين المصريين بخصوص الرياضيات، ولو أنه يعترف بأنهم وصلوا إلى البحث النظري المجرد لأصل اللذة، وهو مقياس التفلسف عنده، نقول إذا كان أرسطو لا يذكر الشرقيين، بل يبدأ بطاليس كأول من تفلسف، فإنه في كتابه المسمى "حول الفلسفة" On philosophy، يبدأ بالشرقيين وهو يؤرخ للفلسفة، فيذكر آراءهم باحترام[3] .

ويلاحظ بيجر نوعاً من التفسير الثنائي في ذهن أرسطو وهو- أي أرسطو يتكلم عن معنى اللاهوت Theology، فيقارن الفلاسفة اليونان قبل سقراط باللاهوتيين أي هومر[4] وهزيود[5] ويقابل بين كلمة اللاهوتيين، وكلمة فلاسفة

---

(1) Gomperz: Greek Thinkers. Vol.1 London 1906.

(2) Freeman, Op.cit. pp. 52-53.

(3) Werner Jaeger: Aristotle seconded. Oxfored 1968,pp.128-129.

(4) اختلف الباحثون فى شخصية هوميروس، فيذهب فريق إلى أنها شخصية وهمية، ويذهب آخر إلى أنها شخصية حقيقية، ولد حوالى القرن التاسع إلى العاشر ق.م، ومهما يكن الخلاف فى شخصيته، فإنه لا خلاف بين مؤرخى الأدب فى أن معظم ما اشتملت عليه الملحمات (الالياذه، والأوديسة) ألف قبل السادس ق.م.

راجع عن هوميروس : J. Drintwater: The outline of Literure, London , 1939.Vol.1.p. 28=

Vol.1. p.2off -

أيضاً - T.A. Sinclair: A History of Greek political Thought , London,

= 1959, p.1off.

طبيعيين أو كسمولوجيين، وبهذا المعنى تبدأ الفلسفة- عند أرسطو - بطـــاليس، حيث ينتهي اللاهوت بالمفكرين قبله، هذا من جهة ومن جهة ثانية يطلق أرسطو كلمة "لاهوت" بمعنى الفلسفة الأولى، أو ما عرف فيما بعد على يد تلاميذه " ما بعد الطبيعة " أو الميتافيزيقا. ويرى أرسطو أن الفرق بين الفلاسفة الطبيعيين وبين أصحاب " الثيوجينات" (أي أصحاب تفسير أصل الأشياء وتسلسل الآلهة عن طريق أسطوري) هو فرق في الطريقة فقط، كما أنه يتحفظ في إبداء رأيه بالنسبة لمحاولة البعض- وهو يقصد أفلاطون، كما يرى ييجر، - إرجاع قول طـــاليس بالماء إلى هومر [٢] .

على أن هذا التميز عند أرسطو بين الأثنيين، هذا التمييز القائم على الفرق بينهما في طريقة الوصول إلى القول بأن هذا أو ذاك هو أصل الأشـــياء، بمعنى استبعاد الفلاسفة الطبيعيين للتفسير الخرافي أو التحكمي لأولئك هو الذي دفـــع باحثي الفلاسفة الطبيعيين للتفسير الخرافي أو التحكمى لأولئك، هو الذي دفـــع بعض باحثي القرن التاسع عشر تحت تأثير حركة العقلانية إلى إضفاء صفة العلمية المحضة على الفلاسفة الطبيعيين، وقطع أية صلة لهـــم بـــاللاهوت والميثولوجيـــا،

والدكتور على عبد الواحد وافى: الأدب اليونانى القديم، القاهرة ١٩٦٠، الباب الثالث، ص ٦٥ ومـــا بعدها،

والدكتور أحمد فؤاد الأهوانى: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٤ وما بعدها.

ولد فى عام ٨٤٦ ق .م وتوفى عام ٧٧٧ ق.م، وينسب المؤرخون له قصيدتين الأولى : أنساب الآلهـــة" The Throgony، والثانية "الأعمال والأيام".

راجع : سارتون: تاريخ العلم، القديم فى العصر الذهبى لليونان، دار المعـــارف، القـــاهرة ١٩٦٣م ص ٢٩٩ فما بعد،

ديورانت : قصة الفلسفة اليونانية، جـــ٦، ص ١٨٤،

الدكتور على عبد الواحد وافى : "الأدب اليونانى القديم"، ص ٩٣،

الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى:" فجر الفلسفة اليونانية"، ص ٢٦،

(٥)

1968, pp.4-9.

والتأكيد على الجانب " الطبيعي " لتفسير أقوالهم، وبالتالي اعتبار أن الفلسفة إنما تبدأ مع طاليس، وكذلك العلم النظري[١] .

وقد مال أشياع هذا الرأي تدريجياً باتجاه فكرة " المعجزة اليونانية" و "أصالة الفكر اليوناني" و " الشعاع الخاطف" في بحر من الظلمات، حتى أصبحت النظرية عند بعضهم تعني القول بأن اليونانيين غير مدنيين في " علومهم" و" فنونهم" و " فلسفتهم" بل " وأديانهم" لشيء شرقي، وإن كان هناك أثر ما في " الفنون " و"الفلك" فإن القفزة التي قدمها اليونانيون في هذا المجال تلغى هذا الأثر وتلاشيه.

وينتهي أصحاب الصورة المتطرفة لهذا الرأي، إلى جعل علوم وفكر اليونان الطبيعيين نتاج العقل اليوناني الخالص، ولهذا الرأي أنصار كثر نذكر منهم زيلر، الكسندر، ويرنيت، وسيأتي تفصيل لآرائهم في هذا المجال .

وقد مضى حين من الدهر كان الناس لا يشكون في أن الفلسفة نشأت أول ما نشأت ببلاد اليونان، أو بعبارة أدق بأيونية المستعمرة اليونانية التي أسسها مهاجرو اليونان الأولون بأسيا الصغرى، واستمر هذا الرأي ينمو ويشتد ويستقر في النفوس كحقيقة لاريب فيها، تساعده عوامل مختلفة منها استعلاء الغربي واعتقاده نفسه خير الناس، واستخذاء الشرقي- أحياناً- وظنه السوء بنفسه، وذلك بأن للقوة أثرها غير المنكور في نفس القوى والضعيف على حدٍ سواء.

وهذا الرأي على غلوه- أو على خطئه- له أنصار كثر في الغرب، ومن العجب أن يكون له أنصار كثر في الشرق أيضاً.

وفي المقابل، يرى بعض المؤرخين القدامى مثل ديوجينس اللايرتي Diogenes Laertius (القرن الثاني الميلادي) أن أول فلسفة إنما قامت عند الشرقيين والمصريين [٢] وهذا هو رأى مؤرخين وكتاب آخرين يهود ومسيحيين

---

[١] الدكتور حسام محيي الدين الألوسي: بواكير الفلسفة قبل طاليس، أو من الميتولوجيا إلى الفلسفة عند اليونان، بغداد، العراق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦، ص ٧-٨.

[٢] الدكتور عبد الرحمن بدوى: ربيع الفكر اليوناني، ١٩٥٨م القاهرة ص ١٠، الدكتور كريم متى: الفلسفة اليونانية، بغداد، ١٩٧١م، ص ٧.

مثل فيلون وكلمنت الاسكندرى [1] ويمثل هذا الرأي من المحدثين والمعاصرين كثرة انتصرت لأصالة الفكر الشرقي القديم، نذكر منها سارتون، هوبموز، أورسيل، توملين، كولر، ومارتن برنال.

وهكذا ظهر رأيان متعارضان، إلى حدما، انعقدت السيادة للرأي الأول طوال العصور القديمة، والعصور الوسيطة، واستمر حتى نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، من أرسطو في القرن الرابع ق.م حتى برتراند رسل في القرن الحالي، ثم ظهرت بحوث جديدة كشفت عن حضارات مزدهرة، وأفكار جديدة تقترب من ميتافيزيقا الفكر الغربي، مما غير الفكرة القديمة التي غلبت الفكر الديني في حضارات الشرق.

ونعرض الآن بعض التفضيل لهذين الرأيين المتعارضين حول نشأة الفلسفة بين الشرق والغرب.

ثانيا : "منكروا" الأصالة الشرقية.

باحثون كثيرون محدثون تبعوا قول أرسطو، أن الفلسفة ترجع إلى اليونان، وأول فلاسفتهم طاليس، من بينهم، زيلر، الكسندر، وبرنيت.

١- زيلر (١٨١٤ -١٩٠٨):

يرى زيلر أن الفلسفة الإغريقية ابتكاره إغريقي لم يشاركهم فيه أحد، وأننا لا نجد عند الأمم التي قبليهم فلسفة بمعناها الصحيح القائم على التفكير المستقل عن الدين، نعم يوجد شئ يمكن أن يسمى فلسفة تسامحا عن الصينيين والهنود، ولكن اللغة المستخدمة آنذاك لم تكن ملائمة للتعبير الفلسفي، كما أن فلسفة

---

[1] فيلون: فيلسوف يهودى (٢٥ ق.م- ٤٠م) نشأ فى الأسكندرية، وكذلك كليمنت (١٥٥م -٢٢٠م)، وسيردد أقوال فيلون آخرون نشأوا فى القرن الثانى الميلادى منهم جوستين وأثينا غوراس، أنظر:

- Gilson: Hisrtory of Cristian philsosophy in the Middle Ages. New york, 1955, pp. 29, 555. Also:
- F . copleston: A Histroy of philosophy. (Burns, oates, 1950) vol.

وأيضاً : الدكتور حسام محيى الدين الألوسى مقدمة فى الفلسفة المسيحية وبواكير الأولى، مجلة جامعة الكويت، عدد (٢) ١٩٧٣م.

لاتسو Laotes هي صوفية أكثر مما هي فلسفة، ومع ظهور نظم فلسفية هندية فإنها لم تنفصل عن الدين أبداً.

ولكن فقط مع اليونان استبدلت التصورات الخرافية للعالم بنظام عقلي من الأفكار يستند على الفكر المستقل القادر على تفسير الحقيقة بشكل طبيعي [١] وقارئ زيلر لا يفوته أن يلاحظ أنه يتحدث بلغة جد قريبة من فكرة لا التفوق القائم على الجنس" فهو يتحدث عن الشعب اليوناني بأنه وحده الذي استطاع أن يسبر أغوار الطبيعة والمجتمع ونفسه بحياد العلماء، ويرى إن مما ساعد على هذا خواص يمتاز بها العقل اليوناني مثل الإحساس القوى ا بالحقيقة " والقدرة الفائقة على التجريد [٢] ؛ ومكنهم هذا من تأسيس الفلسفة وقضاياها، والفلسفة عند اليونان لا تعنى تفسيرا نظريا عقليا للعالم، بل كذلك موقفا عمليا محددا من الحياة [٣]. على أن زيلر لا يستبعد الأثر الشرقي، فهو واضح من خلال الأورفية [٤]

---

(1) Eduard zeller: Out lin of the history of Greet philosphy, London, 1963, p.2

(٢) زيلر، المصدر نفسه، ص٣ .

(٣) زيلر، المصدر نفسه، ص٣ -٤.

(٤) الأورفية : نحلة واسعة الانتشار والتأثير، تتصل بالإله دينيوس الذى كان فى الأصل من ألهة تراقية، وهو إله النبيذ والجعة أو الحمزة فيما بعد، واصبح عند الأورفية إله التضحية أى ابن الله الذى مات لينجى البشر، والأورفية نسبة إلى أورفيوس orpheus، الذى يرجع أنه رجل حقيقى، وإن كانت جل معرفتنا عنه تمت إلى الأساطير، وقد جاء من تراقية أيضا، ولكن المرجح أنه جاء – أو على الأقل حركته – من كريت، ويرجح أيضا أن أصول هذه الحركة أو النحلة تسربت من مصر إلى كريت وعنها إلى الأورفية.

راجع :

- Burnet : Early Greek philosophy, p.8
- E. Zeller. outlines of the history of Greek philosoply up 32- 33
-

والدكتور أحمد فؤاد الأهوانى : فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، القاهرة، ١٩٤٥م، ص٢٧، ديورانت : " قصة الفلسفة اليونانية"، والجزء السادس، ص ٣٣٨، ٣٤٥،

= K. reewan : acomanion to the pre-socratic philosophers, oxford. 1966.

= ويرى برنيت أن معظم الأدب الأورفى يرجع لتاريخ متأخر، وأصله غير معروف وغير موثوق بـه، وهو مشابه للأديان الهندية القديمة، وإن كان يصعب القول بوجود تأثيرهندى على الإغريق فى هذا

وهذا سبَّب ثنائية واضحة في الفكر اليوناني منذ القرن السادس وبعده، ومع أنـــه يستبعد استمداد الفلسفة الطبيعية من الأورفية والفكر الصوفي، إلا أنه يرى وجود خط مواز لها يتمثل في بعض الفلاسفة أو بعض أفكارهم.

فعند كلامه عن الديانة الأورفية يقول :

إن اللاهوت الأورفي رغم ما فيه من عناصر صوفية تميل إلى نـــوع مـــن الوحدة بين الله والكون pantheism، فإنه لم يصل إلى الخطوة النهائية في هـــذا الصدد فقد حاول أن يرى العالم وحدة يخضع لقانون ثابت ولكنه لم ينجـــح في حل مشكلة التضاد بين العقل والمادة، الله والعالم، الروح والجسم.

واللاهوت الأورفي مضاد لوجهة نظر الإغريقي عن الحياة والتي بموجبها مـا هو حقيقي هو الإنسان الجســــد المادي، بينما الروح أو النفس مجرد نـــوع من الظل أو الصورة العديمة القوة؛ أما في الفلسفة الأورفية فعلى الضد من ذلك أن ما هو باق ونمير زائل هو النفس، وأما الجسم فزائل، وحقير، وعنـــد الإغريـــق، الحياة على الأرض تحت طلعة الشمس هي الحياة الحقة، وبقية العوالم هي مجـــرد تقليد ومحاكاة كئيبة لها، بينما عند الأورفية هذه الحياة نوع من الجحيم وســـجن وعقاب، وأنه فقط في العالم الأخر بعد خلاص النفس من سجن الجسم يتحقـــق الوجود الإلهي الحقيقي الذي ينتظرنا.

الجانب (Early Greek philosophy, p.82)، ولكن زيلر (outlines, p.33) يرى أن الأورفية متأثرة بالرومانية والفيدا الهندية.

وتقوم التعاليم الأورفية على فكرة أن فى الإنسان ثنائية، والجسم ليس سوى قبر وسجن للنفـــس، والإنسان مربوط إلى الجسد، ولن ينجينا من الدنيا التى هى شرُ، ومن جسدنا إلاّ التطهير.

ويرى رسل أن من العناصر الخيرة عند الأورفيـــة تأكيدها على الجانب الصوفى الـــذى يرمـــى إلى الحصول على المعرفة بالذوق وليس بالحس وبالعقل.

والنظرية السائدة عند معظم الباحثين، ومازالت ، أن الأورفيين يمثلون خطاً شرقياً غريباً على الفكـــر اليونانى، وأنهم أثروا فى بعض الفلاسفة اليونان مثـــل الفيثاغوريـــة وهرقليطـــس وانكـــسيماندر واكسنوفان، بعد ذلك فى المثالية اليونانية فى الفلسفة بكل صورها، فى سقراط وأفلاطون، وحـــتى أرسطو، وفى كل الثنائيات المثالية فى الفلســفة إلى الوقت الحاضر.

إن هذه المضادة الكاملة للروح اليونانية الأصلية عن الحياة، وما نتج عنها من تغير في القيم خصوصا إحتقار الأورفية للجسد، مع ما صاحب هذا من زهد عملي، غريب تماما عن طبيعة الإغريق، وهو يشير إلى اصل شرقي غير إغريقي، وفى هذا الخط الصوفي وجد البعض ما يشبع بعض الحاجات الملحة في وقت ظهور هذه النحلة، وهكذا وجد الإغريقي ذو المشاعر القوية نفسه يتجه إلى الدين ويجد فيه إشباعا، ومع ذلك ظلت الثنائية التي تقول بها هذه النحلة الصوفية والتي تقسم طبيعة الإنسان إلى عنصرين متضادين، أثراً غريبا في الدم الإغريقي.

إن الإغريق في القرن السادس ق .م، والذين لم يعودوا مكتفين بدينهم التقليدي، وجدوا أمامهم مجالين : مجال التفكير والاستقصاء العقلي، والذي تبعه الأيونيون الطبيعيون، والمجال الصوفي الديني، الذي وضحت طريقة الأورفية؛ وهذان الخطان لم يكونا منفصلين تمام الانفصال، وإنما متداخلين، لأن الدين والفلسفة لهما هدف واحد عندما يتعاملان مع المشاكل الكبرى.

ويبدو أن كل تطور الفلسفة الإغريقية، ما هو إلا استمرار التضاد والجدلية، وفى وجوه مهمة، محاولة التوفيق بين الأحادية الإغريقية المحلية والثنائية الشرقية، أو بكلمة واحدة، بين " العقلانية " و " الصوفية "، وفى وقت يظهران منفصلين، وفى وقت أخر يتحدان ليكون أفكار جديدة مثمرة، إلى أن استحالت الفلسفة إلى تصوف في صورة الأفلاطونية المحدثة بعد إجهاد الفكر العقلي.

ويرى زيلر أن أصحاب هذا الاتجاه الأورفى يمثلون فجر الفلسفة والدين، وطلائع الفلسفة الإغريقية، أو الممهدون لها، والذين أسماهم أرسطو بـ (اللاهوتيين) theologies، ويعتبرها زيلر المرحلة البدائية للفلسفة اليونانية [1]

وهكذا يقول زيلر – نجد توضيحا لظهور الفلسفة اليونانية، ولكن هذا الظهور يعود بالدرجة الأولى لمواهبهم الخاصة مثل القدرة على التخيل، والقدرات العقلية والانفعالية، وقد اجتمعت كلها بشكل مثمر، وكان إلى جانب عاطفتهم وإخلاصهم شعور بالحقيقة والوضوح والنظام والاعتدال والخضوع للتعاون، سواء في السياسة أو الفن، والأغارقة أنفسهم يربطون هذا كله بمناخهم المشمس رغم عدم غنى أرضهم، كما أن الموقع الجغرافي والتجاري، ساعدهم على الاستفادة من

---

(1) زيلر **Outlines , pp . 15 - 19**

سواهم، ولكن ما استعاروه، استحال، وطور بما يتفـــق وطريقتـــهم الخاصـــة والفلسفة هي من خلقهم الخاص، حالما ساعدهم التقدم البشرى قبلهم على عبـــور مراحل الطفولة والخرافة.

وعلى كل حال فإن الثنائية التي تفصل المادة عن العقـــل، والجســـم عـــن النفس، والله عن العالم، احتلت بنجاح مكانا لها في الفلسفة اليونانية حتى في هذه الفترة المبكرة، عندما كست الفيثاغورية، الصوفية الأورفية بغطاء العلم، وأصبـــح لهذه المدرسة، بواسطة فيثاغوراس، ومن خلال تأثيرها في أبناذوقليس وأفلاطون، أكبر الأهمية للفلسفة منذ ذلك الوقت فيما بعد، الأمر الذي يؤكد وجود خطين : ديني صوفي، وآخر علمي طبيعي، عند المفكرين اليونان ابتداء من طـــاليس وأن الفلسفة اليونانية فيها الشيء الكثير من التفســـيرات الميثولوجيـــة واللاهوتيـــة، موضوعة بألفاظ فلسفية، وسياق منظم [١] .

٢- ونجد شبيها بأقوال زيلر عند الكسندر، يقول :

" إذا اعتبرنا أن الفلسفة هي البحث المنظم عن ما هية الأشياء، فإن مكانها الأصلي هو بلاد الإغريق، وبقدر ما نعرف فإن الهنود هم الشعب الوحيـــد مـــع الإغريق الذين كان عندهم ما يمكن أن يعتبر فلسفة، ولكن لا يوجد بـــاحث الآن يقترح أن الإغريق أخذوا فلسفتهم عن الهنود، بل العكس صحيح، أن الصوفية في الأوبانيشاد، والبوذية، هندية أصلية، وأنها أثرت في الفلسفة، ولكنها نفســـها ليست فلسفة بالمعنى الصحيح للكلمة " [٢] ويرفض الكسندر اقتراح أن يكـــون الأغارقة متأثرين بالعلم أو الدين الشرقي، فان علوم المصريين والبـــابليين عمليـــة

---

[١] ويكفي أن نضرب أمثلة على ذلك : صيرورة المادية وامتلاء العالم بالآلهة عند طاليس، فكرة المكـــان المخصوص للأشياء أو العناصر عند انكسيماندر، نصوص عن الآلهة عند هـــيرقليطس، توحيـــد اكسنوفان، مثاليات فيثاغورس، الهة أنبـــاذوقليس، ومبـــدأ المحبـــة والكراهيـــة، العقـــل عـــن انكساجوراس، ولا حاجة بعد ذلك للحديث عن سقراط أو افلاطون أو أرسطو أو الرواقيـــة أو الفلوطين فأمر ميتافيزيقاهم بل وميثولوجيتهم مركز الدائرة في فلسفتهم الميتافيزيقية.

(راجع تفصيلا لذلك، الدكتور حسام محيي الدين الألوسي، بواكير الفلسفة قبل طاليس، الفصلين الثالث والرابع.)

[2] A. B. D. Alexauder : Ashort history of philosophy. 3 rd Ed . Glasgow, 1934, p. 7 -8

غرضا وطريقة، أما دينهم، فصحيح أنه – وكما يقول هيرودوت – جاءت ديانة ديونيسوس والتناسخ من مصر، إلا أن أثر هذه في الفلسفة قليل، وهو يعزو هذه " الأصالة اليونانية " إلى ميزات خاصة بالشعب الإغريقي نابعة من ظروفهم الجغرافية ومجتمعهم المعقد، وهذه الخصائص هي حبهم للاستطلاع ومقدرتهم على التعميم، وحبهم الواسع والمتلون للحياة، وإحساسهم بالجمال .

مع ذلك فإن الكسندر يرى أن الفلسفة لم تنفصل عن الخرافة والدين من أول مراحلها، بل ظل الفلاسفة يعبرون عن فلسفتهم بأساليب بلاغية شعرية كسابقيهم، كما أن أفكار الفلسفة ظلت مرتبطة بالعقيدة الدينية التي منها نبعت، فلم تلغ الفلسفة الآلهة بل فسرت طبيعتهم وأعمالهم.

٣- ونأتي لـ (برنيت) أحد أكبر من يدافع عن " الأصالة المطلقة " للعلم والفكر والدين اليوناني .

يذهب (برنيت) إلى أن آراء البابليين والمصريين في تفسير خلق العالم من المادة، آراء أسطورية، وأن الشيء الذي اعتبر طاليس- والفلاسفة الطبيعيون من بعده – فلاسفة، ليس قوله بأن أصل الأشياء هو الماء، بل إثارته للسؤال نفسه: ما هو أصل الأشياء ؟ كيف نرجع الأشياء المتكثرة إلى شيء واحد ؟ أي دراسة الظواهر الطبيعية دراسة طبيعية، وعلى أساس عقلي طبيعي [١] وأنه إذا كان هنالك إقرار بوجود علوم عند البابليين والمصريين [٢]، حيث يرى وصول البابليين والمصريين إلى معرفة نظرية في الرياضيات (هندسة وحساباً)، إلاّ أنها لم تصل إلى طور التنظير أو التحديد العقلي، بل هي عملية بحتة، بينما هي نظرية وعلم بحت منظر ومجرد عند اليونان [٣].

فالذين يعتمدون على وجود هذه العلوم عند الشرقيين، يقعون في هذا الخطأ لأنهم لا يلاحظون هذا الفرق، ثم أنهم لا يميزون بين الفلسفة وهذه العلوم.

---

(1) J. Burnet : Greek philosophy, New Youk, 1988,p.16

(٢) انظر تفاصيل عن هذا فى :
- Farrington : Science in Intiquity .1936 p.q
- G.E.R. Lioyd Greek science. London, 1970, ch.1.p2
وسارتون: تاريخ العلم: العلم القديم فى العصر الذهبى لليونان، الترجمة العربية، لفيف من العلماء – دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣.
1963, p.1-10

(3) وهذا هو رأى برتراندرسل فى كتابه
1961, p.21

وعلى هذا يرفض برنيت أخذ اليونان أي عنصر فلسفي من البابليين أو المصريين أو الهنود، ويعمم ذلك إلى الرياضيات النظرية والفلك، فلا يوجد- في رأيه- كاتبٌ من كتاب الفترة التي ازدهرت فيها الفلسفة اليونانية يعترف أنها أخذت شيئاً من الشرق[1].

كما أن أوراق البردي المسماة أوراق رايند، في المتحف البريطاني تظهر- في رأى برنيت،- أن رياضيات المصريين عملية بحتة، يتعلق الحساب منها بقياسات القمح والفاكهة، وأنها تعالج مشاكل عملية مثل تقسيم عدد من المكاييل على عدد معطى من الأشخاص، أو تقسيم الحاصل على عدد من الفلاحين، أو كم هو الأجر لمجموعة من العاملين لعمل معين، وهذا يتطابق تماما مع الوصف الذي يعطيه أفلاطون للحساب المصري في كتاب " القوانين" حيث يخبرنا أن الأطفال يعلمون مع تعلمهم للحروف، كيف يحلون مسائل حول تقسيم التفاح على عدد أكبر أو أصغر من الأشخاص، وما إلى ذلك [2]، ولكن لا يوجد في حسابهم شيء مما يسميه الإغريق بالدراسة العلمية للأعداد [3] ؛ والشيء نفسه يقال عن الهندسة، حيث يخبرنا هيرودوت أنها ظهرت عند المصريين من الحاجة لقياس الأراضي الجديدة، وهذا يتفق مع ما تظهره أوراق رايند عن هندستهم، على

---

[1] ولكن يمكن ان نقارن قول برنيت هذا بنص عن محاورة فيدروس "لأفلاطون، ورغم ان هذا اسطورى فهو شهادة على وجود هذه العلوم، بل والحكمة فى مصر، والنص بحسب نقل سارتون له ص ٢٥٢-٢٥٣)، كما يلى: " سمعت- والمتكلم هنا سقراط- انه كان فى نواكريتس من أرض مصر إله من الآلهة القدماء فى تلك البلاد، وهو الذى كان طائره المقدس يسمى أيبس واسم ذلك الإله نفسه توت، وهو الذى اخترع الأعداد والحساب والهندسة والفلك والرسم واللعب بفصوص النرد. وأهم من ذلك كله أنه الذى اخترع رموز الكتابة" ويذكر سقراط أن الإله توت قال لملك مصر: " إن هذا الاختراع- أى الكتابة – أيها الملك سيؤتى المصريين الحكمة فوق ما لهم، وسيجعل ذاكرتهم خيراً مما هي عليه. لأن هذا الذى اخترعه أكسير الذاكرة والحكمة (Plato, phaidros-74c).

[2] Plato,Laws , 891, p4.

[3] J.Barnet, Eanly Greek, p.19.

عكس أرسطو الذي يعزو نشوءها إلى دافع كمالي، أي بدافع اللذة أو المتعة التي كانت تحس بها طبيعة رجال الدين المصريين [1].

ولنا ملاحظات على فهم برنيت لرأى كلٍ من أفلاطون وأرسطو في العلم المصري:

الأولى: أن أفلاطون لا يعتبر أن مستوى علوم الرياضيات المصرية، هو مستوى ما يعلم للأطفال، كما استنتج برنيت بدون حق، بل هو يتحدث عن مستوى الرياضيات التي تعطى للأطفال أول تعلمهم عن طريق اللعب والتسلية، فيقول الغريب الأثيني- أحد المتحاورون في محاورة القوانين-:

" كل المواطنين الأحرار يجب أن يتعلموا الكثير عن هذه الفروع من المعرفة، كما يتعلمها كل طفل في مصر، عندما يتعلم حروف الهجاء، وفى البلد - مصر ابتدعت الألعاب الحسابية التي يستخدمها الأطفال ويتعلموها كنوع من المتعة والتسلية، فعليهم- والكلام عن الأطفال- أن يقسموا التفاح والزهور مستخدمين نفس العدد مرة مع عدد أكبر من الأفراد، ومرة مع عدد أقل":

ويستمر الغريب الأثيني متحدثاً عن لعب مسلية أخرى للأطفال، وبهذا يمكن استخدام الحساب للتسلية وللفائدة العامة بحيث يمكن أن يتعرفوا على تنظيمات وحركات الجيوش والحاجات الأخرى، ونفس الشيء فيما يخص قياس الأشياء ذات الطول والعرض والعمق؛ " وبهذا يحررونا من الجهل الطبيعي بهذه الأشياء، هذا الجهل الذي هو مشين جداً" [2]

والكلام كله هنا على سبيل المدح للمصريين، والدليل على ذلك أن الحوار يستمر فيسأل كلنياس، وهو محاور آخر:

" ما هو نوع الجهل الذي يعنيه ؟ فيجيب الغريب : لقد سمعت أنت بدهشة بجهلنا في هذه الأشياء، ونحن كما يظهر أشبه ما نكون بالخنازير منا بالبشر، وأنني لجد خجل ليس من نفسي فقط، بل ومن الهلينيين كلهم" ويستمر سؤال كليناس :

---

(1) Aristo. Met. A,L .981, p23.

(2) Plato, Laws, Ibid, 819-819d.

" عن ماذا ؟ ويجيب الغريب الأثيني مفصلا مبينا التناقض في أقوال الأثينيين عن نسبة المقاييس لبعضها، وعدم وجود مقياس مطلق، وبالتالي ضرورة قيام الدولة بتدريس هذه الفروع ". [1].

وفي هذا، ما يدل صراحة على اشتغال المصريين بالعلوم، لدرجة أنهم يعلمون أطفالهم الحساب والهندسة، مع تعلمهم للألغاب، وهو - أفلاطون - يمتدح هذا، ويوصي بأن يكون جزء من واجب الدولة، ويعيب على الأيونيين جهلهم بهذه الأمور إلى حد انه يخجل من نفسه ومنهم.

والملاحظة الثانية : أننا إذا رجعنا إلى أرسطو متأملين ما يقوله في هذا الشأن نجده يقدم تقديرا عاليا للعلم المصري أكثر مما تقدمه الكلمات المائعة التي يشير إليها برنيت كملحض لرأى أرسطو في المصريين ؛ ففي أول الكتاب الأول من كتابه " ما بعد الطبيعة " يتكلم أرسطو عن معنى الحكمة أو الفلسفة، ويرى أن التجربة والخبرة سبب كل فن أو صناعة أو علم، والفن يبدأ عندما تعمم الخبرة الفردية، فإذا ما أفاد دواء مريضا بالتجربة فهذه خبرة، ولكن إذا وصل الإنسان إلى الحكم بأن هذا الدواء نافع لكل إنسان يصاب بهذا المرض فهذا فن، ويرى أن متعلم الصناعة أو الفن الذي يستطيع أن يعلمها للغير هو أرفع ممن بزوالها بدون أن يفهمها نظريا أو يستطيع أن يعلمها، كما يرى أنه في بداية كل اختراع أو فن، فإن المخترع هو أحكم من الإنسان العادي، ولذلك يعجب به حتى ولو كان هذا الاختراع لأغراض عملية، ويزوال مزاولة غير واعية، ولكن عندما أصبحت بعض الاختراعات لا ترمي لأغراض الحياة، بل للخلق أو الإبداع، اعتبر الأخريين، أحكم من الأولين، لأن هدف فروع المعرفة عند أولئك ليست للمنفعة، وهنا عندما توطدت مثل هذه الاختراعات اكتشفت العلوم التي لا تهدف لأغراض الحياة، بل للذة، واكتشفت أولا في الأماكن التي كان فيها الرجال يهدفون إلى المتعة أول الأمر " وهذا هو السبب في وجود فنون الرياضيات في مصر، لأن طبقة رجال الدين كانوا يتعاملون معها من أجل المتعة واللذة " وينتهي أرسطو إلى القول :

---

[1] Plato, Laws, Ibid, 819-819d.

" كل الناس يعتقدون أن ما يسمى بالحكمة Wisdom هى ما تعالج الأسباب والمبادئ الأول للأشياء، ولذلك، ووفقا لما سبق قوله، فإنه ينظر إلى أن صاحب الخبرة أحكم من الحاصل على المعرفة الحسية فقط وأيا تكن، وأن الفنان أحكم من رجل الخبرة، وأن رئيس العمل أحكم من العامل الميكانيكى، وأن النوع النظرى فى المعرفة أقرب إلى طبيعة الحكمة من النوع الإنتاجي (العملى) فمن الواضح إذن أن الحكمة هى المعرفة بمبادئ وأسباب معينة " (١)

ومن الواضح أن أرسطو يقر هنا أن علوم المصريين، هى من النوع النظرى - الذى - لا العملى الإنتاجي، ولذلك فهى أقرب إلى طبيعة الفلسفة.

هذه هى النصوص عند أفلاطون وأرسطو، وهذه هى الصورة التي تعكسها عن " علوم " المصريين، فأين هذه الصورة مما يريد برنيت أن يوهمنا أن أفلاطون وأرسطو يرسمانها؟!

ونتابع رأى برنيت حول "الأصالة والمعجزة اليونانية " فبالنسبة للفلك، يرى أن اليونانيين ربما أخذوا عناصر الفلك من البابليين، ولكن الفلك البابلى موجه لأغراض تتعلق بالتنجيم مثل قراءة الطالع وما أشبه، وليس الأمر كذلك عند اليونان، ومن جهة أخرى أن أهم تطورات تنسب للفلك القديم هى من إنتاج العبقرية اليونانية (٢)

ويلخص برنيت أقواله السابقة بالأسطر التالية :

" الخلاصة أن الإغريق لم يستمدوا فلسفتهم أو علمهم من الشرق، وعلى كل حال هم أخذوا من مصر القواعد فى المساحة، والتى بعد أن جردوها وعمموها نشأ علم الهندسة، كما أخذوا من البابليين أن حركة الأجرام السماوية دائرية، وهذه الجزئية العلمية كانت مهمة في قيام العلم لأنها عنيت للإغريق مشاكل وأسئلة أخري، لم تدر قط بخلد بابلى " (٣)

---

(1) **Arist : Meta , L . 981FF.**

(٢) راجع برنيت - **Early Greek phiosophy, p.23**

(3) **Burnet : Early , p. 24**

ولابد أننا قد ضقنا ذرعا بهذه اللغة " التفاخرية " الـــتي تنضـــح بفكـــرة الاستعلاء، وتتطلع إلى مزيد من الأدلة المفحمة لإزالة هذه الأوهام التى طالما رددها دعاة هذا التفوق، وأصحاب هذه اللغة التى تؤكد تعصبهم العنصرى.

ومن العجب أن يكون لهذه " اللغة " أنصار كـــثر فى الشـــرق، فنحـــن واجدون عن بعض مؤرخينا القدامى اعترافا بامتياز اليونـــان عـــن غـــيرهم فى الفلسفة، نجد إشارة لذلك عن ابن صاعد [1] ويقول الشهرستانى :

" فنحن نذكر مذاهب الحكماء القدماء من الروم واليونانيين على الـترتيب الذى نقل فى كتبهم، ونعقب ذلك بذكر سائر الحمكاء إن شاء الله تعالى، فـــإن الأصل فى الفلسفة والمبدأ فى الحكمة للروم وغيرهم كالعيال علهم"[2]

ويقدم البيرونى مناقشة طويلة تتلخص فى أن الهنود القدامى فيهم الخـــاص والعام واليونانيين مثلهم فى هذا، ولكن الآخرين امتازوا عن الهنود بالفلاســـفة [3] ومعظم مؤرخنيا يقولون أن طاليس - وبعضهم فيثاغورس - هو أول من بـــدء الفلسفة، يقول ابن النديم :

" قال لى أبو الخير بن الخمار بحضرة أبي القاسم عيس بن على، وقد ســـأله عن أول من تكلم فى الفلسفة فقال : زعم فورفوريوس الصـــورى فى كتابـــه " التاريخ " وهو سرياني أن أول الفلاسفة السبعة ثاليس بن مالس الأمليس، وقـــد نقل من هذا الكتاب مقالتيين إلى العربي، فقال أبو القاسم كذا هو وما أنكـــره، وقال آخرون أن أول من تكلم فى الفلسفة فيثاغورس " [4]

---

[1] طبقات الأمم، نشرلويس شيخو - بيروت ١٩١٢ ص٢٣ .

[2] الشهرستانى : الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمـــد الوكيـــل، القـــاهرة ١٩٦٨ م، جـــ١، ص ١١٨ .

[3] البيرونى : " فى تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة " حيدر أباد ١٩٥٨ م، ص ١٧ -١٩ ؛ ٢١ -٢٣، ٦٧، ١٨٠ - ١٨٣ .

[4] ابن النديم : الفهرست، تحقيق فلوجل، مطبعة الخياط، بيروت ١٩٦٤ م، المقالة السابقة فى أخبار الفلاسفة ص٢٤٥ .

ومثله عند المقدس نقلا عن فلوطرخس فى كتاب الأخير " مايرضاه الفلاسفة من الآراء الطبيعية " :

" ... وحكى عن فيثاغورس من أهل شاميا وهو أول من سمى الفلسفة بهذا الاسم، وطاليس أول من أبتدأ الفلسفة " [1]

والغريب فى هذه الكتب أنها تعزو للفلاسفة الطبيعيين أراء ناضجة، وموجدة فى اللاهوت، وأقوالا فى صفات الله وتنزهه عن المادة ... الخ [2]، فى نفس الوقت الذى تعزو لهم ما يعزى لهم عادة من أراء طبيعية كقولهم بالماء أو الهواء أو غير ذلك مما هو معروف، ويمكن أن يفسر هذا على أساس أن الدوائر المسيحية والأفلوطينية قبل مجيء الإسلام صورتهم هكذا ؛ كما أن الكتب القديمة تنسب لهم أراء فى اللاهوت - كما لاحظ بيجر - أن أوغسطين والمصادر الأخرى تجعل الفلاسفة الطبيعيين اليونان لا هوتيين وطبيعيين فى أن واحد [3].

ثالثا : "مؤيدوا " الأصالة الشرقية .

أرجع ديوجانس اللايرثى نشأة الفلسفة إلى الشرق، فى قوله : إن الاجتماع منعقد على وجود علم وتقدم لدى الشرق قبل اليونان، كما أن الشرقيين سبقوا اليونان في مجال التفكير النظرى الدينى [4]، وقد مال باحثون غربيون كثيرون إلى رأى ديوجانس هذا، نذكر منهم سارتون، هوبهوز، أورسيل، تومليين، كولر، ومارتن برنال.

١-سارتون :

عالم طبيعي .ومؤرخ للعلم فى أن واحد، ويمتاز عن برنيت وأمثاله بمسحة إنسانية، وأفق عالمى يبعده عن التعصب العنصرى، أو ما شابه اللهم إلا التعصب لما يراه حقا وليس هذا تعصبا، وقد قرنه بالدليل فى غير ما إسراف، كما يمتاز

---

[1] المقدسي : البدء والتاريخ، تحقيق كليمنت هوارد، باريس ١٨٩٩، جـ١، ص٣٦

[2] الشهرستانى فى الملل جـ١، كلامه عن طاليس ومن بعده، وكذلك ابن صاعد عند كلامه عن أمة اليونان، ومثله فى سائر الكتب الاخري مثل القفطى وابن أبي أصيبعة .

[3] oxford 1988

[4] الدكتور توفيق الطويل : أسس الفلسفة، طبقة خامسة، ١٩٦٧ م، القاهرة ص٣٦ -٣٨

سارتون شأنه شأن ديورانت بأخذه بنظر الاعتبار أهم ما قدمه الإنسان حتى فى عصوره البدائية الأولى، إلى أن وصلت أية حضارة بعد ذلك إلى ما وصلته، كما يمتاز بمراعاته لأهمية الأساطير كبداية وجذور لكثير من أفكارنا وعلومنا، واليك بعض من آرائه حول موضوعنا.

فى مقدمة كتابه [1] يؤكد أن من السذاجة القول ببدء العلم فى اليونان، ويرى أن إهمال العلم الشرقى والإطار الخرافى الذى نشأ فيه العلم القديم سبب أفسد فهم هذا العلم، يقول :

" ... ومما افسد فهم العلم القديم كثيرا من الأحيان، ظاهرتان من الإهمال الذى لا يمكن التسامح فيه، والظاهرة الأولى تتعلق بإهمال العلم الشرقى فمن سذاجة الأطفال أن نفترض أن العلم بدأ فى بلاد الإغريق ؛ فإن " المعجزة اليونانية " سبقتها آلاف الجهود العلمية فى مصر بلاد ما بين النهرين وغيرهما من الأقاليم، والعلم اليونانى كان إحياء أكثر منه اختراعا، والظاهرة الثانية، إهمال الإطار الخرافى الذى نشأ فيه العلم، لا الشرقى فحسب بل اليونانى ذاته كذلك، وكفانا سوءاً أننا أخفينا الأصول الشرقية التى لم يكن التقدم الهلينى مستطاعاً بدونهما، ولكن بعض المؤرخين أضافوا إلى هذا السوء سوءاً بما أخفوا مما لا حصر له من خرافات يونانية عاقت هذا التقدم، وكان من الجائز أن تقضى عليه، الواقع أن العلم اليونانى انتصار للمذهب العقلى، وهو انتصار يبدو أكبر.

– لا أصغر – حين ينكشف لنا أنه تم رغم ما اعتقده الإغريق من معتقدات غير عقلية، بل هو انتصار لقوة ضد قوة غير العقل، وإذن فنحن فى حاجة إلى بعض المعرفة للخرافات الإغريقية، لا من أجل الفهم الصحيح لذلك الانتصار فحسب، بل لتبرير ما وقع أحيانا من ألوان الإخفاق، ومنها الشاطحات الافلاطونية على سبيل المثال، والخلاصة أنه إذا كتب تاريخ العلم القديم بغير إمداد القارئ بمعرفة كافية بهاتين الطائفتين من الحقائق، أى العلم الشرقى من جهة والخرافة اليونانية من جهة أخرى، جاء هذا التاريخ، لا ناقصا فحسب، بل مزيفا مدخولاً كذلك " [2]

---

[1] تاريخ العلم : الجزء الأول " العلم القديم فى العصر الذهبى لليونان " ترجمة الى العربية لفيف من المعنيين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣ م.

[2] سارتون، ص٢٠-٢١ .

ويطلق سارتون على تقدم اليونان الرائع فى ثلاثة قرون " معجزة " تثير الإعجاب والحيرة، ولو أنه يؤكد مرارا إنه متصل بما قبله، وحتى الفلسفة فيه هي زهرة لسلسة طويلة من جهود ليست يونانية فحسب، فهى - وكذلك الشعر الهوميرى - نهاية لا بداية [1]

وينافس (سارتون) اشتراط " التجريد" ليكون العلم علما، ويذهب إلى أنه لا حدود للتجريد، ولا أوصاف معينة محددة له حتى نقول هنا بدأ، وإنه منذ اخترع أول إنسان أو أناس العدد واللغة كان هناك تجريد !

فالعلم بدأ حينما - وحيثما - عمد الناس إلى حل عديد من معضلات الحياة، صحيح إن هذه المحاولات الأولى لم تكن إلا وسائل لتحقيق أغراض وقتية، ولكنها كانت كافية لبدء العلم، وعلى توالى الأيام خضعت هذه الوسائل لعمليات الموازنة والتقيم والتبرير والتبسيط والترابط والتكامل، وهكذا أخذت مادة العلم تنشأ فى بطء، وهذه البدايات تافهة مضطربة، غير أن هذا لا يعيبها[2]

وقد يقال إننا لا نستطيع أن نتكلم إطلاقا عن " العلم " ما دمنا لم نصل بعد إلى درجة من التجريد، ولكن الذى سيقتبس تلك الدرجة؟ فعندما أدرك أول رياضى أن هناك شيئاً مشتركاً بين ثلاث نخلات وثلاث حمير، ماذا كان مستوى فكرته هذه من التجريد؟ ويضرب سارتون أمثلة كثيرة، الصناعات المختلفة، كالسهام والآلات البسيطة، وأمور الطبخ، والزراعة، والنقل، والطب، والرياضيات، وجزئيات ما وصل إليه الإنسان منذ عصوره البدائية، وقبل ظهور الحضارات الكبرى، قبل عصور الكتابة، جزئيات تحصى، وكل منها أدخلت عليه تحسينات مستمرة، وقد تعودنا أن نعتقد- لأننا ولدنا فى مرحلة أصبحت فيها هذه الأمور اعتيادية- إن الإنسان منذ كان، يعرف هذه الأمور البسيطة جداً

---

[1] نفسه، ص٣٤٧-٣٤٩ .

[2] وشبيه هذا قول (لويد) عن بدء العلم، الذى يؤكد مثل سارتون - وهو لاحق له - على اهمية التكنولوجيا، وتجمع الخبرة تدريجيا (- . E. R. Lioyd : Early Greek science , Lodon, 1970, P. 2 ويعرف (كروثر) العلم بأنه " نظام السلوك الذى بواسطته تسهيا للإنسان السيطرة على بيئة، وبالتالى فلا يوجد مجتمع بشرى بدون علم مهما كانت نسبة " انظر :

- G.G. crowther : the social Relation of science , London, 1967, P.1.

فى نظرنا، مع أن كل آلة من آلات القطع والنحت ، السلخ والضغط وغيرها، وكل اسم نبات، ومعرفة لخصائصه فى الأكل أو العقاقير، كل هذه الأمور استلزمت- على حد تعبير سارتون- "التعاون الشعورى، واللاشعورى لآلاف من الناس"(١).

ويفسر سارتون كيف وصل البدائى أو أول رياضى فى العالم، إلى فكرة العدد: الواحد، الأثنين.. الخ على أساس تجريدى، وفى ذلك رد على دعاة "العلم المجرد" الذى بدأ مع اليونان ! إن ظهور العدد منذ كان الإنسان، أو على الأقل منذ آلاف السنين، قبل ظهور حضارة العراق ومصر والصين الخ، يعنى نوعاً من التجريد، هو التجريد كله، لأن الخطوة الأولى هى أهم الخطوات فى كل شىء، وجميع البشر، بل جميع أنواع الحيوان الواقع تحت الأنظار ينقسم إلى ذكر وأنثى، والأب والأم وطلفيهما الأول يؤلفون ثالوثاً، وللنهر جهتان: مصعده ومنحدره، ولكن للشخص الواقف فى السهل تبدو جهات أكثر، فإذا وقف باسطاً ذراعيه انكشف لقطه أربع جهات متميزة.. لا يلبث أن تعبر هذا بكلمات أربع... وهى أمام ووراء ويمين، وشمال، ويمكن أن يضاف جهة خامسة هى المركز أى المكان الذى يقف فيه، فضلاً عن جهتين أخريين وهما السماء من فوقه والأرض من تحته، ومن هنا تنشأ تصورات الخمسية والستية والسبعية.

وأكتسب التصور الأول من هذه التصورات قوة بوجود الأصابع الخمس، وبذا كان من الطبيعى عند عد الأشياء على يد أو قدم واحدة، أن تقسم تقسيماً خمسياً، وأن توصف بأنها "كذا" و "كذا" من الأيدى، والمجموعات الأكبر من هذه- كالعشرة أو العشرين- جاءت طبيعية كذلك، ولكنها كانت أكثر صعوبة فى إدراكها، وأخذ معظم الناس - أو أن شئت فقل كلهم - هذه المجموعات العددية قضية مسلمة، و لم يعيروها تفكيرا، ولكن إذا ظهر بينهم رياضى مطبوع - وهل هناك من سبب ألا يظهر ؟ - فلابد أن يدرك وجود الأعداد، أى الأعداد المجردة المستقلة عن الأشياء المعدودة، أما اللاهوتيين وعلماء الكونيات فلعل عقولهم انبهرت بالواحد الذى تولدت منه جميع الأشياء الأخرى، أو بالاثنين

---

(١) سارتون : ص ٤٤-٤٥.

الذين يعبران عن العندية، ونجد فكرة الثنائية التى تعمقتها الديانة " الزرادشتية " متأصلة فى أعمق قرارة الضمير الإنسانى [1] .

فالدافع لهذا التقدم فى الميادين المختلفة منذ كان الإنسان، هو الممارسة، وقانون الخطأ والصواب، والإقتداء بالطبيعة، وهذه المعارف هى علم بمعنى العلم البحث، إذ لا حدود لمعنى التجريد، وإذا كان المقصود بالعلم البحت، المعرفة لأجل المعرفة، فهذا غير صادق بإطلاق، إذ لكل معرفة محتواها الاجتماعي وجانبها العملى.

وإذا كان فضل العلم البدائى هو كما قدمنا، فإن ما قدمه المصريون وسكان وادى الرافدين مؤكد، ففى الرياضيات واللغة والفلك والطب والقانون والدين، قدموا الكثير مما يحتاج توضحيه إلى بحوث لا مجرد إشارة .

ويقدم سارتون معلومات عن طب متقدم عن المصريين، ويذكر أنصار الثقافة اليونانية فيقول :

" وينبغى أن يذكر أولئك الذين يقولون بأن هيبوكراتس أبو الطب، أنه يجيئ فى منتصف المسافة الزمنية بين ايمحتب [2] وبيثا، وفى ذلك ما يكفى لتعديل منظورهم إلى العلم القديم " [3]

ويكفى أن نقارن بين تشخيص المصرى القديم لأغراض المريض، ومعرفة المرض من خلال الفحص العام والخاص للجسم، ثم الملاحظة اليومية المستمرة، ثم العلاج، والتعليقات عن تقدم المريض، يكفى أن نقارن هذا كله بما نجده فى الطب الهيبوقراطى بعد المصريين القدماء بألف سنة، لنرى مدى تقدم الطب عند المصريين [4]

---

[1] نفس المصدر : ص٥٢-٥٤، ص٥٧ وما بعدها.

[2] اقدم طبيب مصرى معروف باسمه وهو وزير الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة فى القرن الثلاثين قبل الميلاد.

[3] سارتون : ص ١١٣ .

[4] أنظر فى الطب الهيبوقراطى : كتاب لويد **Early Greek Scierce, ch. 5**
وعن الطب المصرى القديم : سارتون ص١١٤ وما بعد، وكذلك بول غليونجى، " ابن النفيس " الكويت، بلا تاريخ، الباب الثانى والثالث والرابع عن الطب البابلي والمصرى واليونانى، ص ١٥ -١٦ .

ويتساءل سارتون بعد ذلك :

" هل نستطيع أن نتكلم عن " علم " مصرى، أم هل كان ذلك تطبيبا تجريبيا عابرا وأساطير موروثة ؟ ما هو العلم ؟ أليس من حقنا أن نقول كلما حاول الإنسان حل معضلة بطريقة منهجية وفقا لترتيب سابق أو خطة، أننا أمام منهج علمى، أى إننا نشهد نشأة العلم على حقيقته، ... والمصريون لم يبدأوا العلم فحسب، بل قطعوا شوطا بعيدا فى الطريق الذى مازلنا نسير فيه " [1]

وعن فلك وادى الرافدين، ومآثرهم فيه، يقول سارتون :

" على أن سهمهم الكبير فى ميدان المعرفة الفلكية هو المعرفة العامة، إذ الواقع أنهم المؤسسون للفلك العلمى، وأن النتائج المدهشة التى حصل عليها الفلكيون الكلدانيون والإغريق من بعدهم أمكن تحقيقها بفضل استنادهم إلى الأساس البابلي [2]

وعن أهمية مسلة حمورابى، تقرأ قوله :

" وهذا القانون أقدم ما وصل إلينا من القوانين فى صورة كاملة تقريبا، وهو برغم قدمه أبعد من أن يكون شريعة بدائية، إذ ينم عن تطور طويل للفكر القانوني، ويصور لنا الناحية القانونية من العبقرية البشرية تصويرا باهرا، وهى ناحية لا يمكن الاستغناء عنها فى بناء أية حضارة " [3]

وينتهى سارتون إلى القول :

" وإنى واثق من أن الذين قرأوا ما قلته – على قصره– عن العلم المصرى والسومرى، فى أول عهده، يستطيعون أن يردوا على أولئك الأصدقاء– اليونانيين – فكثير من ذلك العلم القديم أصيل نقى جدير بالإعجاب، وبعضه أعلى مستوى من العلم اليونانى القديم، ومن الحيف أن يسرف الإنسان فى إظهار ما فى العلم الشرقى القديم من نواح لا تعتمد على العقل، وأن يقارنها بأعظم نواحى العلم

---

[1] سارتون، ص١٢٠-١٢٢ .

[2] نفسه، ص١٧٨-١٧٩ .

[3] نفس المصدر، ص١٩٢ .

اليونانى جنوحاً إلى استعمال العقل تاركاً الأسرار الدينية اليونانية وغيرها، مما لا يستند إلى العقل، دون أن يتكلم عنها " (١)

وختاماً نقول مع سارتون :

والآن يبدو أن على كاهل الذين ينكرون تأثير الشرق فى الحضارة اليونانية، أو يبخسون قيمته، من العبء، فى إقامة الدليل على رأيهم، مثل ما على كاهل خصومهم... فالذين ينكرون إمكان تأثر اليونانيين بحضارات الشرق ويعوزهم التقدير الكافى للحضارات الشرقية القديمة، وتعوذهم الخبرة بأحوال الإنسان، وكلاوجهي هذا القصور كان يمكن الإغضاء عنه منذ قرن مضى، أما اليوم فلا عذر لأصحابه .

٢- هوبهوز :

يقسم هوبهوز - وهو عالم أنثروبولوجى - المراحل الحضارية الكبرى لتطور الفكر البشرى إلى خمس هى :

١- مرحلة مجتمعات ما قبل الكتابة the pre-Literate Societies

٢- مرحلة بواكير العلم فى الشرق القديم، بابل ومصر والصين القديمة،

the stage of pre - to - science.

٣- مرحلة التأمل فى الشرق (القرن الثامن - الخامس ق.م) فى الصين وفلسطين والهند. the stage of Realection

٤- مرحلة التفكير الانتقادى المنظم فى الإغريق .

the stage of critical and systematic thought.

٥- المرحلة الحديثة ابتداء بالقرن السادس عشر (٢).

Modern World .. Aron the 16 th. C.

---

(١) نفسه، ص٢٧٣ .

(2) **Hobhouse : Mind in Evolution, london 1951, p.374 -385**

ويجعل هوبهوز هذه المراحل أربعاً فهو يدمج القسم الثالث والرابع معك أى الفكر التأملي عند الصين والهنود وفلسطين واليونان، ويعطيه خصائص واحدة، فعلى يد البراهمة والزرادشتية، وفلسفة لا تسووكونفوشيوس، احتاج العقل المستيقظ إلى نظرية موحدة عن الكون، و لم يعد مكتفيا بالتفسير الأسطوري حيث استبدلت التخيلات البدائية بتصورات عقلية محددة مبنية على تحليل وإعادة بناء الأفكار البدائية [1] وهذا له دلالة كبيرة، فهو هنا يعتبر تأملات هؤلاء وفلسفة اليونان من طبيعة واحدة، وهذا يقوى من شعورنا بأنه من الظلم حقا إصرار بعض المؤرخين الغربيين على أن التأمل الحق أو الفلسفة إنما تبدأ مع اليونان.

وعنده أن الإنسان فى (بابل ومصر) عرف المقولات، وميز بينها عمليا دون أن يسميها أو يصفها وصفا نظريا، على منوال ما نجده فى المنطق الصورى ابتداء بأرسطو، وهذا فى الحقيقة ينطبق على كل الفلسفة والعلم قبل أرسطو، ولكن ما قام به أرسطو ليس سوى وضع الإطار النظرى لما جرى الاعتراف بـه والإقرار بكامل مضمونه ونتائجه قبل فترة طويلة .

وينتهى (هوبهوز) إلى القول أنه لا العلم ولا الفكر ولا المنطق ولا الميتافيزيقا، بدأ مع اليونان، وأن أسس التفكير وضعت قبل اليونان، مثل تسمية الأشياء، تمييز بعضها عن بعض، معرفة خصائصها واستخداماتها، إدراك العلاقات فيما بينها، كذلك زاول الإنسان عمليا المقولات والمبادئ المنطقية، ووصلت فى أطوار متأخرة إلى ما يدل على إدراكه لها إدراكا تاما، يتضح ذلك فى أحكامه الخلقية، وقوانينه، وهندسته، وزراعته، وفنونه، وحرفه، وعلومه الطبيعية كالكيمياء، و لم يبق لليونان سوى وضع هذه القواعد المنطقية رسميا بشكل قوانين منطقية أو رياضية .

وكذلك، إن محاولة بناء موقف منظم " معقول" من الكون والأشياء وجد عند الصينيين والهنود وجميع الأديان الكبرى، كما أن العلوم قطعت شوطا عمليا ونظريا عند سأبقى اليونان، وليس هناك وقت ولا مكان نستطيع أن نقول أن فيه بدأ العلم لأجل العلم، أو فيه بدأ التجريد العقلى والتعميم.

---

(1) **Mind in Evolution , p.459.**

٣- يذهب - أورسيل - إلى أنّ التفكير الفلسفى ليس وقفاً على الغرب وحده، بل إنه - الغرب - مسبوق فى هذه الناحية بالشرق، كما يقرر فى صراحة أنه ليس الآن من يستطيع الاعتقاد بأنّ اليونان وروما وشعوب أوربا فى العصور الوسطى والحديثة، هم، دون سواهم، أرباب التفكير الفلسفى؛ ففى جهات أخرى من الإنسانية سطعت عدة مواطن للتفكير المجرد، وظهرت أشعتها جلياً فى شتى الأنحاء[١]

وإنه ليكفى فى الدلالة على ذلك أن نورد بعض الوقائع الساطعة الثابتة : تفجر الروح الشرقية عند الفلاسفة السابقين لسقراط وعند أفلاطون نفسه، والأصل السامى لجمهرة الفلاسفة الرواقيين والجو الدينى الذى نمت فيه الأفلاطونية الحديثة، وغزو المذهب المانوى الإيرانى الأصل؛ وإذن يكون من السذاجة الظن بأنّ كل هذا مرجعه إلى تقدم العبقرية اليونانية تقدماً منطقياً حتمياً[٢] .

وفى رأى أورسيل، أنّهُ ليس من السهل أنْ نعثر على أصل هذا اللحن، ولكن من الممكن أن نقترب من هذا الأصل، فندرك الأصول المشتركة للفكر الأوروبى الأسيوى، ونفهم كيف قامت هذه الحركة الفكرية الكبيرة، التى اتسع نطاقها فجابت العالم من أحد طرفيه للآخر؛ ولنأخذ مثلاً لهذا "ديانات الخلاص" التى نشأت ببلاد إيران، ونمت وترعرعت من منتصف الألف الأول قبل الميلاد فى أوروبا وآسيا بأسرهما، والتى لا نزال نشهد ظواهرها العديدة إلى هذا العصر الذى نعيش فيه. ويذهب - أورسيل - إلى أنّ إدراك تلك الروابط والعلاقات إدراكاً واضحاً، لايتجه الى اعتبار هذه المذاهب متماثلة عن طريق الحكم التعسفى الذاتى على الظواهر، بل يكون عن طريق الصلات التاريخية الحقيقية القابلة للمراجعة والتمحيص، فإلى جانب بعض العناصر المشتركة التى توجد هنا وهناك، يُعترف بوجود عناصر أخرى ذات طابع خاص يجعلها غير قابلة للانتقال من حضارة لأخرى، ومن قبيل هذه العناصر، ما يوجد فى اللمحات القيمة للفكر الهندى والصينى.

---

[١]، [٢] أورسيل (بول ماسون) : الفلسفة فى الشرق، ترجمة محمد يوسف موسى، دار المعارف، بمصر، ١٩٤٧، ص٥، ص٩

ففى مبدأ التفكير الهندى كانت طقوس التضحيات، ثم نظام الخلاص السائد فى البوذية الذى وجد صداه بعدئذٍ لدى البراهمة المتأخرين، وممارسة "اليوجا"؛وفى الصين كانت أنظمة إنسانية ترمى إلى ضبط. سير الفصول وشئون الدولة، والآداب الاجتماعية التى سارت على وتيرة كونية، وتصوف المذهب التاوى؛ كل أولئك ليست إلاّ قواعد عملية نشأت عنها بطبيعة الحال صور تتفق مع تفكيرهم عن العالم والآلهة، وتتطلب لتكون واضحة ضرباً من الرمزية المنطقية، ولكن تمثيل تصوير الأشياء تصويرا منطقياً يستمد كل قيمتة من الوظيفة الضرورية التى يؤديها عملياً.

واذا كان البعض قد اعترض بأنّ تلك النظم الشرقية كان حلّها أكثر صلة بالحياة الدينية منها بالتفكير الفلسفى، فإن أورسيل يجيب بأنّ كلا نوعى التفكير قد اختلط خلال عصور الإنسانية كلها، وكل محاولة ترمى الى إيجاد فاصل حاسم بينهما سيؤدى الى جعل كليهما غير مفهوم.[1]

فمنذ أقدم عصور التاريخ قامت فى جهات مختلفة جهود فى التفكير الحر؛ فالمذهب الواقعى لم يحتكر الأخلاق المستقلة، ولا الروح التى لا تتقيد بالدين، ولكن يمكن أنْ نقول قطعاً بوجه عام إنّ البحث الفلسفى نشأ على أثر الإيمان بالدين، وكثيراً، ما تولدت الأديان عن الفلسفات.

٤- يحدد توملين، فيحدد خصائص الفكر الشرقى والغربى قائلاً:

إنّ من يتناولون فلاسفة الشرق بالدراسة، بعد دراسة عميقة للفكر الغربى - لابد أنْ يسترعى انتباهم مظهرٌ واحدٌ بارز، إذ أنّه فى الوقت الذى نجد فيه عدداً كبيراً من فلاسفة الغرب، وخاصة فى العصر الحديث، يسهبون فى شرح مسائل فنية دقيقة، ويظهرون أنهم يتجنبون العموميات حول الكون باعتباره كلاً، نجد أنّ فلاسفة الشرق لم تغب عن نظرهم قط المسألة الأساسية، أى تلك التى تتناول معنى الحياة والغرض منها.

ومن أقدم التأملات الفلسفية الملازمة للفكر الهندى القديم، إلى حكماء الهند المعاصرين، استمر البحث بدون توقف لا سعياً وراء المزيد من اليقين، بقدر ما هو بحثٌ عن الحقيقة، كما أنّ هذا الانشغال لم يكن وقفاً على قلة قليلة من

---

[1] الفلسفة فى الشرق، ص١٦

الناس، لهم تفردهم وعلمهم، أو ورعهم فى كل جيل، بل فرض نفسه على عقول ملايين، ممن يعج بهم الشرق، من وجهة نظر الغرب، ومن ثم كان هذا التمييز الذى يلقى قبولاً من الجميع، بين "مادية الغرب" و"صوفية" الشرق[1]

ويرى -توملين- أنّ مايضفى على دراسة الفكر الشرقى سحره الخاص به، هو حقيقة، أنه ليس بمجرد كونه أعرق قدماً من الفكر الغربى، بل لأنه يعبر عن استمرار أبعد، وفى استعرضنا لتاريخ الفكر البشرى الطويل نلاحظ أنّ البحث الفلسفى الغربى ماهو إلاّ مجرد فرع -برغم ازدهاره- من شجرة العائلة الشرقية، وهذا بلا شك هو السبب فى أنّ المفكرين الأوروبيين أمثال شيلنج وشوبنهاور وجوته وتولستوى، قد أدهشهم، عند بدء تعرفهم على الفلسفة الشرقية، عمقها المذهل، وهى فى الواقع عميقة، وعمقها هو ذلك العمق الذى هو نتيجة أنّ لها جذورا عميقة.

٥- يدعونا (كولر) إلى أنْ نفهم الفلسفة الشرقية، على نحو ما فهمها أصحابها، بمعنى ألا نحاول أنْ نفرض علينا مفاهيم جاهزة، مستمدة من الفلسفة الغربية، إنّ علينا، كما يقول، أنْ ندرس الفلسفة الشرقية فى إطار معاييرها الخاصة.

ويذهب إلى أنّ فلاسفة الغرب يهتمون، فى بعض الأحيان، بأهم يعيشون فى أبراج عاجية، عندما يعكفون على مفاهيم مجردة بعيدة عن أرض الواقع، ويكتفون بتركيز اهتمامهم فيها، متجاهلين المسائل الكبرى المتعلقة بالحياة، أما فلاسفة الشرق، فهم - فى رأيه- قد تجنبوا هذه التهمة عندما استمر التواصل بينهم وبين مسائل الحياة، عائدين بصفة مستمرة إلى محك التجربة الإنسانية.

لكن ذلك لا يعنى أنّ فلاسفة الشرق قد ركزوا فلسفاهم ومذاهبهم على مشكلات السلوك البشرى والقيم الأخلاقية وحدها، فنحن نجد عند كثيرين منهم اهتماماً بمشكلات ميتافيزيقية أساسية.

---

[1] أ.و.ف. توملين: فلاسفة الشرق، ترجمة عبد الحميد سليم، مراجعة على أدهم، دار المعارف، مصر، ١٩٨٠، ص ١٧ من المقدمة

فهناك مدرسة ترى أنّ الذات أو النفس جوهرٌ قائمٌ بذاته، بل وتنظـــر إلى الواقع نفسه من هذا المنظور، في حين تنكر مدارسٍ أخرى فكرة الجوهر وتعتبرهـا مجرد "وهم" لا أساس له، وهناك مدارس تؤمن بأنّ الواقع مؤلفٌ من عدد هـــائل من العناصر النهائية، وهي التي يسميها -كولر- بـــ "الواقعية التعددية"، ثم تـــأتي مدرسة أخرى تفند هذه "الواقعية التعددية"، وترى أنها تنطوي على تناقض ذاتي، لأنّ الواقع هو مجرد "خواء".

هناك مدارس، إذن، ترفض "الجوهر" و "الهوية" والدوام أو الثبات، وتـرى أنّ هوية الأشياء ودوامها مسألة وهمية؛ ومن ثم فإنّ رؤية الواقع من خلال منظـور الجوهر هي زعمٌ باطل لا أساس له، لأنّ الأشياء لا تكف عن الظهور والاختفـاء، فلا هوية دائمة بين الأشياء، بل عناصر تنشأ وتتفرق، وتتوقف وتظهر وتختفـــي على نحوٍ مستمر.

وهناك مدرسة " التاو ..Tao " الشهيرة التي تجعل المبدأ الأول المطلق لكـــل شيء وجوداً لا سمة له ولاخواص، ولاتعيّن ولاتحديد، لكن الوجود الذي يخلـــو تماماً من كل سمة هو " العدم " وهكذا نجد أنّ البداية التي كانت وجوداً خالصـــاً قد تحولت إلى عدمٍ خالصٍ، فتخبرنا هذه المدرسة، أنّ الأضداد يتحول بعضـــها إلى بعض، فعندما يصلُ شيء ما، وهو يسير في اتجاه معين، إلى حده الأقصى، فإنـــه يعكس اتجاهه، ويعود الى الاتجاه الآخر، وينطبق هذا المبدأ على عالم المادة والروح على حدٍ سواء، فعندما تغدو الدنيا باردة للغاية فلا بد أنْ نتوقع أنّ عكساً للأمور سوف يقع، بحيث يبدأ الدفء في القدوم، وعندما يتفاقم الحر، يبدأ في الانعـــدام، ويظهر البرد، وهذا هو طريق الطبيعة على نحو ما نراه في تعاقب الفصول، كذلـــك عندما تكون هناك حياة، يكون هناك موت، وعندما يكون هناك موت تكـــون هناك حياة، وقُل مثلٍ ذلك في الأمور الروحية، فعندما يغـــدو شـــخصٌ شـــديد الكبرياء والغرور فإنّ الفضيحة والذل يعقبان[١].

وفي اعتقاد كولر، أنّ تراث الفلسفة الشرقية، لايقل قيمة ولا أهميـــة عـــن تراث الفلسفة الغربية، أما الزعم بأنه لا يمكن الأخذ بيد شخصٍ ما إلى رحـــاب الفلسفة إلاّ من خلال دراسة كبار المفكرين، والمشكلات الرئيســـية في الـــتراث

---

[١] راجع جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص١١-١٢ من المقدمة.

الغربى، فهو افتراض ضيق الأفق على نحو بالغ الوضوح، حتى أنّ المرء ليعجب من أنه استمر قائماً دونما تقيدٍ له بصورة كاملة تقريباً.

ويُنظر فى الغرب إلى الفلسفة، عادة، من خلال فلاسفة العالم الغربى التقليديين، ولكن ليست هناك ميزة خاصة فى فهم طبيعة الفلسفة والمشكلات الفلسفية، أنْ ندرس فلاسفة تصادف أنهم عاشوا فى نصف الكرة الغربى، فالموقع الجغرافى لا أهمية له هنا، وهناك بالطبع، ميزة فى دراسة الفلاسفة الغربيين، إذا لم يكن مقتصراً على فهم طبيعة النشاط الفلسفى، والاقتراب من مواقف فلسفية معينة فحسب، وانما استخدام التراث الفلسفى كوسيلة لاستيعاب تلك الأفكار التى شكلت الوضع الراهن للإنسان فى نصف الكرة الغربى، ولكن هناك، للسبب نفسه، ميزة فى دراسة الفلاسفة الشرقين، ذلك أنّه بالإضافة إلى تعرف المرء على طبيعة الفلسفة، فإنه يكتسب كذلك فهماً للوضع الراهن للإنسان فى الشرق.

والأسئلة المهمة المتعلقة بالحياة ليست مختلفة بالنسبة للشرق عنها بالنسبة للغرب، وأسئلة من قبيل: ما الإنسان؟ ماهى طبيعة الكون الذى يحيا فيه الإنسان؟ فيم تتمثل الحياة الفلسفية؟ وكيف يتأتى لنا أنْ نعرف أنّ الدعاوى التى ندعيها عن طبيعة الإنسان والكون والحياة الطبيعية هى دعاوى حقيقية؟ هذة الأسئلة، هى أسئلة فلسفية أساسية مشتركة بين البشر جميعا، على امتداد العالم، لأنها تثور حينما وحيثما يتأمل الإنسان فى تجربته، وتثور هذه الأسئلة، بالطبع، فى سياقات مختلفة، وتتخذ أشكالاً متباينة، بالنسبة لأناس يعيشون فى أزمان مختلفة، وأماكن شتى، وقد تختلف الإجابات فيما بينها اختلافاً كبيراً، ولكن تلك مشكلات الإنسان بإعتباره إنساناً، تنشأ من الفضول المواكب لطبيعته الواعية بذاتها، والإلحاح الفطرى لتحسين ظروف وجوده، وما من موجود بشرى يمكن أنْ يحيا دون أنْ يُمعن النظر فيها؛ وليس المهم أنْ نُجيب، أو لا نجيب، عن هذه الأسئلة، بل ما إذا كانت الردود ستكون صريحة ومدروسة، وقوية الحجة، أو مفترضة، وضمنية فى الأعمال التى تشكل تاريخ شخص بعينه واستناداً إلى الافتراض السهل القائل، بأنْ فهم هذه الأسئلة على نحو ما طرحها الفلاسفة، وتحليل الإجابات التى قدموها من شأنه أنْ يُساعد الشخص على أنْ يتفهم الإجابات التى يقدمها فى معرض الرد على هذه الأسئلة، وأنْ يقومها بشكل أفضل - استناداً إلى هذا الافتراض- يبدو جلياً أنّه من المهم معرفة الأشكال الخاصة والسياق الخاص

بالأسئلة الفلسفية الأساسية والرد عليها، لا على نحو ما تبدت فى التراث الغربى فحسب، وإنما على نحو ما تجلت فى تراث الإنسان الفلسفى بأسره.

فقصة الفلسفة هى قصة التأمل البشرى فى الحياة، ومشكلات الحياة هى نبع الفلسفة ومحك اختبارها، ولو أنّ احتياجاتنا العملية كافة تمت تلبيتها، وجرى اشباع فضولنا الإنسانى، فمن غير المحتمل أنْ يكرن هناك نشاط فلسفى، ذلك أنّ المصدرين الأساسيين، للفلسفة هما الفضول فيما يتعلق بالذات وبالعلم، والرغبة فى التغلب على جميع أنواع المعاناة؛ إذ تُفضى الاحتياجات العملية والفضول النظرى إلى النشاط الفلسفى، فالناس يتأملون ذواقم على نحو طبيعى، وليس لنا احتياجات وفضول فحسب، وإنما نحن ندرك أنّ لذواتنا هذه الاحتياجات وذلك الفضول، ونحن ننظر إلى دواتنا فى سياق ما يحيط بنا، باعتبارنا كائنات تكافح للتغلب على المعاناة، وتحاول كشف أسرار الوجود، وعلى هذا النحو فإننا نفحص أى نوع من الموجودات نكون؟ وفى أى نوع من العالم نعيش، كما نفحص مصادر القيمة والمعرفة التى تميز وجودنا، فالنشاط الذى يدور حول تأمل الذات هو ما يشكل الفلسفة.

ولكن كيف يتأتىّ لنا أن نعرف أنّ أفكاراً بعينها صحيحة؟ إنّ التفكير التأملى يضع كل فكرة موضع التساؤل، ويسعى إلى معيار يختبر به مدى صحتها، وفى غمار هذه العملية تتولد أفكار جديدة، وتُوضع موضع التساؤل، وإما أنْ تُقبل أو تُرفض، وفى سعينا لأنْ نعرف على وجه اليقين مَنْ نحن، وكيف ينبغى لنا أنْ نحيا، فإننا لا نتأمل تجربتنا فحسب، وإنما نُمحص أفكار الآخرين، الذين أمعنوا التفكير بمزيد من العناية فى أسئلة الحياة الجوهرية.

ولمّا كانت هذه هى أكثر الأسئلة أهمية، فإنّ علينا أن نتصدى لكل رد مُقترح، وأنْ نختبره بكل ما وسعنا من طرق، للتأكد من أنّه ردٌ يمكن الاعتمادُ عليه، وكل صياغة للسؤال، ولكل جانب من كل رد ينبغى فحصه من كل الوجوه، بل ينبغى التصدى بالفعل للمعايير التى تستخدم فى اختبار ردودنا، ولكن كيف نعرف متى يكون الجواب صحيحاً؟ وما المعرفة؟ وكيف نعرف أنّ ما نسميه بالمعرفة هو معرفة حقاً؟

والغرب، فى رأى كولر، مسئولٌ إلى حدٍ كبير، عن اتهام الفلاسفة فى بعض الأحيان، بأنهم يعيشون فى أبراج عاجية، متجاهلين الاهتمامات الكبرى المتعلقة

بالحياة، ذلك أننا- فى الغرب والحديث لكولر - معتادون، إلى حدٍ كبير، على النظر إلى الفلسفة باعتبارها شيئاً مستقلاً عن الحياة، مغرقاً فى التجريد، وفى الطابع الأكاديمى بالنسبة للشخص العادى[1] .

أما فى الشرق فإنَّ الهُوة بين الفلاسفة والناس العاديين، ليست على هذا القدر من الاتساع، ذلك أنَّ الفلاسفة الشرقيين يستمرون فى التواصل عن كثب مع الحياة، عائدين إلى محك التجربة الإنسانية لاختبار نظرياتهم، والناس العاديونَ يمتدون باهتماماتهم إلى ما يتجاوز حياتهم العادية، ويكافحون لرؤية الوضع الصحيح لوجودهم ولفهمه، من خلال المفاهيم الفلسفية.

ويرجع هذا الاختلاف بين الشرق والغرب، وهو على وجه اليقين أختلاف فى الدرجة، فى جانب من جوانبه، إلى التشديد الشرقى على كمال الحياة والمعرفة، ويميل الشرقيون إلى تجنُّب تجزئة وعزل الحياة والمعرفة، والنتيجة المترتبة على ذلك هى أنَّهم لايفصلون بين ميادين الفلسفة المختلفة، مثل نظرية المعرفة، ونظرية الوجود، ونظرية الفن، ونظرية السلوك، ونظرية التنظيم السياسى، فليس هناك تمييز قاطع بين الفلسفة الشرقية والديانة الشرقية، أو بين الفلسفة وعلم النفس، أو بين الفلسفة والعلم، ومن النتائج المترتبة على ذلك، الميل الشرقى إلى حمل الفلسفة محمل الجد البالغ، فهى فى الشرق ليست أمراً مجرداً متسماً بالطابع الأكاديمى، أو لاتربطه كبير صلة بالحياة اليومية، وإنما يُنظر إليها باعتبارها المشروع الأكثر أهمية وجذرية للحياة.

ونأخذ مثالين لذلك، "الكونفوشية" فى الصين، و"اليوجا" فى الهند، فالأولى أصبحت الفلسفة الرسمية فى الصين، لدرجة أنه كان من المستحيل الحصول على وظيفة حكومية دون معرفة أعمال كونفوشيوس، ويُحدثنا التاريخ الصينى عن العديد من الملوك والفنانين والمثقفين الذين كانوا فلاسفة، وينظر الصينيون إلى الفكر والممارسة، على أنَّه لاينفصل أحدهما عن الآخر، كجانبين لنشاط واحد، وتنعكس المشكلات الجوهرية للفلسفة الصينية فى هذين السؤالين: " كيف يمكننى تحقيق التناغم مع الإنسانية بأسرها؟" و" كيف يمكننى تحقيق التناغم مع الطبيعة؟".

---

[1] الفكر الشرقى القديم، ص٢٠

وكون المرء فى حالة تناغم مع نفسه قد نظر إليه باعتباره الأساس الضرورى لتحقيق التناغم مع الآخرين، وكون المرء فى حالة تناغم مع نفسه ومع بقية الإنسانية هو "الخير الأسمى" فى الفلسفة الصينية، ولما كانت الطبيعة الأساسية للإنسان يُنظر إليها، أساساً باعتبارها طبيعة أخلاقية، فإنّ السائد فى الجانب الأعظم من الفلسفة الصينية قد تمثّل فى الأخلاق؛ وتمثل فى السؤالين: " كيف يمكننى أنْ أكون خيّراً؟" و " ماهو أساس الخير؟" هما سؤالان أساسيان، على امتداد تاريخ الفلسفة الصينية.

والثانية - أى اليوجا الهندية - فتهدف إلى تحقيق التكامل المطلق للحياة، فى شكل ترويض النفس، ولكى يُتاح هذا لكل الأشخاص، فإنه يتم توجيهه عبر نشاطات العباده والتفانى، ونشاطات العمل، ونشاطات المعرفة والتركيز، ودروب ترويض النفس، هذه هى الحكمة الفلسفية، التى تناهت عبر العصور وقد وضعها الناس موضع الممارسة، ويمكن العثور على مصدر حكمة ترويض النفس هذه فى ذلك التركيب، المؤلف من التجربة الشخصية العميقة والثرية، والتفسير العقلانى المجرد إلى حدٍ بعيدٍ، الذى يميز العقلية الهندية.

وقد اعتنق الملايين من الناس فى المناطق البوذية من آسيا، تعاليم "جوتاما سد هارت" [1] الساعى وراء الحكمة، باعتبارها حلاً لكل ضروب المعاناة التى تحفل بها الحياة، والمشكلة الجوهرية لدى البوذية هى مشكلة التغلب على المعاناة، وتدور التعاليم الأساسية التى قال بها بوذا حول هذه الأسئلة: ما المعاناة؟ كيف تنشأ؟ كيف يمكن القضاء عليها؟ كيف يتعين علينا أنْ نحيا لكى نحقق وجوداً يخلو من المعاناة؟ غير أنه لا سبيل إلى الإجابة عن هذه الأسئلة، دون البحث فى طبيعة الذات التى تُعانى، وطبيعة العالم الذى يُشكّل مصدراً للمعاناة وبالنسبة للذات.

ويمكننا ذكر حالات تشابه عديدة بين مفكرى اليونان ومفكرى الهند، فالطبيعيون اليونانيون لهم أمثالهم فى أصحاب نظرية الجوهر الفرد القدماء، التى تعد

---

[1] مؤسس البوذية، وُلد فى حوالى العام ٥٥٣ ق.م.، ابناً لأحد زعماء قبيلة ساكاس، عند الحدود الجنوبية لنيبال، وقد ادرك أنّ الموت يُلقى بظلاله على الحياة بأسرها، فتحول إلى ناسك، محققاً الاستنارة تحت شجرة "بو" فى العام ٥٢٥ ق.م. وواصل نشر تعاليمه، حتى وفاته فى حوالى العام ٤٨٠ ق م.

أساساً للأنظمة الفلسفية أو الدينية فى الهند، وفلسفة هيراقليطس والفيثاغوريين فلسفتان شبيهتان كل الشبه بالفلسفة الهندية؟ الأولى بحكم فكرة التشاؤم بالمستقبل، والثانية بحكم اعتقادها بتناسخ الأرواح ورغبتها الصادقة فى الخلاص، والتصوف العددى يجعل صلة قرابة بين الفيثاغوريين والبوذيين، كما يجعل اتصالاً بين الساميين والمدرسة الأفلاطونية، وهناك فى هذين الوسطين، نجد سوفسطائيين وشكاكاً، فالأوائل ينقبون عن موارد للحجج، والآخرون ينكرون اليقين المنطقى، ولهذا يمكن أنْ يُقال عن كليهما من الكلبيين[1]، ولنضف إلى ما تقدم، أنَّ ما أثر عن أصحاب الرواق والأبيقوريين يحاكى تماماً النحل الشرقية التى تبحث عن الخلاص والسعادة بواسطة المعرفة .

وكان تأثر الفلسفة اليونانية بأديان الشرق ومعتقداته من أبرز سماتها فى هذا العصر، فعرفت الزرادشتية ونظريتها الثنائية فى الخير والشر وتفرقتها بين المادة والنفس، وعرفت عبادة ميترا إله الشمس فى فارس، ومجّده الرومان بخاصة لأنّه إله الحروب، وعرفت ديانات الهند وفلسفاتها، كذلك عرفت الثقافة اليونانية بلاد الشرق الأوسط، واشتد الصراع بينها وبين تراث اليهود والمسيحية، وانحصرت مشكلات الفلسفة نتيجة لكل ذلك فى البحث عن سعادة الفرد، ولم تُعد الأخلاق، التى أصبحت المبحث الرئيسى فى كل فلسفات هذا العصر تُفهم على النحو السابق الذى كان لها عند فلاسفة عصر أفلاطون وأرسطو، وتخلصت من ذلك الجانب السياسى والاجتماعى الذى كانت تتميز به.

وعلى الرغم من الفوارق العديدة بين فلسفات الهند والصين والمناطق البوذية من آسيا، فإنّها تتلاقى عند الاهتمام المشترك بالحياة والوجود، وكذلك بالتعليم والمعرفة، ولذلك كان للفلسفة والفلاسفة أهمية فائقة فى الثقافات الشرقية

[1] سُمّيت هذه الفلسفة بالكلبية لأنّ مؤسسها (أنتيستس) كان يتخذ من ملعب الكلب مكاناً للتعليم، ولأنّه فى رواية أخرى كان يُلقّب نفسه بالكلب، وقد كان من أشهر تلاميذ سقراط، وتتلمذ أيضاً على أشهر سفسطائيى عصره مثل جورجياس، والفضيلة عنده فى الأعمال والسلوك، وليست فى النظر، ولاتحتاج إلى علم ولا إلى هبة إلهية، ولكنها ثمرة التعود والممارسة، شاع عنه قوله إنّ الفضيلة هي الطريق الوحيد إلى السعادة، وأنها السلاح الذى لايجب أنْ نُلقى به مهما كانت الأحوال، وأنّ علينا أنْ نُحصّن أنفسنا بأسوار قوية من الفضيلة.

كافة، ومن الضرورى لفهم حياة الشعوب الشرقية ومواقفها من فهم فلسفاتها، ولفهم هذه الفلسفات من الضرورى إمعان النظر فى التراث الذى تطورت فيه هذه الفلسفات والتى تُواصل من خلاله تغذية ثقافات آسيا .

٦-"برنال" وموسوعته " أثينا السوداء " والأصل المصرى- الشامى للحضارة اليونانية:

ونصل إلى (برنال) صاحب كتاب "أثينا السوداء" الذى صدر مجلده الأول والثانى خلال السنوات الثمانى الماضية، وأثار العديد من القضايا الفكرية الهامة فى العالم الآوروبى والعربى، باعتباره من أكثر الكتب الجادة التى قوضت مفهوم " المركزية الآوروبية" وأثبتت دور الحضارات القديمة (المصرية بصفة خاصة) فى التأثير على الحضارة اليونانية، ومن ثم على الحضارة الأوروبية المعاصرة، وكثرت المقالات العربية التى تناقش أهمية الكتاب، باعتباره من الكتب الهامة التى تشير إلى العلاقة بين الحضارات القديمة، ووحدة الأصول الإنسانية .

(ومارتن برنال) صاحب الكتاب الموسوعة- أثينا السوداء- إنجليزي يعود في أصل أحد أبويه إلى اليهودية، يعمل أستاذاً فى جامعة كورنيل بالولايات المتحدة الأمريكية، درس العلوم السياسية والإدارية فى كمبردج وتخصص فى اللغات الصينية والآسيوية. وعنوان الكتاب - أثينا السوداء - فى حد ذاته- وكما يصفه الدكتور حسن حنفي[1] -جميل ودال، ويدعو إلى التفكير والتساؤل، أثينا ليست بيضاء أى أن مصدر حضارتها ليس الغرب الآرى بل أفريقيا السوداء أو الشرق الشامى فى آسيا، لذلك وضع المؤلف عنواناً فرعياً " الجذور الأفريقية الآسيوية للحضارة القديمة" [2]، والكتاب كله فى أجزائه الثلاثة ملحمة فى تاريخ

---

[1] الدكتور حسن حنفي: أثينا السوداء- أثينا المصرية، مجلة القاهرة، العدد (١٥٦) نوفمبر ١٩٩٥م، ص ١٨٠-١٨١.

[2] Martin Bernal: Black Athena, The Afroasiatic rrots of classical civilization; Rutgers Universty press. New Brunswick, New Jersy, U.S.A.
Vol.1 - The Fabrication of Ancient Greece 1785-1985-1987.
vol.2 - The Archedogical and Documentary Evidence, 1991.
Vol.3- Solving the Riddle of the sphinx, In print.

مصر، وأنشودة لدورها فى التاريخ، وفضلها على الحضارات الشرقية والغربية على السواء.

ويحاول الكتاب تأكيد الأصل المصرى- الشامى للحضارة اليونانية القديمة، وبالتالى للفكر الغربى بشكل عام، وأكد برنال فى لقائه مع المثقفين المصريين، على أن الكتاب ينصرف إلى التالى:

أن قدماء اليونان كانوا يرون أنهم استمدوا العناصر الرئيسية فى حضارتهم - مثل الأبجدية والكتابة - من مصر وبلاد الشام، وهناك روايات عدة تركها الكتاب اليونان القدماء تحكى لنا قصة علاقة قديمة نشأت بين بلاد اليونان - منذ أقدم مراحل تاريخها- وبين بلدان الشرق الأوسط، خصوصاً مصر وفينيقيا، إلا أن الأوروبين المحدثين أنكروا هذه العلاقة، وذهبوا إلى أن حضارة اليونان -وبالتالى آوروبا - كانت متأثرة بمؤثرات تأتى أساساً من مصر والشام.

وملخص ما يقوله برنال هو أن القصص الأسطورية اليونانية القديمة تحكى حكاية جماعات مصرية وسورية استوطنت بلاد اليونان منذ القدم، كما أن أسماء المعبودات والمدن اليونانية تشبه الأسماء المصرية والفينيقية القديمة.

وتبين له من دراسة اللغة العربية- التى تعتبر جزءاً من اللهجة الكنعانية القديمة وجود تشابه بين هذه اللغة وبين اللغة اليونانية، ليس نتيجة للمصادفة، وإنما نتيجة لتنقلات التجاور الفينيقيين بين المدن اليونانية، وظهر له أن هناك العديد من الكلمات اليونانية التى تشبه الكنعانية، ليس فقط فى طريقة نطقها، وإنما أيضاً فى معناها، وبعد دراسة استمرت أربع سنوات، تبين له أن ربع الكلمات اليونانية القديمة يرجع فى أصله إلى العائلة السامية للغات، ثم لاحظ برنال -عند دراسته للغة القبطية- أن هناك تشابهاً كذلك بين ربع آخر من الكلمات اليونانية، وبين اللغة المصرية القديمة، وهنا بدأ يفكر فى احتمال أن تكون الروايات اليونانية القديمة ذات الطابع الأسطورى، والتى تشير إلى أن المصريين القدماء قاموا- بالاشتراك مع الفينيقيين - باستيطان بلاد اليونان، ذات دلاله تاريخية، و ليست مجرد روايات خيالية.

وتوصل برنال فى بحثه إلى أن الهكسوس الذين سيطروا على مصر منذ أواخر القرن ١٨ ق.م، قاموا فى ذلك الوقت بمد نفوذهم إلى البلاد اليونانية، وهذا

هو السبب- فى رأيه- لانتقال عناصر الحضارة المصرية / الشـامية، إلى بلاد اليونان منذ القدم.

بعض كتابات اليونان القدماء تكشف عن اثر مصرى وشامى قـديم فى الحضارة اليونانية:

واستعرض مارتن برنال فى الفصل الأول من الجـزء الأول مـن "أثينـا السوداء" بعض الإشارات التى وردت فى كتابات اليونان القدماء، والتى تكشـف عن أثر مصرى- شامى فى الحضارة اليونانية القديمة.

أ- هيرودوت:

يذكر هيرودوت أن الفينيقيين الذين حضروا إلى بلاد اليونان مع (قدموس) أدخلوا إلى اليونان، بعدا استقرارهم فى البلاد عدداً من المنجـزات مـن أهمـها الكتابة، وهى فن- على ما أعتقد- كان غير معروف لليونان.

وتحدث كذلك عن أن اليونان أخذوا أسمـاء آلهتـهم عـن المصريـين، "ميلامبوس- فى رأيي - كان رجلاً قديراً وهو الذى حصل على فـن العرافـة، وأحضر إلى اليونان، مع تغيير بسيط، عدداً من الأشياء كان تعلمها فى مصر، مـن بينها عبادة ديونيسوس، وربما حصل (ميلاميوس) علـى معرفتـه بديونيسـوس الصورى (الفينيقى) ومن حضر معه من فينيقيا إلى البلاد المسـماة الآن بيوتيـا، وجاءت أسماء كل الآلهة تقريبا من مصر.

ب- فيثاغورس:

أغلب المعلومات التى وصلتنا عـن حيـاة فيثـاغورس ورد فى كتـاب "يامبليخوس" أحد أتباع أفلاطون فى القرن الرابع الميلادى الذى اعتمـد علـى المصادر الموجودة فى عصره لكتابة تاريخ حياته، يقول الكتاب:

أن فيثاغورس ولد فى مدينة صيدا الفينيقية، ومنذ طفولته عهد أبوه بمهمـة تربيته إلى معلم سورى، ولما بلغ فيثاغورس الثامنة عشرة من عمره رحـل للقـاء طاليس الذى نصحه بالسفر إلى مصر لاستكمال علومه هناك على يد كهنة منف، وبحسب ما جاء فى الفصل الثانى من كتاب يامبليخوس، فإن طـاليس اعـترف لفيثاغورس (بأن شهرته هو فى الحكمة جاءت عن طريق التعاليم التى تلقاها مـن هؤلاء الكهنة).

وفى مصر أمضى الشاب اليونانى - فيثاغورس- حياته متنقلاً بين معابدها، حيث درس على يد الكهنة مختلف فروع العلم والمعرفة، وتدرب على علوم الفلك وأعمال المساحة والهندسة، وتعرف على الطقوس الخاصة بجميع المعبودات.

وقد أمضى فيثاغورس أثنى عشر عاماً ما أخرى من حياته فى بابل، تعرف خلالها على الاعتقادات البابلية والفارسية، قبل عودته إلى موطنه فى جزيرة ساموس، وقد بلغ السادسة والخمسين من عمره.

وهكذا نرى أن فيثاغورس، أهم فلاسفة اليونانية فى القرن السادس ق.م ولد فى فينيقيا، وأمضى حياته طالبا للعلم فى بلاد الحضارات الشرقية القديمة خاصة مصر وبابل، ليس هذا فقط، وإنما كذلك أن طاليس - أول فلاسفة اليونان - نفسه تلقى تعاليمه فى مصر، على يد كنهة منف.[1]

جـ- سقراط:

ويؤكد لنا سقراط ما جاء فى كتاب يا مبليخوس عن الأصل الشرقى للفلسفة اليونانية، فهو يذكر " أن المصريين يعيشون كشعب واحد، لا يهملون ممتلكاقم ولا يتآمرون للحصول على ممتلكات الآخرين، وإذا رغبنا فى تطبيق قوانين المصريين التى تقضى بان يعمل البعض، ويقوم الباقون بحماية ملكية العاملين، فسوف يمكننا جميعا تملك أمتعتنا وقضاء أيامنا فى سعادة " .

ويتحدث سقراط هنا عن المزايا التى تحققت للمصرين عندما تم توحيد بلادهم وتكوين حكومة مركزية واحدة، فقد أدى هذا إلى إمكان التخصص وتوزيع العمل، بحيث يمكن زيادة الإنتاج، مما أتاح الفرصة أمام الحكومة لتنفيذ مشروعات ضخمة، كما وفر الفرص أمام عدد منهم للتفرغ لتحصيل الدراسة والعلم، الذى أصبح هو جوهر التقدم الحضارى بعد ذلك.

ويتابع سقراط حديثة قائلا :

" إن المصريين يقومون بتدريب فلسفى للروح لمتابعة القدرة، ليس فقط على إنشاء الشرائع ولكن للبحث فى طبيعة الكون كذلك، وتستحق تقوى المصريين بصفة خاصة وعبادقم للآلهة الثناء والإعجاب ... فكل هؤلاء الرجال

---

(1)_

1957 pp. 199-200, p.203

الذين أفسوا رهبة الآلهة فى البداية – فى الواقع – جعلونا نختلف عن علاقاتنا مع بعضنا البعض عن الوحوش المفترسة، وأكثر من هذا هو الورع الكبير والجدية التي يتعامل بها المصريون أكثر إلزاما مما لو تم فى مكان أخر – بل إن كل شخص منهم يؤمن بأنه سيدفع جزاء سيئاته فورا، وأنه لن يتمكن من الهرب من اكتشاف أمره " .

ويمضى سقراط ليحدثنا عن فيثاغورس وما جلبه من مصر من العلوم الفلسفية، ففى رأيه، أن فيثاغورس، في زيارته إلى مصر، كان هو أول من جلب كل الفلسفة إلى اليونان، وأهتم هو نفسه بشكل أكثر وضوحاً من الآخرين، بالأضحيات وبشعائر الطهارة، لأنه اعتقد –حتى لو لم يحصل بهذا على ثواب كبير من الآلهة– بأن سمعته ستزداد عظمته بين الناس فى كل الأحوال، وهذا ما حدث له فعلاً، فهو تفوق على الآخرين فى سمعته إلى درجة كبيرة، حتى أن كل الشباب رغبوا فى أن يصبحوا تلاميذه .[١]

د– أفلاطون:

مما لاشك فيه أن أفلاطون (٤٢٧–٣٤٧ ق.م) هو أهم الفلاسفة اليونان على الإطلاق، وأول مفكر غربي يكتب فى الموضوعات الفلسفية الخالصة، وإن كانت السياسة هي التي شغلت اهتمامه في البداية، كتب عن ما وراء الطبيعة، والمعرفة، والمنطق، والأخلاق، والسياسة، واللغة، والفن، والحب، والرياضيات، والعلم، والدين، وجاءت كتاباته كلها على شكل حوار بين شخصيات عدة أهمها شخصية أستاذه سقراط.

وتقول مصادر قديمة أنّ أفلاطون زار مصر عام (٣٩٠ ق.م) – بعد تسع سنوات على إعدام أستاذه سقراط – وقضى فترة من الوقت هناك يتحدث إلى الكهنة، وبعد عودته إلى أثينا حدث تطورٌ أساسي في فكره، فأصبح يناقش قضايا فلسفية مختلفة عن القضايا الاجتماعية التي اهتم بها سقراط، فتحدث عن انفصال الروح، ووجودها المستقل عن الجسد، في محاورته "فيدون" وفي "تيماوس"، يناقش

---

(١) راجع: .: Richmaond, W.R .: Scocrates and the Western Worled . London - 1954.
- Xenophone : Memorabilial, p.3-8,It , 2,v.5,1.

أفلاطون مسألة خلق الكون، والسبب أو المحرك الرئيسي له، إلاّ أنّ أهم أعمال أفلاطون كلها هو محاورته "الجمهورية"، حاول فيها تحديد معالم المدينة الفاضلة.

والموضوع الرئيسي فيها هو: ما هي طبيعة الفضيلة؟ وماهي أفضل طريقة لتنظيم المجتمع البشري؟ وتحديد ماهية الفضيلة عنده يكون داخل العلاقات الاجتماعية وليس في عزلة عنها، وهو يقسم الكيان الاجتماعي إلى ثلاث طبقات رئيسية، وبينما تقوم غالبية المواطنين بعملية الإنتاج، فإنّ هناك من يتولى مهمة الدفاع عن المجتمع في مواجهة الأخطار الخارجية والداخلية، كما أنّ هناك من يتولى حكم الجماعة وقيادتها.

ولكلٍ من هذه الطوائف الاجتماعية الثلاث، قواعد خاصة تنظم سلوكها، فيكون على المنتجين الطاعة، ويتصف الجنود بالشجاعة، أما الحكام فهم يحكمون بالحكمة والمعرفة الفلسفية، ويربط بينهم جميعاً رباط العدالة، لتنظيم العلاقة بين مختلف الطبقات والفئات. [1]

وقد لاحظ الباحثون وجود تشابه كبير بين وصف أفلاطون للمدينة الفاضلة في كتابه عن الجمهورية - خصوصاً في تقسيم المجتمع إلى طبقات، وقيام الفلاسفة بدور الحكام في المجتمع المثالي - وبين ما كتبه سقراط في وصف المجتمع المصري القديم، الذي كان ينقسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية: قسم العاملين سواء في فلاحة الأرض أو الحرف، وقسم الجيش والقوات العسكرية المسؤولة عن حماية البلاد من الاعتداءات الخارجية، وحماية النظام في الداخل، وقسم الكهنة الذين يشرفون على طقوس العبادة، وهم الذين يتلقون العلم والمعرفة، ومنهم العلماء والمهندسون والكتبة والموظفون، وهم الذين يتولون إدارة البلاد تحت إشراف الملوك، بل إنّ أحد الكتاب اليونان القدامى ويسمى كرانتور" كتب بعد فترة وجيزة من وفاة أفلاطون يقول:

"كان معاصرو أفلاطون يسخرون منه ويقولون إنه ليس من ابتكر جمهوريته، وإنما اقتبسها من النظم المصرية.

---

[1] راجع: أفلاطون: الجمهورية ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، دار الكاتب العربي، ١٩٦٨م، الدكتور فؤاد زكريا: دراسة لجمهورية أفلاطون، دار الكتاب العربي، ١٩٦٨م).

- Taylor, A.E.: plato, The Man and his works, 1952.
1940.

كما قال ماركس في العصر الحديث في الجزء الأول من كتابه "رأس المال":

"إنّ جمهورية أفلاطون، في ما يتعلق بمعالجتها لقضية تقسيم العمل على أنه المبدأ المكوّن للدولة، ماهي إلاّ تصور أثيني خيالي لنظام الطبقات المصري".

من الواضح إذن أنّ أفلاطون – وهو أهم الفلاسفة اليونان إطلاقاً – في جمهوريته، التي هي أهم أعماله، تأثر بالنظم والاعتقادات المصرية القديمة.

وقصة زيارة أفلاطون لمصر هي قصة متواترة بين القدماء، لم يحاول واحدٌ منهم التشكيك فيها أو إنكارها، وما يؤكد هذه الزيارة هو ما ذكره أفلاطون نفسه عن نماذج الفن المصري القديم من رسم ونحت، والذي لا يمكن أنْ يصدر إلاّ عن شخص أتيحت له فرصة الإطلاع شخصياً على نماذج عدة منه، بل ومن مراحل تاريخية مختلفة، فقد تحدث (أفلاطون) عن الفن المصري القديم في محاورته (القوانين) [1] قائلاً، إن المصريين قاموا بعمل "قائمة تحتوى على نماذج موحدة من الرسومات"، يتبعها الرسّامون في أعمالهم ولا يخرجون عنها، ولهذا فإن من يشاهد رسوما لهم القديمة يجد أنها لا تختلف في أي شئ عن رسوماتها الحديثة، (أي في عصر أفلاطون نفسه خلال القرن الخامس ق.م.)، فهي تقوم على أساس فني واحد، وفي مصر، تم وضع أسس ثابتة غير متغيرة لتنظيم الألحان الموسيقية "عن طريق القانون"، وذكر أنّ هناك قواعد جمالية رياضية مطلقة ثابتة – تنتمي إلى العالم الإلهي المقدس– يجب التعرف عليها وتقنينها حتى يلتزم الجميع بإتباعها، وهي تؤدي إلى تقدم الفن والمعرفة.

كما تظهر دراسة تاريخ الفن المصري أنّ المصريين كانوا يعتقدون أنّ الفن الذي يقوم على نظام دقيق من النسب والأبعاد، إنما هو يعبر عن شكل سامي مطلق دائم الوجود، لأنّه يُعبر عن نظام الكون وليس عن مظهره ولهذا رأى أفلاطون أنّ الفن المصري لا يحاول محاكاة الطبيعة في مظهرها، وإنما يسعى إلى التعبير عن الحقيقة الخفية وراء هذا المظهر، فالفن عنده يجب أن لا يعبر عن العالم الذي نراه بأعيننا، ولكن عن الوجود الكوني الذي ندركه عن طريق التحليل الفلسفي والعلمي، وأصر على ضرورة أن يكون العمل الفني جميلاً، فالجمال

---

(١) Orient, Revue de Philologie 1947, p.5-45 - Festugi

شرطٌ أساسيٌ عنده في الفنون، إلاّ أنَّ هذا المفهوم يتفق تماماً مع الفنانين المصريين الذين يرون أنَّ الجمال الحقيقي هو جمال الروح والفكر وليس جمال العالم المحسوس [1]

وهكذا يتبين لنا من تعليقات أفلاطون على الفن المصرى، ليس فقط أنه لابد واطلع على العديد من نماذجه شخصياً، بل وتعرف على الطريقة الحرفية التى اعتمد عليها المصريون فى تنفيذ أعمالهم الفنية، مما لا يدع فرصة لإنكار الروايات التى تواترت على التأكيد بأنه زار مصر وقضى بها بعض الوقت، وهذا يدحض إصرار الباحثين الغربيين الآن على عدم ذكر رحلة أفلاطون بالذات إلى مصر، عند الحديث عن حياته ومصادر معرفته، بل إن بعضهم يذهب إلى حد إنكار هذه الواقعة صراحة، ولا يخفى علينا أن السبب فى ذلك الإصرار - على التشكيك فى هذه الزيارة وإنكارها- هو أن فلسفة أفلاطون تمثل القاعدة الأساسية التى قامت عليها حضارة الغرب المسيحى منذ عصر الرومان، وحتى وقتنا هذا، فلوثبت أنه تعلم أفكاره من مصر لانهارت الحجة التى يستندون إليها للقول بتفوق العقل الآرى، وتخلف الشرقيين، لهذا كان من الضرورى لأصحاب النظريات العصرية الحديثة رفض وجود أية علاقة بين أفلاطون ومصر، حتى يصح ادعاءهم الكاذب بتفوق الرجل الأبيض[2]

وهكذا يؤكد برنال - من خلال بعض الإشارات التى وردت فى كتابات اليونان القدماء - على وجود أثر مصرى-شامى فى الحضارة اليونانية القديمة، فقد اعترف المؤرخون اليونان أنفسهم بفضل الشرقيين عامة ومصر خاصة على اليونان، وتتلمذ فلاسفة اليونان مثل فيثاغورس وأفلاطون على أيدى المصريين.

إن بعض الأفكار التى اعتماد البعض أن ينسبها إلى الحضارات التى أعقبت الحضارة المصرية، شبق لها أن رأت النور قبل ذلك بأكثر من ألف سنة وأن الكثير من الفلاسفة اللاحقين لم يفعلوا أكثر من ترديد، أو العودة إلى بعض الخواطر الحيوية التى ومضت فى مصر القديمة.

---

(1) راجع: 1857

أفلاطون، محاورة "فايدروس"، ترجمة الدكتورة أميرة حلمي مطر، دار المعارف، ١٩٦٨م.؛ الدكتورة أميرة حلمي مطر: الفلسفة عند اليونان، دار النهضة العربية، ١٩٧٧م، ص٢٣٣ وما بعدها.

(٢) أحمد عثمان، الحياة، لندن، ٧ يونيو ١٩٩٦م ٢١ محرم ١٤١٧ هـ العدد ١٢١٥٦، ص ٢١

لقد نحت المصريون ورسموا أو لونوا عالما متنوعا من النصوص، إن أفخم العمائر وأبسط أشياء الحياة اليومية، تشهد جميعها على حد سواء على أقدم فكر عبر عنه البشر فى لغة موضوعية، تخاطب العين، كما تخاطب العقل، وصاغها شعراء الطبيعة، ومن ثم تعرض على عقولنا وقلوبنا، ثلاثة آلاف سنة من تاريخ العالم، ثلاثة آلاف سنة من الفكر الذى يفيض ورعاً مقدساً، ثلاثة آلاف سنة من فى ذى مواضيع ميتافيزيقية .

لم تعد مصر القديمة فى أعيننا فى الوقت الراهن ظاهرة معزولة لمجرد جهلنا بها، بل عادت لتحتل مكانها البالغ الأهمية فى ملحمة تاريخ العالم، ولأنها تستمد أصولها من قلب القارة الأفريقية، ومن ما قبل التاريخ الآسيوى على السواء، فإنها فى جانب منها، هى أم الحضارات المعروفة بالحضارات الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) فهى تسبقها وتلقى عليها ضوءاً جديداً[1] .

---

[1] كلير لالويت: نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة " الترجمة العربية ماهر جويجاتى، مراجعة، الدكتور طاهر عبد الحكيم، دار الفكر القاهرة-باريس، المجلد الأول، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٦م . ص ٢١-٢٢ من المقدمة.

وحول هذا المعنى يقول (بيير جريمال) Pierre Grimal:

"علينا نحن أهل الغرب أن نسلم بأن كل ماف الثقافة الإنسانية ليس من إبداع الإغريق والهللينية، إن دورهم هو من الأهمية بمكان حتى أنه لا يحتاج إلى مزيد من الإضافات، وقد أشادوا هم أنفسهم بالحكمة المصرية، وكانوا يعلمون أكثر منا عما يتحدثون، فعلى مر الزمان، أثارت حضارة مصر والبلد التى ازدهرت فيه هذه الحضارة فضول القدماء (والإغريق والرومان، هم قدماء العالم الغربى)، إنها بداية (السر المستور)، وكان يلمح بالطبع، واجهتها المطلة على البحر، ويعرف أنه قد اقترب منها، من لون الماء الذى صبغه النيل المحمل بالطمى "[1].

لهذا فنحن نرى أن مدارس الفكر العنصرية التى زعمت تفوق الجنس الآرى الأبيض، لا تستند إلى حقيقة من تاريخ، وإنما تقيم دعواها على فلسفة عنصرية عدائية دعائية، وبالطبع فإن مثل هذه الفلسفات التى لا تستند إلى جوهر حقيقى من الأدلة لا تدوم طويلاً ومصيرها إلى نهاية محتومة، وما موسوعة برنال عن "أثينا السوداء" سوى محاولة من بعض المفكرين الغربيين لنقض الفكر الآرى" المتعصب، إلا أن هذه النظريات الاستعمارية لن تنتهى إلا إذا عاد الإنسان الشرقى إلى الإمساك بزمام العلم والمعرفة من جديد، فهذا هو الدليل القاطع على أنَّ الحضارة الشرقية لم تمت بعد، وإنما تعود فى بعثٍ جديد.

رابعاً: تعقيب:

إضافة إلى ملاحظاتنا التى سبق ذكرها، خاصة أثناء حديثنا عن الذين تعصبوا للعقلية الغربية منكرين دور وقيمة التراث الشرقى القديم، لنا وقفتان:

الأولى:

ليس هناك حدٌ بدأ عنده التجريد أو التنظير، ذلك أنه- بالنسبة للإنسان يمكن التأكد من أنه منذ نطق يكون جرد، على أساس أن الكلام عبارة عن تجريد

---

[1] ص ١٢-١٣ من التقديم لكتاب كليرلاويت " نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة"، المجلد الأول.

للواقع، وهو يقوم بدور وسيلة للتعميم والتجريد[1] ، فكلمة (الفرجار)- مثلاً - لا تعنى فرجاراً بعينه، مع ما يلزمه من خصائص فردية، بل الفرجار على العموم، أى نموذجاً أو جنساً معيناً من الأشياء، سواء أكان طوله ١٤ أو ١٥ أو ١٦ سم، سواء أكان مصنوعاً كله من المعدن أو صنعت بعض أجزائه من البلاستيك... الخ والقول ذاته ينطبق على الكلمات الأخرى.

ومع هذه الخاصية للكلام، يرتبط تكوين المفاهيم واستعمالها، أى التفكير النظرى، " فبفضل الكلام بالذات، أصبح بإمكان الوعى استعمال لا ما تقدمه الإحساسات فى وقت معين فحسب، بل وما قدمته فى السابق، وما يمكن أن تقدمه فى المستقبل، وبفضل ذلك نشأت إمكانية فصل خاصة الشيء ذهنياً، عن الشيء ذاته، إمكانية تجريد بعض خواص الأجسام عن بعضها الآخر، مما وسع كثيرا نطاق المعرفة[2] .

ولقد أزدادت قدرة الإنسان على التعميم عن طريق اللغة تدريجياً، وكانت هذه القدرة عند الإنسان البدائى هزيلة رغم بدئه بالكلام.

وبفضل قدرة الإنسان على التجريد يستطيع أن يخاطب إنساناً آخر، وأن ينقل إليه بالكلمات مضمون أفكاره، أى أن يمارس عليه الفعل، ويلعب التعميم وتبادل الأفكار دوراً فى حفظ التجربة المكتسبة، ونقلها، وفى تنمية الفكر والمجتمع، وكل فرد بعجز لوحده جسمانياً أن يعانى مباشرة، ويدرس جميع مواضيع الواقع، وجميع ظاهراته، وتوجد ظاهرات لا نستطيع إدراكها مباشرة مثل الأحداث الماضية للحياة الاجتماعية، ولكننا نستطيع معرفتها بواسطة الكلمة المكتوبة (الوثائق) والرواية الشفهية.

فالإنسان -يمتلك، لا نتيجة جهوده الشخصية وحدها، بل -بمساعدة اللغة والنطق- المعارف المكتوبة والمتراكمة خلال أجيال، وتعتبر هذه المعارف- معارفنا بواسطة النطق.

---

[1] جارودى (روجية): "النظرية المادية فى المعرفة" تعريب إبراهيم قريط دار دمشق ـبدون تاريخ)،ص ٢٣٠

[2] جاوردى: "النظرية المادية فى المعرفة"، ص ٢٣٨.

وهذه المعارف المكتسبة بالنطق كانت نتيجة للتجربة المباشرة، التي عبرت عنها الأجيال قبلنا، وتثبيتها بالنطق، وهكذا يتحرر كل جيل بفضل اللغة من ضرورة قطع الطريق الطويل مرة ثانية، طريق البحث الحقيقة، الذى قطعته الأجيال السابقة، ويبدأ آخر حيث انتهى سلفه، وهكذا يتم نمو المعرفة التدريجى[1].

فالمفاهيم هى تعميم تجربة الناس المغرقة فى القدم فى جهدهم لعكس الواقع الموضوعى، من خلال ممارسة الناس الاجتماعية والإنتاجية وينتج عن ذلك أن المفاهيم غير العلمية، أي المفاهيم التي تعكس العالم بشكل مشوه، تجهر بالتتابع، كما تبدلت مفاهيم الناس عن المادة أو الذرة مثلاً منذ ديمقرايطس حتى اليوم، وكذلك عن المفاهيم الخاصة بالفيزياء، وسائر العلوم، وكذلك مفهوم الزمان والمكان، والمفاهيم المتعلقة بالعلوم الاجتماعية.[2]

وهكذا يتضح لنا أنّ الإنسان منذ نطق يكون جرد، فكل كلمة هى تجريد، وكل تجريد هو سلسلة من الممارسات العلمية الطويلة، وسلسلة من العمليات العقلية العليا، كالتحليل والتركيب، وبالتالى يتأكد خطأ ادعاءات أبتدأ التنظير والعلوم النظرية مع اليونان.

وعلى العكس فإنّ ما قدمه الإنسانُ قبل اليونان، هو كالمحيط بالنسبة لما قدمه اليونان، فخلال مئات الألوف من السنين، من خلال العمل والممارسة العملية والمتكررة، وصل الإنسان إلى مجمل إنسانيته، إلى اللغة والآلة، وإلى المجتمع، إلى معظم الصناعات والحرف والممارسات الحياتية كالصيد والتجارة والزراعة، وألوان أخرى كالحياكة والحدادة وبناء المساكن وأعمال الري، والتعدين، وشتى أمور المجتمع، ونظمه وعاداته، وقوانينه وأعرافه وقيمه وسائر العلوم والفنون، وسائر قابليته الفكرية العليا، كالأحكام العقلية والمبادئ المنطقية والرياضية وسواها، ومن الغلط الشنيع بعد هذا أن يدّعي مُدع أن العلوم بدأت، وكذلك سائر الفنون.. الخ مع اليونان، أو أنّ ما قدمه هؤلاء معجزة تستعصي على التفسير.

---

[1] نفسه، ص ٢٤٠ فما بعد.

[2] جارودى: ص ٢٨٧،٢٦٧.

إنّ هذه النظرية المستعلية الخاطئة تماماً، متأتية بالدرجة الأولى، من اعتبار أنّ العلم والفكر والحضارة الجديرة بهذه الأسماء، لا تتمثل إلاّ في بناء الفلسفات المثالية، واحتقار الواقع، والاستعلاء على العمل، وتقسيم ما ينتجه الإنسان إلى عمل يدوي حقير، وآخر نظري جليل مقطوع الصلة بالأول، إنّها نظرة متأتية، وبالتأكيد من جهل أصحابها بالتسلسل التاريخي لبناء المعرفة والعلم من خلال العمل وحياة الناس الاجتماعية بواسطة النطق، إنما نظرة متأتية من بناءات خاطئة لتفسير المعرفة البشرية، تقوم على الثنائية الحادة بين العقل والجسم، والعقل والعالم الخارجي، واعتبار العقل فطرياً، ثابتاً، مطلقاً، ومستعلياً عن التجربة والعمل، والعالم الخارجي.

والحقيقة أنّ أي تنظير أو تجريد ذهني، إن أي بناء عقلي، يتقوم ويتعدل- كما يقول الدكتور الألوسي [١] - من خلال التجربة، والممارسة الحياتية، كما أنّه ينبع أساساً من هذا الأساس، إنّ أي عمل يتضمن جملة معقدة من المفاهيم والأحكام والعلاقات العقلية العالية، كما أنّ أية معرفة لشيء لا تتم إلاّ من خلال العمل، من خلال ممارسته واختباره مباشرة عن طريق ممارسته.

وحول هذا المعنى يقول الدكتور فؤاد زكريا:

" ... ولقد أحس الفلاسفة والمفكرون من عهدٍ قريب نسبياً منذ حوالي قرن ونصف من الزمان، بأنّ الفكر المُجرد لابد أنْ ينتهي إلى طريق مسدود، وظهر لديهم وعيٌ واضح بأزمة الفكر الخالص". وأنه قد تأكد "ثبوت عجز العقل في مجاله النظري الخالص عن الانتهاء إلى رأي قاطع حاسم في المشكلات الأساسية التي ظلت الفلسفة تشغل نفسها بها حتى ذلكَ الحين، والتأكد من أنّ الحل لهذه المشكلات إنما يكون في المجال العملي، لا النظري، وهذا العامل كان نتيجة جهود مجموعة من كبار الفلاسفة على رأسهم إيمانويل كانت [٢].

ولابد أنّ المقصود هنا، بعجز العقل، "العقل التأملي"، إنّ مشكلات الميتافيزيقا مشكلات لا تُحل إلاّ بالرجوع إلى العلوم الاجتماعية التاريخية، والعلوم الطبيعية الحديثة، أي علوم الأنثروبولوجيا، ونشأة الحضارات، وحياة وأفكار

---

[١] الدكتور حسام محي الدين الألوسي: بواكير الفلسفة قبل طاليس، ص ٧٥.

[٢] الفكر المعاصر: العدد (٤٣) سنة ١٩٦٨م.

البدائيين، ثم العلوم الطبيعية المعاصرة، حيث سنجد في العلوم الأولى، عند البدائيين، بداية المشكلات الميتافيزيقية.

ونخلص إلى القول أنه من الجهل تماماً أنْ يحذف الإنسان دور وأثر أية خدمة يقدمها الإنسان مهما كانت أو بدت ضئيلة، في مجالات العلوم، واستكشاف الطبيعة والحِرف، والاختراعات، وشتّى المجالات الأخرى، كما أنّه من المبالغة وعدم الصواب تفخيم هذا الدور أو ذاك، إلى حد نسيان الأدوار التي مهدت له، أو التي تلته، كما فعل أنصار المعجزة اليونانية، كذلك فإنه من الخطر عزل الأمور بعضها عن بعض في مجال التقييم، إنّ أي اختراع لآلة أو تحسين لها، يتضمن عمل البشرية كاملة، ومن ذلك، كم يظهر مجانباً للعدل والموضوعية قول (برنيت) ومؤيديه، عن الدور العالي الابتكاري المحض لليونان، والدور الضئيل لسائر من سبقهم، إنّ الخطوة الأولى التي يخطوها الطفل عند أول تعلمه المشي هي ليست أصغر ولاَ أبطأ ولا أقّل أهمية ودلالة على القدرة، من عدوه السريع فيما بعد، إلاّ بمنظار انعزالي جامد ومتعصب.

والثانية:

والذين يريدون أنْ يبدءوا الفلسفة بطاليس أول فلاسفة اليونان (القرن السادس ق.م) على أساس أنّ هؤلاء تركوا التفسير الميثولوجي، إلى الطبيعي، ينسون أنّ التفسيرات الطبيعية هذه ليست إلاّ جزء من سلوك الفيلسوف، فهو عملياً يزاول عادات قومه ومعتقداتهم وتجول في ذهنه تصورات مجتمعه، ثم ينسى هؤلاء أنّ أوج ازدهار الفلسفة اليونانية متمثلة في تكوّن المدارس الفلسفية بالمعنى العميق الكامل على يد أفلاطون وأرسطو والرواقية والأفلاطونية المحدثة، هو نفسه – أي هذا الأوج – حضيض العقلانية والرجوع إلى نفس المسلمات الغيبية للبدائيين، موضوعة بكلامٍ منمق، ونظام فلسفي يخفي على غير الخبير معدنها الميثولوجي البحت [١].

وكان عشاق "العقلانية" وهم يسبغونها على "الروح اليونانية" لا يهمهم هل ما يتحدث عنه هؤلاء موجودٌ حقاً لحواسنا ولخبرتنا أم لا؟ المهم أنْ يوضع بشكل

---

[١] بواكير الفلسفة قبل طاليس، ص ٨٢.

منطقي متلاحق ومتساوق، ومبهرج بإطار من الحجج والأدلة النظريــة المفعمــة بروح التعالي على الحس المشترك البسيط للإنسان العادي.

وإلا فأي شئ في ميتافيزيقا أفلاطون موجود؟ مُثلـــه، أم آلهتـــه، أم عـــالم التناسخات؟ ومع ذلك فهذه فلسفة عقلانية، ليس لشيء إلا لأنـــه أدار الكـــلام بأسلوب منطقي وعقلاني، فكأن معنى العقلانية مساو لمعنى التخيل والابتداع على نحو ما يبتدع الفنان صورة مجنحة لا تمت إلى مخلوق بعينه بصلة – والفنان له حقه في الابتداع، وليس للفيلسوف مثل هذا الحق، فواجبه فهم نفسه، وفهم ما يحيـــط به، لا أنْ يخلق عوالم يلجأ إليها هرباً، فلا يحل مشاكله ومشاكل الواقع، بل يزيـــد الطين بلة بخلقه عوالم أخرى تحتاج إلى حلٍ وفهم هي الأخرى[1].

---

[1] تجدر الإشارة إلى أنّ أفلاطون وضع لكل موجود في العالم الحسي "مثالاً" غير مادي في عالم خارج العالم الحسي المادي، وهذه المثل هي الوجود الحقيقي عنده، وليس للأشياء المادية الحسية سوى وجودات ثانوية، أو هي تشوية ومحاكاة وأشباح لذلك العالم، وعالم المثل فيه نماذج عقلية، لا مادية، لكل موجود حسي في عالمنا، قبيحاً أم جميلاً، جزئياً أم كلياً، وحتى للعلاقات، وقد وجه أرسطو إليه عدة انتقادات منها: أنّ أفلاطون ضاعف العالم دون أنْ يُفسّر العالم الذي نعيش فيه.

أنظر: Aristo: Met, 1. 990 b 34 وبقية نقده الموضع نفسه، وأنظر: -

- **Zellet: Outline of the History of Greek Philosophy p. 131, 173.**
- **Burnet: Greek Philosophy, p. 206**

حيث يوضح انتقادات أفلاطون نفسه لنظريته في محاورة "بارمنيدس"،

وراجع : كريم متى : الفلسفة اليونانية ص ١٨٥،

يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، طبعة ثالثة ١٩٥٩/، ص ١٧٤ وما بعدها. وإلى مثل هـــذا المعنى يذهب هانزريشباخ) – أحد ممثلي الوضعية المنطقية – فيعرض نظرية أفلاطـــون في "المثـــل"، كمثل على الاستدلال الوهمي الافتراضي، وينعي على المحاولات التي قام ويقوم بهـــا الدارســـون، لإضفاء صفة علمية أو لتبرير أخطاء جسيمة ترتكبها هذه المثاليات، والفلسفات التأملية، يقـــول – فى نقده لفلسفة أفلاطون– " . وإنه ليبدو أنّ الفيلسوف عندما يصادف أسئلة يعجز عن الإجابـــة عليها، يشعر بالإغراء لا يقاوم لكى يقدم إلينا لغة مجازية، بدلا من التفسير، وإننـــا لنجـــد العقـــل الفلسفي، طوال تاريخ الفلسفة، مقترنا بخيال الشاعر، فحيثما كان الفيلسوف يسأل كان الشـــاعر هو الذى يجيب، لذلك كان من الواجب، عند قراءتنا للعرض الذى يقدمه الفلاسفة لمذاهبـــهم، أن نركز انتباهنا فى الأسئلة، لا فى الإجابات المقدمة.."=

ومعنى هذا أنّ دعوى ابتداء الفلسفة مع اليونان دعوى فارغة، فالعلوم وهى جزء أساسى من الفلسفة بمعناها الشامل سابقاً، نشأت قبل اليونان، والميتافيزيقا، وهى معنى الفلسفة الخاص والأهم، لا تعنى المعقولية، بل مجرد موقف، وحظ الفلسفة اليونانية من العقلانية، متمثلة، فى كبريات فلسفاتها، وهى فى الجوهر، حظ أى من المواقف البدائية قبلهم، ومعنى هذا أنّ فلسفات اليونان الميتافيزيقية الكبرى هى مجرد عمل (بان) استمد المواد الخام، بل ربما الخطة عموماً لبنائه الذى ينبيه، من الشعوب البدائية، واعتقادات الحضارات المعاصرة له، والمتقدمة عليه.

والفلسفة لم يكن لها يوم منه بدأت، وفيه ظهرت، شأنها شأن العلم، وهذا حال كل الفعاليات البشرية، كالفنون والعادات وغيرها، وتقدم الدراسات الخاصة بأفكار الشعوب البدائية الغابرة، وما يقدمه علم النفس والاجتماع، عن تطورنا من الطفولة إلى النضوج، أفراداً، وعلى نطاق البشرية جمعاء، قدمت معلومات، أظهر أنّ البشر مروا بمراحل، تنامى فيها عبر آلاف السنين، فكرهم، وتجمعت خبراتهم، حتى ساعدتهم على تمييز الأشياء، واستنباط المبادئ العامة للتفكير وغير ذلك.

وباختصار، فإنّ القارى المنصف لحضارات الشرق القديمة، سوف يلتقى بالفلسفات المثالية والواقعية والمادية والروحية والواحدية التعددية، كما سيلتقى بالنزعات العدمية واللاأدرية، ومذهب الشك الفلسفى، فضلاً عن مناقشات مستفيضة لمفاهيم فلسفية أساسية : كالجزئى والكلى والفردى والصيرورة، والوجود والعدم، والدوام والثبات، والهوية، والمطلق والنسبى، والذات العارفة والموضوع المعروف، كما سيجد مناقشات لطرق المعرفة الممكنة أو ما يسمى بنظرية المعرفة، مما يؤكد أنّ العقل الشرقى لا يقل عمقاً وأصالة عن العقل الغربى.

وباختصار أيضاً، أنّ جميع ما يحويه التفكير الإغريقى، يبدو أمامنا على حقيقته، إذا عرض تحت ضوء العلاقات بين الشرق والغرب، ولن نقع فى خطر الجهالة إذا ما عمدنا إلى جمع معلومات عن حالة التفكير النظرى فى أهم الحضارات المحيطة بالأفق الإغريقى، وهى حضارات الشرق القديمة.

=(ها نزريشنباخ) : "نشأة الفلسفة العلمية" ترجمة الدكتور فؤاد زكريا. القاهرة ١٩٦٧م. ص ٢٦-٣٥.

ونتيجة لكل ما تقدم نستطيع أنْ نقول : إن فلاسفة اليونان ليسوا أول من بدأ الفلسفة والعلم والتجريد أو التنظير، فإنه- وكما سبق - ليس هناك وقت ولا مكان، يمكن أنْ يقال إنه فيهما أو معهما بدأ العلم والتفكير والتعميم.

فلم يعد مقبولاً الرأى القائل بأصالة الفكر اليونانى، بان من سبقهم لم يصلوا إلاّ إلى طور العلم العلمى فقط، ويقوى من عدم القبول هذا، ما قدمته حضارات الشرق القديمة من إنجازات فى مجال العلم والمحاولات الأخرى قبل اليونان بوقت طويل.

إن البحث الموضوعى الهادئ، يؤدى إلى الاعتراف بوجود "قفزة " أو تُبدل كيفى فى مسار الحضارة البشرية، حصل مع مجئ الحضارات اليونانية، إلاّ أنه تبدل حدث من تجمع كمى هو حصيلة ما كسبته البشرية من تقدم قبل اليونان.



الفصل الثانى

" العقيدة المصرية القديمة. . القوة والقدسية وعظمة المصادر"

ويشمل:

أولاً : تمهيد

(أشكال العقائد الدينية فى مصر القديمة، مظهر مرئى لقوى مقدسة مجردة)

ثانيا: " صفات الآلهة " ونشأة العالم" عند المصرى القديم.

ثالثا: " قدر الإنسان ومصيره " بين البشر والآلهة" عند المصرى القديم.



أولاً : تمهيد

(أشكال العقائد الدينية فى مصر القديمة، مظهر مرئى لقوى مقدسة مجردة)

لعبت الحضارة المصرية القديمة دوراً كبيراً فى التاريخ الروحى للإنسان على مدى تاريخ البشر المتطاول، مازالت تأثيراته بادية بوضوح أحياناً، أو متسربة، لا تخفى على عين المتخصص المتتبع لتاريخ الديانات المقارنة فى طيات النظم الروحية،والطقية والعقائدية، فى حياة الإنسان المعاصر.

وفى هذا يقول المؤرخ الإغريقى (هيرودوت):

" إنَّ المصريين أكثر تقوى من سائر البشر. .. ويهتمون كل الاهتمام بالشعائر المقدسة، فقد سبقوا شعوب العالم إلى إقامة الأعياد العامة والمواكل العظيمة، وعنهم تعلم الإغريق، ودليلى على ذلك أنها تقام فى مصر منذ زمن بعيد؛ بينما لم يحتفل بها الإغريق منذ وقت قريب".

فقدماء المصريين عظماء، لاشك فى ذلك احد، أحبوا وطنهم ارضاً وسماءً وماءً وهواءً وزرعاً وحيواناً، ثم قدسوا كل ذلك، ولم يكن الهوى هو مصدر ذلك الحب، ولكنه اليقين الذى أضحى لدى أصحابه من قواعد الإيمان.

وكان للديانة المصرية القديمة واعتقاد المصريين فى حياة أخرى عظيم الأثر فى مدنيتهم وعلومهم وفنونهم وآثارهم، فولا معتقدات المصريين الدينية، لما رأينا المعابد والأهرامات والمقابر والتماثيل والتحنيط وروائع الفن.

وحول هذا المعنى يقول برستيد:

" لا يوجد شعب قديم أو حديث، خلع على فكرة فيما وراء القبر أهمية كتلك التى خلفها قدماء المصريين على تلك الفكرة، بل إنَّ هذا الإيمان - الملح - بوجود الآخرة، ربما كان- وقد هدتنى التجارب فى أرض مصر إلى الإعتقاد بذلك- يجد عوامل مشجعة ومواتية بسبب ما ترتب على صيامة الجسم الإنسانى صيانة فائقة، على نحو لا يمكن أنْ يوجد فى الأحوال الطبيعية فى أى جزء آخر من أجزاء العالم،وأى شخص له إلمامٌ بجبانات مصر- القديمة منها والحديثة - لابد أنهَّ وجد

جسوماً عديدة أو أجزاء من جسوم قديمة قدماً لاحد له تظهر فى حالة من الصون تقترب من جسوم الأحياء.[1]

إنّ حالة الصون، التى تدعو إلى الدهشة، التى وجد عليها المصرى القديم أسلافه، لابد أنعشت إلى حد كبير- اعتقاده فى بقائهم المستمر، وأيقظت خياله مراراً إلى مزيد من الصور المفصلة عن صقع وحياة الراحلين الذين تكتفهم الأسرار، وتكشف جبانات مجتمعات ماقبل التاريخ المكتوب، الواقعة بمحاذاة النيل، التى عُثر عليها وأجريت حفائر فيها منذ عام ١٨٩٤، عن إيمان بحياة مستقلة كان قد وصل إلى مرحلة متقدمة[2].

وتقدم لنا نصوص الأهرام [3].أقدم فصل فى تفكير الإنسان، وصل إلينا محفوظاً، وهو أبعد قسم فى تاريخ الإنسان العقلى نستطيع أنْ نتبينه، وتعكس هذه النصوص، كما يفعل كل أدب مدوجزر الحياة حولها، وتتحدث فى تعبيرات تجاريب الناس الذين انتجوها، وهى تعابير جارية فى حياة القصر اليومية فى الشارع والسوق.

---

(1) تطور الفكر والدين فى مصر القديمة " دار الكرنك، ١٩٦١م، ص ٨٥-٨٦.

(2) راجع أيضاً " تاريخ التحنيط فى مصر" أعمال الجمعية الفلسفية الملكية فى جلاسجو سنة ١٩١٠ للأستاذ ج إليوت سمث.

- Prof. G. Elliot, Smith, The History of Mammification in Egypt , proceedings of the Royal Philosophical society of Glasgow, 1910.

(3) ظهرت الطبعة الأولى من نصوص الأهرام لماسبرو فى مجلته Recneil فى المجلدات ٣،٤،٥،٧،٨،٨،١٠،١١،١٢،١٤ ثم ظهرت بعد ذلك فى سفر واحد، وهناك مجلدات أخرى تحوى ترجمة وشرح النصوص ومواد الكتابة القديمة قام بها شفير H. Schafer
وهى (نصوص الأهرام) مكتوبة بالهيروغليفية، وتغشى حيطان الممرات والدهاليز والغرف فى خمسة أهرام فى سقارة، إنّ أقدمها هو هرم " وناس" آخر ملوك الأسرة الخامسة التى ترجع إلى النصف الأخير من القرن السابع والعشرين ق.م، والأربعة الباقية هى أهرام أوائل ملوك الأسرة السادسة، تيتى وبيبى الأول، ومرنرع، وبيتى وبيبى الثانى، الذين مات آخرهم فى بواكير القرن الخامس والعشرين ق.م، وعلى هذا، فإنها تمثل فترة يبلغ مداها مائة وخمسين عاماً، من قرابة عام ٢٦٢٥ إلى عام ٢٤٧٥ ق.م، على ماهو راجح، أى القرن السادس والعشرين بأجمعه، وعلى الراجح ربع قرن قبله وربع قرن بعده.
راجع : برستيد : تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ص ١٣١.

ووظيفة نصوص الهرام، هى فى جوهرها، ضمان نعيم الملك فى الآخـــرة، إنّ النغمة الرئيسية السائدة هى الاعتراض على الموت فى الحاح أو حـــتى فى عاطفـــة عنيفة. ويمكن أنْ يُقال إنها سجل لأقدم ثورة عظمى قامت بها الإنسانية ضد الظلام حالك والسكون الذى لارجعة لأحد منهما.

ولا يجيئ لفظ موت أبداً فى نصوص الأهرام إلاّ فى صيغة سلبية، أو عندمـــا يطبق على عدو، إنا لنسمع مراراً وتكراراً التوكيد المستعصى بأنّ الموتى يعيشـــون. " إنّ الملك تيتى لم يمت موتاً، لقد أصبح شخصاً ممجداً فى الأفق" [١].

"هيا: أيها الملك وناس ! إنك لم ترحل ميتا، إنك رحلت حياً "[٢].، " لقـــد رحلت لكى تستطيع العيش، إنك لن ترحل حتى تموت" [٣]، " إنك لا تمـوت" [٤]، " إنّ هذا الملك بيبى يعيش إلى الأبد " [٥]. وهكذا يكون أجل موضوع فى نصوص الأهرام هو الحياة، الحياة الأبدية للملك.

وتقدم لنا الحضارة المصرية القديمة كثرة من العقائد الدينية، ترتبط إحداهـــا بأشكال حية حيوانية أو نباتية، والأخرى بأشكال مادية غير حية، والثالثة اتخـــذت صوراً بشرية.

فقد نظر إنسان وادى النيل، المبكر،إلى الحيوانات البرية - رغم كونها هدفـــاً للصيد- نظرة ملؤها الهيبة والرهبة، بسبب ضراوتها أو قوتها، فنجد - فى نقـــوش العصور المتأخرة لما قبل التاريخ- صوراً للأسود والثيران الوحشية، ترمز للسُـــلطة المسيطرة، وهى ترمز بالمثل للملك " نعرمر" وهو يطأ تحت قدمية أعداءه الذين ألحق بهم الهزيمة.

وقد عُثر على العديد من التماثيل الصغيرة للقردة، كذلك رسوم لهـــا علـــى بطاقات عاجية ترجع جميعها إلى العصور التاريخية مما يُرجح تقديسها منـــذ وقـــت

---

[١] نصوص الأهرام - ٣٥٠.

[٢] نفسه-١٣٤.

[٣] نفسه -٨٣٣.

[٤] نفسه - ٧٧٥.

[٥] نفسة- ٤٦٤ ١جـ، ١٤٦٨جـ -د، ١٣٧٧ب.

مبكر؛ أما الرمز الحيواني للمعبود " ست " (1) كما يظهر على أحجار مقابر الأسرة الأولى، فهو يمثل حيواناً يشبه الحمار، له ارجل طويلة، وآذان طويلة أيضاً مستعرضة وذيل قصير قائم.

وكانت - عبادة الغزال Oryx- anteleope في المقاطعة السادسة عشرة من مصر العليا، ثابتة من توارد هذا الحيوان رمزاً لها، وهناك مثال يمكن أن يستشهد به على ذلك من عهد الملك "زوسر" في الدولة القديمة، وإن كانت عقيدة ذلك الحيوان المقدس قد انحسرت منذ وقت مبكر لحساب الصقر "حورس".

وعقيدة الصقر "حورس Hores " كانت لها أهميتها العظمى منذ عصور ما قبل التاريخ (2).، واسمه بالمصرية القديمة "حروHorew" يعني "الساحق" وهو اسم يناسب طائراً من طيور القنص يرقى في تحليقه إلى مسافات عظيمة في ارتفاعها، وقد عُبد حورس في العديد من المقاطعات التي انتشرت فيها عقيدته قادمة من مركز عام لها في نخن Nekhen" أي " هيراكوبنوليس" اليونانية "الكوم الأحمر " الحديثة في المقاطعة الثالثة من الصعيد.

وهناك مركز هام أيضاً لعقيدة ذلك المعبود في الصعيد عُرف باسم " بحدت مكان مدينة "ادفو" الحديثة، وعُرف به تحت اسم "حورس" بحدتي أو الإدفوى، وإلى جوار ذلك كان الصقر الطائر المقدس، رمز للعديد من المعبودات الموجودة في مختلف المواقع بمصر، والتي توحدت في وقت لاحق مع "حورس".

أما عقيدة " البقرة المقدسة" فقد وجدت لها عدة مراكز، منها الإقليمان السابع والثاني والعشرون في مصر العليا، والإقليم الثالث من الدلتا، وفي عصر مبكر للغاية، كان الرمز الحيواني المقدس للإلهة " حتحور" في "دندرة" هو البقرة، متوحدة معها تماماً.

---

(1) يعد الإله " ست " من أقدم آلهة مصر التي عبدت منذ فجر التاريخ، وكانت مدينة " نوبت" (أمبوس) مكان مدينة طوخ الحالية بمحافظة قنا، وهي مركز عبادته، ولقد مزج الهكسوس بينه وبين معبودهم " سوتخ" حيث أقاموا له المقابر في عاصمتهم " أواريس" أصبح كل منهما يُعرف باسم الآخر، ولما أتى الإغريق إلى مصر شبهوا "ست" بمعبودهم " تيفون" إله العواصف والرعد.

(2) وطبقا لأسطورة " أوزوريس وأيزيس" كان " حورس" هو ابنهما الذى انتقم لأبيه من عمه الشرير" الذى اغتصب العرش من اخيه "أوزيريس".

هذا، وقد انطبعت فى مخيله الفلاحين الشعبين ف مصر الخصـــائص المميزة لبعض الحيوانات التى ارتبطت حياتهم بها، فالثور والكبش، قد أثرا على هذه المخيلة بقدراتهما الإنتاجية وقواهما الإخصابية، أما البقرة، فقد ألهمت عنايتها الفائقة بوليدها، وحنوها عليه مفهوم تقديسها كرمز للأمومة، وتعود عقيدة العجل " حابى Hapi - بالمصرية - و"أبيس Abisباليونانية "، إلى الأسرة الأولى- على الأقل - فى مركز لها فى مدينة منف.

وقد اعتبرت بعض الأشجار المعينة - خاصة الضخمة منها- قاعدة أو مثوى لبعض المعبودات، فهناك شجرة جميز على مقربه من مدينة منف، كان يعتقد أنها مستقر الألهة أنثى طيبة تنتفع الناس ببركتها، ولقد كان من المعتقد أنّ ارواح الموتى القادمة من المدافن المجاورة على شكل طيور تجد فى ظل الجميزة الوارف حاجتها من الطعام والشراب، وتقدمها لها الإلهة الخيرة التى تقطن هذه الشجرة، وهناك نباتات ارتبطت باسم إله أو ألهة معينة، وقُدست نزولاً على ذلك الاعتبار، وإنْ لم ينظر إليها كرمز أو مظهر لهذه الإلهة المرتبطة بها.

والعقائد المرتبطة بأشكال مادية غير حية، هى ظاهرة بالغة القدم فى تاريخ الديانة ومنها المصرية، شانها فى ذلك شان العقائد الحيوانية والنباتية، وقد ارتبطت هذه الأشياء المادية بالمعابد أو بالملك الحاكم.

ففى مدينة " هليوبوليس -Heliopolisوهو اسمها باليونانى- كان هناك عمود أو نُصب مقدس يسمى "يون yon، وكان يوجد فى هذه المدينة أيضاً حجرٌ مقدس هو ال "بنبن Benben" على شكل مسلة، قد تكون السبب فى أن أعتبرت المسلات بعد ذلك رمزاً للشمس المشرقة، واعتبر الكثير من رموز السلطة والقوة كالصولجان والعصى وعلامات بمثابة أشياء مقدسة.

ومن غير الإنصاف أن نحكم على المصريين - نزولاً على وجود الأعداد الكبيرة من المعبودات التى ظهرت أولاً مرتبطة برموز حيوانية أو نباتية أو باشياء مادية غير حسية بأنهم قد اعتبروا هذه الحيوانات أو الأشياء آلهة فى حد ذاتها، والحق أن مثل هذا الحكم المخطئ عليهم قد تبنته شعوب أخرى فى العالم القديم، وهم اليونانيون على وجه التحديد، الذين سخروا منهم، وكذلك إضطهدهم المسيحون فى العصور اللاحقة، بناءً على ذلك، ومن الجلى أنه لا يوجد عقل حتى لو كان بدائياً يمكن أن يعتقد أن الأشياءالمادية أو الحيوانات، أو حتى البشر، هم أكثر من

مجرد مظهر مرئى، أو مستقر لقوى مقدسة مجردة، والمصريون مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من البشر التمسوا- عموماً الاتصال بالقوى فوق الطبيعية، وارتأوا أن أفضل السُبل إلى ذلك هو إختيار إطارٍ أو محورٍ محدد ومرئى، يمكن أنْ تتجمع فيه الصفات التى تعبر عن هذه القوى[1]

وقد حدث تطور فى مفاهيم ومظاهر الديانة المصرية القديمة، بأشكالها الحية، الحيوانية والنباتية، أو المادية غير الحية، عندما أحرزت الحضارة المصرية درجة معينة من التمدين، وأفضى هذا التطور إلى ازدياد القوى التجريدية لدى البشر، فاصبحت القيم المعنوية أعظم تأثيراً، وهى القيم التى تطورت مظاهرها فى الإنسان أكثر من أيه كائنات أخرى، فالمعبودات التى يعزى إليها قدر جليل من المعرفة والقدرة، أصبحت تمثل فى صورة إنسانية فى النهاية، وعلى ذلك فإن وضع الآلهة فى هذه الصور هى علامة تحدد المرحلة الأخيرة لهذا التطور، وإن كانت هذه الصورة لم تشمل الآلهة كما لم تتأثر بها كل طبقات السكان بنفس القدرة فبينما الطبقات العليا منهم والمتعلمة قد ارتفعت إلى مصاف المفاهيم الإنسانية لآلهتها، نجد العامة الأكثر بدائية من المزارعين استمروا أكثر احتضاناً للمفاهيم الحيوانية والنباتية أو المادية القديمة.

وكان للمتغيرات السياسية أثرها الكبير فى مصائر العديد من الآلهة فى العصور القديمة، كالاختفاء التام لبعضها من على مسرح الحياة الدينية، أو صعود البعض الأخر منها إلى المقام الأكبر، أوِ التغير التدريجى فى صفات وطبيعة العديد منها، فالتطورات السياسية أدت أولاً إلى توحيد المقاطعات المنفصلة إلى أقاليم، وهى بدورها فى النهاية اندمجت فى وحدتين سياسيتين كبيرتين هما مملكتا الدلتا والصعيد، ثم وصلت هذه التطورات السياسية إلى نهايتها باتحاد هاتين المملكتين فى وحدة كبرى ضمت القطرين مصر العليا والسفلى تحت عرش واحد.

وقد أدت هذه الأحداث السياسية، إلى علاقات متقاربة بين الآلهة المحلية، فقد أصبح إله عاصمة الإقليم – المعبودِ الرئيس فى الإقليم، بينما انزوت الآلهة الأخرى إلى مصاف المعبودات الثانوية، أيضاً أضحى إله العاصمة السياسى للمملكة الموحدة بمثابة الإله الأكبر لها جميعاً، وفى مجرى هذا التطور حجبت أو ضمرت بعض

---

[1] ياروسلاف تشرنى: "الديانة المصرية القديمة " ترجمة الدكتور أحمد قدرى، مراجعة الدكتور محمود ماهر طه، مطبعة الأثار المصرية ١٩٨٧م، ص ٤٨.

المعبودات لحساب الآلهة الأكثر أهمية، أو اندمجت فيها تماماً فاقدة قوامها الفردى، منتهية بذلك إلى النسيان،

ثانياً : " صفات الاهة " و "نشأة العالم" عند المصرى القديم.

إنّ القوى الطبيعية باسرها، هى فى المجتمعات القديمة، أجزاء صغيرة من القوة الإلهية العظمى، المنتشرة فى الكون.

وقبل خلق العالم، كانت هذه القوة الإلهية لا تزال غير فاعلية، ولكنها كانت متأهبة للفاعلية، وسط كتلة ضخمة، هى محيط أزلى، بلاحدود، وبلا ضياء، فهو خواء لاعضوى.

وعندما تجلت هذه القوة للمرة الأولى، على هيئة إنبثاق وضاء، خلقت بأساليب متنوعة السماء والأرض والآخرة فى العالم السفلى والجبال والتلال والوديان والصحارى والأنهار والبحار والبشر والحيوان والنبات والأحجار، وكل ما لايزال يشكل عالمنا الراهن، وفى بعض هذه العناصر يكمن جزء متناهى الصغر من الكيان الإلهى يربطها بالقوة الأولية العظمى، وهكذا ولد سحر العالم.

وتتمايز آلهة مصر القديمة عن بعضها البعض بالقابها وأعيادها، وكذلك المدن والأقاليم التى ارتبطت بعا عبادتها فى الأصل، وفى حالات كثيرة استمر ذلك الارتباط طوال فترات التاريخ الكلى للبلاد، وبغض النظر عن هذه الملامح الخارجية لهذه المعبودات، فإنه يتعسر إلى حد ما تحديد طبيعتها أو صفاتها الفردية بوضوح تام، خاصة وأن الوثائق المحررة للدولة القديمة قد صمتت عن مثل هذا التحديد، إضافة إلى أنه من المحال رسم صورة لديانة متسقة ومنطقية فى كل تفاصيلها أو صلاحيتها العامة للإقليم المصرى باسره، لأنّ مثل هذه العقيدة الموحدة والمتناسقة لم تتواجد قط، فالديانة المصرية ليست من خلق مفكر واحد، لكنها النتاج العام للعديد من مختلف التيارات اللاهوتية والسياسية، ولم تكن هناك ثمة سلطة مفردة ومسيطرة بشكل كاف طوالى التاريخ المصرى القديم لكى تختصر كل العقائد المحلية وتوحدها فى إطار لاهوتى أو فكرى شامل يفرض على كل المصريين بمختلف انتماءاتهم الاقليمية أو الطبقية.

والموطن الأصلى للآهة المصرية يقع فى ربوع أرض مصر ذاتها، فهى آلهة وطنية خالصة، وظلت كذلك حتى زمن امتداد النفوذ السياسى المصرى إلى الخارج، حيث انتشرت عقائد هذه الآلهة إلى البلاد المجاورة فى النوبة والسودان وفلسطين

وسوريا، أما قبل ذلك وفى إطار العزلة الأصلية للبلاد، فإنها اختصت فقط بمصر والمصريين فالأرض التى انطوت عليها سلطاقم الإلهية كانت هى ارض مصر، والبشر الذين ارتبطت معهم بعلاقة مقدسة كانواهم المصريين وحدهم.

وقد ابدى المصريون دوماً تسامحاً دينياً فيما بينهم فى داخل مصر نفسها، كما أبدوا مثل ذلك التسامح مع آلهة البلدان المقهورة، لجنود الحاميات والموظفون منهم فى الخارج وإن عمدوا بطبيعة الحال إلى بناء المعابد والهياكل المقدسة لالهتهم المصرية، إلاّ أنهم نهجوا إزاء الآلهة الأجنبية المحلية- كما كانوا يفعلون دائما فى مصر- إزاء اى إله أو إلهة حامية لمدينتهم أو اقليمهم الأصلى على سبيل المثلل، وفى مثل هذه الظروف، فمن البدهى ألاّ يظهر طوال عصور الديانة المصرية أى مظهر من مظاهر الإضطهاد الدينى[1].

والإنسان المصرى الذى تحيط به مظاهر الطبيعة، ويتوقف عليها ذاته قد تصور حوله قوى إلهية تقطن العناصر الكونية، وعلى راسها الأرض والسماء والأثير وفيضان النيل فضلاً عن الشمس والقمر، فهذه القوى التى تجسدت فى هيئات بشرية بلورت العديد من الآلهة الكونية ذات الأهمية العامة للجميع، للدرجة التى لم تعد هذه الآلهة ترتبط فى أصولها بأى إقليم أو مدينة فى البلاد، فهى بوجودها فى كل مكان لم يكن ثمة حاجة بشكل منظم لعقيدة لها أو معبد محلى محدد بعينه.

لقد خلقت الآلهة العالم، وبالنسبة لكل إله فى مدينته الرئيسية، تخيل البشر أساليب متنوعة لانجاز عملية الخلق على خير وجه، لقد نظمت الآلهة الكون، وكان المصريون المرهفو المشاعر والحس، المولعون بالصور الأسطورية الجميلة، يكثرون إذ ذاك من المناظر الخيالية التى تهدف إلى تفسير تشكيل العالم وموقع الأشياء.

كما كان المصرى إنساناً شديد التقوى، فنظم الأناشيد معبراً للآلهة، فى صورة شعرية، عن امتنانه وعبادته، وسوف يترك هذا الشعر المقدس الغزير اثراً مؤكداً على الآداب اللاحقة الكلاسيكية القديمة واليهودية والمسيحية.

---

(1) باستثناء فترة قصيرة وغير عادية، خلال ثورة العمارنة الاخناتونية، التى اتبعت فيها بعض اجراءات عنف فى فرض عقيدة " إخناتون" فى مصر، أو فى قهرها بعد ذلك على حد سواء، مما أدى إلى حدوث انقسام كبير فى البلاد نتيجة لاعتناق المسئولين لديانة آتون، وإتخاذ كهنة آمون، وبعض العائلات المحافظة ، من اخناتون وديانته موقفاً عدائياً.

وانقسمت آراء المصريين حول خلق الآلهة والبشر والأشياء، وقدم اللاهوتيون منهم العديد من النظريات الرامية إلى تفسير نشأة العالم، وكان أكثر ثلاث منها أهمية هى فلسفة الأشمونين وهليوبوليس ومنف.

(أ) وطبقاً لفلسفة الأشمونين اللاهوتيه لم يكن ثمة شيئ مافى البداية سوى اللاوجود أو الفوضى ذاتها، والتى تخيلها المصريون إما كعنصر عبارة عن "المياه الأزلية"، أو قوى تتجسد فى الإله "نون" الذى أطلق عليه اسم "الواحد القديم" فهو "المبدأ الأول" أو "الأصل الأول"، وقوام هذا الأزل خواص أربع يمثل كل منها ذوجين ذكر وانثى من المعبودات، فالخاصية الأولى هى " العمق العظيم " ثم " اللانهاية"، ثم "الظلام المخيم" فاللارؤية.

ونحن لا نعرف على وجه الدقة تطور الفلسفة الكونية الآشمونية، حيث أنها أختلطت منذ زمن مبكر خلال فترة الانتقال الأول بلاهوت هليوبوليس، حيث قدمت مفهوماً أكثر تقدماً فى تفسير بدء الخليقة فيما بعد.

(ب) أما معبود هليوبوليس- الإله " أتوم **Atum**" فقد بدأ وجوده الذاتى من فوق قمة تل أزلى، انبثق بدوره من المياه أو اللانظام الأزلى، ثم نفخ الإله فى يده، وبزق من فمه الإله "شو **show**" وقرينته " تفنوت **tfenet**" واللذين نسلا، ومن خلال ولادة طبيعية بقية المعبودات الأخرى.

ويعزى إلى أتون، الذى يعنى اسمه فى اللغة المصرية " الكامل " أو "المطلق" ثلاث صفات رئيسية، فهو الموجود بذاته " " الذى أتى إلى الوجود بنفسه "، وهو " الأقدم" " أو الأزلى"، كما أنه " الأوحد " المتفرد بذاته، وعلى ذلك فهو الحاكم على كل الآلهة الأخرى "سيد الجميع" (١).

ولقد كان " شو" يجد الهواء أو الأثير، بينما " تفنون " تمثل الرطوبة، وبهما بدأ العالم المنظم، فـ " شو" كأثير كان معطى الحياة أو القوة الخالقة التى اعتمدت عليه فى كل عناصرها، وما الريح والأنسام التى تتنفسها الأحياء إلاّ من ظواهره وهو

---

(١) وكان ينطق اسمه باللغة المصرية القديمة " **Temor Tum** بمعنى اكتمل، وهو فى ذلك يشبه الفعل " تمّ " فى اللغة العربية. " **To be complete** " وقد وحد المصريون بينه، وبين إله الشمس "رع"، واطلقوا اسمه على قرص الشمس قبل الغروب عندما (يتم) أو يكتمل، وكان يُعد هذا الإله فى بعض الأحيان بأنه أصل الجنس البشرى.

لامائى وغير مرئى لا تحيط به الأنظار، ولقد فصل السماء عن الأرض، بأن رفعها مالئاً الفراغ بينهما بأدلة وجوده[1].

وقد حلل اللاهوت المصرى الخلق الميتافيزيقى للإله " شو" بأنه قد تم وجوده من خلال انسام الحياة، وهو تفسير يتسق إلى حد بعيد مع طبيعته كإله أيترى، قد نفثه " أتوم" مستخدماً قواه السحرية، منذ أن بشر اللاهوت الهليوبوليس بأن " أتون " ماهو إلا مظهر آخر لإله الشمس " رع "، فإن الأثنين اندمجا معاً فى مركب إلهى واحد هو " رع - أتوم" الذي بانبثاقه من الظلمة، غمر ضياؤه كل شيئ، وقد شخص المصريون الكون طبقاً لهذا المفهوم بتخيل الإله " شو" رافعاً بذارعية الممتدتين إلى أعلى ابنته " نوت" ربة السماء، بينما " جب" رب الأرض يقع قابعاً عند قدميه.

(جـ) وفى فترة ما بين عصرى الأسرتين الثالثة والخامسة، عندما كانت مدينة منف العاصمة السياسية لكل البلاد، كانت هناك ثمة ضرورة عقائدية وسياسية معاً لإجراء ضرب من المصالحة بين لاهوت " هليوبوليس" الذى احتل فيه الإله " أتوم" دور الإله الخالق، وبين لاهوت " منف" الذى يتمتع فيه الإله " بتاح " بهذا الدور.

وعلى ذلك فقد أعلن عن ثامون مقدس بضم ثمانية آلهة، احتواها جميعاً الإله " بتاح" متجسدة أشكالها فيه، والتى لم تكن إلا " بتاح" نفسه، وتعبر الفلسفة المنفية عن ذلك مرددة:

" فى الأصل تم الخلق من اللسان والقلب باعتباره صورة " أتوم" ولكن " بتاح الأعظم " حبا الآلهة وأرواحها الفعالة بالحياة بغيض من قلبه ولسانه اللذان توحدا منذ البدء فى (حورس وتحوت) واللذان هما (بتاح) بعينه الذى يقف تاسوعة المقدس[2] منه كالأسنان التي هي بذور (أتوم) والشفاه التي هي أصابعه، لأنّ أتوم قد ولد

---

[1] عندما فصل الإله "شو" السماء عن الأرض ملأها بالنور والهواء، ومنذ ذلك الحين بدات الحياة، ولذلك يسمى " شو" فى نصوص التوابيت والنوصوص الدينية بـ " عنخ" بمعنى " الحياة"

[2] كان التاسوع يتكون من "آتوم" الذي خلق من ذاته "شو وتفنوت" وتزوج المعبودان وأنجبا "جب" رب الأرض و "نوت" ربة السماء، وتزوجا أيضاً، وأنجبا أربعة هم "أوزيريس وايزيس وست ونفتيس".

من بذرته ومن أصابعه، وما هذا التاسوع إلا الشفاه في فم هذا الذي نطق بالأسماء الأولى للأشياء جميعاً التي خلقت (شو وتفنوت) وباقي تاسوعه".

وتتخلل نصوص الخليقة للمدرسة المنفية فقرات تقدم في سياقها فهماً مدهشاً للظواهر الفسيولوجية، كما تقرر "أنَّ القلب واللسان لهما السيطرة على كل الأعضاء، فالقلب يوجد في كل الأجساد، واللسان في كل الأفواه للآلهة والبشر وكل المخلوقات والأشياء الحية، والقلب يحتفظ بالأفكار، بينما اللسان ينطق بالكلمة، فنظرة العين وسمع ونشاط الأيدى والأذرع وكل ما سعى على قدميه مصدر كل معرفة، منه تنجم المهن والأعمال ونشاط الأيدي والأذرع وكل ما سعى على قدميه، وكل حركة للأعضاء التي تصدع بالأوامر التي يفكر فيها القلب، وينطق بها اللسان والكلمات التي تعطي أثرها في إنجاز كل الأشياء".

وهنا تبدو قصة "بدء العالم" الذي خلقه "بتاح" معروضة في أسلوب فكري رفيع، ففكرة الخلق تبدأ في العقل أو القلب، ثم يتحقق من خلال الكلمة المنطوقة للسان أو الأمر، وما الآلهة الأخرى إلاّ اللسان والقلب والأسنان والشفاه للإله "بتاح".

ثالثاً: "قدرُ الإنسانِ ومصيره" بين "البشر والآلهة عند المصري القديم.

فالآلهة إذاً هي التي خلقت البشر، وهم – أي البشر- ينطوون في تكوينهم على قبس إلهي، وليس من المستحيل عليهم أنْ يصبحوا هم أنفسهم آلهة حال مماتهم [1]، وقد كان الميت المؤله يحتل عادة قبل وفاته مركزاً رفيعاً، كمنصب وزير الملك وأعظم موظفيه في القطر، وكنموذج لذلك تقديس "كاجمني Kagemni [2] في نهاية

---

[1] وإنْ كان هناك استثناء لذلك، هي قداسة الملك الحيّ حال حياته على الأرض، ولعلّ أشهر ملك أُلّه أثناء حياته هو الملك "رمسيس الثاني"، فمما اتبعه في التبشير بعبادته أسلوب تصويره بين الآلهة كأنه واحدٌ منهم، والظهور ثالث الثالوث، فقد صور بين "آمون وموت" في مقام ابنهما "خونسو"، وبين "إيزيس وأزيريس" في مقام ابنهما "حورس" وبين بتاح وسخمت" في مقام ابنهما "نفرتم"، وبين إله =

=الشمس ويوسعاس في مقام "شو". كما صُور بناسوته يتعبد إلى شخصه، أو يتلقى منه البركات، كذلك يقدم القربان إلى الثالوث الذي هو واحدٌ فيه.

[2] كان "كاجمني" وزير الدولة في عهد الملك "تيتي"، وتقع مقبرته على مقربة من حوله في سقارة، وقد سجل تاريخ حياته على جانبي واجهة مدخلها.

الدولة القديمة، فنجد أفراداً من أتباع عقيدته - يحملون جميعاً اسم "جمِنْ Gemen" وهو اختصار "كاجمني" - يبنون مقابرهم حول مصطبته قرب منـف في سـقارة، ورغم ذلك لم يكن يُطلق عليه لفظ إله، وربما كان شيئاً قريباً من القديسين.

وقد أُله أيضاً كل من " أيمحوتب Imhotep " [1] وزير معمارى الملك زوسر العظيم من الأسرة الثالثة، و" أمنحوتب بن هابو " وزير الملك " امنحوتب الثالث" من الأسرة الثامنة عشرة، واستمر تقديسهما حتى العصر الصاوى[2]، بل وامتدت عقيدتهما محرزة شعبية كبيرة فى العصر البطلمـى، وبين الإغريق أنفسهم الذين أطلقوا عليهما على التتابع " إموثس Imuthes" و" أمنوثـس بأبيوس Amwnathes paapios" أى ابن هابو " حيث كانا يمثلان حكمة الأجداد.

ويبدو فى مفهوم المصرى القديم، أن مصائر البشر أو أقدارهم ليست حتمـاً يستحيل تجنبها، فالإنسان قادر على تغيير قدره من خلال أفعاله إذا أراد الإله لـه ذلك، وطالما أنّ الغد دائما " يقع بين أيدى الإله" فالطفل يولد مصحوباً بالعنايـة الإلهية، والوالدان يوطدان صلاتهما بالآلهة فتأمر بأن يولد الطفل لهما، ومنذئذ فـإن الإنسان يمارس أعماله فقط من خلال رضى الآلهة وموافقتها، فالبشـر يقـترحون الأفعال، أما الإله فيفرضها، أو كما عبر عن ذلك أحد حكماء المصريين:

"الإنسان ينطق بالكلمة أما الأمر فللرب".

---

[1] يعنى اسمه " الآتى فى الإسلام " ، وفى العصر الفارسى لُقب "بابن بتاح" حيث أخذ مكان الإله " نفرتم" وينحدر "ايمحوتب " من أب مهندس يدعى "كانفر" وأم اسمها " خردوعنخ" تنتمى إلى إقليـم "منـدس" غالباً، ويُقال ان "ايمحوتب" ولد فى إحدى ضواحى منف تسمى "عنخ تاوى" ؛ وقد اصبح إلهـاً للطـب، ووحد مع الإله الإغريقى "أسكليبوس Asklepios " وكان يُنظر إليه منذ وقت مبكرا فى الدولة الحديثـة كراعى وحامى للكتاب الذين اعتادوا أن يسكبوا قطرات من مدادهم قرباناً له قبل شروعهم، كما اعتـبر ابن الإله "بتاح " نفسه من السيدة "خردوعنخ".

[2] لم تتعد عبادة " امنحوتب بن هابو" حدود طيبة، فى حين أنّ عبادة " ايمحوتب" انتشـرب فى جـهات كثيرة مثل منف والصعيد والنوبة والواحات.

ونجد نموذجاً لما يأمله المصرى من فضل الآلهة فى نص ينسب للملك " رمسيس الرابع" [١]، يسأل فيه الإله " أوزيريس" أمانيه التى يرجو تحقيقها، كمثوبة له على أعمال التقوى التى أعرب عنها لهذا الإله، وهو يضمن هذه الأمانى ما هو خاص به وبرعاياه، والذين يخاطب باسمهم الإله، وهو يعبر عن ذلك فى أسلوب محدد هو نمط مصرى حقيقى قائلا:

" لسوف تحبوننى بالصحة وبالعمر الطويل، وبعهد ملكى ممتد، وبالقوة لكل أطرافى، البصر لعينى، والسمع لأذنى، والهناء لقلبى كل يوم، ولسوف تعطوننى الطعام حتى الشبع، والشراب حتى الرى، وتطلون بذرتى من الأطفال بالحماية، حتى يصبحوا ملوكاً تحكم مصر دوماً وإلى الأبد، ولسوف تعمرون قلبى بالرضا، وتمنحونى سمعكم لما أقول، وستأمرون بفيضانات للنيل مترعة تحقق متطلبات قرابينى وقرابين الآلهة والإلهات سادة مصر العليا والسفلى حفاظاً على العجول المقدسة، وكل الناس على أرضك، مع قطعانهم وأشجارهم التى هى صنع يديك، لأنك أنت خلقتهم جميعاً ولن تتركهم فى ضلالة يعمهون"[٢].

ونحن واجدون فى هذا النص القيم والأشياء التى أهتم المصرى القديم، ألا وهى الحياة والصحة والعمر الناضج المديد، ثم وفرة من طعام وشراب يطلبها لأطفاله، كما سألها لنفسه، ثم فيضان غامر تتوقف عليه رفاهية سكان مصر وثرواتهم من قطعان وأشجار كما تتوقف عليه حياة دينية ثرية فى ممارستها من التقدمات وقرابين الآلهة البلاد، وفى النهاية يُحث ربه على تحقيق هذه الدعوات بمبرر مقنع فالإله خالق البشر وكل شيء مما يُرتب التزاماً بأن يحبوهم بعميم رحمته ورعايته، وألا يعدل عن تلك الخطط الإلهية التى قدرها لهم عندما خلق ذلك العالم.

والآلهة- كما يتضح من النص السابق- هم الذين يصنعون الطفل، ويخرجونه للحياة، ويحبونه بالحماية والحب والتربية، يقفون وراء حافظين له حياته، يغذونه

---

[١] عُثر على هذا النص منقوشاً على لوحة رمسيس الكبرى فى أبيدوس، وهى حالياً بالمتحف المصرى تحت رقم ٧٥٧، ومسجلة برقم ٤٨٨٣١، وقد نقشت هذه اللوحة غالباً فى أوائل حكم "رمسيس الرابع"، وأهداها إلى الإله " أوزيريس" متأثراً بوفاة والده.

[٢] راجع : "الديانة المصرية القديمة" ، ص٧٠-٧١.

ويغمرونه بالفضل والصحة والثياب، رافعين إياه عالياً، وإجمالاً فإن حياته كلها تقع بين أيدى الإله، لأن الإنسان هو خادم الرب المتبتل فى عبادته وحبه.

وكان التشوق للعمل بالاتساق مع إرادة الآلهة طابعاً مميزاً للمصريين، فدائماً أبداً كانوا يصرون على أن أى عمل معين " هو ما قرره الإله" وفى رأى المجتمع، فإن القيم الأخلاقية كانت تقرر بواسطة البشر أيضاً فضلاً على الآلهة، وكان المعيار فى ذلك عادة هو " ما يحبه الإنسان وتقره الآلهة" لأنّ ذلك هو العدل والطيب، وقد استخدام المصريون كلمة " نفر Nufer" للدلالة على "الطيب والجميل " فهم يتحدثون على سبيل المثال عن " شخصية طيبة " وعن شيء أو شخص بأنه من الجميل النظر إليه، كما أن " نفر" يرتبط أيضاً مع البهجة والحظ الطيب، والكلمتان المضادتان لذلك تعنى باللغة المصرية القديمة " دحو dgow" (الردئ وغير سار أو غير محظوظ أو حزين) بينما كلمة " بوين boien" تعنى (ردئ فى علاقته) مع "عدم الجدوى والكارثة والمصيبة"، وهذه الكلمات لها على ذلك معنى " جمالى وأخلاقى" بينما كلمة " ماع " التى تعنى " حق، صادق، عادل" وكذلك الاسم المشتق منها " ماعت ".بمعنى " الحق، الصدق، العدالة" تنتمى على النقيض من ذلك فقط إلى المجال الأخلاقى[1].

والإنسان نفسه مسئول تماماً عن أثر أفعاله، لأن المصريين على الرغم من إيمانهم بالقدر فإنهم لم يخلصوا إلى أنّ القدر يمكن أنْ يعرقل الإرادة الحرة للإنسان، فالقدر يتبدى فى مختلف الأحداث فى العالم المحيط، والتى تؤثر على حياة الإنسان من الخارج، والإنسان تظل لديه الفرصة لكى يناضل ,ويواجه هذا التأثير لجهده الخاص.

---

[1] وهناك مفهومان مضادان لكلمة " ماعت" هما " جرج Goreg" بمعنى كذب أو زيف و يسفت "Yesfet" وتعنى تقريباً " خطأ أو رذيلة" وأحياناً نجد " ماعت" فى صيغه المثنى " ماعتى Maeety" وربما تعبر هذه الصيغة الثنائية عن درجة كاملة أو عميقة من المعنى، وليس إلى وجود مفهوم يعنى حقيقتين أو عدالتين، وتعنى "ماعت" كذلك النظام الذى قام عليه الكون . ونظمت كل ماتم خلقة من مظاهر الطبيعة.

وما نطلق عليه اسم الضمير الآن، كان طبقاً لإدراك المصرى القديم مستقراً فى القلب " إيب Yeb"[1]. والذى كان موطن العقل و(العواطف) والرغبات، وصوت القلب هو "صوت الإله" و" ذلك الذى يقوده القلب إلى نسق طيب من السلوك هو السعيد".

والمصريون ذوو العقلية، العملية لم يشغلوا أنفسهم بتأملات نظرية عن الخير المطلق الذى يمكن تطبيقه، وإتباعه تحت كل الظروف وبأى ثمن، ووجهة نظرهم فى هذا الصدد كانت عملية محضة، فقد كان من المرغوب فيه عمل الخير، لأنَّ ذلك سيعود بالنفع على الفرد فرضا الآلهة والبشر سيثمر عطاؤه طال ذلك أم قرب، وهو يحفظ للإنسان (اسما طيباً) بين معاصريه وبين أخلاقه وسيحمى هذا الاسم من السقوط فى زوايا النسيان أو من اللغة.

والاسم كان عنصراً فعالاً لأى شيء أو لأى شخص يسهم في جوهر وجوده، و"الاسم الطيب" كان يذكر- كما اعتقد المصرى القديم- إلى الأبد، كما أنَّ حامله يتمتع بحياة ممتدة، ومثل هذا الاسم أمرُ حرىّ بأنْ يجتهد الإنسان من أجله [2].

وإتيان الخير والحق يتوافق إلى حد كبير مع السلوك الطيب، وقد كان ذلك يلقن للشباب من خلال فرع خاص فى الأدب هو أدب التعاليم، وهو عبارة عن مجموعة من الحكم والنصائح التى تشكل الحكمة العملية، أو بالأحرى الذكاء فى تناول الحياة[3]، وهذه التعاليم كان يفترض أنها من نسج رجال ناجحين فى حياتهم

---

[1] ولذلك كان القلب المتوفى يوضع فى الميزان مع ريشة العدالة أثناء محاكمه فى الآخرة أمام " أوزيريس" رب المتوفى.

[2] كان تحطيم الاسم يعنى القضاء على صاحبه، وهذا ما قام به مثلاً الملك "تحوتمس الثالث ضد الملكة "حتشبسوت" بعد وفاتها، حيث قام بتهشيم أسماءها على جدران معبدها بالدير البحرى، وكذلك ما قام به أعداء "إخناتون" ضده ، وضد إله " آتون" بعد انتصار كهنة "آمون" مثل ما نراه على جدران مقبرة رعموزا بالأقصر.

[3] كانت هذه الحكم تبدأ عادة بكلمة " سبوبى" كعنوان لها، وهذه الكلمة معناها "درس أو تعليم" ولكثرة استعمال هذه الحكم والتعاليم، كان التلاميذ يكتبونها على قطع من الفخار وشظيات الحجر =

ومستقبلهم، وعلى ذلك فقد كان هناك ضمان معين لنجاح مماثل لأولئك الذين يتبعون هذا النهج.

وهناك أجزاء من الأعمال المتأخرة من هذا الفرع من الأدب، المسماة تعاليم " امنموبى Amenemope" والتى صيغت فى مصر الأسرتين العشرين والواحد والعشرين، وأقدم نموذج معروف لهذه التعاليم هى التى نسبت للحكيم "بتاح حتب ptah-hotep" الذى كان وزيراً فى الأسرة الخامسة، وتتركز حول سلوك الإنسان إزاء رؤسائه فى مختلف شئون الحياة، ولب هذه التعاليم أنّ " ما يحدث هو أمر الإله الذى يهب المكانة العظمى " وأنّ النهج الأفضل للشخص الراغب فى التقدم هو ألا يعمل فى تناقض مع النظام الراسخ.

وبينما كان هذا النظام فى الدولة القديمة مؤسسا فوق كل شيئ على إدارة منظمة جيدة، فإنّ الدولة الوسطى قد أضافت مفهوم تقوى الآلهة كجزء من هذا النظام، فعلى الرغم من أنّ الإله قد خلق السموات والأرض طبقاً لرغبة البشر، والنبات والحيوان لطعامهم، فهو كذلك فرض العقاب لأنه،

" يُنكل بالمخلوقات على ذلك الذى اقترفوه عندما كانوا أعداء له، كما أنه محق كل العاصي منهم، فمن المحال الإفلات منه، لأنّ الإله يعرف كل اسم، والتقوى أو الفضيلة هى الأكثر قبولاً عند الإله من القربان الذى يقدمه الشرير" .

والتجربة قد أدت رغماً عن ذلك إلى أنّ النظام الإلهى الذى يفرض المثوبة للخير، والعقاب للإثم، لا يتحقق دائماً فى الحياة الدنيا، وطالما أنّ المصريين قد آمنوا دائماً باستمرار الحياة بعد الموت، فإنه قد بدا لهم أنّ من الطبيعى والمنطقى أنْ يمتد أو يؤجل آثار النظام الإلهى، أى العدالة إلى الحياة الأخروية، ومن المحتمل أنّ الإيمان بأن السعادة فى الحياة الأخرى التى تتوقف على السلوك والأعمال خلال الحياة على الأرض، كان سائداً فى الدولة القديمة، يتضح ذلك من الوثائق المكتوبة لهذه الفترة، ومنذ الدولة الوسطى فصاعداً أصبح ذلك الإيمان مفهوماً سائداً، مما يجعلنا

=الجيرى الملساء، ومعظمها يرجع إلى عهد الرعامسة ، وأقدم ما وصلنا يرجع إلى الدولة القديمة ، وخاصة تعاليم " كاجمنى" و" بتاح حتب".

نخلص إلى أنّ هذا الإيمان تأصل فى فترة الانتقال الأول من التاريخ المصرى القديم.[1]

والنظرة التشاؤمية، ومفهوم عبثية هذه الحياة، تشكلان الخلفية لقطعة أدبية أخرى من نفس هذه الفترة، وهى "الحوار بين اليائس من الحياة وروحه"، فهو بسبب يأسه من الظروف المحيطة بهذا العالم، والتى يلخصها قائلاً:

" ليس ثمة ما هو حق، لقد انتقلت مقاليد العالم إلى أيدي من يرتكبون الشر مقترفى الإثم"، قرر الانتحار بأن يلقى بنفسه فى النيران حاثاً روحه على أنْ تلحق به.

ولقد حاولت الروح جاهدة أن تصرفه عن قراره هذا، وأنْ تذكره بمباهج الحياة وكآبة عالم الموت الذى لارجعة منه، وإن اتفقت مع جدل صاحبها بانّ من يصل إلى العالم الآخر سينعم بصحبة الآلهة، وسيحظى بمكانة على غرار إله، وربما أفاد ذلك فى أنْ يعمل على عودة السلام والعدل على الأرض.

ومثل هذا الأدب التشاؤمى يتعارض مباشرة مع النظرة التفاؤلية التقليدية للمصرى القديم إلى الحياة، والتمتع بنعائمها بدون أى خوف من الموت، ورغم أنّ

---

[1] يمكننا القول بأنّ المصرى القديم فى العصور التاريخية آمن بالخلود، رغم أنه لا توجد كلمة تعبر عن الخلود فى لغته، فكلمة الحياة نفسها تستخدم لكل من الحياة على الأرض والحياة بعد الموت، ولكن الخلود ليس مطلقاً ، فإن متطلبات معينة يجب أن تتحقق للحصول عليه، والدليل على وجود مثل هذه العقائد فى العصور التاريخية المبكرة هو مجرد العثور على أدلة أثرية، حيث احتوت مقابر هذه العصور على الطعام والأدوات الأخرى التى لا يُفسر وجودها إلاّ فى ضوء افتراض أنّ هناك تصوراً بأن الحياة تمتد بعد الموت تحت ظروف شبيهة للغاية بتلك التى انصرمت. على الأرض.

وحالة الحفظ التى وجدت عليها أجساد الموتى فترة طويلة بعد الموت ، والتى تعزى إلى المناخ الجاف ، قد أسهمت إلى حد كبير فى أصل فكرة استمرارية الحياة، ولقد كان الوضع الذى توسد الجثث على أساسه يختلف من مكان إلى آخر، ولكن هذا الوضع كان ثابتاً فى الجبانة الواحدة، مما يعكس أيضاً بعض الاختلافات، أو بعض التصورات فى المفاهيم الجنائزية.

راجع :
- **Erman, Adolf, Die Religionder Agypter, Berlin and Leipzig 1934;**
French translation, La religion des Egyptiens by H. Wild, paris, 1937.
- **Sainte Fare Garno**
1948.

الموت كان حقيقة لم يغمض المصرى عنها عينية عامداً إلى مواجهته بالوسائل الــتى تتناسب مع إمكاناته، فا لتشاؤم ليس أمراً طبيعياً للمصرى.

الفصل الثالث

"إخناتون" أول " ثورى"
فى العالم يسعى لصياغة " توحيد" عالمى

ويشمل:

(أ) تمهيد.

(ب) "إخناتون" ثائرا على التقاليد اللاهوتية.

(جـ) "نزعة التوحيد" عند إخناتون.

(د) تعقيب



(أ) تمهيد:

احتل "آمون" إله طيبة المحلى القديم فى عهد "أمنحوتب الثالث" المكانة الأولى فى علم لاهوت الدولة، بالنسبة إلى المركز الأعلى الذى كانت تحتله الأسرة الحاكمة بالمدينة موطنه، فى الإمبراطورية.

ومن وجهة علم اللاهوت، فإنه خضع منذ زمن طويل للنزعة القديمة التى كانت تتعرف هوية الآلهة المحليين القدامى فى إله الشمس، وكان قد أطلق عليه منذ عهد بعيد "آمون-رع"، وقد حلت محل خصائصه المحلية القديمة، خصائص إله الشمس، وصبغ آمون المحلى القديم بالصبغة الشمسية تماماً.

وبهذه الطريقة كان من المستطاع رفعه إلى المنزلة العليا فى تجمع الآلهة، فأصبحت له المكانة الأولى بين الآلهة، وأدمج " أمنحوتب الثالث" طوائف كهنة كل المعابد فى البلاد، فى منظمة كهنوتية واحدة ، وعلى رأسها وضع كاهن آمون الأعلى[1]؛ وكانت هذه أقدم طائفة كهنة قومية عُرفت حتى ذلك الحين فى الشرق الباكر فى مصر القديمة.

وعندما خلف " امنحوتب الرابع" أباه" امنحوتب الثالث"، حوالى عام ١٣٧٥ ق.م.، قام نزاع حاد بين البيت المالك من جانب والمنظمة الكهنوتية التى يسيطر عليها آمون، من جانب آخر، ومن الواضح أن الملك الشاب "امنحوتب الرابع (اخناتون) " كان يميل إلى مطالب إله الشمس القديم، وهى تتعارض مع مطالب آمون.

وفى بواكير حكمه نجده يعضد فى حماس صورة جديدة من عقيدة الشمس القديمة يحتمل أنها كانت حلا وسطا بين الاثنين، وخصص نفسه للمذهب العلمى الشمسى الجديد، فأضفى على إله الشمس تعريفا؛ حرر العقيدة الجديدة من تقاليد علم اللاهوت الشمسى القديم، التى تتعدد فيها الآلهة؛ فى حل وسط، لقد أصبح الآن يطلق عليه "آتون" وهو إسم قديم للشمس المادية، وربما كان يدل على قرصها.

[1] حابو سنب، أول كاهن أعلى لآمون،الذى احتل المنصب على رأس التنظيم الكهنى الجديد، وكان الوزير الأكبر فى عهد الملكة حتشبسوت.

وبذل اخناتون جهداً لجعل اسم "آتون" معادلاً فى بعض الصيغ القديمة للفظ "إله"، ولهذا أصبح يطلق الآن على التعبير التقليدى "قربـــان إلهـــى" (حرفيـــاً "قربان الإله")، "قربان آتون"[1] .

و لم يأخذ إله الشمس اسماً جديداً وحسب، ولكن الملك الشاب "اخنـاتون" أضفى عليه رمزاً جديداً أيضاً، إن أقدم رمز لإله الشمس كان هرماً وصقراً، ويصور الرمز الجديد الشمس كقرص تشع منه إلى أسفل أشعة منحرفة، وكل شعاع ينتـهى بيد آدمية، ويوحى هذا الرمز بقوة تنبعث من مصدرها السماوى وتضع يدها علـى العالم وشئون الناس.

ولإدخال عقيدة آتون فى طيبة، أقام أمنحوتب الرابع (اخناتون)، هناك معبـداً رائعاً للإله الجديد، وأوقف عليه أوقافاً سخية من الخزانة الملكية، وسرعان ما نشبت أشد العداوات خصومة بين الملك وبين كهنة آمون، انتهت بإصرار الملك على جعل آتون إلهاً أوحد للإمبراطورية، وتشتيت شمل آمون.

ولقد نتج عن الجهد الذى بُذل لمحو كل أثر لوجود آمون، أنْ غير الملك اسمـه من "امنحوتب" (آمون يرتاح "أو" "يرضى") إلى "إخناتون" ومعناه "أتـــون راضى" وهو نقل الاسم القديم للملك إلى فكرة مماثلة فى عقيدة آتون، وحتى اســم والد الملك، أمنحوتب الثالث، لم يُحترم، حتى لفظ "آلهة" كجمع، مُحى أينمـــا وجد، وجرت على أسماء الآلهة الأخرى، أيضاً نفس المعاملة التى لقيها آمون[2].

(ب) "إخناتون" ثائرا على التقاليد اللاهوتية:

ولما وجد "إخناتون" إن طيبة قد أثقل كاهلها بالكثير من التقاليد اللاهوتية، على الرغم من مكانتها وبهائها، فقد هجرها وأقام عاصمة جديدة تقع على التقريب فى منتصف المسافة بين طيبة والبحر، فى مكان يعرف، على ماهو شائع الآن بتـــل العمارنة، وقد سماها "آخت أتون" أى "أفق آتون"، وأصبح اسم إله الشمس هـو الاسم الإلهى الوحيد الذى يوجد فى المكان، وكان الغرض منه فيما يتضح أن يكون

---

(1) راجع برستيد (جيمس هنرى): تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى سوس، دار الكرنك، القاهرة، ١٩٦١، ص ٤٢٧، ٤٣٠.

(2) راجع برستيد (جيمس هنرى): تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى سوس، دار الكرنك، القاهرة، ١٩٦١، ص ٤٢٧، ٤٣٠.

مركزاً لنشر مذهب التوحيد الشمسى، و لم يكتف الملك الشاب بهذا فقــط، بــل أسس مدينة لآتون مماثلة فى النوبة، وآخرى فى آسيا، وبهذا أعطى كل قســم مــن الأقسام العظمى فى الإمبراطورية - مصر والنوبة وسوريا - مركزاً للعقيدة الآتونية، وبخلاف هذه، فقد أقيمت لآتون هياكل فى أمكنة أخرى متنوعة فى مصر[1].

وما كان ليتسنى لإخناتون إنجاز هذا، دون تكوين حــزب قــوى للقصــر يستطيع توجيهه ضد طوائف الكهنة المطرودين وخاصة كهنة آمون، إن حياة حزب القصر هذا، التى كشف عنها القناع الآن فى "آخت آتن" كانت تتركز حول نشر العقيدة الجديدة، وتؤلف نقوش الحيطان البارزة التى تزخر بها المقابر الــتى حفرهــا الملك الشاب، تؤلف أجمل فصل شيق فى قصة الشرق القديم[2]

وتحتوى هذه القبور على سلسلة من الأناشيد فى حمد إله الشمس (أتون)، أو إله الشمس والملك، على التبادل؛ وهو ما يسمح لنا على الأقل بلمحة مــن عــالم الفكر الجديد الذى نشاهد فيه هذا الملك الشاب ورفاقه يرفعون أعينهم ويحــاولون أن يتبينوا الله فى مدى قوته التى لا تحد، الله، الذى لم يعد بعد إله وادى النيل فقــط بل إله كل الناس وكل العالم.

(جـــ) "نزعة التوحيد" عند اخناتون

وليس أفضل من أنْ ندع هذه الأناشيد تتحدث عــن نفســها[3] وتُعرفنــا قسمات الثورة التى قادها وصاغها إخناتون فى ذلك الوقت.

---

(1) برستيد، آثار النوبة السودانية "ص٥١ - ٨٢.

(2) كانت هذه القبور تُزار كثيراً وتُدرس، وقد نشرت فى أجزاء متناثرة، ولم توجد، مع هذا، أيــة طبعــة كاملة حتى عام ١٩٠٣، عندما نشر"ديفس" كتابة القيم "مقابر العمارنة الصخرية" مجلدات ١-٦ لنــدن ١٩٠٣ التى تحوى كل شئ فى العمارنة فيما عدا موقع المدينة وقبر الملك، ويقدم لنا هذا الكتاب القيــم عرضاً للموقف فى العمارنة من الوجهة التاريخية، وخاصة الحياة فى القصر، فى البيئة الجديدة، التى صاغهــا للملك الشاب، "إخناتون"

(3) إنَّ أحسن هذه الأناشيد، هو نص ديفس، عمارنة ٦ لوح ٢٩، راجع برستيد، -- Dehymnis in solem -- sub rege Amenophide IV , conceptis, Berlin, 1894

تقول أطول وأهم هذه الأناشيد ، تحت عنوان " بهاء آتون الــــذى يعمــم الكون وقوته":

"إن طلوعك جميل فى أفق السماء

ياآتون، يابادئ الحياة

عندما تصعد فى الأفق الشرقى.

تضفى على كل أرض جمالك.

إنك جميل، عظيم، تلمع عالياً فوق كل أرض.

إنّ أشعتك تحوط الأقدار وتحوط كل ما أوجدته.

إنك تحكم وثاقهم بحبك".

وفى مقطوعة أخرى بالغة الجمال نقرأ: عن أتون أنه:

" خالق الجرثومة فى المرأة.

صانع البذرة فى الرجل.

معطى الحياة للوليد فى جسم أمه.

تدخل السكينة إليه حتى لا يجهش بالبكاء.

وترضعه (حتى) فى الرحم".

وعن"خلق الحيوان" تقول مقطوعة أخرى من أناشيد أتون:

" عندما الفرخ فى البيضة يسقسق فى القيض.

تعطيه النفس داخلها لتحفظه حياً.

وعندما تكون قد جمعت بعضه إلى البعض الآخر.

إلى(الحد الذى) يدفعه فى البيضة.

فإنه يخرج من البيضة.

= وتقسيم هذه الأناشيد إلى مقطعات معنونة، من وضع برستيد نفسه (تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ص ٤٣٢-٤٣٣.)

ليسقسق بكل مالديه من جهد.
ويسعى هنا وهناك فوق ساقيه.
عندما يكون قد خرج منها".

نصل إلىأعمق المضامين التى تحويها مقطوعات هذه الأنشودة، والتى تتحدث عن خلق العالم" فتقرأ:

" كم عديدة هى أعمالك!
إنها خافية (عنا).
أيها الإله الأوحد، الذى لا يملك قواه أحدٌ غيره.
لقد خلقت الأرض وفقاً لمشيئتك.
عندما كنت وحيداً.
الناس وكل الماشية، الكبير منها والصغير.
كل ما يوجد على الأرض.
التى تسعى هنا وهناك على سيقانها.
وكل ما كان على ارتفاع.
تلك التى تطير بأجنحتها.
إنك تقر كل إنسان فى مكانه.
إنك تمدهم بحاجاتهم.
وكل إنسان لديه متاعه.
وأيامه معدودة.
والألسن تتنوع فى الكلام.
وصورهم كذلك وبشراتهم يتميز بعضها عن البعض الآخر.
(إذ) أنك جعلت الغرباء يتباينون.
أنت سيد كل أرض، الذى تشرق لأجلهم.
أنت شمس النهار، العظيم فى جلالك.

إن جميع الأقطار القاصية.

إنك تصنع (أيضاً) حياتها.

لقد وضعت نيلاً فى السماء.

وعندما يسقط لأجلهم فإنّه يصنع أمواجاً على الجبال.

أشبه بالبحر الأخضر العظيم.

يروى حقولهم فى بلدانهم.

ما أروع تدابيرك، ياسيد الأبدية.

يوجد نيلٌ فى السماء لأجل الغرباء.

ولأجل ماشية كل قطر، تسعى على سيقانها.

(ولكن) النيل، إنه يأتى من العالم السلفى، لأجل مصر".

"وأتون" فى هذه الأناشيد التى تركها لنا المصرى القديم ممثلاً فى ملكنا الشاب "إخناتون" مسئول عن تعاقب الفصول، ويجب على البشر أن يتأملوا صنعته الواضحة فى كل شئ، وما أجمل ما تصوره لنا المقطوعة التالية من هذه المعانى:

" إن أشعتك تغذى كل حقيقة.

عندما تشرق، فإنها تعيش .

إنك أنت الذى تنميها.

إنك تصنع الفصول.

حتى تخلق كل عملك .

الشتاء ليجلب لهم البرد.

والحر حتى يمكنهم أنْ يتذوقوك.

إنك جعلت السماء القصى يرتفع هناك.

حتى يشاهدوا كل ماصنعته.

أنت وحدك وأنت تضئ فى صورتك كآتون الحى.

تطلع وتلمع وتذهب بعيداً وترجع.

إنك تصنع الملايين من الصور.
عن طريقك وحدك.
المدن والبلاد والقبائل والطرق العامة والأنهار.
كل العيون تراك أمامها.
لأنك آتون النهار فوق الأرض.".

ونصل مع هذه المقطوعات إلى ترنيمات جميلة يناجى فيها " إخناتون" رن" بقوله:

"إنك فى قلبى.
لا يوجد آخر يعرفك .
سوى ابنك إخناتون.
لقد جعلتة حكيما.
فى تدابيرك وفى جبروتك.
إنّ الناس يحيون بك.
بينما عيونهم تقع على جمالك.
إلى أن تغرب.
إنّ لكل عمل يُرجأ.
عندما تغرب فى الغرب.
لقد وطدت دعائم العالم.
وتنشئهم لأجل ابنك.
الذى خرج من أعضائك.
ملك مصر العليا ومصر السفلى.
الذى يعيش فى الحق، سيد القطرين.
نفر- خبرو-رع،وع - إن - دع (إخناتون)
ولأجل الزوجة الملكية الأولى، محبوبته.

سيدة القطرين. نفر – نفرو – أتون، نفرتيتى.
تعيش وتزدهر إلى الأبد."

(د) تعقيب

ونحن واجدون فى مثل هذه الأناشيد مذهباً عالمياً ملهماً، لا يوجد قبل ذلك فى دين مصر، وفى مجاله ينتظم العالم كله، إنّ الملك يدعى بأن الاعتراف بسيادة إله الشمس العامة هو أيضاً عام، وأنّ كل الناس يعترفون بحكمه، ويقول عنهم، إن آتون صنعهم لأجل نفسه خاصة، يحملون جزيتهم فوق ظهورهم، لذاك الذى أوجد حياهم، ذاك الذى يعيش الناس بأشعته ويستنشقون الهواء.

من الواضح أن إخناتون كان يضع الخطة لدين عالمى، ويحاول أن يجعله يحل محل القومية التى سبقته مدى عشرين قرنا.

ومع هذه السلطة العامة، فإن إخناتون متأثر تأثرا عميقا ببقاء الإله الأبدى، ومع أنه هو نفسه، يتقبل فى هدوء قضاء الموت عليه، وفى بواكير حياته العملية فى تل العمارنة يعلن ويسجل بصفة دائمة تعليمات عن دفنه، فإنه مع هذا، يعتمد على علاقته الوثيقة بـ"آتون" لتضمن له شيئا من بقاء إله الشمس.

وتتناول الأناشيد مسألة خلق العالم، قائلة أنه أنجز بينما كان الإله لا يزال وحيدا، وأن "آتون" خالق الكون، أوجد كل سلالات الإنسان، وميزهم فى اللغة، وفى لون البشرة، وأن قوته الخالقة لا تزال مستمرة، توجد الحياة حتى من البيضة التى لا حياة فيها، ففى داخل "نواة" البيضة التى لاحياة فيها، تستجيب أصوات الحياة إلى أمر آتون!، وعن طريق التغذى بالنفس الذى يعطيه، يخرج كل كائن حى.

إن هذه القوة، معطية الحياة، هى مصدر الحياة الدائم، وعاملها المباشر هو أشعة الشمس، ففى هذه الأشعة يكون آتون موجودا على الأرض كقوة خيرة، وإذا جلى على هذا النحو، تحب الأناشيد أن تطيل فى ذكر قوته التى تشمل الكون، والتى تكون أبدا حاضرة. "إنك فى السماء، ولكن أشعتك على الأرض"، "إن أشعتك تضم الأراضى، وحتى كل ما صنعته"، "وسواء أكان فى السماء أو على الأرض، فإن كل العيون تشاهده دون (انقطاع)، إنه يملأ (كل أرض) بأشعته،

بجعل كل الناس يعيشون، أدعو أن تقر عيناى كل يوم بمشاهدته، عندما يطلــع فى
ت آتون هذا ويملؤه بذاته هو بأشعته، وهو جميل فى الحب، ويضعها على فى حيـلة
ضية إلى الأبد"[1]

يقول إخناتون أيضا:

"ابنك (الملك) الذى خرج من أشعتك،
لقد صغته من أشعتك أنت،
عندما ترسل أشعتك، فإن القطرين يكونان فى أفراح عيد"

فى هذه العبارات: يعبر الملك (إخناتون) نفسه عن وعيه الخاص بحضور الإله، خاصة فى المعبد، عن طريق أشعته، إن اعتماد مصر، الواضح على النيل جعله مـن ستحيل تجاهل عامل الحياة هذا.

رأينا أنه لايوجد شئ يكشف بوضوح عن مذهب إخناتون العقلى، الذى يدعو الدهشة والتقدير، أكثر من واقعة أنه يحذف، دون تردد، مجموعـــة الأســاطير تاليد المبجلة التى ألهت النيل بوصفه أوزوريس؛ وينسب الفيضان إلى قوى طبيعية حكم فيها إلهه الذى، فى رفق مماثل نحو الأقطار الأخرى، صنع نيلا لأجلـــها فى سماء.

إن هذا الاعتراف بحدب آتون ورفقه الأبوى بكل المخلوقات، هو الذى يرفع كة إخناتون شوطا بعيدا فوق كل ما وصل إليه الناس فى دين مصر، أو الشـــرق قبل هذا الزمن: "إنك أب وأم كل ذلك الذى صنعته"، إنها فكرة تنبئ مقدمـــا كثير من التطور فى الدين الذى جاء بعد ذلك، حتى إلى زمننا الحاضر.

صورة الماشية وهى ترقص فى ابتهاج، و الأطيار وهى تنشر أجنحتها وترفعـــها بيدا لآتون الحى، والأسماك وهى تقفز فى النهر لتحيى الضوء، والنور الذى يعـــم ون الذى توجد أشعته حتى "فى وسط البحر الأخضر العظيم" إن كـــل هـــذا شف عن تبين حضور الله فى الطبيعة، وعن تقدير لوحى الله فى العالم المنظور.

ومن الواضح أنه على الرغم من الأصل السياسى لحركة إخناتون هذه فـــإن فى مصادر القوة فى هذه الثورة الرائعة توجد فى هـــذا الرجـــوع للطبيعـــة، إن

---

[1] راجع ديفس، عمارنة ٥ اللوح ٢٩، ٢، ١٠ – ١١

إخناتون كان "رجلا نشوان بالله"، وكان عقله يستجيب فى إحساس عجيب، وتمييز للشواهد المنظورة عن وجود الله حوله، وكان يستولى عليه الجذب إلى حد معتدل فى إحساسه بجمال النور الأبدى، الذى يشمل الكون، إن أشعته تحوطه، إنه يصلى: "أدعو أن تقر عيناى كل يوم بمشاهدته"، فى هذا الضوء الذى يتعرف هوتيه، أكثر من مرة، تغمره البهجة فى نشوة يندر وجودها إلا عند أصحاب التجارب السامية.

إن إخناتون كان أول "مغرد" فى التاريخ، وعن وعى، وعن تدبر بطريقة نسقية عقلية، ظفر بمكانته، ثم وضع نفسه وجها لوجه أمام التقاليد، ونحاها جانبا، إنه لا يرجع لأية أساطير، ولا إلى أية حكايات قديمة مقبولة على نطاق واسع، عن حكم الآلهه، أو إلى عادات قدستها القرون والحقب، إنه يرجع فقط إلى الحاضر، وإلى الشواهد المنظورة عن حكم إلهه، شواهد تحت أبصار الناس جميعا؛ أما عن التقاليد، أينما كانت، فقد حاول أن يلاشيها، هذا، و لم يكن للعقيدة الجديدة إلا اسما واحدا فى العمارنة، إنه كثيرا ما يطلق عليه "التعليم"، وهذا "التعليم" ينسب فقط إلى الملك دون سواه، ولايوجد سبب يدعو إلى الشك فى هذه النسبة، ولكن يجب أن ندرك ماذا كان يعنى هذا "التعليم" فى حياة الشعب المصرى ككل.

هنا يوجد شعب أوقف فيض حياته إلى الأمام فجأة، على الرغم من قوة دفعه التى تكاد لا تقاوم، ثم يحول إلى مجرى آخر، لقد أغلقت الهياكل التى قدستها ذكريات آلاف السنين، وطرد الكهنة، وصودرت القرابين، وموارد المعابد، ونبذ النظام القديم فى كل مكان.

أصبحت الردهات التى كان لها كل إجلال، والتى كانت تتردد فيها أصداء أفراح الجماهير،أصبحت ردهات المقابر هذه، خاوية، و لم يكن بوسع أى إنسان مهما علا قدره،أن ينطق بأسم أوزوريس، وفى حضرة قاضى الصلح فى المحكمة أصبح يتحتم الآن ألا يحوى اليمين القديم إلا اسم آتون، كل هذا أحدثته ثورة إخناتون، ماذا كانت النتيجة؟

لابد أن جماعات من الكهنة المتذمرين والمستفيدين من النظام القديم، قد مزجوا غضبهم بأصحاب بعض الحرف غير الراضين عن هذا التغيير الذى أحدثه اخناتون، نذكر منهم:

الخبازين الذين لم يعد يوجد لديهم مصدر لرزقهم من بيع كعك الشعائر فى أعياد المعبد، **والصناع** الذين لايجدون السبيل لبيع تعاويذ الآلهة القدامى عند بوابة المعبد، **والمثالين المرتزقة**، الذين تقع تماثيل أوزريس التى صنعوها، تحت كوم من التراب فى كثير من المراسم المنهارة على عروشها، **وقاطعى أحجار الجبانة**، الذين وجدوا أن شواهد قبورهم التى زخرفوها زخرفة رخيصة بمناظر من كتاب الموتى، قد أبعدت من الجبانة، **والجند** فى الأيام التى كان عليهم تنظيم المواكب إلى المعبد، **والأطباء** الذين حرموا من كل رأسمالهم فى التجارة، فى شعائر التعزيم، التى استخدموها بنجاح منذ أيام أقدم الملوك، قبل ذلك بألفى سنة، **والرعاة** الذين لم يعودوا بعد، يجسرون على وضع رغيف وجرة من الماء تحت الشجرة المائلة، وبهذا ينجون من غضب الآلهة التى تسكنها، والتى يمكن أن توقع محنة المرض على أهل المنزل فى سورة غضبها، **والفلاحين** الذين كانوا يخشون نصب صورة لأوزريس فى الحقل لطرد الأرواح الشريرة.

فى وسط هذا التذمر الذى شمل فئات كثيرة، أقام هذا الملك الشاب "إخناتون" فكرته ودعوته الجديدة.

وعندما نضع حركة أخناتون أمام خلفية صورة من تذمر شعبى كهذا، ونضيف إلى الصورة أيضا المعارضة السرية التى تقوم بها طوائف الكهنة العتيقة، وهم حزب "آمون" الذين لم يهزموا بعد، واللفيف العسكرى القوى الذين استولى عليهم عدم الرضى من جراء سياسة الملك المسالمة، فى آسيا وعدم اهتمامه بالإدارة الإمبراطورية والمحافظة عليها، فإننا نبدأ فى تبين شىء من الفردية القوية فى هذا الذى كان أول زعيم عقلى فى التاريخ، لقد كان حكمه أقدم عهد لحكم الأفكار، بغض النظر عن حالة ورضى الشعب.

لقد كان "اخناتون" بذاته، أول ثورى فى العالم، وكان مقتنعا تمام الاقتناع بأنه كان يمكنه أن يعيد صوغ عالم الدين والفكر والفن والحياة بالعزم المنيع الذى لديه، أن يجعل آراءه فى الحال نافذة عمليا.

وعلى هذا قامت مدينة العمارنة الجميلة، فى بحر من التذمر، والمدهش أن مثل هذا الرجل يقدر له قيام لأول مرة فى الشرق، وخاصة فى مصر.

ولقد كانت وفاة "إخناتون " بعد حكم استمر سبعة عشر عاما بداية النهاية لديانته، بعد أن اختفى المبشر الذى نظمها وفرضها معا، انطلقت بهذه الوفاة قوى ردود الفعل ضدها، وتحول خليفته الثانى " توت عنخ أتون" (أو الصورة الحية لآتون إلى الديانة القديمة بعد أن غير اسمه إلى " توت عنخ آمون" (أي الصورة الحية لآمون) ، كما عرف أنه عاد إلى العاصمة الأصلية طيبة، حيث دفن هناك، وبدأ اضطهاد ذكرى " إخناتون" منذ العهد الملكى " لحور محب" خليفة " توت عنخ آمون" فدمرت أسماؤه الملكية وصورة، كما أزيلت أسماء إلهة " أتون" من كل مكان به، ومن المثير أن هذه النقمة كانت موجهة بصفة رئيسية ضد شخص صاحب العقيدة الآتونية ، أكثر مما كانت ضد الإله " آتون" نفسه.

وقد بلغ الإعجاب ببعض الباحثين فى عصر إخناتون إلى تمجيده تمجيدا كاد يرفعه إلى درجة الأنبياء، لأن هذا الرجل العظيم استطاع فى ذلك الوقت المبكر من تاريخ البشرية أن يكتب ما كتب ، ويدعو إلى ما يقرب من الوحدانية، وكان لأناشيده وآرائه أثر على من جاء بعده من الشعوب، فهو صاحب أول محاولة جادة لتقديم مفهوم توحيدى حقيقى مع إنهاء دور كل الآلهة العديدة الأخرى وعقائدها المقدسة، وهى محاولة لم يكن مقدرا لها أن تنال أى فرصة للنجاح حتى ولو فرصة مؤقتة، ما لم تكن قد تمت بمبادرة من شخص يعتلى قمة السلطة فى البلاد، مما أتاح إمكانية هذا التغيير، وهو الملك نفسه، أمنحوتب الرابع أو "إخناتون"

ويحمل البعض الآخر عليه متهما إياه بالضعف وتضييع الإمبراطورية، بل ومنكرا عليه أن أناشيده أو آراءه كانت مبتكرة، وأراد البعض الثالث أن يثبت أنه لم يكن لإخناتون أى فضل، بل أن الأمور فى ذلك العصر كان يجب أن تأخذ الطريق الذى أخذته سواء فى الدين أو الفن[1]

والرأى عندنا أن إخناتون فيلسوف ومفكر من خير فلاسفة ومفكرى العالم القديم، وإذا كانت المرارة قد تملكت نفسه، بعد أن رأى الصعاب فى نشر دينه الجديد، فأهمل شأن الحرب، فربما كان لذلك أسبابه، وربما كان أيضا عن عقيدة راسخة فى المحبة والإخاء بين الناس، وكراهية منه للقتل والتخريب.

---

(١)

Jaos, Lx vIII (1948), 91ff.

ولا نغالى إذا قلنا أن إخناتون يعد عظيما من عظماء التاريخ، ليس فى مصر وحدها، وإنما فى تاريخ العالم، وأن صيحته كانت دعوة جديدة فى آذان العالم لم يكن الناس قد تهيأوا لها إذ ذاك، ومهما قيل عن تفكك الإمبراطورية فى عهده، فهذا أمر آخر، ولو ساء لنا أنفسنا الآن عما كان يجنيه تاريخ مصر بوجه عام، إذا كان إخناتون ملكا من الملوك المحاربين، فلا نلبث أن نجيب على أنفسنا بأن نتيجة حروبه كان مآلها دون شك إلى الزوال، كما حدث لمن جاءوا بعده، أما أناشيده وآراؤه فهى باقية وستظل باقية كإحدى مفاخر الحضارة المصرية، وسيظل اسم إخناتون وثورته الدينية أسماء لامعة فى تاريخ الفكر فى العالم.



الفصل الرابع

" الحس الخلقى"
وقيام " أقدم تجديد اجتماعى" فى مصر القديمة

ويشمل:

(أ) تمهيد (علم المصريات، واليقظة الأولى للضمير الأخلاقى والاجتماعى).

(ب) ديالوج (كارة البشر) مع روحه، وهل تكفى "فلسفة لنأكل ونشرب ونفرح، لأ ننا، غدا، نموت؟ "

(ج) "الوعى الأخلاقى" عند المصرى القديم من "الفرد" إلى "المجتمع"

١- تجربة "خع خبررع- سنبر" .

٢- تجربة: " امنمحت الأول".

٣- نصائح "أبوور"

(د) "حكمة بتاح حوتب" ونزعة التفاؤل عند المصرى القديم .

(هـ) تعقيب .



تمهيد:

من الأمور التي لا ريب فيها أنّ الحضارة أقدم عهداً في مصر مما هـــي في أى بلدٍ آخر من حوض البحر الأبيض المتوسط، فمنذ سنة ٤٢٤١ قبل الميلاد شُـــرع هنالك في إصلاح التقويم، مما يدل على سبق التجارب والتفكير لعدة قرون خلــت، وفي عهد الأسر الأولى، أى في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد بلغت طـــرق العمـــل الفنية شأواً جديراً بالإعجاب، فقد كان النيل الذى يفيد البلاد بأسرها تارة يغـــدق على وادية النعيم، وطورا يصب عليه النقمات، مما جعل المصرى لا يدرك أنه قـــادر على العمل دون أن يتحقق من أنه حكيم.

وقضت ضرورة إعادة مساحة أراضيه لتحديدها بعد انحدار مياه النيل عنـــها، أن يصبح مساحا ومهندسا فنيا، وإذا كانت كل ثقافة تتطلب نظاما اجتماعيا واسع المدى والمدة، فإن مصر كانت في مقدمة البلاد التي تتطلب نظاما ثقافيا دقيقا[1]

إن حضارة مصر تختلف عن كافة الحضارات الأخرى المعروفة، في اعتبـــارين على الأقل: طول أمدها واستمرارها.

فالسر الأول من أسرار مصر هو استمراريتها، فعند تأســيس رومـــا عنـــد منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، كانت آلاف السنين قد انقضت علـــى وجـــود الحضارة المصرية على ضفاف نهر النيل، وانتشر إشعاعها في العالم الشرقي حيـــث لم تكن الحضارة الإغريقية قد تخطت بعد مهادها الأولى.

"إن المسافة الزمنية التي تفصل بين بدايات روما، والنشأة الأولى المعروفـــة للحضارة المصرية تعادل تقريبا عددا من القرون يمـــاثل المســـافة الزمنيـــة مـــن

---

(1) بول ماسون – أورسيل: الفلسفة في الشرق، ترجمة محمد يوسف موسى، دار المعارف بمصر، ١٩٤٧م ص٥٦

رومولوس[1] Romulus، وحتى وقتنا الراهن، ويجد خيالنا صعوبة فى تصور الحقيقة البشرية التى تنطوى عليها هذه الأرقام"[2]

ورغم أنّ مصر، كما توحى بذلك الآثار والنصوص، قد حافظت بإصرار على ثبات شكل ومضمون حضارتها، إلاّ أنّه من غير المعقول ألاّ تكون هذه الحضارة قد تطورت بشكل ما، فكل حضارة تنطوى على عملية صيرورة، ولو أنّها ظلت ساكنة فى جمود، لماتت قبل أنْ تولد، إنّ الأفكار والأفعال اليومية شأنها شأن المياه والأمطار والبحر والرياح، تجرف موضوعها، فمن الثابت أنّ عالم مصر قد تطور منذ بزوغ الومضات الأولى لعصور ما قبل التاريخ، وحتى أواخر العصور القديمة

ولمّا كانت قصة الفلسفة الشرقية تبدأ بمثل هذه التأملات التى احتفظت بها الآثار المصرية، فنحن الآن فى وضع أفضل للبحث عن مدى القدم الذى يمكن أن نتعقب فيه جهود الإنسان فيما له صلة بالتفكير المنظم، لأننا تواقون لمعرفة ما يدل على أن هناك "حضارة" - بمعنى منهج منظم لمجتمع تسوده وجهة نظر فى الحياة ملازمة له - سابقة لوجود الآثار المدونة، وعلى أى امتداد زمنى يمكن إدراكها[3]

ويظهرنا علم المصريات Egyptology على أنّ مصر كانت مهد التأمل الفلسفى كما نعرفه، ولقد كان منشأ علمنا ببواكير تاريخ مصر القديم أثناء غزو نابليون (سنة ١٧٩٨م)، الذى أخذ معه مجموعة ضخمة من العلماء المتخصصين بصورة خاصة فى العلوم وفى الآثار، وأياً كانت درجة إخلاص نابليون نفسه، فلقد كان يتقبل الأفكار الشرقية، حتى أنه أعلن عن نيته فى اعتناق الإسلام.

ولقد استغل فريق العلماء وقتهم أحسن استغلال، وإن ما نشروه فى سنة

---

[1] هو مؤسس روما الأسطورى فى منتصف القرن الثامن ق.م .

[2] بييرجريمال: ص٥ من تقديمه لكتاب "نصوص مقدسة ونصوص دنيوية " من مصر القديمة، المجلد الأول، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٦م

[3] راجع أ.و.ف. توملين: فلاسفة الشرق، ترجمة عبد الحميد سليم، مراجعة على أدهم، دار المعارف، ١٩٨٠م ص٢٧

لينهض دليلاً على ذلك.

ولعلّ أهم نتيجة للحملة، كان الاكتشاف الذى توصل إليه ضابط فرنســى، تصادف أن كان يعمل فى رشيد فى دلتا النيل، وهو اكتشاف حجر بازلتى موجــود الآن فى المتحف البريطانى، يحمل كتابة بثلاثة أنواع من الخطـــوط، الهـــيروغليفى، والديموطيقى أو الشعبى، والإغريقى .

وأسماء الأعلام التى كانت هى بذاتها فى الإغريقية كما فى الهيروغليفى، هـــى التى أرشدت، بعد دراسة متأنية، عن الدليل إلى تعرف الكتابة الهيروغلفيـــة علـــى الآثار المصرية .

فلما كانت إحدى هذه الكتابات، وهى الكتابة الإغريقية، معروفـــة، فقـــد استطاع العلماء أن يترجموا على الفور ماثبت أنه قانون أصدره بطليموس الخـــامس إبيفانوس Ptolemy V Epiphanus (٢٠٥- ١٨١ ق.م).

أمّا الافتراض الذى برهن فى الوقت المناسب على أنه صحيح، فهو بالنســبة للكتابتين الأخريين، أعنى الهيروغليفية، والكتابة الأخرى باللغــة الأكــثر شــعبية والمعروفة بالديموطيقية، وكانتا ترجمتين أمينتين عن الإغريقية، ومع ذلك فإن عمليــة كتابة لغة بحروف أخرى وعملية الترجمة قد أثارتا مشاكل متنوعة[1].

وقد شحذ النقش على حجر رشيد والمحفوظ الآن بالمتحف البريطانى، لأمد طويل، همم العلماء فى كل بلد أوروبى، خاصة فى ألمانيا وانجلترا وفرنسا، ولكننـــا ندين بالفضل إلى دارس فرنسى شاب لعلم المصريات يدعى جان فرنسوا شـلمبليون Jean Francois Champollion (١٧٩٠ - ١٨٣٢) تم على يديه تفســـير الطلاســـم الأخيرة لهذا النقش .

وقد يمكن الاستدلال على شيء من عظمة ما حققه شامبليون من إنجاز مـــن أمرين، فى المقام الأول، كان النصُ مستمراً فى السرد دون مراعاة لأية فواصل بـــين الكلمات، وثانيا، لم يعرف شامبليون ولاأى عالم آخر معاصر له، فى البداية، هـــل

---

(١) توملين: فلاسفة الشرق، ص ٢٩.

كانت العلامات الهيروغليفية تمثل أفكاراً أو أصواتاً أو مقاطع، أو باختصار هل كانت كتابة رمزية أو صوتية أو محض كتابة مقطعية، كما أن الخبراء لم يدركوا، اللهم إلاّ بعد ترو طويل، إنّ الكتابة الهيروغليفية كانت فى الواقع قائمة على مزج حروف الكتابة الرمزية والصوتية، وأنّ بعض الحروف الأخيرة كان عملها مساعداً فحسب على الفهم أكثر من أن تكون عناصر فى النطق، وهى حقيقة استنبطها شامبليون أصلاً من زيادة عدد الرموز الهيروغليفية على الإغريقية .

وقد قضى شامبليون أربعة عشر عاماً ليفسر طلاسم الكتابة الهيروغليفية، وعشر سنوات أخرى ليكتسب إلماماً باللغة، وفى سنة ١٨٢٢ م صار فى حوزته الوسائل التي تمكنه من تفهم عقلية مصر القديمة، ومنذ غلق المعابد المصرية فى القرن الثاني بعد الميلاد، لم يكن فى الإمكان الوصول إلى مثل هذه الثروة.[1]

---

[1] تولى بعد شامبليون علماء من كل بلد أوروبي، ولن ينسى التاريخ أبدا عالما مصريا رائدا فى مجال دراسة الهيروغليفية، ذلك هو الأستاذ أحمد كمال، أول مؤرخ عربي كتب فى تاريخ مصر وحضارتها القديمة كتابه علمية سليمة، وإمام الرعيل الأول من الأثريين المصريين.

ولد (أحمد كمال) سنة ١٩٤٩ م بالقاهرة، وتعلم فى (مدرسة الألسن)، أو مدرسة (بر ونمش) للآثار واللغات القديمة، ثم عمل فى مصلحة الآثار المصرية، التى كان يسيطر عليها الأجانب، حتى أصبح أمينا للمتحف المصرى، وكان أول مصرى، وعربى يحتل هذا المنصب الذى شغله حتى تقاعد سنة ١٩١٤م، وهو فى الخامسة والستين من عمره، وعاش بعدها تسع سنوات حتى توفى سنة ١٩٢٣م، عن أربعة وسبعين عاما، وقام بتدريس اللغة المصرية القديمة، والحضارة المصرية فى المدارس والجامعات الأهلية، ونال عضوية المجامع العلمية واللغوية، وحصل على كثير من الرتب والأوسمة، وله ثمانية كتب مطبوعة، وعددا كبيرا من المقالات والبحوث المنوعة، ونشرها باللغات العربية والفرنسية.

وأحمد كمال، نموذج رائع للعالم المؤمن بقضية عروبة مصر منذ فجر التاريخ، أدرك حقيقة الصلة المتينة بين اللغتين المصرية والعربية، وجاهد لكى ينبه الأذهان – فى وقت مبكر جدا –إلى ما بين اللغتين من وشائج وصلات، ساعده فى ذلك إلمامه بكثير من اللغات، كالفرنسية والإنجليزية، والألمانية، بجانب العربية والتركية، وإطلاعه على ما وصل إليه علماء الغرب من أبحاث فى اللغة والتاريخ والحضارة والديانة وجغرافية البلاد القديمة.

يقول (أحمد كمال) فى محاضرة القاها بمدرسة المعلمين القاهرية سنة ١٩١٤م:

ويظهرنا هذا الكشف على أن المصريين أول أناس، بل أول شعب ينـــاقش المشاكل الأخلاقية، مشاكل الخير والشر مطبقة على الحياة ذاتها، ومشاكل الصواب والخطأ مطبقة على السلوك البشرى، تلك المشاكل التى هى بعينها مثار اهتمامنـــا اليوم.

ففيما وراء حقيقة أن المصرى القديم قد مارس التحنيط وبـــنى الأهرامـــات الضخمة، إلا أن الشعوب بوجه عام لم تكن على علم تام بما حققه هؤلاء المصريون الماهرون، ولا شك أن أصول الفكر واليقظة الأولى للضمير الأخلاقى والإجتمـاعى أقل إثارة من التنقيب عن مقبرة أو فتح تابوت من التوابيت الحجرية.

وبرغم أن وجود الإنسان على ظهر البسيطة ربما يرجع إلى مليون سنة قبل ظـــهور أول "آداب للغة Literature" معروفة، فإننا لا يمكننا فى وضعنا الراهن بما لدينا مـــن

"أعلموا أيها السادة أن كثير مطالعتى فى اللغة المصرية القديمة منذ كنت فى الثامنة عشرة من عمـرى إلى أن بلغت الستين مهدت لى سبيل الوصول إلى اكتشاف غريب مفيد ألا وهو أن اللغة العربية واللغة المصريـة القديمة من أصل واحد....."

وأدى به هذا الاكتشاف إلى كتابة معجمه الذى استغرقت كتابته، ما يقرب من عشرين عاما، وأخرجـه فى اثنين وعشرين جزءا، ويتضمن كل جزء أحد الحروف الهيروغليفية، وكانت طريقته فى هـــذا المعجـم أن يدون الكلمات الهيروغليفية– وقد يسجل أحيانا النصوص التى احتوها– ثم يذكـــر مرادفاتهـا العربيـة والفرنسية والقبطية والعبرية.=

=وقد انتهى أحمد كمال من معجمه تقريبا قبل أن يظهر قاموس إرمان "وجرابو" الصغير سنة ١٩٢١، كما أن المعجم المصرى الكبير المعروف بقاموس برلين، الذى أخرجه المجمع البروسى جامعـا بـين الكلمـات المصرية والقبطية والألمانية، لم يظهر إلا فى الفترة بين ١٩٢٦، ١٩٣١ أى بعد بضع سنوات مـــن وفـاة المرحوم أحمد كمال. راجع : الدكتور محمد جمال الدين مختار: " أحمد كمال– العالم الأثرى الأول فى مصر" المجلة التاريخية المصرية، العدد ١٢، ١٩٦٤م–١٩٦٥م، الصفحات ٤٣–٥٧.

وعن " فكرة " أن اللغة المصرية القديمة ليست إلا فرعا من اللغة العروبية (أى لغـــات الوطـــن العـــربى القديمة، فى بلاد الرافدين والشام والجزيرة وجزء من شرق أفريقيا) الأم، لها أوثق الصـــلات بالعربيـــة فى قديمها وحديثها، والعربية الشمالية، لغة الحجاز، أو العربية العدنانية، وهى الفصحى.

عن هذه الفكرة، راجع الدكتور على فهمى خشيم: آلهة مصر العربية المجلد الأول، الطبعة الأولى، الـــدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته، ليبيا، ١٩٩٠م.

معرفة أن نظن أن كانت هناك أية محاولة مماثلة نحو التفلسف المنطقى المتماسك قبل تلك المحاولة التى قام بها الحكماء المصريون.

لماذا مصر إذن؟

يمكننا أن نبدأ بالإشارة إلى أنه بعد الجفاف البطئ فى شمال إفريقيا فى مستهل العصر النيوليتى Neolithic period (حوالى ٥٠٠٠ ق.م.) بقيت مصر منطقة محمية نسبيا.

لقد زودتنا عمليات التنقيب التى بدأت منذ عهد طويل بقدر طيب من المعلومات عمن كانوا يقطنون وادى النيل فيما قبل التاريخ، إذ قد لجأ كثير من هؤلاء الناس إلى ذلك الإقليم الخصب بعد أن لحق القحط بهم وبقطعانهم، وتوحى المقابر التى اكتشفها علماء الآثار بأن المصريين فى العصر النيوليتى وما بعده كانوا يضمنون على الأقل مقوما واحدا من مقومات الحضارة، وهو استمرار التمويل الغذائى، ويبدوا أنه لم ينعم شعب آخر على ظهر الأرض بمثل هذه الميزة من قبل.

وفضلا عن هذا، فلقد عرفوا كيف يستخدمون المعادن وكيف يستأنسون الحيوانات، ومن عادات دفنهم، يبدوا أنهم كانوا يغذون ذلك الاعتقاد الراسخ فى الحياة بعد الموت الذى من أجله تبعا لتطور حضارتهم، سعوا بأساليب مختلفة لأن يعدوا أنفسهم له.

وإذا كان هيرودوت المؤرخ اليونانى الذى زار البلاد فى القرن الخامس قبل الميلاد قد ذكر "أن مصر هبة النيل"، وأن التربة والحاصلات والنبات والحيوان والحياة الإنسانية كلها على السواء، يقرر أمرها النهر العظيم، وهو الذى قبل مجيء الإنسان بزمن مديد، عمل على توسيع كسر فى الحجر الجيرى، وبطغيانه على البحر المتوسط كون الدلتا.

ومصر واحة طويلة ضيقة تمتد سبعمائة وخمسين ميلا من الشلال الأول، الحد الجنوبى القديم، إلى الدلتا، والوادى يتراوح اتساعه من عشرة إلى ثلاثين ميلا، تحصره حواجز صحراوية فى الشرق والغرب، ويعتمد رخاؤه، الآن، كما كان يعتمد منذ سبعين قرنا مضت، على ظاهرة طبيعية عظيمة واحدة، فيضان النيل السنوى، الذى تسببه أمطار الربيع وذوبان الثلوج فى مرتفعات الجنوب القاصية،

وانتظام هذه الأحوال الطبيعية البسيطة يعادله انتظام مماثل فى حياة وعادات الشعوب.

نقول: إن اعتبار مصر حصيلة سعيدة للظروف الطبيعية البحتة المتمثلة فى نهر النيل فقط، فيه سوء إدراك خطير ويمثل نصف الحقيقة فقط، إذ يجب أن نضيف إلى ذلك جهد المصرى القديم الذى جعل الحياة فى ذلك الوقت الذى انعدم فيه انتظام فيضان النيل، جعل الحياة ممكنة بل ومستمرة.

فقد حفز عدم انتظام فيضان النيل جهد الإنسان المصرى القديم إلى صد غائلة المجاعة التى تحل من حين إلى آخر، ولايوجد مكان آخر صاول فيه مكر الإنسان الطبيعة فى دؤوب على مثال ما صاول هنا[1].

كانت البلاد تشيع فيها القنوات والسدود والخزانات، وأظهر المهندسون فى مصر القديمة فى إنشائها تمكنا فنيا عاليا، وخزان بحيرة موريس الفسيح، وهو من عمل فراعنة طيبة فى الأسرة الثانية عشرة (فى أوائل الألف سنة الثانية) ينهض دليلا على ذلك الجهد الذى صد به المصرى القديم الظروف الصعبة التى خلفها عدم انتظام فيضان النيل؛ ونحن نعلم فى الواقع من نقوش قديمة مختلفة أن النيل، نظرا لأن فيضانه يصل إلى مناسيب غير منتظمة، قد جر الخراب عدة مرات على البلاد، والكوارث العشر التى وصفها "سفر الخروج" ربما تمثل كما أوضح فلندرزبترى Flinders Petrie أحسن إيضاح فى كتابه "مصر واسرائيل"، صورا متعاقبة لمثل هذه الكارثة، باختصار، فإن بقاء مصر يرجع إلى جهود الإنسان، أعنى الرى.

فالمتتبع لنظام الرى فى مصر القديمة، يجد أنه كان نظاما غاية فى الدقة، وإذا أخذنا فى اعتبارنا أن بلدا يبلغ طوله ٢٠٠٠ كيلومتر وعرضه بضعة كيلومترات، ولا يضم أكثر من ٣٠,٠٠٠ كيلومترا مربعا من الأراضى المزروعة (٣,٥ %) لأدركنا مدى خطورة هذه المشكلة التى كان يسببها عدم انتظام فيضان النيل، ولأدركنا أيضا كيف كان المجتمع المصرى أقوى مجتمع بشرى، وأكثر صبرا وجلدا عرفه التاريخ.

---

[1] و.ج. دى بورج: تراث العالم القديم، الجزء الأول، ترجمة زكى سوس، راجعه الدكتور يحى الخشاب ودكتور صقر خفاجه، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع، ١٩٦٥، ص ٣٠ وأيضا:
Maspero, Le Nil et La Civilisation Egyptienne, Paris, Ren.du Livre (Evol. de L. Human.),1926

إن الخيال يبهر عندما جلى العلماء حقبة بعد حقبة من التاريخ الماضى، الذى يمتد إلى الوراء، إلى الألف الرابعة قبل الميلاد، وهو ليس مجـــرد تـــاريخ حـــروب وغزوات ملوك، ولكن تاريخ عقائد وعادات وفن وثقافة يشـــمل سلســـلة مـــن المدنيات الزاخرة لم تكن تدور فى خلد الناس إلى ذلك الحين.

فكان هؤلاء المصريون الذين يرجعون إلى ما قبل الأسرات، قد حذقوا فنـــون صناعة الصلصال والحجر ووصفوا السنة التقويمية التى تبلغ ٣٦٥ يوما، والتى اتخذهـا بعد ذلك بأكثر من ٣٠٠٠ سنة، يوليوس قيصر، ولايزال العمل يجرى بهـــا حـــتى يومنا الحاضر[١]

وتقدم قصة مصر من أول توحيد لها تحت حكومة واحدة فى الألـــف ســـنة الرابعة حتى الغزو الفارسى فى سنة ٥٢٥ ق.م. سلسلة من حقب المدنية، كل حقبة بعهودها من الصعود والهبوط.

ففى بواكير الألف سنة الرابعة، نجد مملكتين واحدة فى الدلتا والأخـــرى فى مصر العليا أدمجهما مينا، أول ملك فى الأســـرة الأولى (حـــوالى ٣٤٠٠ ق.م.) فى حكومة واحدة، ومن هذه المرحلة فصاعدا يمكن جمع التاريخ المصرى حول قيـــام وسقوط ثلاث حقب عظيمة من التطور: الدولة القديمـــة، والدولـــة الوســـطى، والإمبراطورية الحديثة[٢]

(١) الدولة القديمة (الأسرات من الأولى إلى السادسة)، وقد وصل هذا العهد الذى دام ألف سنة إلى ذروته إبان حكم ملوك الأسرة الرابعة فى ممفيـــس (مـــن ٢٩٠٠ ق.م.)، وهم الذين مدوا سيادتهم صوب الغرب على ليبيا وصوب الجنوب علـــى النوبة، واستغلوا مناجم سيناء، ونهضوا بالتجارة بأســـاطيلهم فى البحـــر الأحمـــر والمشرق.

ولقد كانوا إداريين وبنائين عظاما، وضعوا نظاما مثاليا محكما وحكموا مصر بجيش من الموظفين، وأوصلوا رى البلاد إلى درجة عالية من المهارة، وشيدوا أهـــرام الجيزة العظيمة لتكون قبورا لهم، كما أن فن هذا العهد، وخاصة نحـــت الصـــور

---

(١) Breasted (J.H.), Development of Religion and Thought in Ancient Egypt. New York, 1912, pp. 1-25.

(٢) راجع بورج: تراث العالم القديم، الجزء الأول، ص٣٢

والنقش البارز فى المقابر والمعابد كان على جمال لا يضارع فى أى عهد لاحق للثقافة المصرية.

(٢) الدولة الوسطى (الأسرتان ١١-١٢)، فقد سقطت الدولة القديمة فى أواسط الألف سنة الثالثة على أيدى الأشراف أصحاب الأراضى، ثم ترادف نحو من ثلاثة قرون من الانقسام إلى أن قامت ملكية ثانية مركزة، تعرف بالدولة الوسطى فى طيبة فى مصر العليا تحت حكم فراعنة من الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة (٢١٥٠-١٧٨٠ ق.م.)، وقد أعيدت التجارة على مجال واسع مع الصومال فى الجنوب بجوار البحر الأحمر ومع الساميين فى سوريا وكنعان، والشعوب البحرية فى شرق البحر المتوسط.

وتحت حكم الدولة الوسطى وصلت الفنون الصناعية أعظم ذروة لها من التقدم وازدهر الأدب.

(٣) الإمبراطورية الحديثة (الأسرتان الثامنة عشرة والتاسعة عشرة):

أعقب ختام الأسرة الثانية عشرة فترة كانت فيها مصر تحت رحمة الغزاة الأجانب وحكم البلاد بدو ساميون (الهكسوس) أو مايطلق عليهم الملوك الرعاة، وقد أعاد أمراء طيبة الوحدة، ويبدأ أعظم العهود روعة، إذا لم يكن فى الثقافة المصرية، فعلى الأقل فى السلطة السياسية، بقيام الأسرة الثامنة عشرة (سنة ١٥٨٠ ق.م.)، وبداية تكوين جيش منظم غزا سورية وفينيقية وحارب الحيثيين على الفرات الأعلى، ودان له بالسيادة من ذلك النهر حتى الصحراء الليبية.

وقام على تدبير الأمور فى تلك الإمبراطورية لفيف عظيم من موظفى الدولة، وكان هذا العصر أعظم عصور الفن المعمارى المصرى، وكان معبد الإله آمون فى الكرنك واحدا من أعظم الآثار الدينية روعة فى الأزمنة القديمة، وتقوم اليوم على رصيف نهر التيمس مسلة تذكارية أقامها ألمع غزاة الأسرة الثامنة عشرة (تحوتمس) الثالث.

وبعد انقضاء قرنين من العظمة الإمبراطورية بدأت بوادر الانحلال فى الظهور، فنجد الرؤساء المرتزقة، الليبيين يحكمون فى الدلتا، وأمراء أثيوبيين فى مصر العليا، وفى أواخر القرن السابع (٦٧٠ ق.م.) غزا الأشوريون الدلتا تحت إمرة أسرحدون، وجعلوا من مصر ولاية تابعة، وبدأ عهد الحكم الأجنبى بسقوط مصر أمام

الفرس سنة ٥٢٥ ق.م.، وظلت البلاد خاضعة لإمبراطورية فارس فيما عدا ثـورات متقطعة خاطفة حتى مجيء الإسكندر المقدوني (٣٣٢ - ٣٣٠).

تقدم لنا نقوش مصر القديمة أقدم فصل فى تطور الإنسان الخلقى، كما نعرفه، فصل ربما يحدد أهم خطوة أساسية فى تطور المدينة، وهذه المواد، التى تقدمها هـذه النقوش، من الوفرة والبعد عن اللبس بحيث توضح أنه كانت توجد منذ قرابة ثلاثـة آلاف سنة ق.م، قدرة على الحكم الخلقى النفاذ، كانت قد تطـورت إلى شـوط بعيد، مما يجعلنا نستنتج أنها بدأت فى زمن سحيق القدم فى الألف سنة الرابعة ق.م .

وظهر فى هذا العصر، أقدم تعبير معنوى أمكن تبينه فى العالم القديم، وهـو الكلمة التى تدل على "الصدق والحق والاستقامة والعدل" وكلها تعرف بكلمـة واحدة .

وعلاوة على هذا، فإنه فى الحياة الدنيوية اليومية فى هذا العصر البعيد، حـتى فى الإدارة، كان للمثل العليا تأثير عظيم، وفى عصر الإقطاع بعد ألف سنة من قيـام الدولة القديمة، جرت العادة، عند تنصيب الوزير، أن يوجه ذلك الموظف إلى مثـال وزير قديم، كان قد قدم حكما نزيها فى قضية كانت تشمل أقاربـه، ضـد ذوى قرابته بغض النظر عما فيها من حق أو باطل لئلا يتهم بإصدار حكم فيه تحيز لصالح أسرته هو.

إن أكثر الفضائل شيوعا، بين الشعب فى ذلك الوقت، والتى تكشف عنـها نقوش مصر القديمة، هى الأخلاقيات شديدة الود والاحترام من الأبناء تجاه آبائـهم، إننا نجد، مرارا وتكرارا القبور عظيمة التكوين، فى عصر الأهرام، يقيمها الابن لأبيه الراحل، وكذلك دفنا رائعا يهيئه الابن، ويتجاوز أحد أبناء هذا العصـر مثـال الآخرين كلهم فنجده يذكر فى عبارة جاءت فى نقوش قبره:

" والآن عملت على أنه يجب أن أدفن فى نفس القبر مع " جاو" (أبيه) حـتى أكون معه فى نفس الموضع، ليس مع هذا، لأنى لم أكن فى موقف يمكننى من صنـع قبر ثان، ولكن فعلت هذا حتى يتيسر لى أن أرى "جاو" هذا كل يوم، حتى يمكـن أن أكون معه فى نفس المكان " [1] وعلى قاعدة تمثال مقام فى أحد القبور، نقرأ:

---

[1] راجع برستيد، تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ص٢٤٢

" عملت على أن يصنع مثال هذه التماثيل، وقد رضى بالأجر الذى دفعته لى"[1]. إن الرجل كان يريد، فى جلاء واضح جداً، أنْ يعرف بأن معداته الجنازية حصل عليها بأمانة .

ويترك لنا حاكم إقليم عاش فى القرن السابع والعشرين ق.م السجل الآتى عن حيانة القويمة:

"لقد كنت أعطى الخبز لكل جائع فى جبل، لقد كسوت من كان عارياً هناك . لقد ملأت شطوطه بالماشية الكبيرة، وأراضيه المنخفضه بالماشية الصغيرة، ماظلمت أحداً، وكنت أنطق بما هو خير وأتحدث به، إنى لا أنطق بأكذوبة لأنى شخصاً يحبه أبوه وتثنى عليه أمه، فائق الخصال نحو أخيه ومحبوباً لدى أخته ".

إنَّ هؤلاء القوم، الذين عاشوا منذ أربعة آلاف وخمسمائة سنة أو خمسة آلاف سنة، يؤكدون مراراً وتكراراً بُرءهم من عمل السوء. " لم أرتكب أبداً أى شيء سيئ نحو أى شخص " هكذا يقول كبير أطباء الملك ساحورع فى منتصف القرن الثامن والعشرين ق.م، بينما يقول كاهن، بعد ذلك بزمن وجيز نفس الشئ فى مضمونه: " لم أرتكب أبداً أى عملٍ من أعمال العنف نحو أى شخص ".

ونُطالع خطاباً، وضعه مواطن عادى، فوق واجهة قبره، يقول، موجهاً حديثه الى الأحياء :

" أيها الأحياء، الذين يمرون بهذا القبر، كنت شخصاً يحبه الشعب، ما أخذت أبداً ملك أى إنسان عنوة، لقد كنت أصنع ماكان يسر به كل الناس ".

ويتضح من أمثال هذه الخطب للأحياء، أنَّ أحد دوافع هذه التوكيدات عن الخلق الجدير بالتقدير كان الرجاء فى المحافظة على رضى الجيران، جيران المرء الباقين على قيد الحياة، حتى يقدموا قرابين جنازية من طعام وشراب فى القبر؛ وكذلك فمثلِ هذا السلوك الخلقى، كان يُعتبر ذا قيمة فى نظرِ الآلهة، ويمكن أنْ يؤثر تأثيراً مادياً على سعادة الميت فى الآخرة.

---

[1] تمثال فى مجموعة جامعة ليبزج، شفيندورف، ص١٥٦

وتُظهرنا نصوص الأهرام على أنه لمواجهة كل احتمالات الآخرة، كيف كان مما لاغنى عنه، تطهير الميت فى قمة مراحلة فى فترة انتقالة من مكانه الأرضى إلى مكانه السماوى، ومغزى هذا التطهير ليس فقط فى التنظيف البدنى بل وأيضاً فى التطهير الخلقى .

وحتى فرعون، الذى انتقل إلى السماء والذى أُعلنت براءته، يداوم على إظهار نفس الخصائص فى النهوض بسيادته السماوية التى يتسلمها :

"إنه يحكم بالعدل أمام رع فى يوم العيد " أول السنة"، إن السماء فى حالة راضية والأرض فى ابتهاج، وقد سمعنا أن الملك وضع العدالة (مكان الجور)".

ولايوجد شك فى أنه فى الدولة القديمة؛ نتج عن سيادة رع أنْ نُسبت إليه المطالب الخلقية التى يلتزم بها الموتى فى الآخرة، وأنّه جاءَ فى أدب ذلك العصر الذى وصل إلينا، أن الإستقامة خصيصة ترتبط بآلهة عديدين فى الدولة القديمة، ولكن لأيدانى واحدُ من الآخرين بروز "رع" فى هذا المضمار .

واعتبار النعيم بعد الموت يعتمد، على خصيصة حياة المتوفى الدنيوية الخلقية، كان خطوة هامة فى سلوك المصرى القديم، ولابد أنه كان وعياً خلقياً عميقاً هذا الذى جعل فرعون الإلهى الذى كان فوق وصايات الحكومة الأرضية؛ يجد حُسن القبول أمام القاضى السماوى وخاضعاً للمطالب الخلقية، ويمكننا أنْ نتبين هذا الأثر لتقدم الوعى الخلقى وهو يندرج حتى على الملك فى مطالبه المتعالية فى الفترة الزمنية التى استغرقتها نصوص الأهرام، وتتضمن قرناً ونصف القرن .

وعندما خرجت مصر من الظلام الذى أعقب عصر الأهرام، وبعد قرن ونصف قرن من التطور التمهيدى الذى وصل إلى منتهى عصر الإقطاع (الأسرة الثانية عشرة) حوالى ٢٠٠٠ ق.م فإنّ رجال هذه الحقبة الكلاسيكية تطلعوا إلى الوراء، إلى كفاح قام به أجدادهم مع الموت، مازال موجوداً بأثاره على قبور الأسرتين الأوليينّ فى أبيدوس وماجاورها.

وترتب على الحكم على المطالب الخلقية، تأمل ذاتى، وبدأ الإنسان لأول مرة فى التاريخ يتأمل نفسه، وكذلك مصيره، إنه عصر ناضج، تجاوز فيه الإنسان المصرى القديم حد قبول المعتقدات التقليدية قبولاً لا تردد فيه، وبدأ يفكر فيما كان حتى ذلك الحين موضع قبول دون تفكير، إنه الاعتراف الواعى بالقدرة الشخصية

على الاعتقاد أو عدم الاعتقاد، وفى هذا خطوة واضحة إلى الأمام فى تطور الوعـــى الذاتى والابتكار الشخصى.

ونجد تعبيرا عن اتجاه المصريين القدماء العقلى هذا فى الأغنية التالية:[١]

" ماأعظم رخاء هذا الأمير الطيب![٢]

إنه مصير خير، أن الجسوم تتضاءل

وتذهب، بينما يبقى غيرها

منذ أيام السلف،

الآلهة الذين كانوا فى الماضى،

الذين يستقرون فى أهرامهم

النبلاء والأمجاد، رحلوا كذلك

مقبورين فى أهرامهم

لايوجد بعد لهم مكان

شاهدوا ما يفعل داخلها

لقد سمعت كلمات إمحوتب وحرجدف[٣]

---

[١] نشرها و.م. ملفر W.M. Meller " أغانى الحب" المتحف البريطانى لوح (٦) ١، ٢ ولوح (٧) ١، ٣.

[٢] يقصد الملك المتوفى الذى كتبت فى قبره الأغنية .

[٣] كان(أمحوتب) وزيرا ومهندسا معمارياوحكيما ذائع الصيت فى عهدالملك زوسر (زسر نسرخت- Zeset Nether Khet) مؤسس واعظم ملوك الأسرة الثالثة (٢٧٨٠-٢٦٨٠ ق.م) فى عهد الدولة القديمة، يمتاز عهده- زوسر= بتقدم كبير فى جميع مظاهر الحياة وأخصها البناء، مما يجعل مدة حكمه بحق فاتحة عهد جديدة فى تاريخ مصر، التى شاء حظها أن يظهر فيها فى ذلك الوقت أحد النوابغ الذين تركوا أثرا واضحا فى تاريخ البشرية، ذلك هوأ محوتب، وقد عرف الملك زوسر قيمة نبوغه فمد له يد العون، ومكنه من تحقيق آرائه.=

(كلمات) ذاعت ذيوعا عظيما على أنها نطقاتهم

شاهدوا أمكنتهم

لقد هدمت حيطانها

= وقد ارتبط اسمه باسم الملك زوسر، سواء أثناء حياته أو فيما تلا ذلك من أجيال، فإن المصريين خلدوا اسميهما معا، وظل الناس يذكرونهما حتى آخر أيام التاريخ المصرى، واعتبره الكتاب المصريون فى الدولة الحديثة، إماما وحاميا لهم، وكان يحرص كل كاتب قبل بدء عمله إراقة بضع قطرات من الماء قربانا له.

" وامحوتب" أول مهندس معمارى فى تاريخ مصر شيد قبرا يشبه الهرم فى شكله العام، وهو قبر الملك زوسر الذى جاء على شكل هرم مدرج ذا ست درجات كانت كلها مكسوة من الخارج بالحجر الجيرى الأبيض.

وقد عرف زوسر قدر مهندسه، فكرمه، واراد أن يخلده معه، فسمح بأن يكتب اسمه على تماثيله، وهذا تقدير كريم لم نعرف له شبيها لأن الملك كان إلها معبودا من شعبه وأراد أن يخلد معه امحوتب الذى عرف له مكانه فى دنيا النبوغ الذى لم يقتصر على فن العمارة والنحت، بل نبغ أيضا فى الطب وألف فيه، كما ألف فى الحكمة، وأله المصريون بعد وفاته وشيدوا له المعابد، واطلقوا علي" ابن الإله بتاح".

وكان المتبع فى مصر حتى ذلك العهد، وبعد ذلك العهد أيضا حتى الأسرة الخامسة، أن جميع الوظائف الكبرى، لايتولى أمورها فى أكثر الحالات إلا أفراد البيت المالك وبخاصة أولاد الملك نفسه، فهل كان " امحوتب " ممن لهم صلة بذلك البيت حتى وصل إلى ماوصل إليه؟ وما الذى جعل الملك يكتب اسمه على تماثاله، وهو تكريم لم ينله أحد من أفراد الشعب قبله أو بعده فى وقت سطوة ملوك الدولة القديمة؟ لم يكن امحوتب إلا فردا من أبناء الشعب، وكان مولده على الأرجح فى بلده الجبلين بين الأقصر وإسنا فى قنا، أما ابوه فكان مثل إبنه مشرفا على الأعمال، وإنما الذى أوصله إلى ذلك المركز العظيم مواهبه وحسن استعداده.

راجع -J.B. Hurry, Imhotep, The vizier and physician:

of King Zoser (1926).

3vols, Cairo, 1936-1939.

الدكتور أحمد فخرى: مصر الفرعونية، القاهرة، الطبعة الثانية، أكتوبر ١٩٦٠ م ص ٩٠-٩٢؛

الدكتور نجيب ميخائيل ابراهيم، مصر الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول (مصر)، ص ١٢٥-١٢٦، الإسكندرية، الطبعة الثالثة، ١٩٦٠م.

- أما (حرجرف) فقد كان أميرا ملكيا وابنا لخوفو (الجيزة)، وعاش بعد قرن من امحوتب.

كأنها لم تكن أبدا

لا يأتى أحد من هناك

حتى يخبرنا عن حالهم

حتى يخبرنا عن حظوظهم

حتى يدخل السكينة إلى قلبنا

إلى أن نرحل نحن (أيضا)

إلى المكان الذى ذهبوا إليه "

إلى أن تقول كلمات الأغنية :

"شدد عزيمة قلبك وأنت عائش

ضع المر على رأسك

وارتد ثيابا من رقيق الكتان

وقد تشبعت بالأشياء المترفة

لا تدع للتراخى سبيلا إلى-قلبك

كيف أمورك فى الدنيا

وفق أوامر قلبك

إلى أن يحل يوم النواح عليك، ذلك

عندما لايسمع ساكن- القلب نواحهم

أوذاك الذى فى القبر يحضر الحداد

احتفل باليوم البهيج

لا تكن متعبا فيه

هاكم : لا يأخذ إنسان سلعه معه

بلى، لايعود أحد مرة ثانية، ذاك الذى ذهب هناك" .

على هذا النحو كانت مشاعر بعض أولئك الرجال الذين عاشوا فى عهد الإقطاع وهم يتطلعون إلى قبور سلفهم، ويتأملون فى عدم الجدوى الهائل فى جبانات أهرام الدولة القديمة الفسيحة الأرجاء، حتى أنه ورد إلى ذاكرة المغنى أسماء بعض الحكماء الذين عاشوا منذ ألف سنة خلت، والذين أصبحت أقوالهم مضرب الأمثال، وبذلك وصلوا إلى ما يتجاوز خلودا يهيئه ضريح فى قبر عظيم.

و لم تكن أبدا مسألة صدفة أن (أمحوتب) أول الاثنين اللذين يخلد المغنى ذكريهما، وأن يكون (حرجدف) ثانيهما، فالأول (أمحوتب) كان أقدم مهندس عمارة فى البناء، كان أبا لفن العمارة بالحجر، وصاحب أقدم بناء علوى حجرى لايزال باقيا من العالم القديم هو ما يطلق عليه " هرم سقارة الحجرى المدرج"، فتعود الأغنية إلى قبر مهندس العمارة الأول، العظيم، هذا، وتظهرنا على حالة الدمار التى لحقت به، حتى أن أمكنته " كأنها لم تكن "، وفى الواقع لا يعرف مكانه إلى هذا اليوم .

و(حرجدف) أيضا، الحكيم الذى تذكره القصيده، كان ابنا لخوفو، وعلى ذلك كانت له صلة بأكبر هرم، وقبره لا يعرف مكانه هو الآخر حتى اليوم .

وواقعة أن هذين الحكيمين القديمين (امحوتب وحدجرف) بقيا خالدين فى أقوالهما فقط، هذه الواقعة كانت توضيحا آخر لعدم الجدوى فى العوامل المادية كوسيلة للخلود، وفى الوقت نفسه، فإن توارى أمثال تلك الأرواح، كهذين، إلى قبور لا يمكن أن يتبينا بعد فيه، الذى لا يعود منه أحد ليخبر عن مصيرهم، يضرب على أعظم نغمة كئيبة، فيها تشوق وحنين فى كل هذه الأسطر، إنها نغمة يخال لنا أننا نسمع صدى لها فى الشرق بعد ذلك بثلاثة آلاف سنة فى أبيات عمر الخيام:

" غريب، ليس كذلك، إنه من بين الجموع

الذين اجتازوا قبلنا باب الظلام

لا يعود واحد ليخبرنا عن الطريق

التى، للكشف عنها، يجب أن نقطعها أيضا "

وهنا يكشف للعيان تشكك يرتاب فى جميع الوسائل، مادية أو غير مادية، للوصول إلى نعيم أو حتى بقاء فيما يوالى القبر، ولا يوجد جواب على مثل هذه الشكوك، وتوجد فقط وسيلة لتنحيتها إلى جانب مؤقتا، وهذه الوسيلة يمكن أن توجد فى إرضاء المتعة الحسية التى تغرق مثل هذه الشكوك فى خضم النسيان " لنأكل ونشرب ونفرح، لأننا، غدا نموت " .

ولكن من الخير، على أية حال، أن يترك المرء اسما طيبا يبقى على الزمن،خلفه، ليس لأن ذلك بالضرورة يضمن للرجل الصالح أى شئ فى العالم القادم، ولكن بالحرى ليبقى فى عقول أولئك الذين يبقون وراءه.

(ب) " ديالوج كاره البشر مع روحه "وهل تكفى فلسفة"لنأكل ونشرب ونفرح لأننا، غدا، نموت"؟!

ومع هذا، فإنه كان يوجد أولئك الذين رفضوا حتى هذه النصائح على أنها ليست إلا حلا سطحيا لمسألة الحياة، القاتمة، ولنفرض أن الاسم الطيب يضيع دون ذنب وبغير حق، وفرص المتعة الذاتية يبعدها المرض وسوء الطالع .. إنه بالضبط هذا الموقف الذى يعرض علينا فى وثيقة من أعظم الوثائق أهمية، وصلت إلينا من هذا العصر السحيق، ويمكننا أن نطلق عليه " ديالوج كاره البشر مع روحه " والموضوع العام هو القنوط الذى ينجم عن الموقف السابق ذكره قنوط يتحول إلى الموت على أنه المخلص الوحيد، وهذا الموضوع فى ذاته عقلية، تجربة لمصاب دون حق[1] .

إن هذا التعيس (كاره البشر) كان رجلا وادع الروح، ومع هذا لحقته مصائب كثيرة، لقد ألم به المرض فهجره أصحابه وحتى إخوته، الذين كان يجب أن يعنوا به فى مرضه، وفى غمرة محنته سرقة جيرانه، حتى أن عمله الصالح الذى فعله بالأمس لم يعد يذكره أحد، واصبح اسمه الذى كان يجب أن يحوطه التبجيل، له رائحة تزكم أنوف الناس.

وفى هذه المرحلة، وهو فى ظلام ويأس، ويعتزم أن يودى بنفسه، تبدأ الوثيقة وصاحبنا يقف على حافة القبر، يفزع روحه من الظلمة فى رعب ويأبى أن يصحبه،

---

[1] إن الوثيقة هى بردية من الدولة الوسطى موجودة فى برلين، أعاد إرمان نشرها عام ١٨٩٦ م:
(Gesprucheines lebensmueden mit: Seiner Seele) Abhandl der Koenigl. Preuss: Berlin 1896.

وفى ديالوج طويل يتحدث مع روحه كأنه مع شخص آخر، ولكن روحه لا تطاوعه وسبب هذا الموقف توجسها من عدم وجود قبر يقطن به بعد الموت، وفى بداية الأمر يظهر هذا على شئ من الغرابة، نظرا إلى التشكك الذى كان يرى فيه أمثال هؤلاء الرجال مثل هذه الاستعدادات المادية للموت، كما برهن صاحبنا (التعس) أنه واحد منهم، ويظهر أن الروح نفسه كان قد نصح بالموت حرقا، ولكنه فزع من هذه النهاية المروعة، ولما لم يكن هناك صديق أو قريب على قيد الحياة ليقف بجوار التعس ويؤدى الشعائر الجنازية، فقد عكف صاحبنا (كاره البشر) على أخذ المواثيق على روحه ليؤدى هذه المهمة، ولكنها الآن ترفض الموت على أيه صورة؛ ولايوجد إلا حل واحد، هو أن يعيش المرء مستغرقا فى نسيان الحزن والقضاء عليه كله بالأخذ بأسباب المسرات.

وبعد هذه المرحلة من الديالوج بما فيها من فلسفة: " **لنأكل ونشرب ونفرح لأننا، غدا، نموت**"، يتقدم صاحبنا (كاره البشر) إلى خاتمة رتيبة توضح أن الحيلة، وهى أبعد من أن تكون فرصة للحشرات والمتعة التى لا ضابط لها، أكثر قابلية لعدم الاحتمال، من الموت، وهذا التوضيح تحتويه **أربع قصائد** يخاطبنا بها صاحبنا (كاره البشر).

(١) تصور الأولى الكراهية غير العادلة التى يضمرها العالم لاسم التعس، ولتأكيد هذا، يقدم للموازنة شيئا ممقوتا فى حياة الشعب اليومية وخاصة رائحة السمك والدواجن المعروفة والشائعة فى حياة ساكن النيل، تقول بعض أبيات القصيدة:

" هاكم : إن اسمى مكروه

هاكم: أكثر من رائحة الطير

أيام الصيف عندما يكون السماء حارا

أكثر من رائحة الدواجن

على تل الصفصاف الذى يزخر بالأوز

أكثر من رائحة صائدى السمك

بجوار شواطئ الغدران عندما يكونون قد اصطادوا

هاكم : إن اسمى مكروه

أكثر من امرأة

قيلت ضدها أكذوبة لزوجها "

وهذه القصيدة الأولى ليست إلا ترديدا لواقعة أن اسم الرجل التعس قد أصبح ذا رائحة تزكم أنوف أنداده .

(٢) وفى القصيدة الثانية، يتحول صاحبنا (التعس، كاره البشر) عن نفسه ليصف المسئولين عن تعاسته، إنه يلقى النظر على مجتمع زمانه، ولا يجد إلا الفساد وعدم الأمانة والجور وعدم الوفاء حتى بين ذوى قرابته، إنه حكم مخيف، ويستهل صاحبنا كل مقطع بسؤال 'لمن أتحدث اليوم ؟ "، وربما كان يعنى " أى نوع من الناس أولئك الذين أتحدث معهم؟ " ويتلوكل تكرار لهذا السؤال حكم جديد، وحول هذه المعانى تدور أبيات القصيدة الثانية، يقول فيها:

" لمن أتحدث اليوم؟

إن الأخوة، أخوة سوء

وأصدقاء هذا الزمن ليسوا (على حب)

إن القلوب تتلصص

وكل رجل يأخذ عنوة سلع جاره

لمن أتحدث اليوم ؟

إن الرجل الوادع يفنى

وذو الوجه الجسور يذهب إلى أى مكان

إن ذا الوجه المسالم، تعس

لمن أتحدث اليوم ؟

السرقة تمارس

وكل رجل يأخذ عنوة سلع جاره

لمن أتحدث اليوم؟

إن القلوب تميل إلى اللصوصية

إن الرجل الذى يستند المرء إليه، ليس لدية فهم

لمن أتحدث اليوم ؟

لا يوجد أخيار

إن الأرض لأولئك الذين يرتكبون الإثم

لمن أتحدث اليوم ؟

يوجد نضوب فى الأوفياء

لمن أتحدث اليوم ؟

إن الشر يضرب فى الأرض

وليس له نهاية "

إن روح صاحبنا قد جزع من الموت، واقترح حياة رغدة كوسيلة يجد فيها مخلصا ثم وقد أثاره رعب الموت وخيبة الأمل فى الاستعدادات المادية لمواجهته، فإن صاحبنا (كاره البشر، الرجل التعس) ينطوى على نفسه برهة ويتحول إلى التأمل فى الحياة، وصورت لنا القصيدتان السابقتان ما يراه عند تحوله هذا.

(٣) أما القصيدة الثالثة، فهى الارتداد المنطقى عن أى أمل خافت فى أن الحياة قد تكون مستطاعة، إلى الاعتقاد النهائى بأن الموت وحده هو الفكاك من التعاسه التى وقع بين براثنها.

وهذه القصيدة الثالثة أنشودة قصيرة فى مدح الموت، إنها ليست تأملا رفيعا فى مزايا الموت كالذى نجده بعد ذلك بألف وخمسمائة سنة فى قصة أفلاطون عن موت سقراط، ولكنها صرخة لمتألم يرتد صداها إلينا من أقدم عصور العالم، ومن هنا تأتى أهميتها الفريدة، التى لا تخلو من جمال اختصت به، وشعور يجيش فيه الحنين والشوق، وهذا كله يظهر فى شكل صور محسوسة استمدت من حياة ساكن النيل، اليومية، تقول أبيات هذه القصيدة:

" الموت أمامى اليوم

(مثل) شفاء رجل مريض

مثل رائحة المر

مثل مجرى الغدير فى فيضه

مثل عودة رجل من مركب الحرب إلى بيته

الموت أمامى اليوم

كصحو السماء

الموت أمامى اليوم

كما يشتاق رجل لرؤيه بيته

عندما يكون قد أمضى أعواما فى الأسر "

تصور هذه القصيدة الحياة كمرض طويل نشفى منه عند الموت، الذى هو كعبيق المر يحمله نسيم النيل العليل، كعودة محارب أنهكت قواه الحرب، وهو يدنو من منزله، كل هذه التشبيهات تثير الوجدان العام فى أى عصر وفى أى إقليم.

(٤) وموضوع القصيدة الرابعة، النظرة إلى الأمام، إلى المستقبل النهائى، وتبدأ بعبارة " ذاك الذى هناك " ويعنى الإله الذى يوقع عقاب الشر على فاعله، وتختتم بحل يجعل الموت فناء الدخول لساحة الأبدية، وعلى هذا يلتمسه بأسرع ما يمكن، يقول:

" ذاك الذى هناك

سيقبض (على المذنب) كإله حى

ويوقع عقاب الشر على مرتكبه

ذاك الذى هناك

سيكون رجلا حكيما لم يعد

يصلى إلى رع عندما يتكلم"

وعلى هذا، وهو يتشوق إلى الانطلاق السعيد الذى يهيئه الموت، وواثق مـن المزايا العالية التى سيستمتع بها فى الآخرة، فإن روح صاحبنا التعس يرضخ فى النهاية ويدخل الظل، ويسير ليكون مع "أولئك الذين هناك" (الموتى).

إن قصة (كاره البشر) قصة تدين بمصدرها إلى تجارب فردية كان يتمرس بها رجال هذا الزمن فى الواقع، إنها معلم واضح فى تطور الوعى الذاتى الطويل،

فى تلك العملية النسقية البطيئة التى كان قصارها ظهور الفرد كعامل خلقى، فـرد يرجع للضمير كسلطة أخيرة يمكنه بموجب وصايتها أن يواجه المجتمع ويحاكمـه، ونتبين فى هذه الوثيقة مدى تأثير العوامل الاجتماعية فى مأساة الفرد ومن هنا بدأت الدعوة إلى الإصلاح والتجديد الاجتماعيين .

إن قصة (كاره البشر)، ولو أنها قصة تجربة فردية، فإنها مع هـذا، تتضمـن تأمل المجتمع الذى يرجع إلى نواحى قصوره، تجربة الكاتب فى معظمها، هذا مـن جانب، ومن الجانب الآخر، فإن الاهتمام بالبلاء الاجتماعى، والقدرة على التأمل فى عدم وجود قدر للرجال وتبينه، والكوارث التى تصيب المجتمع، تظـهر أيضـا كموضوع تأملات قاتمة، متشائمة فى هذا العصر، الذى قام فيه الوعـى الذاتـى المتزايد، كما قام أول اصطدام بالواقع .

(ج) "الوعى الأخلاقى" عند المصرى القديم، من " الفرد" إلى " المجتمع"

ونعرض الآن لثلاث وثائق، ترجع لعصر الاقطاع، تتضمن تجارب حياتية عاشـها أصحابها، واصطدموا فيها بالواقع الذى انعدمت فيه وجود قيمة خلقية، وحلمـوا بأيام أفضل، الأولى لكاهن من هليوبوليس يدعى " خع خبررع – سنبر"والثانية لا منمحت الأول، المؤسس العظيم للأسرة التى كـانت تحـدث فى عـهدها هـذه التطورات الهامة فى الفكر، والثالثة يمكن أن يطلق عليها نصائح "أبوور".

(١) تجربة " خع خبر رع– سنبر "

ولد كاهننا فى عهد سيزوستريس الثانى (١٩٠٦ – ١٨٨٧ ق.م)، وهـو يعبر فى تجربته، عن أفكاره القائمة عن المجتمع فى عجالة، كان لا يزال لها رواج بعـد

ذلك بنحو أربعمائة سنة، عندما نسخها كاتب فى عهد الأسرة الثامنة عشرة على لوح محفوظ الآن فى المتحف البريطانى[1] ومن بين ما جاء فى هذه الوثيقة نقرأ:

" .. إنى أتأمل فى الأشياء التى حدثت، الحوادث التى وقعت فى البلاد، إن التحولات تسير قدما، ليس على مثال السنة الماضية،وسنة أثقل عبئا من الأخرى .. الاستقامة نبذت خارجا، والجور يوجد فى وسط ردهة المجلس، إن خطط الآلهة تنتهك، والبلاد فى حزن، والحداد فى كل مكان، والبلدان والأقاليم فى نواح، إن كل الناس، على السواء، يرزحون تحت مظالم، أما عن الاحترام، فقد وضعت له نهاية، إن صباحا يجئ كل يوم ويرجع مرة أخرى إلى ما (سبق) أن كان، عندما أريد أن أتحدث (عنه) فإن أعضائى تقع تحت عبء ثقيل، لقد ألم بى حزن بسبب قلبى، إنه مجلبة للألم أن أسكت عما يتصل به"

" .. إنى أتأمل فيما حدث، إن الأرزاء تجئ اليوم، وغدا لا تكون مرت (المحن)، كل الناس صامتون فيما يتعلق به، (مع أن) الأرض كلها فى اضطراب عظيم، لا يوجد أحد خاليا من السوء، كل الناس على السواء يفعلونه، إن القلوب يستولى عليها الحزن، ذلك الذى يصدر الأوامر مثل ذلك الذى تصدر إليه الأوامر، إن قلب كل منهما راض، إن الناس يستيقظون له فى الصباح كل يوم (ولكن) القلوب لا تدفعه بعيدا، وماجرت عليه الحال أمس، هو مثل اليوم، لا يوجد أحد من الحكمة، بحيث يدرك إدراكا حسيا، ولا يوجد أحد بلغ منه الغضب بحيث يتكلم، إن الناس يستيقظون فى الصباح ليعانوا الألم كل يوم، إن مرضى طويل وثقيل، إن الرجل الفقير ليست لديه قوة لينقذ نفسه من ذاك الذى هو أقوى منه" وتصل الوثيقة إلى مناجاة الكاهن قلبه فيقول :

" .. إنى أتكلم إليك ياقلبى، أجب على (لأن) قلبا هوجم، لا يسكت، هاكم، إن شئون الخادم هى مثل (شئون) السيد، إن الحمل الذى يستقر فوقك ثقيل" .

هنا رجل أثر فية، تأثيرا عميقا، فساد زملائه، إنه يتأمل المجتمع ككل، ويعبر عن تعاسته الخاصة بالنظر إلى مثل هذا المصير المتوقع، إن شغله الشاغل هو المجتمع،

---

[1] المتحف البريطانى ٥٦٤٥، وكان جاردنر أول من تبين محتوياته ونشرها فى "نصائح حكيم مصرى" Admonitions of an Egyptian Sage كملحق ص ٩٥ - ١١٢ وألواح ١٧ - ١٨.

الذى عرقله جموده، غير القادر على تبين تعاسته الخاصة، أو إذا كان له وعى بهـــا بمعنى الإطلاق، فإنه يعدم القدرة على الابتكار للنهوض بتحديد نفسه.

وهنا نصل إلى عهد استيقظ فيه الناس، لأول مرة فى التاريخ، فى شعور عميق بعدم وجود قيمة خلقية للمجتمع.

(٢) تجربة " امنمحت الأول"

ولم يكن هذا الاعتقاد قاصرا على تأملات كاهن من هليوبوليـــس، رقيـــق الحال، إنه ينطق أيضا، فى الاصطدام بالواقع الذى تمرس به امنمحت الأول، الـــذى يضرب أيضا على نفس النغمة الكئيبة.

لقد ترك لنا الملك كلمة نصح وجيزة موجهة إلى ابنه (سيزوســـتريس الأول) الذى كان سيخلفه، بعد محاولة اعتداء - دنيئة - على حياة الملك المسن، قام بهـــا أولئك الذين كان يضع فيهم ثقته[١] .

يقول الملك الأب وهو يحدد الاستقامة لابنه :

" .. استمع إلى ذلك الذى أقوله لك

حتى يمكنك أن تكون ملك الأرض

حتى يمكنك أن تكون حاكم الأقطار

حتى يمكنك أن تزيد الخير

(قس) نفسك ضد كل مرءوسيك

إن الناس يصغون إلى ذاك الذى يدخل الرعب فيهم

لا تقترب منهم وأنت وحيد

لا تملأ قلبك بأخ

---

[١] يرجع تاريخ نسخ هذه الوثيقة إلى ما يقرب من نهاية حكم رعمسيس الثانى، ولعل أفضـــل وأوضـــح ترجمة هى تلك التى أوردها إرمان فى "برديات متحف برلـــين الملكـــى ٤٤-٤٥ Ausden Papyrus des KaenigLichen Museums Zu Berlin.

وراجع أيضا ماسبرو "فجر المدينة ٤٩٧ تذكرة ٢ Dawn of Civilization.

لا تعرف صديقا

أو تصطنع لنفسك مقربين

حيث لا تكون فى ذلك غاية

عندما تنام حافظ لأجل نفسك، على قلبك

لأن الإنسان لاأهل له

فى يوم السوء

لقد أعطيت المتسول، وأطعمت اليتيم

وقد سمحت بدخول من لا قدرله، وكذلك ذاك الذى كان عظيم الشأن

(ولكن) ذاك الذى أكل طعامى قام بثورة

ذاك الذى أعطيته يدى أثار الخوف فيها " .

وتأتى بعد كل هذا قصة المؤامرة على حياته، وهى حادثة كانت السبب إلى حد ما، لاصطدام الملك، مرير النفس، بالواقع.

(٣) نصائح أبوور

وهكذا تكشف لنا نقوش مصر القديمة عن أنه كان هناك رجال لمسوا تماما فساد المجتمع، وجسروا على أن يحلموا بأيام أفضل، و هذا مصلح خلقى آخر فى هذا العصر العظيم، يضع لنا، فى عرض فاجعى، ليس فقط اهامه العلنى العنيف لتلك الأزمنة، ولكن أيضا، نصائح تتطلع إلى تجديد المجتمع والعصر الذهبى الذى يمكن أن يتبعه، وهذه، ربما كانت أعظم وثيقة هامة فى هذه المجموعة التى نعرضها، ويمكن أن يطلق عليها نصائح أبوور[١]

وتحكى لنا هذه الوثيقة كيف أن الرجل الحكيم " أبوور " وفى حضرة الملك نفسه وآخرين، من الراجح أهم الحاشية المجتمعة، يلقى اهاما علنيا طويلا، عنيفا للعهد، ويختمه بالموعظة والنصح، ويعقب هذا رد موجز من الملك، وإجابة فى كلمات قليلة من الحكيم.

---

[١] راجع ألن .هـ. جاردنر The Admonitions of an Egyptian Sage, Leibzig, 1959.

ففى رؤية فاحصة لحياة سكان وادى النيل، يجد حكيمنا كل شيء فى ارتباك .

" لقد وقف دولاب الحكومة على التقريب، أن قوانين ساحة القضاء قد ألقى بها فى مهب الريح، والناس يمشون فوقها فى الأمكنة العامة، والفقراء يفضونها فى وسط الشوارع" .

" إن انحلال الحكومة هذا، يرجع سببه إلى حالة عنف وحرب داخل البلاد، إن الرجل يضرب أخاه من أم واحدة، ماذا يجب أن يصنع ؟ "

" انظروا : إن الرجل يذبح بجوار أخيه، بينما هو (الأخ) (يهجره) لينقذ أعضاءه هو، إن الرجل يعتبر ابنه عدوا له، إن العنف فى كل مكان، لا يوجد رجل الأمس " .

" انظروا الرجل (الذى يظفر) بسيدة نبيلة كزوجة، وأبوها يحميه، وذاك الذى دون (مثل هذه الحماية) إنهم يذبحونه "، إن الدم فى كل مكان، لا يوجد (انعدام) للموت، إن أكفان (الميت) تتحدث، قبل أن يأتى المرء بالقرب منها "

والى هذه الحالة من انحلال النظام والثورة فى الداخل، تضاف أهوال الغزو الأجنبى، يقول مصلحنا :

" .. وفى الواقع، توجد الصحراء فى البلاد، وأقاليم (مصر) أتى عليها التخريب، وحاملوا الأقواس يأتون إلى مصر" .

وبعد أن أصبحت البلاد فريسة للفوضى الداخلية والثورة، وعاجزة أمام غزوات الأجانب، فإن ممتلكات مصر دمرت، وتوقفت عمليات البلاد الاقتصادية، يقول (أبوور):

".. انظروا، كل مهرة الصناع، إنهم لا يعملون، إن أعداء البلاد أفقروا حرفها، إن الكاتب (يكسل فى مكتبه؛ لا يوجد عمل يقوم به، وعندما يفيض النيل، لا أحد يحرث لأجله(النيل) وكل إنسان يقول : لانعلم ماذا حدث فى البلاد؟"

" انظروا لقد تركت الماشية تشرد، ولا يوجد أحد يجمعها معا، وبما لأن اللحم يتوارى، على هذا النحو، فإن الناس يأكلون الأعشاب ويبتلعونها بالمياه، وفى الواقع

أصاب الحنطة الفناء فى كل جانب، والناس يحرمون من الملابس و(العطور) وزيوت الطيب، كل الناس يقولون: لايوجد شيء منها، إن المخزن أصبح خرابا".

و فى مثل هذه الأحوال الاقتصادية، فى الداخل، تتدهور التجارة الخارجية وتتوارى،

" الناس لا يبحرون صوب الشمال فى هذا الزمن، ماذا نصنع بخشب السدر اللازم لمومياواتنا، بالتحية التى يدفن بها الكهنة، وبالزيت الذى يحنط به (الأمراء)، ويندر وجود الذهب وقد انتهت كل الحرف، ياله من أمر عظيم، إن أهل الواحات (لايزالون) يأتون حاملين محصولهم للأعياد! " .[1]

مثل هذه الأحوال، يمكن توقعها، لأن الأمن العام للناس والسلع التجارية، قد زال. "ولو أن الطرق تقوم عليها حراسة، إلا أن الناس يجلسون فى الأدغال، إلى أن يأتى المسافر الذى دهمه الظلام حتى يستولوا على ما يحمل، إن ذلك الذى معه يؤخذ منه، وتكال له الضربات بالعصا، ويذبح بقسوة"

"والواقع، أن البلاد تدور (نظام الأشياء ينقلب) كما تفعل عجلة صانع الفخار، إن ذاك الذى كان لصا هو سيد الثروة و(الرجل الغنى) هو الآن شخص انتهب، وحتى عندما لا تحترم القبور الملكية، فإن الناس لا يبذلون إلا القليل من الجهد لبناء قبر"

وهكذا، كما يوحى تشبيه دولاب صانع الفخار، فإن كل شيء انقلب رأسا على عقب، وقد أتت على الأحوال الاجتماعية ثورة تامة، ويقابل الحكيم (أبوور) بين ما كان وما هو الآن، متتبعا الأحوال التى طرأ عليها التغير، فيما يتعلق بأفراد معينين وطبقات المجتمع، فيقول:

" انظروا، إن ذاك الذى لم يكن لديه زوج من الثيران فإنه (الآن) مالك لقطيع، انظروا، إن ذاك الذى لم يكن لديه حنطة هو (الآن) صاحب مخازن غلال، وذاك الذى اعتاد أن يجلب الحنطة لنفسه، فإنه (الآن) يعمل على صرفها (من مخزنه الخاص)، انظروا، إن صاحب الثروة (الآن) يمضى الليل عطشان (بدلا من إقامة الولائم)، وذاك الذى اعتاد أن يتسول لمالاته هو الآن صاحب كؤوس (فياضة)؛

---

[1] هذه الملحوظة الأخيرة هى بالطبع تهكمية، بالإشارة إلى الحقيقة الواقعة، وهى أن التجارة الوحيدة مع العالم الخارجى التى تركت لمصر هى نتاج الواحات الضئيل الذى كان لايزال يتسرب .

انظروا، إن أصحاب الملابس أصبحوا (الآن) فى أسمال، وذاك الذى لم ينسج لنفسه هو (الآن) مالك التيل الرقيق"

وهكذا، يسير الحكيم من مقابلة إلى الأخرى، وفى مثل هذه الحالة، فإن المجتمع يسير إلى دمار . " الرجال قلة، ويوجد نضوب فى النساء، ولا يوجد حبل فى (أطفال) "

وفى الخراب العام، فإن التدهور الخلقى يأتى بين ثناياه، " إن رجل الفضائل يسير فى حداد بسبب ما حدث فى البلاد"، ويقول آخرون "لو كنت أعلم أين يوجد الإله، إذن لكنت قدمت القرابين إليه، وفى الواقع توجد (الاستقامة) فى البلاد فى اسمها هذا، ومايفعله الناس فى الرجوع إليها هو الجور ".

وهذا ينتهى بالكل إلى حالة من اليأس العام " فى الواقع قد زال المرح، إنه التنهد الذى يوجد فى البلاد، يختلط بالنواح، وفى الواقع، يقول العظيم والوضيع: اتمنى أن أموت، وصغار الصبية يقولون: لكنت أرجو أنه لا يوجد أحد يحفظ لى حياتى".

إن الحكيم، لايمكنه أن يرى هذا كله، دون شعور منه بأن الكارثة العامة تؤثر فيه، أيضا، تأثيرا عميقا، ويرجو انتهاء كل شئ. " إنى لأرجو أن تحل نهاية الناس، وألا يوجد حمل أو ميلاد، "

ويبلغ به الأمر أن يرجع باللائمة على نفسه، لأنه لم يحاول أن ينقذ الموقف قبل ذلك. " ليتنى أعليت صوتى فى ذلك الوقت، حتى يمكن أن يخلصنى من الألم الذى أوجد فيه، الويل لى للتعاسة فى هذا الزمن ! "

هذه هى الصورة القاتمة التى يصورها الحكيم المصرى، ويشمل الاتهام الذى يوجهه الحكيم، ثلثى الوثيقة على التقريب، إنه يعرض الأحوال التى سادت مصر فى زمن محدد.

وكما يمكن أن يتصور من الحزن البالغ الذى يرى فيه " أبوور" تعاسة الزمن، فإنه لايرضى بأن يترك جيله فى هذه الحالة التى لارجاء فيها، إنه الآن يتحول إلى الوعظ ويحض مواطنيه أولا أن يحطموا أعداء الملك، ويدعو كل الناس لمواصلة القيام بالشعائر المقدسة بالنيابة عن الآلهة، هذا ماتتناوله المجموعة الثانية من مواعظ (أبوور)، وفيها تبرز أهم عبارة فى حديث الحكيم بأجمعه، وهى واحدة من أهم

العبارات مدى الأدب المصرى كله؛ فيتطلع حكيمنا إلى إصلاح البلاد، دون ريب، كنتيجة طبيعية للنصائح عن الإصلاح التى وجهها إلى قلوب مواطنيه، إنه يرى الحاكم المثالى الذى يتشوق إلى مجيئه، إن ذلك الملك المثالى حكم مصر مرة بوصفه إله الشمس، رع، وعندما يتذكر الحكيم ذلك العصر الذهبى، فإنه يعقد مقابلة بينه وبين الحكم الجائر الذى وقعت البلاد بين براثنه. " إنه يبرد أوار اللهب، يقال إنه راعى كل الناس، لا يوجد سوء فى قلبه، عندما تكون قطعانه قليلة، فإنه يمضى النهار فى لم شملها، إذ أن قلوبها عطشى، أين هو اليوم؟ هل ربما يكون قد أخذته سنة من نوم؟ انظروا، إن قوته لاترى".

وتكشف لنا عبارة الحكيم عن صورة الحاكم المثالى، الوالى القويم الذى "لايوجد فى قلبه سوء" ويسير هنا وهناك أشبه "براع" يجمع قطعانه التى نقصت وأخذ منها العطش، إن عنصر الأمل فى أن مجيء الملك الصالح قريب، لا يتطرق الخطأ إليه فى الكلمات النهائية:

" أين هو اليوم! هل ربما يكون قد أخذته سنة من نوم؟ انظروا: إن قوته لا ترى".

وبهذه العبارة الأخيرة، يضيف المرء دون طواعية، "حتى الآن"، إن مغزى الصورة الخاص هو فى واقعة معينة، إذا لم تكن خاصة بالبرنامج الاجتماعى فعلى الأقل بالمثل العليا الاجتماعية، هى أن الحلم الذهبى الذى يراود مفكرى هذا العصر السحيق كان قد تضمن الحاكم المثالى الذى يتحدب على خاصته ويحميهم ويحطم الأشرار، وسواء أكان مجئ هذا الحاكم قد تنبأوا به أم لم يتنبأوا، فإن رؤيا أخلاقه وعمله قد رفعه هنا عاليا، دون أن يتسرب إلى ذلك خطأ، الحكيم القديم، رفعها بحضور الملك الحالى وأولئك الملتفين حوله، حتى يمكنهم أن يروا شيئا من سنائها.

وفى ذهن الحكيم، تستدعى المقابلة المروعة بين حكم الملك المثالى وحكم فرعون الموجود الآن، والذى يقف الحكيم فى حضرته، أعنف استنكار لملكه، وهذا يضع الحكيم المسئولية عن كل ما أعاده للذاكرة فى مثل هذا الوضوح، على عاتق الملك.

إنه يقول " الذوق والمعرفة والاستقامة لديك " (ولكن) " إنه الصـــراع ذاك الذى تجلبه فى البلاد، ومعه صوت الاضطراب، ها هو ذا الواحد يهاجم الآخــر، إن الناس يسيرون وفق ذلك الذى أمرت به"

ويصل حكيمنا إلى ذروة المواجهة بينه وبين الملك عند ما يقول له:

" إنك فعلت (هكذا) لتجلب هذه الأمور، لقد نطقت بالأكاذيب "

ويعود الحكيم لحظة الى وصف حالة المجتمع الكئيبة التى شغل بها فى اتهامه الطويـــل، ومع هذا، فإن تقدم فكره يتجه صوب إصلاح الحال فى المستقبل الذى كان ينصـــح به بعد ختام الاتهام واستنكاره المرير للملك، والآن، على هذا فإن التعاسة المســئول عنها تندمج فى صورة نهائية من " الفرح والرخاء "

وفى تعرف الأعماق التى هوت إليها حكومة ومجتمع فاسان، فإن حكيمنا يشـــترك مع " كاره البشر"، فى أشياء كثيرة، وعلى أية حال فإن هذا وجد حظوظه الفرديه مهددة تهديدا فيه القضاء عليها، فى البلايا العامة حتى لم يكن يوجد أمل، ورغب فى الموت على أنه الحل الوحيد، أما " أبوور " من الوجهة الأخرى، **فإنه يتطلـــع فى تيقن تام، صوب خلاص للمجتمع فى المستقبل**، إنها لظاهرة ذات مغزى، إنه ظـــهر فى هذا العصر السحيق، الانعزال الضرورى والقدرة على التأمل فى المجتمع، وهمـــا أمران لم يكونا معروفين قبل ذلك فى فكر الإنسان، وكذلك مما له مغزى أعظـــم خطرا، هو هذه الرؤيا لخلاص المجتمع المرجح وقوعه، وأن العامل فى ذلك الخـــلاص هو ملك قويم يحمى خاصته، ويطهر الأرض من الأشرار، إن هذا، ماهو إلا أقـــدم ظهور لمثالية اجتماعية؛ بدأت تهتم بالطبقات العادية فى المجتمع، فانحاز "المثل الأعلى الرفيع" للعدالة نحو الفقير والمضطهد، وهذا يمثل نسمة من ذلك الجو الخلقى السليم الذى يشيع فى تفكير طبقة الموظفين الاجتماعيين.

وماهو جدير بالذكر حقا أن نجد هؤلاء الارستقراطيين من حاشية فرعـــون - منذ أربعة آلاف سنة خلت - يعنون، فى درجة وافية، بصـــالح الطبقـــات الدنيـــا ليحملوا أنفسهم عناء إصدار ماهو، من الواضح جدا، نشر دعوة لعـــــهد عدالـــة وعطف نحو الفقير، لقد كانوا واضعى نشرات فى حملات إصلاحية من أجل العدالة الاجتماعية.

(د) "حكمة بتاح حوتب" و "نزعة التفاؤل" عند المصرى القديم:

وتعطينا حكمة "بتاح حوتب"[1] دليلا على هذا الانحياز الجديد للعدالة، وقد نطق بهذه الحكمة شخصية تاريخية فى مناسبة معينة، فى الأسرة الخامسة التى كان ينتمى إليها الملك (أسيس)، وفى الواقع، كان يوجد سلسلة من الوزراء يطلق عليهم (بتاح حوتب)، وهم الذين أوصلوا الوظيفة من الأب إلى الابن، ولقد وقع حكم (أسيس) قبل عصر الإقطاع بما يقرب من خمسمائة سنة، وفيه نجد حكمة وزيره العامل (بتاح حوتب) تدور على الألسن.

وتبدأ هذه الحكمة بقول بتاح حوتب:

" أيها الملك سيدى، إن الضعف يجئ والهرم يتقدم، والأعضاء تسير إلى ضعف و(الوهن) يتجدد، والقوة تفنى بسبب خمود القلب (التفكير)، إن الطيب يصبح سيئا، كل ذوق يرحل، إن ما تفعله الشيخوخة بالناس سيئ فى كل شىء، إن الخياشيم تسد، إنها لا تتنفس، إنه سيئ سواء وقف المرء أم جلس"

إن (بتاح حوتب) يلتمس من الملك بأن يعين ابنه فى وظيفة الوزارة بدلا عنه، بسبب تقدمه فى العمر، الذى يعدد أمراضه فى وصف تصويرى، ولكى يمكن أن يصبح ابنه على علم بواجبات مثل هذه الوظيفة الهامة، فإن الوزير يلتمس من الملك الإذن بتعليمه.

وتتضمن هذه الحكمة وصايا (بتاح حوتب) الحذرة عن العيش القويم السليم، وعن المسلك الرسمى المتعقل، وهذا يمثل نتاج التجارب الناضجة التى تمرست بها أجيال كثيرة فى الحياة الرسمية.

---

[1] إن حكمة "بتاح حوتب" محفوظة فى خمسة مخطوطات:

(أ) بردية برس papyris prisse فى المكتبة القومية فى باريس رقم ١٨٣-١٩٤،

(ب) الثلاث برديات الموجودة فى المتحف البريطانى رقم ١٠٣٧١، ١٠٤٣٥، ١٠٥٠٩،

(جـ) لوح كتابة من الخشب فى متحف القاهرة المعروف باسم لوح كارنرفون رقم ٠٤١٧٩٠

راجع: 1847.

ماسبرو : "خمس سنوات من الحفر فى طيبة "، جامعة أكسفورد، ١٩١٢

وبينما فقد رجال الدين من أمثال (كاره البشر) و(خع خبر رع - سبنو)، وإلى حد كبير أيضا (أبورر) نفسه، كل ثق فى فضيلة عالم الموظفين التقليدية، فإن (حكمة بتاح حوتب) تكشف لنا، على الأقل، عن نواة من أحسن الناس فى الطبقة الرسمية والقصر لايزالون يشعرون بالثقة فى طريقة العيش القديمة الطيبة، التى وصلت من أسلافهم، إذا ما حوفظ عليها بعناية.

وشرع (بتاح حوتب)، لما جاءه الإذن الملكى، فى تعليم ابنه "فاتحة الأمثلة من القول الطيب" الذى وصل إليه حكيمنا بعد طول تأمل وتمرس فى الحياة، وكان مما جاء فى أقواله، التى تعرضت للعديد من المسائل الخلقية، مايلى:

١- "إذا وجدت رجلا عاقلا فى زمنه، زعيما فى التفكير، أكثر تفوقا منك، فإثن ذراعيك وأحن ظهرك".

٢- "إذا كنت زعيما (أو إداريا) تصدر المراسيم للجمهور، فالتمس لنفسك كل مسألة متفوقة حتى يبقى مرسومك على الزمن دون سوء فيه، عظيمة هى الإستقامة (الحق، الصواب، والعدالة) إنها باقية على الزمن".

٣- "إذا كنت تحرث ويوجد زرع فى الحقل، فإن الإله يعطيه كزيادة فى يدك، لا تشبع فمك دون ذوى قرابتك".

٤- "إذا كنت زعيما (أو "إداريا") فاستمع (بهدوء) إلى خطاب مقدم الالتماس: إن ذاك الذى أصابه ضيم يرغب فى أن يبتهج قلبه، فى أن يفعل ذاك الذى من أجله أتى... إنه زينة القلب، أن يستمع المرء (إلى شكوى الآخرين) فى رفق".

٥- "إذا أردت أن توطد الصداقة فى منزل تدخل فيه كسيد أو كأخ أو كصديق.. أينما دخلت، كائنا ما كان، فخذ حذرك من الاقتراب من النساء، إن ألفا من الرجال يصبحون لا شىء بسبب الاستمتاع بلحظة وجيزة أشبه بحلم، والرجال يحصلون (فقط) على الموت لمعرفتهم بهن".

٦- "إذا أردت أن يكون إجراؤك حسنا، فامتنع عن كل شر وخذ حذرك من فرصة الطمع، إن ذاك الذى يدخل فيه، لا يتقدم، إنه يفسد الآباء والأمهات، إنه يفرق بين الزوجة والرجل، إنه حزمة من كل شئ سافل. موطد هو الرجل

الذى يكون مقياسه الاستقامة، الذى يسير وفقا لنهجها، إنه تعود أن يحصل على ثروته بها، (ولكن) الطماع لابيت له''.

٧- ''إذا أصبحت عظيما بعد أن كنت وضيعا، واستحوذت على أملاك بعد أن كنت فقيرا فيما سبق، فى المدينة، فلا تكن (متكبر) القلب بسبب ثروتك، لقد جاءت إليك كهبة من الإله''.

٨- ''إن الاستماع إلى النصح يعود بالنفع على المستمع، أما عن الجاهل الذى لا يستمع، فإنه لا يؤدى شيئا، إنه يعتبر الحكمة جهالة؛ وما فيه نفع، مصابا، إن حياته بذلك أشبه بالموت، إنه يموت وهو يعيش، كل يوم، إن الناس (يتحاشون) خصاله بسبب وفرة الأرزاء التى تقع عليه كل يوم''.

فى حكمة (بتاح حوتب) لدينا ما يدل على الحكمة الدنيوية الناضجة فى رجل سياسة ورجل حاشية عجوز حنكته التجارب، وله حياة من التجربة طويلة، ومن السهل أن نتصور أمير عجوزا راضيا عن نفسه، يتطلع إلى الوراء، فى رضاء عظيم، إلى حياته العملية الطويلة، ويستمد من تجربته الطويلة، نصائح سلوكية، رسمية وشخصية، ذات قيمة اخلاقية، كبيرة.

وهذه النصائح، بوجه عام، تعلم رقة الحاشية، والاعتدال والتعقل، دون انعدام التوكيد الذاتى، وتظهر أسلم إحساس طيب فى الثبات والتوازن اللذين توصى بهما الشباب، ولا يوجد شيء من التشاؤم القائم كالذى يوجد لدى ''كاره البشر'' أو ''خع خبر رع -سنو''، إن الحياة تستحق الاهتمام الوفير، إن قدرا من المتعة، سليما، يجب أن يؤخذ، ويجب ألا يسمح للأثقال الرسمية أو غير الرسمية، بأن تختصر ساعات الاستجمام، يقول حكيمنا حول هذا المعنى:

'' اتبع رغبتك طالما كنت حيا، لا تفعل أكثر مما يطلب منك، لا تقصر وقت إتباع رغبتك، إنه ممقوت، التعدى على وقته، لاتحمل الهم كل يوم إلا فى تدبير أمور بيتك، عندما تجيء الممتلكات، فإتبع الرغبة (لأن) الممتلكات لا تكتمل عندما يكون هو (صاحبها) فى ضيق''.

وعلاوة على هذا، فإن الإنسان يجب عليه -على الدوام- أن يظهر بوجه بشوش لأنه-كما يقول حكيمنا - '' لا فائدة من النواح على اللبن المراق''، وفى النهاية، فإن النغمة السائدة هى جد خلقى مسيطر يشيع فى كل فلسفة حكمة

الوزير العجوز المألوفة، وأعظم أمر، ظهورا فيها كلها، هو " افعـــل الصـــواب"، "وعامل الكل بالعدل".

(هـــ) تعقيب

وهكذا يمكن أن نشهد تحولا عظيما فى الوعى الأخلاقى عند المصرى القديم، إن التشاؤم - الذى كان يرى فيه رجال عصر الإقطاع الباكر -الحياة الدنيويـــة، وهم يشاهدون جبانات الأهرام المهجورة، أو عندما كـــانوا يجيلـــون الفكـــر فى الآخرة، وخيبة الأمل فيها، التى كانت تراود بعضهم، قوبلا بتيار مضاد متواصل من الاستقامة والعدالة الاجتماعية، كانت له السيادة، وعرضتـــه فلســـفة المفكريـــن الاجتماعيين الأكثر تفاؤلا، التى يشيع فيها الرجاء.

هؤلاء الرجال كانوا يرون الأمل فى الجهد الإيجابى الذى يبذل فى ســـبيل أحـــوال أفضل، ويجب أن نعتبر نصائح (أبوور) أمثلة أخاذة لمثل هذه الجـــهود، ويجـــب أن نتعرف فى كتاباتهم أسلحة أول فئة معروفة من المحاربين الاجتماعيين والأخلاقيـــين، والإصلاحيين.

وعلى هذا، فإننا نتبين المصريين، وقد نشأ فيهم، فى تاريخ باكر - يدعو إلى الدهشة والاحترام والتقدير - إحساس بعدم قيمة الإنسان الخلقية، ووعى بـــالتزام خلقـــى عميق الغور، تطور إلى أن أصبح أمرا رسميا من الإله، وسرعان ما أصبـــح مقتـــهم للجور، مقت الإله له، ومثلهم العليا الخاصة، أصبحت كذلك، مثل الآلهة العليا، مما كسب لها قوة الوصاية.

فقد أعلنت السياسة الملكية رسميا، أنه أمام منصة القضاء يجب أن يتوقع العظيـــم والقوى نفس المعاملة ونفس الحكم اللذين يلقاهما الفقير ومن لا صديق له.

ومن العسير أن نشكك فى أن مثل هذه المبادئ للعدالة الاجتماعية، كما وجدناهـــا فى هذا العصر، أضافت بقوة إلى ما فيه تطوير الاعتقاد بأنه ليس الرجل ذا الصولـــة والثراء، ولكن رجل العدل والاستقامة هو الذى يكون مقبولا أمام كرسى قضـــاء الإله العظيم، وعلى هذا، فإنه هنا تنتهى دعوى العظيم والقوى، الخاصة العجيبـــة فى مكانه الاعتبار والنعيم فى الآخرة.

- النصوص الجنزية التى تزخر بها توابيت هذا العصر، المصنوعة من خشب السدر، يبين فى وضوح أن الوعى بالمسئولية الخلقية فى الآخرة تعمق كثيرا منذ عصر الأهرام.

إن الفلاح، الذى هو صديق له، وهو يقيم دعواه أمام الوكيل الأعظم يقول له: "خذ حذرك! إن الأبدية تقترب"، إن الحاكم يضع على باب قبره، سجل العدالة الاجتماعية فى معاملته للكل كأحسن جواز سفر يمكن أن يتدعه لأجل الرحلة الطويلة؛ ومرارا وتكرارا: يقيد رجال عصر الإقطاع فى قبورهم دعاواهم فى استقامة الخليقة "إن (فلانا من الحكام) قد فعل الاستقامة، إن مقته كان الإثم، إنه لم يره".

إن موازين العدالة، التى كان الفلاح يرفع إليها أمره، مرارا عديدة، قد أصبحت الآن فى الواقع، تجد مكانا فى واقعة التبرئة فى الآخرة. "إن السوء قد طرد، إن الجور قد اكتسح، قام بذلك الذين يزنون بالموازين فى يوم الحساب".

فأصبح واضحا الآن، لمن تكون موازين الصدق، ومن هو القاضى الذى يقوم بالرياسة عليها، وكيف يقف الجميع أمام القضاء، لاتفرقه بين قوى وضعيف، بين غنى وفقير، بين حاكم ومحكوم، هكذا وصل الوعى عند المصرى القديم، فلا أقل من تقرير أن المباحث الأخلاقية، أن التأمل فى الحياة، وأن العمل من أجل تحسين الحياة وإجادتها، وأن الالتزام الخلقى، إن كل ذلك موجود عند المصرى القديم.



الفصل الخامس
" الحس السياسي عند المصري القديم"

ويشمل :

أولاً: تمهيد:

ثانياً: تعاليم تحوتمس الثالث لوزيره (رخ-مي-رع) ، والصلة التي يجب أنْ تكون بين الحاكم والمحكوم.

ثالثاً: تعاليم الملك خيتي الثالث (أو أختوى) لابنه (مري- كا- رع) ، وسعادة الإنسان في آخرته تتوقف على عمله في الدنيا.

رابعاً : بردية "القروي الفصيح" وضرورة أن يكون الحاكم " سياجاً" يحمى الضعيف من عسف القوى.



أولاً: تمهيد:

يعتبر الإنسان المصري القديم أقدم سياسي عرفه التاريخ الإنساني كله، سياسي عمره من عمر الزمن، علم الدنيا كيف تحكم بالعدل بين الناس، وكيف تصنع القوانين التي تساوى بين الحاكم والمحكوم، وكيف يتكلم الحق في حضورها ويسكت الباطل ، وكيف نحمل الحياة حباً وعشقاً وأدباً وفضيلة.

وهذا المصري المعلم والمشرع هو أول من اشتغل بالسياسة يوم أن كون أول حكومة منظمة، وأول دولة عريقة في التاريخ المكتوب كله، وهي التي أعلنها مينانارمر عام ٣١٥٠ ق.م، وقبل أن يخرج الإنسان الأوربي، الذي يتكبر الآن ويتبجح خيلاء بما وصل إليه، من الكهوف التي كان يعيش فيها فوق الجبال، وداخل الوديان والغابات بقرون طويلة.

ولكي نعرف كيف كان يعيش المصري حاكماً أو محكوماً، يملك الرقاب والعباد، أو زارعاً فقيراً ليس له من الدنيا إلا صحته وقطعة من طين الأرض يزرعها حبّاً وحُباً وضحكاً وشيعاً، ولكي نعرف كيف كان الوزراء يحكمون بين الناس إن خيراً أم شراً، إن عدلاً أم ظلماً، نتصفح بعض نصوص مصر القديمة.

فهذا مينا موحد القطرين، ومكون أول حكومة عرفها التاريخ، يرسى أول قواعد ثابتة للحكم، أساسها العدل والمساواة بين الجميع، فيعلن حق كل فرد في الهواء والماء، وفي أن يعيش آمنا مطمئنا، لا يظلم ولا يظلم، وفي ضرورة أن تسود روح المودة والتسامح بين الجميع، يتساوى في ذلك فقيرهم وغنيهم، ضعيفهم وقويهم، حاكمهم ومحكومهم؛ استمع إليه يوصي وزيره بما قاله الإله:

" لقد خلقت الرياح الأربع حتى يستطيع كل إنسان أن يتنفس مثل أخيه.. والمياه العظمى حتى يستطيع الفقير أن يشرب منها ويروي حقله وزرعه كما يفعل سيده .. لقد خلقت كل إنسان مثل أخيه تماما .. ولقد حرمت أن يظلم الناس بعضهم بعضا، لكن قلوبهم نقضت ما أمرت به وما شرعت".

ثانياً: تعاليم "تحوتمس الثالث" لوزيره "رخ-مي-رع"، والصلة التي يجب أنْ تكون بين الحاكم والمحكوم:

اشتهر اسم "تحوتمس الثالث" كقائد حربي من الطراز الأول، يضع الخطط وينفذها، ويلجأ إلى أساليب جديدة في فن القتال، يتحلى بشجاعة نادرة، و لم يكن يطلب من أحد جنوده أنْ يفعل أمراً لا يستطيع هو نفسه أنْ يفعله.

وتخبرنا وثائق مصر القديمة أنَّ ميزاته الحربية لم تكن إلاّ إحدى نواحي تميزه، فقد حكم إمبراطوريته الواسعة بالحزم واللين، وكان يعرف كل ما يحدث في أرجائها، وكان كما قال عنه وزيره "رخ-مي-رع" كالصقر يرى كل شئ[1].

أدرك تحوتمس أنه لن يستطيع الإبقاء على إمبراطوريته، إذا لم تقم على أساس المودة، ولهذا لم ينتقم من الأمراء الذين حاربوه، بل قرَّهم وثبتهم في وظائفهم، وقبِل منهم الولاء بعد أن أقسموا له يمين الطاعة، ولكنه رأى أنْ يأخذ معه بعض أبنائهم ليتعلموا في مصر مع أبنائه، ومع أبناء كبار الموظفين، ليشبوا مؤمنين بصداقة مصر لهم ولبلادهم، ولكي يرتبطوا منذ طفولتهم وشبابهم بروابط الصداقة مع الأمراء المصريين ومع أبناء كبار الموظفين.

وكانت رحلاته الخارجية إلى سورية والعراق، غير مطبوعة بالطابع الحربي فقط، بل بطابع آخر، فقد أصدر أمره إلى رجاله بأنْ يُدخلوا إلى مصر كل ما يجدونه صالحاً من حيوان أو نبات، ونرى صوراً لكثير من الطيور والحيوانات والنباتات - التي أمر بإحضارها إلى مصر - على جدران إحدى القاعات التي بناها في معبد الكرنك.

وليس من المُستغرب بعد ذلك أن نرى بعض مظاهر الفن السورية والعراقية بدأت تظهر في البلاد، وبدأ كثيرٌ من الآسيويين يستقرون في وادي النيل، وكانت لهم الحرية التامة في أنْ يعيشوا كما كانوا يعيشون في بلادهم، ويعبدوا آلهتهم الآسيوية كما يحلو لهم.

---

[1] أحمد فخري: مصر الفرعونية (موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق.م.)، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، أكتوبر ١٩٦٠ م، ص ٢٨٢-٢٨٣.

أمّا نظرة هذا الفرعون إلى الحكم، وكيف يجب أن يعامل الناس، فإننا نقرؤها على جدران مقبرة الوزير "رخ-مي-رع"، وهي وصايا هذا الملك لوزيره يوم أسند إليه منصب الوزارة، ورسم له الطريق الذي يجب أنْ يسير عليه، وتقدم هذه الوصايا صورة مفصلة، وتوضح الأساليب الفنية لأعباء منصب الوزير (من قضائية ومالية وعسكرية وإدارية وزراعية)، وبالتالي فهي ليست دستوراً صالحاً للماضي فقط، بل صالحة لكل زمان ومكان، وفيها تحليلٌ نفسيٌ للشعب، والصلة التي يجب أنْ تكون بين الحاكم والمحكوم.

يقول تحوتمس موجهاً كلامه إلى وزيره "رخ-مي-رع"، على مسمع من الشعب:

"لا تنس أنْ تحكم بالعدل لأنّ التحيز عدوانٌ على الآلهة.."

عامل من تعرفه معاملة من لا تعرفه، والمُقرب من الملك كالبعيد عنه..

أعلم أنك سوف تصل إلى تحقيق الغاية من منصبك، إذا جعلت العدل رائدك في عملك، إن الناس ينتظرون العدل في كل تصرفات الوزير، وهي سُنة العدل المعروفة منذ أيام حكم الإله في الأرض..

عندما يأتي إليك شاك من الوجه القبلي، أو الوجه البحري، أو من أي بقعةٍ في البلاد، عليك أن تطمئن إلى أنّ كل شئ يجري وفق القانون، وأنّ كل شئ قد تمّ حسب العُرف الجاري، فتعطي كل ذي حقٍ حقه.." [1].

و لم يكن في قدرة الملك أنْ يقضي بعقوبة على أحدٍ من الناس مدفوعاً بكيدٍ له، أو غيظ منه، أو بأي دافع ظالم آخر، بل عليه أن يتصرف وفق ما تنص عليه القوانين في كل حالة، وأكثر من ذلك، فإنّ واجب العدل، الذي يقع على عاتق الملك، لم يكن مجرد واجب أخلاقي، وإنما كان واجباً دينياً وسياسياً في الوقت نفسه، فرغم النظر إلى الفرعون بوصفه إلهاً، فإنّ صعوده إلى السماء عند موته لم يكن، في الاعتقاد الديني المصري القديم، يتم بصورة آلية، وإنما كان مشروطاً بأن

---

[1] النص المصري:
- Urkunden, IV, pp. 1088-1093

راجع أيضاً النص الذي نشره:
- R.O. Faulkner in Journal of Egyptian Archeology, 1955, vol. 14,pp.18 sq.

يكون قد أمضى على الأرض حياة فاضلة قام خلالها بواجباته نحو الآلهة الكبرى ونحو البشر.

ففي المفهوم الديني المصري القديم، كان الملك، شأنه شأن البشر، يُسأل عن أفعاله يوم الحساب، وكان عليه أنْ يدافع عن تصرفاته أمام قُضاة العالم الآخر، ولم يكن يُسمَح له بالصعود إلى السماء، إلا بعد أنْ يقتنع القضاة بأنَّه فعلاً عاش حياة طيبة، وأدى واجباته على النحو المطلوب، وإذا ثبت على العكس، أنَّ حياته لم تكن فاضلة، وأنَّ أفعاله كانت آثمة، كان مصيره جهنم.

ففي آخر أيام الحِداد، يضعون النعش الذي يضم مومياء الملك، أمام مدخل القبر ويُشكلون – طبقاً للطقوس – محكمة تنظر فيما قدم المتوفى من أعمال في هذه الحياة الدنيا، وقد أباحوا لمن شاء، أنْ يتهمه، أمَّا الكهنة فتؤبنه معددةً مناقبه، وألوف الناس التي اجتمعت لتشيعه تنصت إليها، وتشترك في تأبينه، هذا إذا كان المتوفى قد قضى حقاً حياة مجيدة، أمَّا إذا كانت حياتُه على العكس، وضيعة، تصايحت الجماهير، وقد حرم كثيرٌ من الملوك حق الدفن الرسمي الذي تخوله لهم الشرائع نتيجة لاعتراض الشعب، ولذلك كان من يخلفونهم على العرش، يقيمون العدل، لا لما سبق من أسباب فحسب، بل خوفا من العار الذي يلحق بأجسادهم بعد الموت، ومن اللعنة الأبدية كذلك ([1]).

إن ملكا له القدرة على إلقاء مثل هذا الخطاب، يقترب من سمت وقوام ذلك الملك المثالي الذي كان يحلم به مصلحوا مصر القديمة الاجتماعيون، ولا يوجد شك في أن ذلك الملك المثالي كان (رع)، الذي كانت لتتجدد أمجاد حكمه الخلقية في نائبه الفرعوني على الأرض.

إنَّ الملك كان يرجع إلى موافقة حكم إله الشمس، وخصيصته التقليدية، كأساسٍ نهائي لإرشاده للوزير، إنه (رع) الذي له السيطرة في تفكير هؤلاء الفلاسفةَ الاجتماعيين.

إنَّ الالتزام الخلقي الذي يشعر به الناس في داخلهم، أصبح أمراً رسمياً من الإله، وسرعان ما أصبح مقتهم للجوده، مقت الإله له، ومُثلهم العليا الخاصة، وقد أصبحت كذلك مُثل الآلهة العليا، كسبت قوة الوصاية.

---

[1] راجع مصر الفرعونية، ص ١٧١، وما بعدها.

ولنترك القصر، ونُيمم شطر الأقاليم والمقاطعات حيث نجد:

(أ) (أحينما) حاكم الإقليم السادس في عهد الملك سنوسرت الثالث، الــذي حكم مصر قبل ٣٨٧٤ سنة، يقول:

"أني لم استعمل القوة مع أية ابنة من بنات الأهالي، و لم أظلم أية أرملــة، و لم أقبض على عاملٍ ما، و لم أطرد راعياً من أرضه، و لم يكن هناك رئيسٌ أخذت منــه عُمّاله أثناء العملّ".

(ب) وحاكم إقليم آخر في أسيوط، يدافع عن تصرفاته، قائلاً:

" لقد كنت في حياتي رجل ورعٍ وتقوى، وقد أحبني الناس، كما دعــت لي أمهاتهم بالخير، فقد كنت أرعى وأحمي شيوخهم وعجائزهم، و لم أستعبد بنت أحدٍ منهم، وكنت أطعم الجائع وأكسو العاري".

(جـ) وثالث يقنع قضاة العالم الآخر بقوله:

"لقد أعطيت خبزاً للجائع، وثياباً لمن كان عارياً، لقد أعطيت قدراً من اللبن ومكيالاً من الغلة الآتي من (الوقف الأبدي) للجائع، الذي كنت أجده في إقليمــي، لقد رددت بنفسي، نيابةً عن كل إنسان وجدته، وليس لديه سوى غلة مقترضه من آخر، هذه الغلة إلى المُقرض، بواسطة "غلال" من (الوقف الأبدي)، لقد دفنت كــل إنسانٍ لم يكن له ابن، بأقمشة من الكتان الأبيض".

(د) ونقرأ، في نقش بأحد المعابد، كلمات لأحد الحكام، قوله:

إنه أنقذ الأرملة، وواسى المتألم، ودفن المسّن، وأطعم الطفــل، ووقــف إلى جانب مدينته في زمن الجدب، وهو الذي أطعمها في وقت القحط، وهــو الــذي زودها بسخاءٍ بلا تمييز، فكان عظماؤها في ذلك مثل أصاغرها.

(هـ) ويضع حاكم - أميني (في بني حسن) - على باب قبره، بياناً يُســجّل العدالة الاجتماعية في معاملته للكل، كأحسن جواز سفر، يمكن أنْ يبتدعه لأجــل الرحلة الطويلة، رحلة الأبدية، يقول (أميني) عن سياسته الإدارية كسيد إقليم:

"... لم تكن توجد ابنة مواطن أسأت إليها، لم تكن توجد أرملة أوقعــت عليها خطباً، لم يكن يوجد فلاح أبعدته (انتزعت ملكه)، لم يكن يوجــد راعــي قطيع طردته، لم يكن يوجد مشرف على خمسة أخذت أهله من أجل الضرائــب

(التي لم تدفع)، لم يكن يوجد تعس في مجتمعي، لم يكن يوجد جوعان في عهدي، وعندما حلت سنوات المجاعة حرثت كل حقول إقليم المهاة (ضيعته) حتى تخمه الجنوبي وتخمة الشمالي، وحافظت على حياة الناس، وقدمت طعاماً حتى لم يكن يوجد في عهدي جوعان، وكنت أعطي الأرملة، كما كنت أعطي المرأة ذات البعل، و لم أرفع (الرجل) العظيم فوق (الرجل) الوضيع في كل شيء أعطيته، ثم جاءت أوقات ازداد فيها النيل ازدياداً عظيماً (فيضانات) مستحوذاً على الحنطة وكل الأشياء، (ولكني) لم أجمع متأخرات الحقل" [١].

في هذا السجل يبدو أننا نسمع صدى تنصيب الوزير، وخاصة في عبارة " لم أرفع الرجل العظيم فوق الرجل الوضيع في كل شيء أعطيته"، ومن السهل أنْ نعتقد أن مثل هذا الشريف كان يحضر في القصر، وأنه سمح إرشادات فرعون عند تنصيب الوزير.

ونستنتج من هذا، أنّ التعاليم الاجتماعية، التي كان يُلقيها الحكماء في القصر، كانت معروفة على نطاق واسع بين العظماء في جميع أرجاء المملكة، ومن الواضح أنّ المُثل العليا للعدالة الاجتماعية، التي تعرض في مثل هذا الإلحاح في أدب العصر، لم تصل فقط إلى الملك، ولكن كان لها تأثيرٌ عميقٌ أيضاً بين الطبقة الحاكمة في كل مكان.

هذا، وكانت هناك شروطٌ معينة ينبغي توافرها فيمن يشغل منصب القاضي، كما كانت هناك قيود على حرية القاضي في الاتصال بالجماهير، رغبة في قيام القضاة بمهمتهم على الوجه الأكمل، بل إنّ قانون (حور محب) [٢] اشترط اختيار القضاة من أحسن الناس سيرةً، وأكرمهم خلقاً، كذلك حرّم على القضاة أنْ

---

[١] راجع برستد: تطور الفكر والدين في مصر القديمة، ص ٣٤١-٣٤٢.

[٢] "حور محب" (حرفياً "حور-إم-حب" أي "حورس- في عيد" هو أخر فراعنة الأسرة الثامنة عشرة (حوالي عام ١٣٤٠ ق.م.)، لم يكن من سلالة ملكية، وفي أعقاب نزعة التوحيد التي قادها اخناتون في تل العمارنة، استعاد كهنة "آمون" في طيبة سلطانهم في ظل الحكم القصير لملوك ضعاف من أمثال "توت عنخ آمون" و"آي"، وكان القائد العسكري "حور محب" قد تولى على ما يبدو مسئولية الجانب الأكبر من الإدارة الملكية في السنوات الأخيرة من حكم الملك "آي"، وقد برر اعتلاءه العرش بالرعاية التي حظي بها من "حورس" راعي هذه المدينة -طيبة- الذي رافقه حتى طيبة لمقابلة "آمون" الذي أنعم عليه بالملكية (بوصفه صاحب عرشَي القطرين) أثناء أحد الأعياد الكبيرة التي كانت تحتفل بها الأقصر.

يصادقوا أحدا من الناس، أو يتهادوا مع الناس، أو تكون بينهم وبين الناس معاملات مادية، وللحفاظ على نزاهة القضاة، جاء تشديد العقوبة على القاضي المرتشي أو المنحرف، وعلى شاهد الزور، أيضا فقد عاقب قانون (حور محب) القاضي المرتشي بعقوبة الموت، كذلك كان شاهد الزور يعاقب عقابا صارما يتمثل في صلم أذنيه وجدع أنفه أو نفيه إلى مناطق نائية.

ثالثا: تعاليم الملك خيتي الثالث (أو أختوي) لابنه (مري-كا-رع)، وسعادة الإنسان في آخرته تتوقف على عمله في الدنيا:

من أهم المصادر القديمة لدراسة الحالة في مصر في أواخر أيام إهناسيا، تلك البردية التي تحتوي على النصائح والتوجيهات التي وجهها الملك خيتي الثالث (أو اختوي) إلى إبنه (مري-كا-رع) قبل أن يتولى الحكم في عام ٢١٢٠ ق.م. ، أي قبل ٤١١٦ سنة [١].

وفي هذه التعاليم يحاول أختوي أن يعطي خلاصة تجاربه لابنه، حتى لا يقع فيما وقع فيه هو من أخطاء، ويبدأها بتحذير ابنه من أي تابع له يكثر من الكلام،

---

[١] هذه البردية في متحف لينينجراد، ومرقومة تحت رقم ١١١٦أ، وأول من نشرها جولينيشيف في عام ١٩١٣، وظهرت لها ترجمات كثيرة في اللغات المختلفة، وقام (شارف) بدراستها دراسة وافية في عام ١٩٣٦ ونشرها تحت عنوان:

- A. Scharff, Der historische Abschnitt der Lehre Fuer Konig Merikare (SBAW, 1938).

وقد نشرها مرة أخرى (فولتين):

- A Volten, Zwei a Agyptische politische schriften (A nalecla Aegyptiaca, Iv) Copenhagen, 1945.

و"خيتي الثالث" هو من أواخر ملوك الأسرة العاشرة التي حكمت مصر، وكانت عاصمتها "هرقليوبوليس" في الفيوم، ولكن ظل جزء من الوجه القبلي بعيدا عن سيطرتها (وكان جنوب الوجه القبلي قد توحد تحت سيطرة أمراء طيبة الذين سرعان ما أعادوا توحيد البلاد لحسابهم، بينما عاني الوجه البحري من مشاكل كثيرة نتيجة تسلل الشعوب الآسيوية (لا سيما في قسمه الشرقي)، وتمدنا هذه "التعاليم" بإيضاحات عظيمة الفائدة حول الأوضاع السياسية لذلك الزمن، وحول مبادئ الحكومة الملكية ذاتها و"واجبات" الملك تجاه الآلهة وتجاه البشر على حد سواء.

ووراءه أتباع كثيرون، فإن هذا الشخص يسبب الانقسام بين النـــاس، وينصحـــه بقوله:

"اطرده، اقتله، أمح ذكراه (هو) وأتباعه الذين يحبونه"

ويوصي (ابنه) بعد ذلك بأن يكون فنانا في الحديث لأن "اللسان كالســيف للإنسان"، وبأن ينهج سبيل آبائه وأجداده، وأن يكثر من قراءة ما خلفوه من كتب الحكمة، وألا يفعل الشر، وأن يتحلى بالصبر، ويترك وراءه ذكرى حسنة من حب الناس له.

ويحذر أختوي ابنه من الطمع، وينصحه بأن يعتني بتثبيت حدوده، وأن يعلي من شأن رجاله، ويقويهم، لأن الغنى في غير حاجة "لمحاباة غيره، أما الفقير، فإنــه لا يقول الحق الذي يؤمن به، وإنما يحابي من يملك شيئا يعطيه له، فيقول لابنه:

"ما أعظم الشخص عندما يكون رجاله المقربون عظماء، وما أشجع الملــك الذي يكون له رجال بلاط، وما اعظم وأقوى الذي يكون له نبلاء كثيرون".

ويكثر من نصح ابنه لإتباع جادة الحق وإقامة العدل، ويحذره مـــن ظلـم الأرملة، ويوصيه بألا يحرم شخصا من ثروة أبيه، وألا يطرد الموظفين من وظائفـهم، ويقول له:

"حاذر من أن تعاقب الناس دون خطأ جنوه، لا تقتل فإن ذلك لا يجديــك شيئا، ولكن عاقب بالضرب والاعتقال، فتصلح الأمور في البلاد، اللهم إلا الثـــائر عليك الذي تتثبت من أمره.

المملكة بكاملها تعتمد على حكمك الرشيد، وإنه لمما يغبط القلب أن تــرى العمال مشغولين بعملهم، لكن من الخطأ أن تطلب من الشعب الكثير، فمن شـــأن هذا أن يجعلك غير محبوب، وسوف يمحو ذكراك، وذكرى أسلافك لأنهم يعتمدون على محبتك.

لتكن عادلا نحو المواطنين المقيمين في البلد، فأنت عنهم مسئول.

لتحكم بالعدل في بيتك، لكي يخشاك النبلاء الذين يحوزون الســلطة علــى الأرض.

أحكم بالعدل طالما بقيت على الأرض، وواسِ الباكين، ولا تضطهد أرملة أو يتيماً، ولا تحرم رجلاً من مال أبيه، ولا تعزل القضاة من مناصبهم دون أسباب مشروعة ومعقولة".

ولأول مرة في تاريخ مصر، نقرأ في تلك النصائح عن وجود محكمة بعد الموت، يقف أمامها الإنسان صاغراً، ولا ينفعه أمام قضاتها إلا العمل الصالح، "فإنّ أعماله توضع مكدسة إلى جواره" [1].

ويشير أختوي إلى الشباب. فينصح ابنه بالعناية بهم، وتقريبهم منه، وأنْ يمنحهم الحقول، ويكافئهم بإعطائهم بعض الماشية، ولكنه يحذره بشدة من أنْ يُميِّز ابن شخصٍ غنيٍ على ابن شخصٍ فقير، بل يجب أنْ يقدر كل إنسان حسب كفاءته الشخصية.

ويحذر ابنه من الاعتداء على آثار الآخرين، ومن محاربة الجنوب، لأنّ ذلك يُعطي فرصة للبدو الآسيويين، فيعيثون فساداً في الدلتا، ويذكر (أختوي) ما جره عليه اصطدامه بالجنوب، "أنظر! لقد حدثت نكبة في عهدي، لقد تحطمت مناطق عديدة، حدث ذلك حقاً بسبب ما فعلت، ولكني لم أعلم به إلاّ بعد حدوثه، انظر! لقد جوزيت على ما اقترفت".

ويوصي اختوي ابنه بالإكثار من إقامة المنشآت الدينية، وترتيب القرابين، وأنْ يُرضي الله، فإنّ الله يعرف الذين يعملون من أجله، فنجده يختم نصائحه بحث ابنه على طاعة الله والخوف منه، فهو يعلم السر وما يخفى، ويذكره بألا ينسى آخرته، وأنْ يعمل لليوم الآخر، ذاكراً نعم الله عليه، ويقول (أختوي) عن الله:

"إنه هو الذي خلق أنفاس الحياة لخياشيمهم (أي الناس)، وأولئك الذين خرجوا من صلبه ليسوا إلاّ صوراً له، إنه يشرق في السماء ليلبي رغبتهم، إنه خلق لهم النباتات والحيوانات والطيور والأسماك ليقتاتوا منها".

وما أجمل قوله:

"إن الله يقبل أخلاق الرجل المستقيم الضمير، أكثر من قبوله للثور الذي يقدمه الشرير (كقربان) للآلهة."

---

[1] راجع الدكتور أحمد فخري، مصر الفرعونية، القاهرة، طـ١، ١٩٦٠م، ص ١٧٢.

وما أصدق عبارته التي يشير فيها إلى أنَّ الله يوقِّع عقابه على بعض الناس لمصلحتهم:

"إنه (أي الله) يقضي على من يملأ الشر قلبه بينهم (أي الناس) كما يضرب الأب ابنه إكراماً لأخيه، لأنَّ الله يعرف كل إنسان".

وهذه البردية لا تمدنا فقط بتلك المعلومات الهامة عن الحالة الداخلية في البلاد، بل تمدنا بما هو أهم من ذلك، وهو:

(أ) ظهور تلك النغمة الجديدة من التواضع، فلم يعد الملك ذلك الإله المترفع الجبار الحاكم فوق البشر والذي يرجو جميع الناس تعطفه ورضاه ليصيبهم شئ من إحسانه في الدنيا والآخرة، بل أصبح شخصاً يتحدث عن ضعفه ويردد عبارات ندمه كسائر البشر.

(ب) ونقرأ في البردية شيئاً آخر تزداد أهميته، لأنَّ قائله ملك يعترف له شعبه – ولو نظرياً – بالألوهية الملكية، وهو أنَّ سعادة الإنسان في آخرته تتوقف على عمله في الدنيا، ولا تتوقف على رضاء الملك فقط.

(جـ) ونقرأ فيها أيضاً أنَّ كل امرئ مهما كان مركزه، سيحاسب على أعماله أمام محكمة الآلهة، وأنه سيجد تلك الأعمال مكدسة إلى جانبه بما فيها من خير وشر، وأنَّ السعادة في الآخرة لم تعد تتوقف على قبر يُبنى، أو على قرابين تقدم بانتظام، ولكن الله يعرف ما في القلوب، ويطلب من عباده أنْ تحسن نياتهم، ويذرون وراءهم الطمع والشر، لأنَّ النيات الحسنة هي التي يقبلها، وهي أقرب إليه من القرابين التي يقدمها المذنبون ليكفروا بها عما اقترفوه من إثم.

وهكذا تمدنا هذه البردية بمعلومات قيمة عن قيمة الإنسان المصري وحقوقه، وعن معنى الخلق الكريم، الأمر الذي غيّر الشيء الكثير من نظرة المصريين إلى حكامهم بوجهٍ عام، وجعلهم يدركون ما للفرد من قيمة وما له من حقوق.

رابعاً: بردية "القروي الفصيح"، وضرورة أنْ يكون الحاكم "سياجاً" يحمي الضعيف من عسف القوي:

تُعتبر بردية "القروي الفصيح" [1] قطعة أدبية ذات هدف خُلقي أحسن فيها كاتبها اختيار تعبيراتها وصيغها، وأظهر فيها مقدرته في اللغة، تتكون من مقدمة على صورة قصة، وتسع شكاوى في موضوع واحد، وهو الحث على العدل وإعطاء الفقير حقه، وحمايته من الغني الطامع، وأنْ يكون الحاكم سياجاً وملجأً للمظلوم ويخشى من عقاب الله، إذا انحرف عن الطريق السوي.

وإليك بعض تفاصيل ومرامي هذه القصة اجتماعياً وسياسياً.

كان يعيش أحد القرويين واسمه (خو إن أنوب) في وادي النطرون، يذهب ببعض محاصيله لبيعها في إهناسيا، ثم يشتري بثمنها غلالاً يعود بها إلى أهله، وبينما هو في طريقه رآه من بعيد شخصٌ يسمي (تحوتي نخت) - من أتباع رنسي بن مرو الذي كان رئيس مديري القصر الملكي، ومن كبار موظفي البلاد، ومن أقرب الناس إلى الملك الحاكم - انتوي (تحوتي نخت) هذا، اغتصاب ما مع فلاحنا الفصيح، وكان بيت (تحوتي) قريباً من جانب الطريق الضيق الذي سيمر منه فلاحنا، وكانت الحقول على أحد جانبي الطريق، وعلى الجانب الآخر ترعة فيها ماء، فأمر (تحوتي نخت) أحد خدمه، فأحضر له قطعة من القماش فرشها فوق الطريق، فوصل أحد طرفيها إلى الشعير المزروع في الحقل، بينما تدّلى الطرف الآخر في مياه الترعة التي كانت هناك، أي أنْ ذلك النسيج غطى عرض الطريق، فلما وصل فلاحنا، حذره (تحوتي) من أنْ تدوس حميره على النسيج، فصدع للأمر، وساق حميره على حافة الطريق من ناحية حقل الشعير وهنا نهره (تحوتي نخت) سائلاً عما إذا كان يريد أن يجعل من حقل شعيره طريقاً لحميره، فأجابه فلاحنا بأنّه لا يقصد سوءاً، فالطريق مرتفع وقد غطاه بالقماش، ولم يعد هناك مكانٌ يسير فيه

---

[1] كُتبت هذه البردية، ووقعت حوادثها في أواخر أيام الأسرة العاشرة في إهناسيا، وأول من لفت إليها الأنظار العالم الأثري "شابا" في عام ١٨٦٣، ونشر (فوجزلزانج) نصوصها نشراً كاملاً،

- **Vogelsang, Kommentar Zu den Klagen des Bauern, Leipzig, 1913.**

وقد تُرجمت عدة مرات، أحدثها ترجمة ولسون في كتاب:

- **Ancient Near Eastern Texts.**

ومُترجمة أيضاً إلى العربية في كتاب:

سليم حسن، الأدب المصري القديم، الجزء الأول، ص ٥٤ ومابعدها.

إلا حقل الشعير، وفي أثناء تلك المناقشة مال أحد الحمير، فأكل شيئا من حقل الشعير، وعند ذلك قال (تحوتي نخت) إنه سيستولي على ذلك الحمار ثمنا لما أكله، فصرخ فلاحنا سائلا إذا كان من العدل أن يأخذ حماره مقابل قبضة من الشعير ملأ بها فمه، ويردد الاعتراضات السابقة التي تتسم بالاحترام، ولكنه يضيف احتجاجا جريئا هو:

"إن طريقي مستقيم وجانب منه موصد، ولما أسوق حماري بمحاذاة طرفه تستولي عليه، لأنه اقتطف لقمة من الحنطة، إني أعرف سيد هذه الضيعة، إنما ملك ابن مرو رنسى، والآن، إنه هو الذي يطرد كل لص في البلاد بأجمعها، هل يحدث، على هذا، أني أسرق في ضيعته؟"

فنهره (تحوتي نخت)، وأخذ غصنا من شجرة، وأوسعه ضربا، وأخذ كل حميره وساقها إلى الضيعة، ولم يكتف بذلك بل أمر فلاحنا بالسكون، عندما ارتفع صوت الأخير باكيا، لأنه على مقربة من معبد "رب السكون" (أي أوزيريس)، فصاح فلاحنا:

"إنك ضربتني وسرقت متاعي، وتأبى إلا أن تأخذ أيضا الشكوى من فمي!! يا رب السكون رد إلي بضاعتي حتى لا أصيح.."

وظل المسكين عشرة أيام كاملة يستجدي ظالمه أن يرد إليه حميره دون جدوى، فسار في طريقه ليشكوه إلى (رنسى) نفسه في العاصمة، وبلغت شكاواه تسعا صيغت بأسلوب فصيح، وكلها تدور حول العدل ومسئولية الحاكم في الدفاع عن المظلوم، ومساوئ الطمع والتكبر على الناس.

ويقابل فلاحنا رنسى، وفي أدب رسميات بالغ، وسيطرة تامة على سياسة التخاطب الجارية، يظفر – الفلاح – باسترعاء سمع الرجل العظيم لحظة وهو مار، حتى يرسل خادما خاصا ليستمع إلى قصة الفلاح، وعندما عاد الخادم وأبلغ رنسى سرقة (تحوتي نخت)، يعرض (رنسى) المسألة على حاشيته من الموظفين.

وفي الحال يقف زملاء رنسى صفا في جانب مرءوسهم – تحوتي نخت – ويجيبون رنسى، في كثير من عدم المبالاة، بأن القضية، على الراجح هي قضية فلاح كان يدفع ما يستحق عليه إلى ضابط أعلى، غير مختص، وما فعل (نخت) إلا أنه استولى على ضرائب هي في الحق ملكه، ويسألون في امتعاض "هل يعاقب تحوتي من

أجل القليل من النطرون والقليل من الملح؟ (أو على الأكثر) ليصدر إليه الأمر لـرده وسيرده"؛ وتجاهلوا تماما أمر الحمير، ومعنى فقدانها موت الفلاح وأسرته جوعا.

وفي هذه الآونة يقف الفلاح إلى جانب ويستمع إلى من بيدهم السلطة وهـم يتهاونون في شأن خسارته القاضية ويهملونها، أما -رنسى - فإنه يقف في هـذه الفترة يتدبر الأمر في صمت.

إنها صورة تلخص عصورا من التاريخ في مصر القديمة، فمن جهة، الفريـق الماهر من حاشية الرجل العظيم، فريق المداهنين الخاضعين، وهـم الطراز العام لطبقـة الموظفين، ومن الجهة الأخرى، الفلاح الذي أنتهب ماله، الشخص المهجور الـذي لا صديق له، والذي يمثل في شخصه الصيحة لأجل العدالة الاجتماعية، "إن هـذا المشهد هو واحد من أقدم الأمثلة لتلك المهارة الشرقية في وضع المبادئ المعنويـة في مواقف مادية" [(١)].

ويوجه (فلاحنا) خطابه إلى الرجل العظيم الذي تستقر قضيته بين يديه الآن، وينوه بما ذاع عنه من فعل المعروف، "لأنك أبو اليتيـم، وزوج الأرملـة، وأخـو المهجور، ودثار من لا أم له، دعني أضع اسمك في هذه البلاد فوق كل قانون صالح، أيها الزعيم الذي يخلو من الطمع، الرجل العظيم الذي يخلو من الحقـارة، الـذي يحطم الباطل، ويجلب الصدق، استجب إلى الصيحة التي ينطق بها فمي؛ اسـتمع عندما أتكلم، افعل العدل أنت الذي تمدح، الذي يمدحه أولئك الذين يمتدحـون، ارفع تعاستي، أنظر، إني مثقل، اختبرني، ها هو ذا أنا في حزن".

ويقول (فلاحنا الفصيح)، مخاطبا رنسى (الوكيل الأعظم)، ومذكرا له باليوم الآخر، وطالبا منه أن يقيم العدل، حتى ينال العدل بعد موته:

[(١)] برستد: تطور الفكر والدين ف مصر القديمة، ص ٣٠٧.

"أيها الوكيل الأعظم، سيدي! إنك رع، سيد السماء، ومعك حاشيتك، إن كل شئون الناس (هي ملكك)، إنك تشبه الفيض (الفيضان) إنك النيل الذي يجعل الحقول خضراً، ويروي الأراضي البور، صد اللص، احم التعس، لا تكن سيلاً ضد من يتوسّل.

خذ حذرك (لأنّ) الأبدية تقترب، فَضِل العمل على القول (الذي يُضرب به المثل) إنه نسمة الخياشيم، فعل العدالة، أوقع العقاب على ذاك الذي يستحق العقاب، ولن يوجد شئ يشبه لهجك الصائب، هل تخطئ الموازين؟ هل ينحرف ذراع الميزان إلى جانب؟.. لا تنطق بالكذب (لأنك) عظيم (وعلى ذلك مسئول)، لا تكن ذا خفة (لأنك) ذو وزن، لا تنطق بالكذب، لأنك أنت الموازين، لا تنحرف لأنك مقدار صائب، هاك! إنك والموازين واحد، وإذا مالت (خطأ) فلْتَت تميل (خطأ).

"إنّ لسانك هو مؤشر (الموازين)، وقلبك هو المثقال، وشفتيك هما ذراعها."

وتظهر هذه الموازنات، مراراً وتكراراً، في خُطب الفلاح، بين صفات الوكيل الأعظم - رنسى - ووظائفه، وبين الموازين، والدرس فيها واضح، أنّ معيار الإجراء العدل يوجد بين أيدي الطبقة الحاكمة، وإذا فشلوا، فأين، إذن، يمكن أنْ يوجد؟ إنّ المتوقع أنهم سيزنون الصواب والخطأ، ويصلون إلى قرارٍ عدل، فيه العصمة التي تكون في الموازين الدقيقة، لقد أصبحت رمزاً شاع شيوعاً عظيماً في الحياة المصرية، حتى أنّ الميزان يظهر كوسيلة وصفية لتصوير محاكمة كل روح في الآخرة، وفي الواقع، بقي إلى يومنا، في يدي العدالة العمياء.

ويُلاحظ أيضاً، أنّ الفلاح يُذكر الوكيل الأعظم - رنسى - بظهوره هو أمام محاكمة الموازين التي لا تتحيز، ويقول:

"خذ حذرك (لأنّ) الأبدية تقترب"! إنّ هذه احدى الدعاوى القليلة ضد الجور أمام مسئولية الظالم المستقبلة.

وفي آخر شكواه التاسعة، وبعد يأسه من أنْ يرد له الحاكم حقه، يُذكر (رنسى) بأخطار مخادنة الخداع، إنّ من يفعل ذلك، "لن يكون له بنون ولا ورثة على الأرض، أمّا عن ذاك الذي يجر معه (الخداع) فإنّه لن يصل إلى البر، وسفينته لن ترسو في مرفئها... لا يوجد أمس للذي لا يُبالي، ولا يوجد صديق لذاك الذي يصم أذنه عن العدالة، لا يوجد يوم سعيد للطمّاع".

ويقرر الفلاح قتل نفسه قائلاً:

" انظر! إني أشكو إليك، ولكنك لم تسمع فهل تريد مني أنْ أذهب وأشكوك إلى (إله الموتى) أنوبيس؟"

ثم غادر مكانه، فأرسل رنسى وراءه اثنين فأعاداه، وظن المسكين أنهم سيعاقبونه على ما بدر منه، فلما وقعت عيناه على رنسى ابتدره قائلاً:

"إني تواقٌ إلى الموت، كما يتوق الظمآن عندما يقترب من الماء، وكما يتوق فم الرضيع إلى لبن (أمه)"

ولكن رنسى رد عليه قائلاً:

"لا تخف أيها القروي، انظر! إنك ستقيم معي". ثم يُرسل اثنين من الشرطة لإحضار "تخوتي نخت"، ويُرضي القروي إذ عوضه عن كل ما فقده، كما انتقم له فمن ظلمه دون وجه حق، فأعطاه كل ما كان يمتلكه تخوتي نخت.

وتركز بردية (القروي الفصيح) على مطلب أساسي ينبغي أنْ يضعه أولوا الأمر من الحكام نصب أعينهم دائماً وهو حماية الفقير من الغني، وأنْ يكون الحاكم

سياجاً يحمي الضعيف من عسف القوي، وألاّ يعتقد الموظفون أو الذين ينتمـون إلى ذوي النفوذ من بين الحكام أنهم يستطيعون أن يظلموا المساكين دون أنْ تنالهم يـد العدالة.

كما أنّها - البردية - تُلح على ضرورة السعي وراء الحق، وتبيّن لنا كيـف أنّ صغار الموظفين يظلمون الفقراء من الناس، بينما يعني كبارهم بـرد الحـق إلى صاحبه متى وصل ذلك إلى سمعهم، لأنهم هم المسئولون عن ذلك، ونرى فيها أيضـاً بوضوح أمر الخوف من عقاب الذي لا تخفى عليه خافية، عندما ذكّر فلاحُنا رئيس البيت الملكي بأنّه هو المسئول عن نكبته، وأنّه سيقف يوماً أمام الله ليجيـب عـن ظلمه له، لأنه لم يستمع إلى شكواه و لم ينصفه من تابعه.

وتُظهرنا هذه البردية على ما نشأ في مصر القديمة من وعي اجتماعي بعـدم السكوت على الظلم وضرورة أن يعود الحق إلى أصحابه، وعناية المسئولين بـالنظر في مظالم مرؤ سيهم وإنصافهم.

وأخيراً، فإنّ "الشكاوى التسع للفلاح المسروق" توضح أنّ خطاب الإنسـان البسيط الذي يتحدث حديثاً حياً بما فيه من إيماءات، كان يعتبر منذ ذلك الوقـت المُبكر مشهداً ممتعاً لا مثيل له، إننا نقف هنا عند حدود مسرح شعبي، فلا يعـوز هذه القصة شيئاً لتصبح عرضاً مسرحياً، فالمناظر منصوبة، المشهد الأول، الطريـق الممتد بمحاذاة القناة وحقل الشعير الواقع على الجانب الآخر، والفلاح ودوابـه في مواجهة الشرير، وهناك مُمثلون صامتون والأعيان أيضاً المتواطئـون تلقائيـاً مـع الموظف الجشع القاسي، وبالإضافة إلى هؤلاء جميعاً هناك رئيس الحجاب نفسـه، وهو على دراية تامة بألاعيب البشر فيتجنب أنْ يُصدِّق حرفاً مما يقوله أهل القريـة

وخدمه الخاص، إنّه إنسانٌ عادل يفعل ما يمليه عليه منصبه، فيتنبأ بكل شئ ويخفف من الفقر الذي يعانيه رعاياه.

أمّا خطب الفلاح المسروق، فتصور مشاعر الشاكي وجسارته واحترازه، فإزاء صمت الذين يُفترض أنّهم قضاته يسعى (الفلاح) إلى البوح بكل شئ، ويُطلق العنان لشخصه، وقبل أنْ تظهر علوم البلاغة بزمنٍ طويل، مارس المصري فن الخطابة بالسليقة، الخطابة التي تُسحر عقل من يريد إقناعه، وتحول دون أنْ يدافع عن نفسه، أمام ولعه الشديد بحبكة الألفاظ، إنّ الشعب المصري كان قد أدرك منذ ذلك الوقت مختلف إمكانيات اللغة.

إنّ المثل الأعلى الرفيع للعدالة نحو الفقير والمضطهد الذي تعرضه قصة القروي الفصيح، ما هو إلا نسمة من ذلك الجو الخُلقي السليم الذي شاع في تفكير طبقة الموظفين الاجتماعي، وما هو جديرٌ بالذكر حقاً أن نجد هؤلاء الأرستقراطيين من حاشية فرعون - منذ أربعة آلاف سنة خلت - يعنون بدرجة وافية بصالح الطبقات الدنيا.



الفصل: " السادس"

" الأفكار الفلسفية"

فى "حضارة مصر القديمة"

ويشمل:

(أ) تمهيد.

(ب) العلوم [الهندسة - الحساب - الفلك - الطب]

(جـ) الفن.

(د) الدين والفلسفة.

(هـ) تعقيب.



(أ) تمهيد:

زودتنا البرديات والآثار المكتشفة فى مراكز الحضارة المصرية القديمة، بمعلومات جيدة عن مستوى تفكير الإنسان فى تلك العصور ونزعاته الفلسفية، حول الكون والطبيعة والحياة.

فقد اجتهد المصرى القدم فى تكوين صورة واضحة عن الكون والطبيعة والحياة، ليتجاوز مصاعب العيش، التى سهَّل بعضها وجود النيل فى وسط الصحراء، باعتباره شريان للحياة فى هذه الربوع.

لقد كان المفكر المصرى ليستحث الخطى باتجاه (الوحدة) السياسية والكونية والاجتماعية، وعبرت عنها آراؤه فى الحياة والموت والخلود والروح، بطريقة ظنها البعض متناقضة، ومفتقرة للنظام والتنسيق، عزاها (فرانكفورت) إلى قبول المصريين بالجديد المستحدث، بجانب القديم البالى، بطريقة لم تسمح بالجديد أنْ يكون معبراً عن الحالة التى تتجاوز القديم، فجاءت أفكارهم وكأنها -حسب هذا الزعم- خليط غير متجانس[1]

وأبناء مصر القديمة، شأنهم شأن من جابه معضلات الحياة، بثقة عالية بالنفس، فأطلقوا طاقتهم العقلية والمادية من أجل بناء صرح حضارة مزدهرة لذلك اهتموا، أول ما اهتموا بالواقع الحيوى، ومنحو للجغرافيا قدراً من الاهتمام فى عقائدهم، فتحدثوا عن أثر (الشمس) على الحياة، فالناس يحيون، لأنَّ الشمس تشرق عليهم، مع أنهم (فى بداية الأمر) لم يتركوا لقوة (الهواء) -الريح- فى عقائدهم، إلا موقعاً ثانوياً، لكنهم، فى المقابل، منحوا (النيل- الماء) موقعاً هاماً فى نظام الأشياء، فكانت له دورة (ميلاد) وموت (سنوية)، وذلك لصلة الحياة بالماء، يفسر ذلك عثور الأثريين على تميمة ذهبية نادرة، محتواها "طائر الفينوكس الاسطورى" وهو يمثل بداية خلق العالم من الماء الأزلى فى بحيرة عين الشمس والتى انبثقت منها الحياة المنتظمة، ويقابل ذلك الانتظام، شئ من الفوضى، فى حركة الأشياء لا لسبب ازدواجية الموقف الفكرى، بل من أجل أنْ يقول لنا المصرى

---

[1] راجع فى هذا : ويلز، ج.هـ: موجز تاريخ العالم ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة ١٩٦٧ م ص٢٥-٣٥ و٥٨-٥٩ و٦٦ و ١٢٨.

المفكر القديم، أنه قادرٌ على التوفيق بين (الأضداد) فى صورتها القريبة، أو فى الوحدة الكامنة وراءها.

ونتناول الآن بعضاً من هذه الإبداعات المصرية القديمة.

(ب) العلوم

فى الحقيقة أننا نجد أنفسنا إزاء منجزات عبقرية، رائعة ودقيقة، حققها العقل المصرى، أجبرت اليونانيين على الاعتراف بأسبقية العلوم المصرية عليهم، ولاسيما الرياضية منها، على الرغم من أنهم قومٌ قليلو الاعتراف بمصدر معارفهم، ومع ذلك أشار هيرودوت وأفلاطون إلى هذة الحقيقة[1]

فكان أبناء وادى النيل بحق عمالقة فى الهندسة، ومازالت الأهرامات، والمعابد، والقصور والمقابر، شواهد شاخصة على هذه العبقرية، إلى يومنا هذا، وفى معرض كشف العلماء عن حجم العلوم المصرية، يقول العالم (هانزفوديك):

" إن الهرم من أكثر الصروح كمالاً، حينما يقف المرءُ أمامه، ويرنو ببصره نحو القمه (الذروة) فيبدو أمامه ثمة طريقٍ يؤدى به إلى (اللامحدود) ليكوّن خط ولوج عالم الإنسان البعيد"[2]

وقد كانت مقايس المسطحات والمكعبات دقيقة إلى أقصى حد عند قدماء المصريين؛ وكانت الأعداد ذات شكل عشرى، بعكس البابليين فقد كانت أعدادهم على شكل ستينى، وكانت عملية الضرب تتحول إلى مضاعفات متوالية، أما عملية القسمة فكانت بمضاعفة المقسوم عليه حتى يصلوا إلى المقسوم؛ وكان حساب الكسور يُعد أهم شيء فى علم الحساب، بل كان حل المعادلات التى من الدرجة الأولى من الأمور اليسيِّرة عندهم[3]

---

[1] راجع: د. سامى جبره: " فى رحاب المعبود توت، رسول العلم والمعرفة، ترجمة عبد العاطى جلال، القاهرة ١٩٧٤ م، ص ١٦٣ وأيضا:

دكتور ياسين خليل: " التراث العلمى العربى" بغداد، ١٩٧٨ م، ص٢٧-٣٠

[2] دكتور عبد الغفار مكاوى: " لم الفلسفة"، الاسكندرية ١٩٨٢ م ،ص١١٨-١١٩.

[3] راجع: أورسيل (بول ماسون): الفلسفة فى الشرق، ترجمة محمد يوسف موسى، دار المعارف بمصر، ١٩٤٧م، ص ٥٥ - ٥٦.

أما عن حجم التقدم العلمي والتقني، فكتب كل من النمساويين (بيتر كراسا، وراينهارت هابيك) فى كتاب نشر لهما فى ألمانيا يحمل عنواناً عن " الكهربائية فى مصر القديمة" أكدا فيه معرفة المصريين القدماء، القوانين التى أوصلتهم إلى معرفة الكهرباء، والاستفادة منها فى الإنارة، وذلك فى سياق حديثهم عن البطارية الكهربائية التى وجد أحدُ العلماء جداريتها فى معبد "دندرا" فى وادى الملوك، والتى تحمل تخطيطاً لمصباح (مشكاة كهربائية)، مع كامل النظام الهندسى مع المشكاة، مثل السلك والقوة، وجهاز تنظيم درجة الضوء، يستخدمونها فى قصورهم ومعابدهم وأهراماتهم، والطريف فى الأمر أنَّ مهندساً نمساوياً، نجح فى صناعة إنموذج مشابه لذلك الذى اكتُشف فى المعبد، وبهذا جاء إنجاز هذا المهندس، ترجمة للأثر المصرى القديم[1]

وكان علم الفلك موضع ملاحظات منظمة ومتوالية، فقد جعلت السنة ٣٦٥ يوماً وربع يوم ، مقسمة إلى (١٢ شهراً)، وكان الأسبوع سبعة أيام مسماة بأسماء الكواكب السيارة السبعة، واليوم مكّون من اثنتى عشرة ساعة نهارية ومثلها ليلية، كل هذا ينتقل إلينا من مصر عن طريق أجدادنا الأقدمين.

وفكرة البروج؛ وشكل الكون الكروى، وكروية الشمس والقمر؛ لا الأرض التى كانت تُعد حلقة مستوية ممنطقة بالمحيط، وطبيعة النجوم النارية، وشرح الكسوف والخسوف، وافتراض وجود دوائر أوساطها على محيطات دوائر أخرى لتبرير دوران الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل على بعضها.

أما الطب، فوصل ذروته فى التشريح والتحنيط، مع ما رافق هذا التقدم من ازدهار فى المنجزات الكيميائية، وعمليات معقدة تنطق بها "مومياءات" متحف القاهرة[2]، التى تبقى شاهدة على تقدم هذه العلوم على مرّ العصور والدهور.

---

[1] راجع: وصف سراج توت عنخ آمون فى " موجز فى وصف الآثار المصرية" لدائرة الآثار المصرية، القاهرة ١٩٦٩م، ص٢٢٩،نقلاً عن: على حسين الجابرى: الحوار الفلسفى بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان، بغداد، العراق، ١٩٨٥م ص١١٥.

[2] "موجز فى وصف الآثار المصرية" ص٧٩-٨٠ و١٥٢، ٢٠٢

وحقيقة، فإنّ الطب المصرى القديم، جديرٌ بأنْ يدرس فى اهتمام حتى يومنا، لقد وصل قدماء المصريين إلى تقدمٍ عظيمٍ فى الطب والجراحة، واقتبس الطب الإغريقى من الطب المصرى نصيباً عظيماً حتى يمكن اعتباره امتداداً له.

وتذكر أدراج البردى الأطباء والسحرة وأطباء الأسنان وأطباء العيون وغيرهم من الإخصائيين بما فيهم الأطباء البيطريين، وتضم عُجالات طبية وتذكرات وضعها الأطباء القدامى تصف ما يجب القيام به فى حالات خاصة: الطب العام وأمراض النساء وجراحة العظام وأمراض العيون.

وقد عرف المصريون القدامى القلب و"الأوعية التى تذهب إلى كل عضو"، والعلل التى تُصاب بها أجهزة التنفس كالنزلة الشعبية والتهاب الحنجرة، وتعوزنا القدرة على ترجمة كل الألفاظ التى تصف الأمراض والألفاظ الدالة على كثير من مواد العقاقير، لكنّا نعلم أنهم استخدموا عسل النحل والقشدة واللبن، وضمادات الأعشاب والتحميلة والحقنة وزيت الخروع.

وتشير النصوص إلى علاج الأسنان، وعلمنا من فحص الموميات أنّهم كانوا يعرفون كيف "تحشى" الأسنان بنوع من الأسمنت المعدنى، وأنّهم استخدموا الذهب لربطها.

ولقد عنوا بعلاج العيون، وجاءنا عدد من الوصفات التى قصد بها علاج الرمد الحبيبى والكتركتا والعشى، الذى استخدموا له مزيجا من كبد الحيوان، ولا تزال تستخدم اليوم خلاصة الكبد فى علاج هذه العلة.

وقد تحقق أن الكثير من مشاهداتهم للعوارض كانت دقيقة، والأدوية التى استخدموها ناجعة المفعول، أما جراحة العظام، كما جاءت فى بردية (أدون سمث)، فإنها تكاد تكون علمية.

وكان للطب المصرى القديم ذيوع فى الشرق الأدنى، ولم ينكر أبقراط وجالن أن بعض ما حصلا عليه من علم بالطب، جاء من المصنفات المصرية التى كانا قد درساها فى معبد امحوتب فى ممفيس.

كل هذه المعارف والعلوم، قد أخذها اليونانيون عن قدماء المصريين، والمراجع التى استقينا منها معلوماتنا عن أثر مصر فى اليونان حديثة العهد نوعا، إذ أنها لم تعاصر إلا الحضارة النيلية المصطبغة إلى حد كبير بالإغريقية.

فلم يكتف فراعنة سايس (صا الحجر فى الغربية)- الأسرة السادسة والعشرون (٦٦٣-٥٢٥ ق.م.) - باستخدام مرتزقة يونان ضد خصومهم الأثيوبيين، مفضلين إياهم على المرتزقة اللوبيين القليلى الإخلاص، بل إنهم منذ عام ٦٦٠ أجازوا للتجار اليونانيين التجوال فى جميع أنحاء الإمبراطورية المصرية، فأقدم المشاهدين والمؤرخين القدماء أمثال "هيكاتيه الميليس" و "هيرودوت"، وكلاهما آسيوى، قد وصلا إلى مصبات النيل بعد مُضى قرن ونصف أو قرنين على تدخل اليونان فى مصر، بل إن أكبر المؤرخين الوطنيين، وهو (ماينتون)، الذى وضع مصرياته (إيجيبتياكا) بعد عام ٢٧١ ق.م. بمدة وجيزة، كان يُتقن اليونانية كلغته الأصلية، فمن باب أولى إسترابون وديوون وبلوتارك[١]

ولعلّ أهم ما أخذته العقلية الإغريقية عن مصر هو الهندسة التى تُعد النموذج الأصلى للمعرفة حسب مذهب أفلاطون، وبديهى أنّ (طاليس) هو الذى حمل عصاه وقاس ارتفاع الأهرام، لكن هناك مسائل أخرى اضطر إلى حلّها مشيدوا تلك الصروح، نعم إنّ المصريين لم يضعوا نظريات البناء الهندسى كما فعل إقليدس، لكنهم استخلصوا نتائجها ومبادئها وحلولها، كما تشهد بذلك أعمالهم. ويظهر تأثر أفلاطون بالعلوم الرياضية، وخاصة الهندسة، فى تلك العبارة التى توّج بها مدخل أكاديميته فقال:

"لايدخل الأكاديمية إلاّ من كان ملماً بالهندسة"، لذلك فقد جعل من دراسة العلوم الرياضية تمهيداً لدراسة الفلسفة فى نظام تربيته للحكام الفلاسفة، أما العلوم الرياضية التى كان أفلاطون يعنيها فى هذا النظام، فهى الحساب والهندسة والفلك والموسيقى، وهو لا يعنى بالحساب فن العد الذى يستخدمه التاجر أو القائد، ولكنه يعنى به دراسة نظرية للأعداد ولخصائصها.

أما الهندسة فهى ليست قياس المساحات، ولكنها دراسة للنسب المعقولة، ولكن المعرفة الرياضية، على الرغم من أهميتها عند أفلاطون تظل فى مرتبة أدنى من معرفة المثل، وذلك لأنّ الرياضة تعتمد على فروض ومسلمات ليس وجودها يقينياً، ثم تسير بطريق الاستدلال فى استنباط النتائج المترتبة على الغرض الأساسى الذى سلمنا به، ولذلك يُسميها أفلاطون بالعلم الذى لا يستغنى عن استعمال الفروض، والضرورة فيها ضرورة فرضية، كما يقول أرسطو.

---

[١] راجع أورسيل: الفلسفة فى الشرق، ص ٥٥.

والمعارف والأفكار الفلكية التى أبدعها العقل المصرى القديم، وما نعرفه عن الكواكب التى تنتسب إلى سيارات تُرى من الأرض أنها مراكز لها، كل هذا، قد أخذه اليونان - إما قضية مسلمة وإما موضعاً للنظر والبحث - عن قدماء المصريين، وإلى أولئك أيضاً يمكن أنْ تنسب نظرية العناصر الأربعة فى الطبيعة، مع فكرة أنّ الماء هو العامل الأساسى.

ومجموع هذه النتائج والافتراضات الفلكية المصرية القديمة، هى التى ذهب للبحث عنها على ضفافِ النيل طاليس أولاً ثم فيثاغورس بتوصيةٍ منه، وهو الذى قضى اثنين وعشرين عاماً فى المعابد المصرية.

ولاشك أنّ الإغريق عندما زاروا البلاد فى عهد الأسرة السادسة والعشرين، تأثر خيالهم بطبيعة الحالة بقدمها:

"أنتم معشر الإغريق أطفالٌ على الدوام، إذ لا يوجد رجلٌ هرم بينكم".

هذا ما قيل إنّ الكاهن المصرى أنبأ به صولون.

والاحترام للآثار التى طالت عليها الحقب يقويه تحفظ المترجمين الكهنة، وما يتسم به من وقار، جعل المسافرين الشماليين يتصورون المثل العليا، فى حدود ما وصلوا إليه من أعمال عقلية جليلة، لعلم شعب له مثل ذلك الماضى البعيد.

ولا يغيب عنا أن هذا الإتصال الذى فتح بابا للتفكير الإغريقى، قد تلاه عصر التعاون بينهم، وبين المصريين فى موطن العلم الذى لا نظير له فى العالم، وهو الإسكندرية، تلك المدينة التى نجحت فى جمع الشرق بالغرب.

(جـ) الفن:

فرض فن مصر القديمة طابع نفوذه على العالم الخارجى، كما يتضح من العلامات التى يمكن تبينها فى مصنوعات الخزف والنقوش البارزة فى الصناعة (المنوية والميسينية)، وكان هذا قبل أن يبزغ فجر الثقافة الهلينية.

لقد شيد المصريون معابد عظيمة، وقبورا، واستخدموا الأساطين وطرق العلم للسماح للضوء بالانسياب إلى الأرجاء الداخلية، بينما اقتصروا على أبسط الأبنية، واعتمدوا فى الزخرفة على النقش البارز وعلى اللون.

ولقد كان لفنهم المتأخر فى الحفر أثر على فن الإغريق فى مراحلـــه الأولى، ولكن سرعان ما تجاوز تقاليده الصارمة، ولقد أعاد حكام مصر المقدونيون إحيـــاء الفن القومى، ولكن ما استنسخه الإغريق كان يجافى الذوق والدقة.

واليوم بفضل علماء الآثار، فإن الحال غير تلك الحال، إن أعمال النحـــاتين العظيمة فى الأسرات الأولى قد تكشفت فى جمالها لتكون مصدرا جديدا للوحـــى، لفنانى العالم الحديث.

(د) الدين والفلسفة:

رغم أن الدين المصرى كان صعب الاستيعاب بالنسبة إلى كثير من الشـعوب التى اعتبرته صيغا فنية أو لمحات خاصة بعلم الكون، إلا أن اليونانيين اعتبروه كتقاليد كلها حقائق، ويستدل على ذلك من اهتمام الفلسفة اليونانية القديمة بالمطابقـــات والمقارنات بين الآلهة الإغريقية اللاتينية وآلهة طيبة أو منفيس.

بيد أن الشئ الذى كان يؤثر فى الأجانب من الإدراك المصرى لم يكن تلـك الآلهة المحلية التى على شكل حيوانات، ولا الآلهة السماوية والأرضية التى كان لسائر الأديان ما يعادلها، فلا أهمية كثيرا لأن تكون الأرض ذكرا والسماء أنثـى فى زواج الأرض والسماء، كما كان الأمر عند الصـــين ، بعكـــس الحـــال عنـــد الهنـــود والأوروبيين[1].

وكثير من الشعوب الأخرى قد عبدوا الشمس كالإيرانيين والسومريين مـــن قبلهم، لكن الميزة الخاصة العظيمة التى امتازت بها العبادات المنفيســـية أو الطيبيـــة كانت ما تدعيه من قوة لمقاومة الموت، باتباع سلوك شخصى خـــاص، وبمعالجـــة الجسد معالجة خاصة حتى لا يبلى[2] .

هذا، والاستمرار فى تغذية الأموات لا يكفى لبقائهم أحياء، فخطر المـــوت مرة أخرى الذى طالما شغل الإدراك الهندى لم يستبعد استبعادا تاما؛ فهنالك أسباب أخرى عدا عدم التغذية، قد تؤدى إلى الموت الأبدى، لذا وضع قدماء المصريين فنـا للتخليد يتناول المظهر المادى والمظهر النفسى، وهكذا وضعوا حلا لمشكلة الخـلاص لا يشابه أى حل آخر.

---

(١) ،(٢) أورسيل: الفلسفة فى الشرق، ص٥٧.

إن التحنيط يحفظ قوة الحياة، ثم يشرع فى عمليات على المومياء نفسها أو على صورة تشبهها، فيتم منح (الجسد) القوى الحيوية كحركة الكلام والإشارة!، ويجب أن نعلم أن الفرد لا يعيش فقط بواسطة جهازه الجسمى، وقلبه الذى يعد حاسة داخلية وأداة للإدراك، بل هناك جزء هام من الفرد يبقى خارجا عنه وهو "الكاه" (وهى مبدأ القوى الفعالة للناس والآلهة)، فالشعيرة التى تجمع المومياء إلى "الكاه" تحول الجسد- أى "زت" - إلى شئ لا يفنى ويتيح للمتوفى أن يظهر، إما على شكل روح (باه)، وإما على شكل عقل (آخ)، ويظل العقل سماويا، أما الروح فتعود وتبعث الحياة فى التماثيل والمومياء متنقلة بين السماء والأرض[1] .

إن من الطبيعى أن يكون للإنسان جسد (زت) وكاه منفصلين، ولكن ليس من المعقول أن يكون له روح تستطيع التوفيق بين المبدأين، أو تحقق تلك الروحية؛ تلك الطريقة، طريقة الوجود الإلهى الخالد التى تشير إليها الصورة الهيروغليفية المرسومة على الجدران، والتى تدل على الخلود، فالسحر يستطيع أن يؤدى إلى حركة فوق الطبيعة، وهى حركة طالما التمستها من الرحمة الإلهية بعض العبادات الأقل مادية، وذلك بإحلال الخلود محل عدم الفناء المستمر، وهذا حل أول للرحلة إلى الشاطئ الآخر، الشاطئ الغربى حيث لايرجع من ذهب إليه، ثم شعرت البوذية برغبة فى الأخذ به، كما سنتناول ذلك تفصيلا عن حديثنا عن الفلسفة البوذية.

ولا يسعنا إلا أن نرى فى ازدواج (زت وكاه) صورة أولية لنظرية العالمين الحسى والمعنوى التى وصفها أفلاطون ودافع عنها بقوة[2] ، وهى المسماة ب"نظرية المثل". وتجدر الإشارة إلى أن افلاطون يعنى بالمثال (eidos) الحقيقة الثابتة وراء الظواهر المحسوسة الدائمة التغير، والمعرفة بالجزئيات - عنده - لا تكون صحيحة إلا إذا توافرت للإنسان المعرفة بالفكرة العامة المفسرة للأمثلة الجزئية المحسوسة.

ويرى أفلاطون أن الفكرة العامة أو الماهية المعقولة سابقة على وجود الجزئيات المشتركة معها فى الاسم، ويشير إليها بقوله المثال فى ذاته (Auto to) ويستعمل كلمة الماهية أو الجوهر (ousia).

---

(١) 1903, p. 462.

(٢) وكذلك "إيدوكس السينيدى" وهو من مؤلفى نظرية المثل، قد أقام ستة عشر شهرا بجوار هليوبوليس (٣٨٢ - ٣٦٤ ق.م.)؛ بيديز، مجلة المجمع الملكى عام ١٩٣٣، ج١٩، ص ١٩٥-٢١٨.

وقد عمم أفلاطون نظرية المثل على كل مجالات الوجود، فافترض أن هنـاك مثلا للعناصر الطبيعية الأربعة ولمركباتها وللنبات والأحياء جميعا، بـل ذهـب إلى القول بوجود مثل للمصنوعات، كذلك فإن لكل التصورات الأخلاقية والمعنويـة مثل خالدة مطلقة، لاتتعدد ولا تتغير رغم تغير تطبيقاتها وأمثلتها المشاهدة فى الواقع. ويقوم المثال فى الفلسفة الأفلاطونية، بوظيفة العلة المفسرة للوجود الطبيعى، وبهـذه العلية المثالية أدخل أفلاطون التفسير الميتافيزيقى الذى لا يكتفى بالبحث التجريبى فى العلل، بل يفترض أنها توجد فى مستوى يعلو على التجربة وعلى المعلومات، وقـد ترتب على هذا أن صارت علاقة العلية عند أفلاطون هـى علاقـة مشـاركة، participation[١] .

ولكن من يتتبع تطور نظرية المثل عند أفلاطـون وخاصـة بعـد محـاورة (بارمنيدس)، أى فى الطور الأخير من فلسفة أفلاطون فإنه يتبين تسرب مؤثريـن رئيسين:

أولا: قول أفلاطون بعلية النفس فى العالم الطبيعى واعتبارها - النفس- علة مباشرة فعالة بعد أن كان المثال يقوم بهذه الوظيفة.

ثانيا: التوحيد بين المثل والتصورات الرياضية، لدرجة أن المثل أصبحت أقـرب إلى نماذج مجردة، ليس لها فعل مباشر فى العالم الطبيعى أى (براديجما Pradeigma).[٢]

و لقد أفضت فكرة أفلاطون فى علية النفس وفاعليتها فى عالم المحسوسـات، إلى إمكانية القول باشتراك المثل أو النماذج مع النفوس فى التأثير على عالم الطبيعـة، بل أصبحت النفس بمثابة العلة الفاعلة والمباشرة فى تحريك الطبيعة، بل واسطة بـين الموجودات الحسية والمثل العقلية.

ونلاحظ أن هناك اختلافا بين العنصر الأزلى والروح الخالدة، فيمـا يتعلـق بمصر واليونان القديمة، وأن أمنية العقل هى أن يصل بقدر الإمكان إلى حياة دائمـة، حياة لايمكن أن تتأتى بالتعاون بين الذات والوجود.

---

[١] راجع، الدكتوره أميرة حلمى مطر، "الفلسفة عند اليونان" دار النهضة العربية، ١٩٧٧م، ص ١٦٩، وما بعدها.

[٢] 242-261.

وقد عملت مصر أيضا على تكوين فكرة الكلمة أو العقـــل (اللوجـــوس)، وشاركها فى ذلك شعوب أخرى؛ ولكن لم يصل شعب من هذه الشعوب، حتى فى الأوساط الإغريقية إلى ما وصلت إليه مصر، من تنظيم هذه الفكرة تنظيما دقيقـــا؛ فالصانع يخلق بالتعبير بلسانه عما يفكر فيه بقلبه.

وقبل أن تنشأ الفكرة القائلة بأن نظام الكون والناس لابد أن يحدد بقوانـــين، وجدت فكرة تقول بتكوين (النظام) من مجموعة من الكلمات؛ والفراعنـــة كـــان لكلامهم نظامه وانسجامه، فكان هذا تمهيدا لتأسيس نظام العدل الأخلاقى.

ولنضف إلى ذلك أن الصيغ والأشكال التالية للنظرية، قد اصطبغت بصبغـــة العقلية المصرية، (فاللوجوس) الذى سطع لإحياء الكائن وإنارة العقول، يشهد بهـــذه القضية المسلمة التى استلزمها النظام الملكى الفرعونى: تطابق القوة المطلقة لســـلطة الكلمة وقوة الشمس.

وهكذا، ابتداء من العصر السابق لسقراط إلى العصر الأفلاطـــونى الجديـــد، تركزت الفكرة اليونانية فى دائرة طرق التمثيل المصرية، الـــتى ارتفعـــت إلى ذروة التفكير بطريقتين:

أولا، بإخلاصها المتفانى للحكمة العملية التى اعتبرها اليونانيون فلســـفة وأطلقـــوا عليها هذا الأسم،

وثانيا ، بفلسفتها الدينية، وعندما انهارت مؤقتا جميع العقائد فى خـــلال المملكـــة الوسطى، بدت مقابل روح الشك واليأس بعض الثقة المعقولـــة فى قيمـــة الإدراك الفردى، وذلك لايجاد التوازن الضرورى فى الحياة اليومية، ففكرة "اعرف نفســك" السقراطية كانت لها سوابق، فضلا عن فكرة محاسبة الضمير الرواقية، لقد تقدمـــت تلك الحكمة على شكل قصص رمزية على الطريقة الشرقية، ومع ذلك فقد أثـــرت فى أحوال الحياة الإنسانية بأفكارها الواضحة، وفى بعض الأحيان، استطاعت تقويـــة المحافظة على الدين.

ونلقى الآن بعض الضوء على جانبين هامين من جوانب إبداع العقل المصرى القديم، ونعنى بهما، الفلسفة الطبيعية، والفلسفة الأخلاقية.

(١) الفلسفة الطبيعية:

نظر المفكر المصرى إلى الكون على أساس (المواليد)، فقصة الخليقة المصرية[١] تتلخص فى أن "آتوم" بدأ من المياه الأولى، ودون تدخل من أحد، بخلق الكون من (الهيولى – السديم–)، واتخذ هذا نظاما كونيا تضمن ثنائية الموجودات المتناظرة، حيث كان:

- اللامتعين: أساسا للبحر (السديمى) عديم الشكل وهو المادة الأولى
- واللامتحدد: أساسا للامحدود واللامتناهى.
- واللامشخص: أساسا للظلام والعتمة واللانظام
- واللامكتشف: أساسا للخفى والمحجوب.

وبذلك أرجع المصرى، الموجودات فى الكون إلى (أربعة أزواج) هى العناصر الأولى للموجودات، تفرعت عنها أصول ثمانية فى الأزمنة السحيقة[٢]، ولكنها كانت بلا نظام، مما فرض على المفكر المصرى أن يقابلها بعناصر النظام التى تحكمها الشمس، والتى بفضلها انتقل الكون من (الفوضى) إلى (النظام) بسبب عناصر القوة التى عبرت عنها مع الشمس عناصر الهواء والرطوبة وكائنات (الأرض) و(السماء).

وبذلك يصبح (الخلق) فى الفكر المصرى هو الحد الفاصل بين (الفوضى) و(النظام) وهو ما نسميه بهندسة الكون التى نادى بها أفلاطون فيما بعد.

أما عملية خلق السماء والأرض، فتتلخص، فى أن "آتوم" – الفراغ المشحون – انفصل إلى (هواء) و(رطوبة)، ثم تكثف الهواء، فكانت السماء، ومثل ذلك حدث للرطوبة (الماء) فكانت الأرض، ومن السماء والأرض، جاءت الكائنات التى عمرت بها الدنيا[٣]. ولمعرفة حقيقة هيمنة المبادئ (الفلكية) فى الكون المصرى، على

---

(١) دكتور محمد جابر الحسينى، فى العقائد والأديان، القاهرة ١٩٧١م، ص ٤٦ وما بعدها.

(٢) 1988, ch. 4.

(٣) كريمر: أساطير العالم القديم، ص١٩، ٤٦

حركة الأشياء فى الأرض، وتحديد خصائصها وسماتها، نجد إشارة صريحة فى (كتاب الموتى)[1] تفيد بأن الإله (الشمس) خلق العالم بما يملكه من عناصر النظام.

فالاسم، هو قوة الشئ؛ والتلفظ باسم جديد-من قبل الإاله-هو بمثابة خلق جديد[2] ،ويتجلى هذا الاتجاه (الاسمى) بصورة واضحة فى أجمل نص وصلنا من مصر، ونعنى به " نص منفس" أو اللاهوت المنفس[3] ، الذى تضمن إشارة صريحة لمبادئ الخلق المستمر هذا، وهى (القلب) الذى يبتدع الفكر، و(اللسان) الناطق بالأمر، شخص لنا هذه العملية من خلال (حو= النطق بالأمر) و(سيا=الادراك).

بمعنى، أن النطق الذى يخلق الحالة المراد ايجادها، يعتمد مسبقا على معرفة بالشئ، أو فكرته، كمقدمة لعمليه الخلق، وهذه العملية لاتتم إلا بادراك شئ ما فى سياق مترابط ومتكامل مصدره الإله، وما ينتج عن ذلك من نطق الأمر الخالق: لشئ جديد.

ويتجلى لنا فى هذا النص، أن الإله (الشمس) هو جوهر الوجود، وسر الحياة، وإله (المعرفة والحقيقة)[4] وتلك مسألة توصل المفكر المصرى، إلى حلها،من خلال التأمل العميق والاستقرار المتراكم، لمتغيرات الحياة وتقلباتها، بما بنسجم والبيئة المصرية.

إن من يطلع عى نص (منفس) يقتنع بمضامينه الفلسفية، عن الكون والحياة، ذلك أنه يمثل تطورا فى نمط التفكير الفلسفى فى مصر القديمة، لأنه ينتمى إلى مرحلة تسبق سنة ٧٠٠ ق.م.، ولعله أعمق ما أبدعه الفكر المصرى من مفاهيم ومصطلحات فلسفية، يصف فيها الخليقة التى كانت فكرة انبعثت من قلب الإله ثم كانت أمرا حول الفكرة إلى حقيقة بفضل قوة الكلمة الخلاقة، والفكر والنطق، من الخواص المتميزة للسلطة فى مصر، واقتران (الفكر) بـ (النطق) ينبئ عن تصور منطقى تحدث عنه الإغريق فيما بعد على لسان (الرواقية)، أما الإدراك، فهو العلم

---

[1] راجع: موجز فى وصف الآثار المصرية، ص ٦٨-٦٩ وص ١٩٦.

[2] فرانكفورت، ما قبل الفلسفة، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا، بيروت ١٩٦٠م، ص٦٩

[3] أساطير مصر القديمة، ص ٢٢ و ٤٨ - ٥٢ و ص ٦١.

[4] راجع : ولسن (جون): الحضارة المصرية، ترجمة أحمد فخرى، القاهرة ١٩٥٥م ص٤٧٣.

المعبر عن الشئ، والذى كان أصلا فكرة مصدرها القلب، ثم جاء اللسان، ليعبر عنها بالفعل الواقع[1] .

وقد مثلت لنا هذه الفكرة، الشئ (بالقوة)[2] يتحول إلى وجود بالفعل، بالأمر (النطق)، وتلك إرهاصات فلسفية، ليست قريبة العهد من زمن الإغريق، بل يرجح عودها إلى عصر يسبق عام ١٣٠٠ ق.م، حيث كانت وحدة الكون الحيوية واحدة؛ وهذا ما تحدث عنه أرسطو بعد ذلك بألف عام من خلال (القوة والفعل) أو (المادة والصورة).

وتجدر الإشارة إلى أن تصورات أرسطو للمادة والصورة أو القوة والفعل، تعتمد على وجهة نظره فى التغير أو الصيرورة، لأن أى تغير يفترض الثبات، وكل صيرورة تستلزم وجود شئ لا يصير.

وكل جوهر، أو موجود معين مركب من هذين المبدئين، مبدأ المادة، الذى يقدم أساسا يصدر عنه وجوده، كأن يكون البرونز مثلا مادة التمثال، ومبدأ الصورة، التى تحدد حقيقتة وماهيته، كأن تكون صورة التمثال هى (الإله هرمس) مثلا ولئن اتصفت الصورة بأنها الوجود، إلا أن المادة ليست اللاوجود أو العدم المطلق، وإنما هى وسط بين الوجود واللاوجود، أو هى باختصار استعداد وإمكانية (potentiality) للوجود، أو هى وجود بالقوة يتحول إلى وجود بالفعل بعد حصوله على صورة معينة، أى أن المادة هى مجموعة الشروط الواجب توافرها كى تظهر الصورة[3] .

وأى وجود لا ينشأ فى رأى أرسطو من العدم، بل من إمكان، أى من وجود بالقوة، وغاية الكائن أن يصل إلى تمام صورته، ونهاية التغير هى أن تحصل المادة على الصورة المناسبة لها، ومتى تم ذلك أصبح الوجود موجودا بالفعل بالنسبة للقوة كالإنسان اليقظ بالنسبة للنائم، أو كالبذرة بالنسبة للشجرة، أو كالبرونز بالنسبة للتمثال.

---

(١) "ما قبل الفلسفة" ، ص٧٢-٧٣

(٢) نفس المصدر، ص٧٧-٨١

(٣) Brehier, E. : Histoirede la philosophie, Toml, Paris P.U.F. 1948. p.199.

لذلك، فإن القوة لا معنى لها بذاتها، وإنما تفهم بالنظر إلى ما ستصبر إليـه، أو إلى الصورة، فالصورة (فعل– إنرجيا energia) لأنها تحقق ماهو بالقوة إلى موجـود كامل، لذلك فهى أيضا كمال وغاية (إنتلخيا– entellchia) أى أنها تحـدد الحالـة النهائية الكاملة.

وهى أيضا، التى تهب الكائن حقيقته الثابتة أو ما هيته – (essence)،ومن هنـا فقد انتهى أرسطو عند بحثه فى العلل إلى التوحيد بين العلة الصورية، والعلة الفاعلـة، والعلة الغائية، فالصورة هى الغاية فى كل تغير، لأن التغير يهدف إلى تحقيق الصورة، وهى أيضا محركة وفاعلة، فصورة (الانسانية) فى الفرد – مثلا–علة محركة للتوالـد، لأن الأب يهب الابن صورته التى هى الغاية النهائية لوجوده.

ويتداخل معنى المادة والصورة عند أرسطو، فقد تكون الصورة مادة بالنسـبة لصورة أخرى، فصورة البرونز مثلا تصبح مادة وهيولى لصورة التمثال، أما الصورة التى لا يصح أبدا أن تكون هيولى لغيرها، والتى ينتهى عندها تسلسل الصور فـهى الله أو المحرك الأول.

والمحرك الأول–عند أرسطو–لايتحرك، صورة خالصة وليس به مـادة، لأن احتواءه على مادة يعنى افتقاره إلى صورة، وبالتالى وجود بالقوة يترع إلى الفعـل، فلابد إذن أن يتصف هذا المحرك اللامتحرك بأنه صورة خالصة وفعـل خـالص لا يوجد به شئ من القوة، ويترتب على ذلك أيضا ألا ينقسم وألا يتعدد لأنه خـال من المادة.

أما عن تأثير (الله) فى العالم– عند أرسطو– فليس أكثر من تأثـير صـورة يتعشقها محبوها، لأنه لايؤثر فيه إلا كعلة غائية لا تزيد على أن تكون مبدأ لوحـدة العالم، كما يكون حلا لتفسير الحركة والتغير المستمرين فى العالم، فالغائية الملاحظـة فى الطبيعة ليس مصدرها– عند أرسطو– تدبير العقل الإلهى، وتوجيهـه الأشـياء حسب خطة وغاية يتصورها[1].

(٢) الفلسفة الأخلاقية:

نستطيع أن نتناول أبعاد الفلسفة الأخلاقية عند المصرى القديم مـن خـلال تساؤل فلسفى هام، طرحه على نفسه، هو: لماذا وجد الإنسان فى هذه الدنيا؟

---

[1] راجع فى هذا كله: الدكتوره أميره حلمى مطر: الفلسفة عند اليونان، ص٢٧٧ وما بعدها.

ولقد أدرك الصرى القديم، أن الآلهة خلقت الإنسان على صورتها، ولمصلحتـــه[1] مركبا من (جسد)و(روح)، الأول- الجسد- مادى، والثانى ــ الروح ــ لامادى، ويفارقه الروح بالموت، ويعود إليه بعده، لوجود حياة ثانية، هى مستقر الإنســـان لذلك أصبح الموت لدى المصرى بداية حياة جديدة[2] أبدية، وهى القـــاعدة الـــتى استند إليها سقراط اليونانى فيما بعد، لكى يبرر تناوله للسم[3] .

فالإنسان الفاضل- فى رأى المصرى القديم- لايمحوه الموت، بـــل يحظـــى بالخلود، بسبب طيب ذكراه، واجتهد بعد ذلك فى بيان خصـــائص كـــل مـــن (الجسد)و(الروح)،المادية والنوعية، وانتهى إلى أن لبعض الكائنات وظيفة أو فعالية، وهذه الفعالية إما أن تكون محسنة أو مسيئة[4] ، مما جسد الحل التناسخى فى عـــالم الأرواح المصرى، المرتكز على رؤيا أخلاقية، تحث الإنسان-تجنبـــا للعقـــاب- أن يكون من ذوى الأفعال الحسنة المطيعه، لكى لاتحبس روحه فى حيوان، فلا ترتقـــى إلى عالم السماء، إنها ذات الفكرة التى شرقت وغربت، فظهرت فى الهند، كما كان لها صدى فى اليونان.

لقد جاءت فكرة " الحياة الثانية" لدوافع أخلاقية، يقصد من ورائها تهذيب ســـلوك الإنسان، لأن الفعل السيئ لا يمر دون حساب[5]

هذا وقد احتوت فلسفة مصر الأخلاقية فضائل عديدة نذكر منها:

العدالة: والتى جاءت فى المجتمع المصرى، مساوية (للخير) وفق المنطـــق الديـــنى، تترجمه، بمجموعة الوصايا الأخلاقية التى، تطلب من الإنسان، أن يتعامل مع

---

(1) " ماقبل الفلسفة " ، ص٧١

(2) راجع : علام ، فنون الشرق الأوسط والعالم القديم، ص٦٩.

(3) أفلاطون، المحاورات، (فيدون)، ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود، القاهرة، ١٩٤٥م (خلود الروح)، ص١٦٤، وماتلاها.

(4) "ماقبل الفلسفة" ، ص ٧٦-٨٨.

(5) كريمر: " أساطير العالم القديم" ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف، القاهرة ١٩٧٤م، ص٤٠-٤٣.

الآخرين بما يجب أن يعاملوه به[1]

والقاضى العادل، هو الذى تقترن به صفات العدل والقانون[2] ويدرك، مقتضيات كل حالة وحيثياتها، ويمتلك القدرة على الأمر والنهى، وصولا إلى (العدالة) بشكلها الاجتماعى، بفضل ما تنطوى عليه العدالة من عناصر الرحمة.

وقيل عن العدالة، إنها "الزاد الذى تتقوت به الآلهة"[3] ، وفى هذا دلالة عن (روح العدل) التى يتخطى القاضى بفضلها، حرفية القانون، إلى حيث الحكم (بروح القانون) وصولا إلى أفضل الأحكام وأعدلها، وبذلك أصبحت محبة العدل تعبيرا عن إرادة (الآلهة) لصالح (الإنسان).

فضيلة الطاعة: احتلت فضيلة الطاعة فى مصر القديمة، موقعها، كواحدة من الفضائل التى تظهر نوايا الإنسان الحسنة، إزاء مجتمعه، فالإنسان السعيد، هو الإنسان المطيع، وفى ضوء ذلك الشعار، حقق الشعب المصرى فى تاريخه القديم أعظم المشاريع التى تتطلب صبرا وطاعة وجلدا وتحملا، وأصبحت (الطاعة) خصيصة من خصوصيات المجتمع المصرى.

هذا إضافة إلى وجود فضائل أخرى تنظم العلاقة بين الفرد ومجتمعه مثل فضيلة (العمل الجماعى) والرفق وحب الناس وفعل الخير والتمسك بالأخلاق الفاضلة، والمساواة بين المواطنين، التى هى فى المنظور العقيدى، فضائل تسر الآلهة، وتفتخر بالفرص المتساوية بين الناس، الذين خلقوا شركاء فى (الهواء والماء والعدل) دون أن يسى عودة ومسئولية الإنسان عن الشرور، دون الآلهة.

وقد تضمنت الوثائق المصرية من المبادئ والقيم الأخلاقية، ما يستحق الإشارة، منها:

الصمت: عنوان الحكيم، الذى يتجنب المصاعب، لذلك قالوا: بئر الحكمة" مغلقة لمن يكشف عن فمه، ومفتوحة لمن لاذ بالصمت".

---

[1] " ماقبل الفلسفة"، ص ١٠١-١٠٣

[2] " أساطير العالم القديم "، ص ٦٣

[3] "ما قبل الفلسفة"، ص ١٠٤-١٠٦،

التسليم: صفة محببة، فمع ثقة الإنسان بنفسه، وبقدراته العقليـــة، تبقـــى قـــدرة وجبروت الآلهة، فوق قدرات الإنسان العقلية والبدنية "فأقوال النـــاس - شـــئ - وأفعال الآلهة شئ آخر" مما رسم فى شخصية الإنسان، مسحة من العجز تفـــرض عليه التعلق بالإله والاعتماد عليه[1].

وقد آمن المصرى القديم، بأن (القدر) هو البعد الذى يشد الإنســـان إلى مصـــيره (مستقبله) المجهول، لا بمعنى الاستسلام، ولكن بمعنى أن لكل إنسان ساعته الـــتى لا يمكن الافلات منها مهما كبر ذلك الإنسان أو صغر[2].

القناعة الواعية: إن السلوك الحميد رهن بقناعة الإنسان، المتأتية من وعيه لصـــواب الفعل الذى يقوم به، دون أن تنفصل هذه المسألة عن طبيعة الإنســـان، لأن هـــذه الطبيعة، هى محرك السلوك ومقود الإنسان تنفيذا لنداء الإله:

"وإنما أجعلك تعرف ما هو الحق فى قلبك، أنت، لكى تفعل ما هـــو صـــواب فى نظرك"[3].

(هـ) تعقيب:

لم يعد أمام الحشد الهائل من المكتشفات العلمية والفلسفية والأدبية فى مصر القديمة، أن يقول أحد: ماذا قدمت مصر القديمة إلى العلم والفلسفة والأخلاق؟ فها هـــى منجزاتهم، ترسى لنا ركائز النهضة اليونانية اللاحقة، واليونانيون - أكثر من غيرهم - يعرفون هذه الحقيقة، ويمتلكون القدرة على إيضاح قيمة (الحكمـــة المصريـــة) وحجمها، التى يسرت لفلسفاتهم وعلومهم، محيطا تاريخيا ومعينا معرفيـــا ممتـــازا، لاينضب، وضحته منجزاتهم الظاهرة، وطلاب العلم الذين كانوا يفدون إلى مصـــر للإفادة من فلسفة الشرق وفكره، فاستفادوا منها، بقدر مـــا تســـتقيم وتجربتـــهم الحضارية اليونانية[4]. يفسر ذلك وصول العديد من فلاسفة الإغريق إلى المراكـــز

---

[1] راجع "ما قبل الفلسفة"، ص ١١٠-١١٦.

[2] "فى رحاب المعبود توت"، ص ٩٨

[3] "ما قبل الفلسفة"، ص ١٣٧

[4] ماقبل الفلسفة، ص ١٤٠ - ١٤١، وفى رحاب المعبود توت ص ١٩٣.

العلمية المصرية التي استقروا فيها ردحا من الزمن، فكانوا بذلك حملة الفكر الشرقى وقنوات توصيله إلى اليونان[1].

والاعتقاد السائد عند اليونان بأن التأمل المصرى كان عميقا بنسبة قدمه، قد قابله من جانب المصريين ثقتهم فى تقاليدهم الخاصة الدائمة، إلى حد كانت تبدو لهم ذات قيمة خالدة، فالشكل العقلى الخاص بوادى النيل يمتاز بصبغته الأزلية، ولكن كيف التوفيق بين هذه القيمة العالية، والخاصة بالشئ البسيط والذى لا يتغير، وبين اختلاف الآراء؟ فالمصريون والإغريق المختلطون بعضهم ببعض فى الإسكندرية، والذين اتصلوا فضلا عن هذا بالعامل السامى، الذى أكد" فيلون" أهميته، قد وضعوا شكلا جديدا للحقيقة، قد يبدوا أقل وضوحا كما ينظر إليه اليونانيون، لكنه لا ينقص عمقا بحكم اتفاق الرمز.

ولكى يعطوا الصيغ القديمة جدة الزمن الحاضر، ولكى يوفقوا بين المعرفة والعقيدة، لم يسعهم إلا الالتجاء لفن التفسير والتأويل، الذى يجد فى الأساطير تبريرا للشعائر، وفى القصص الخيالية تصويرا للإدراكات، وفى مذهب الاختيار، المقدرة على فهم الشئ فهما موحدا دائما.

واستمرار وجود الأشكال الحيوانية باعتبارها رموزا للمقاطعات أو للآلهة التى تمثلها، ومعادلة النقوش ذات الأشكال الحيوانية والإنسانية، والاعتقاد بالمطابقات المختلقة التى تكشف عن أشياء سرية متماثلة، كل هذه الأمور كانت مواتية لاتخاذ المجاز وسيلة للفهم والإدراك، فالشمس، باعتبارها شكلا اعتيدت رؤيته، ورسما عن حورس، من شأنهما أن يستجلبا الحدس العقلى، أسوة بالجعران، وهو التميمة العادية، هى طريقة مشتبه فيها، ويتقهقر بمقتضاها منطق الإدراك أمام منطق التخيل والإرادة، وكلاهما من مميزات الروح الأولية، وإذا ما خضع لها المذهب العقلى الناشئ عن سقراط وأرسطو وإقليدس وأرشميدس، فقد كان يتوافق مع عقلية الزنوج التى يكشفها المختص بدراسة مصر القديمة خلف دقائق الحضارة التى تبهره.

---

[1] جورج سارتون: العلم القديم والمدنيه الحديثة، ترجمة دكتور عبد الحميد صبرة، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ٥٩ ومابعدها.

إن هذا الحل الوسط بين المعرفة والتجربة الدينية قد يدل علـــى خطـــوة إلى الوراء فى مضمار العقلية العلمية، لكنه قد ترتب عليه تقدم للإنسانية فى مجموعـــها؛ إذا قد أصبحت أقدر على معرفة أن عقائدها، مهما كان فيها من اختلاف وغرابـة، تخفى وراءها معنى له قيمته وخطره.

هذا، ومن الأمور البديهية أن الروح المصرية كانت ذات صبغـــة إغريقيـــة، وهذا ما يساعدنا على فهم مختلف مميزات ثقافتها؛ وهى المذهب الوجودى والوثنية الزنجية، والاعتقاد فى تعادل مختلف أشكال الوجود، دون حاجة إلى تدخل التناسخ، كما هو الأمر فى آسيا.

وكل ما نأمل هو أن تقوم مقارنة مستندة إلى وثائق وبعيدة عن التحيز، لتلقى ضوءا على التشابه والاختلاف بين حضارتى مصر واليونان، اللتين هما أصل الحضـــارات الأخرى، واللتين لم تنشأ بينهما علاقات مباشرة مستمرة إلا من الألـــف الثـــانى ق.م.، ولكن ليس هنالك من يشكك فى أثرهما فى تكوين باقى حضارات العالم.



الفصل السابع

" حضارة وأدى الرافدين "

وبدايات

" الفلسفة الكونية والخلقية"

ويشمل :

أولاً : تمهيد.

ثانياً : " الفلسفة الكونية " وحيوية المادة.

ثالثاً : " الفلسفة الخلقية " بين " ملحمة جلجامش و" تشريعات حمورابي " :

(أ) " الطاعة " جوهر الحياة الفاضلة عند العراقي القديم .

(ب) " ملحمة جلجامش " ومشكلة الحياة والموت.

(جـ) " فلسفة التشريع " عند حمورابي.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أولا : تمهيد :

كان لحضارة وادي الرافدين، وخاصة البابلية والأشورية، منذ زمن باكر، دورها المؤثر في تاريخ البشرية، الديني والعلمي والاقتصادي، وكان للفلسفة الخاصة بما بين النهرين نصيب ملحوظ في تكوين الفكر العالمي.

فهذه (بابل) أحد مخازن غلال العالم الرئيسية، حيث كانت المحاصيل تؤتى ثماراً وفيرة، وكانت الأرض حتى بعد الحصاد الثاني تهيئ الكثير من المراعي[1]

وحاضرة الملك التي قامت على شواطئ الفرات، وأصبحت من فجر الألف سنة الثانية مقراً عظيماً للإمبراطورية، كانت أعجوبة الأزمنة القديمة، وكان محيط دائرة السور الداخلي زهاء أربعين ميلاً، يقول أرسطو:

" إن بابل أمة أكثر منها مدينة " [2]

ولقد أضيف إلى مواردها الزراعية الثراء المستمد من النسيج ومن تجارة رائحة، فمنذ الألف سنة الثانية، كانت بابل سوق الشرق ومركزاً عالمياً، اجتذب إلى أسواقه وأرصفته محاصيل الهند وإيران، وكان ملتقى مرور التجارة عبر الطرق الصحراوية إلى الفرات من أقطار البحر المتوسط إلى الغرب.

فكان للمدينة البابلية تأثير صادق في حياة العالم الغربي الصناعية والتجارية، والطرق العامة التي كانت تسير حول شمال الصحراء السورية عبر أسيا الصغرى إلى سرديس وساحل بحر ايجا، كانت حلقة الاتصال بين الشرق واليونان، وعلى

---

[1] أورد ثيوفرا سطس (theophrustus) أبعد تلاميذ أرسطو صيتا في كتابه (تاريخ النبات) : " في بابل تحصد حقول القمح مرتين في انتظام، ثم يطعم بها الحيوان للتقليل من غزارة الأوراق وبغير ذلك لا تطلع السنابل للنبات، وعندها ينجز هذا، فإن محصول الأراضي التي تفلح فلاحة سيئة يكون خمسين ضعفاً، بينما يأتي محصول الأرض جيدة الفلاحة بمائة ضعف نقلا عن : بورج، تراث العالم القديم، الجزء الأول، ترجمة زكي سوس، دار الكرنك، ١٩٦٥ م، ص ٣٨ .

[2] أرسطو – " السياسة ١١٢٧٦/٣ .

الأخص، لاقت العملة والمقاييس البابلية في الألف سنة الأولى انتشاراً أوسعاً النطاق في أسيا وعالم البحر المتوسط.

وقد أدى امتداد سلطان الإمبراطورية وسيادتها التجارية في أسيا الغربية إلى انتشار ثقافتها على مساحة أعظم، وأهم ما جاءت به حضارة بابل، اللغة، وهي غنية وأكثر مرونة وأقوى على التعبير عن المجردات، وإلى جانب التقدم اللغوي سار تقدم الكتابة، فقد ساهم البابليون في تحويل الحروف الهيروغليفية السومرية إلى الشكل البابلي أولاً ثم الأشورى ثانياً، كما أن كتاب الحضارة الجديدة المختلطة عرفوا فصل الكلمات إلى مقاطع، والوصول إلى الأصوات البسيطة للحروف المتحركة المعروفة.

والجهود التي بذلت لتحليل الأشياء وردها إلى عناصرها الأولية، لا تقل أهمية في تطور الفكر الإنساني، سواء في ناحية الكلام، أم في ناحية الطبيعة، وقد سارت المحاولتان جنبا لجنب تسند كل منهما الأخرى [1]

هذا عن البابليين، الذين كانوا شعباً من الزراع والتجار، وكان للدين أجل قدر في أوضاعهم العامة فن في الحرب، أما الآشوريون [2] فعلى النقيض، كانوا منذ البداية إلى النهاية سلالة حرب، وكان ملوكهم قادة تحت أمرتهم أشراف عسكريون، ولما كانوا أكثر شعوب الشرق الأخرى غلظة وقسوة، فإن تاريخهم هو سجل حروب وغزوات، وما اكتسبوه من ثقافة استعاروه من بابل، وكان التقدم الوحيد الذي حققوه هو البناء بالحجر كما كانوا يبنون بالأجر، وتسجل الثيران المجنحة الضخام والألواح المنقوشة في المتحف البريطاني قصة متواصلة عن الحروب الوحشية

وبحكم أن أشور كانت أوثق اتصالا من بابل بغرب الأناضول وبسوريا، بل وبمصر، قد استطاعت القيام بهجمات مستمرة ضد الحيثيين والميثانيين المصطبغين بصبغة نصف هندية أوربية، وضد الأراميين المقيمين في سوريا العليا.

وكذلك كان الآشوريون مضطرين إلى الغزو للدفاع عن أنفسهم، فأسسوا أشد القوات العسكرية بأساً فيما عرف التاريخ القديم قبل الأنظمة الرومانية، واستخدموا تلك القوات لإرهاق البابليين ثم السيطرة على أسيا القديمة بأسرها، وحوالي عام

---

[1] راجع أورسيل : الفلسفة في الشرق، دار المعارف، ترجمة محمد يوسف موسى، ١٩٤٧ م، ص ٧١ .

[2] "وأشور " كلمة تدل على الأمة والإله الوطني والحاضرة.

١١٠٠ ق.م. أعلن (يتحلات فالازار الأول) نفسه " ملكا للعالم كله وملك الملوك القادر " [١]، فوضع بهذا ادعاء سيادة عالمية، أخذها عنه بعدئذ الإيرانيون والمقدونيون والقياصرة، وكان لذلك رد فعل هو أشد في نظام العقائد أو الأفكار، مما هو في نظام المطامع المادية، إذا أنه كانت الإمبراطوريات ضعيفة سهلة الانهيار، فقد كان واجبا أن يتخذ المثل الأعلى للسيطرة الإمبراطورية شكلا دائما عاما.

وكانت طريقة الآشوريين التي اتبعوها للبحث عن هذه السيطرة، هي طريقة عبادة القوة الوحشية المنظمة، ذبح المهزومين، وسبي شعوب بأسرها، وإفناء ملوك محترمين لدى أعدائهم في مقابرهم، ومصادرة الآلهة، فقد تميز الآشوريون بوحشيتهم الباردة، التي كانت تجرى بحساب معلوم، وتختلف كل الاختلاف عن وحشية الرجل غير المتمدين .

فقد كتب أحد الأمراء الآشوريين القدامى عن أعدائه:

" ملأت بجسومهم وديان الجبال وقللها، بترت رءوسهم وتوجت بها حيطان مدائنهم، وجلبت العبيد والغنائم والكنوز، أشياء لا تحصى " . وكان الآشوريون يخلصون في تعصب، لدينهم، وكانت جميع انتصاراتهم باسم الهم أشور ومجده، ولكن لم يكن للكهنة إلا أثر قليل في استشاراتهم، وهم لم يضيفوا شيئا إلى الحضارة البابلية، لكنهم اشتركوا فيها، لقد تلقوها بقبول، وحفظوا شواهدها في حولياتهم ومكتباتهم، ونشروا نورها حتى الحدود الإغريقية والمصرية، وقد أسسوا الدين على مبادئ الإخلاص والخوف، فإلههم (أشور) الذي أسقط (ماردوك) عن عرشه، لم يطلق عليه اسم العطف إلا بقصد استمالته وتخفيف ظلمة، وهى طريقة تخفيف احتيالية بها كان للإله المخيف أن يطمع من أتباعه في إخلاص هادئ، فمنح التابع نفسه لإلهه، وذلك وإن كان مسبباً عن الخوف، فإنه لا يمنعه أن يكون واثقا به.

فالمثل الأعلى عند الآشوريين هو " المتوحش والمولع بالحروب "، في حين كان عند البابليين " الأخلاقي الإنساني الأبوي الصبغة" .

هذا، وقد دفعت الحاجة بالإنسان العراقي القديم إلى اكتشاف معارف هامة عن قوى الطبيعة، وأسرارها لتسخيرها لمصلحته، ولعل مبتكرات العلوم الرياضية

---

[١] " الفلسفة في الشرق "، ص ٨٠ .

والفلكية والجغرافية والطبية والموسيقية، والتي تجاوزت مرحلة " تراكم الخبرة " إلى أساليب البحث والتصنيف والتركيب والاستنتاج، بمعنى أن الإنسان الرافدى امتلك المعرفة النظرية لاكتشاف القواعد العامة في هذه العلوم، نقول لعل هذا يؤيد معرفة العراقي القديم لمناهج البحث العلمي [1] وإليك بعض التفصيل لهذا الرأي.

بالنسبة للرياضيات، عرف الرافدى القديم العدد وخصائصه، وحل القضايا الهندسية بالطرق الجبرية، بواسطة الجمع بين الشكل والعدد، وكان الجبر الرياضي عنده ذا قواعد مقررة تسير بالطريقة الوصفية والتعويض والاختزال، ومبدأ الحذف[2]، كما ابتكر" معكوس العدد" الذي انفردت به الرياضيات البابلية، واستخدامه النظام الستين لمرونته وقلة الكسور فيه، وتقييم الدائرة وقياس الزمن مازال مستندا إلى هذه الطريقة [3]، كما استخدم العراقي القديم المثلثات وبشكل متقدم في علم الفلك، وإليها ترجع حسابات السنة والأشهر والأيام والدورة السنوية، والأبراج الاثنى عشر [4].

أما علم الفلك، فهو من أكثر العلوم ارتباطا بالطبيعة، وانطلاقا من إدراك مبدأ العلة والمعلول، فسر العراقي القديم، كثيرا من الحوادث على هذه الأرض، وكأنها تحدث بتأثير حركة الكواكب والأفلاك، ومن بين هذه الظواهر، احتلت ظاهرة المد والجزر في جنوبي العراق، موقعا هاما في تفكير الإنسان الرافدى وحثته على النظر فيها والبحث عن تفسير معقول لها حتى ربطوها بحركة القمر، الذي احتل هو الأخر، دورا كبيرا في عقائد العراقي القديم [5]" ولقد تراكمت خبرتهم في الأرصاد الفلكية في المعابد وخارجها، ولعل الكاهن الأول على رأى " ويلز ":- ليس في الحقيقة رجل دين قدر ما هو رجل علم تطبيقي، فعلمه على الجملة تجريبي، مع ذلك فإن وظيفته الأولى هي (المعرفة) وكان استخدامها عمليا لذلك تجلت في التقويم البابلي كشواهد علمية معتمدة على الحساب القمري

---

[1] الدكتور ياسين خليل : منطق البحث العلمي، بيروت، ١٩٧٤ م، ص ٣٤-٣٥،٣٨،٤٩

[2] راجع الدكتور ياسين خليل : التراث العلمي العربي، ص ٢٥ .

[3] سارتون : تاريخ العلم ١/١٦٤،١٦٥،٢٢٠

[4] المصدر نفسه : ١/١٦٧-١٧٠، ١٧٣، ١٧٥ - ١٧٩، ٢٧٠ .

[5] نفسه ١/ ٢٧٠

المسجل منذ أقدم العصور وحتى بعد الميلاد، وبالمصطلحات البابليـــة[1]، وبذلـــك تكون الأرصاد البابلية، من أول الأرصاد المدونة في تاريخ الإنسان قبل إنشاء مرصد (كرنيش) ١٧٥٠ م، لقد استفاد منها جل المفكرين الذين درسوا في بابل[2] وعن علوم الطب والفيزياء والكيمياء والفنون الجميلة ومكانتها عند العراقي القديم، فقـد ابتعد العراقي القديم عن السحر والشعوذة، والـــتزم منـــهج البحـــث العلمـــي، والتشخيص بواسطة طرق علمية متقدمة[3]، كما عرف أبحاثا في الطبيعة، وكانت له إبداعاته في العلوم العلمية والفنون المختلفة والصناعات المتنوعة، المعتمدة علـــى معرفة دقيقة بالكيمياء وخواص العناصر، وبخاصة تلك الـــتي تتصـــل بالصياغـــة والزخرفة والألوان [4]، إضافة إلى ذلك، يقدم تاريخ التراث العلمي العراقي العديـــد من العلماء الذين تنوعت اختصاصاقم من الذين اســـتخدموا الاســـتقراء المقـــترن بالملاحظة والتجربة في استنتاجاقم المختلفة [5]. ولم تخل منجزات العراقي القـــديم الفنية من مسحة التأثر بالمعتقدات الدينية وخصوصاً فكرة مـــــزج عنـــاصر مـــن حيوانات مختلفة في شكل مركب [6]، كما احتلت الموسيقى في فنونه موقعاً متقدماً،

---

[1] ويلز : موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد الغريز جاويد، طبقة القـــاهرة ١٩٦٧،ص ٥١-٥٢، وأيضـــا الدكتور فوزي رشيد، قواعد اللغة السومرية، بغداد ١٩٧٣ م،ص ١٧.

[2] سارتون : العلم القديم والمدينة الحديثة، ترجمة عبد الحميد صبرة، طبعة القـاهرة، ١٩٦٠ م ص ٩٦ - ٩٧ .

[3] راجع بالتفصيل د. أمنة صبري مراد : لمحات من تاريخ الطب القديم، القاهرة ١٩٦٦ م، وكذلـــك د. عبد اللطيف البدرى : الطب الآشوري، بغداد ١٩٧٦ م، ولـــــه أيضـــا، الطـــب الأكـــدى، بغـــداد ١٩٧٦ ،راجع أيضا : ليفى مارتن : الكيمياء والتكنولوجية الكيميائية في وادي الرافدين، ترجمة وتعليق د. فياض المياحى ود.جواد البدرى ود.جليل كمال الدين، بغداد ١٩٨٠ م.

[4] راجع : د. وليد الجادر : بحث عن الأصداف، منشور في مجلة كلية الآداب جامعة بغداد، العـــدد ٢٣ لسنة ١٩٧٨ م ص ٥٨١ -٥٩٤

[5] سارتون: تاريخ العلم ٣٤٢/١، ٣٤٥، ٣٦١.

[6] علي حسين الجابري: الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمـــة وحضـــارة اليونـــان، بغـــداد، ١٩٨٥م، ص ٣٣.

ضمن مبتكرات الإنسان الرافدي، سواء أكان في باب "التراتيل" والطقوس، أم في باب الآلات الموسيقية [1].

ثانيا "الفلسفة الكونية" وحيوية المادة:

إن المحاولات التأملية في تجريد الظواهر، عمليات عقلية معقدة، سجلها الإنسان الرافدي، منذ الألف الثالث ق.م.، فقد عثر في (نفر) على كتابة سحيقة في القدم تذكر اسم إمبراطورية مدينة (أرتيش) السومرية، امتد سلطانها من الخليج العربي إلى البحر الأحمر، كأول إمبراطورية يذكرها التاريخ القديم [2]، ولعل أول وأهم وأخطر إنجاز حققوه بهذا الصدد هو اختراعهم "الكتابة" التي لا تخرج في مجملها عن عملية تجريد راقية [3] لأنها جعلت بالإمكان قيام وعي تاريخي عام، كان سببا مباشرا في النقلات الحضارية اللاحقة، حتى وجد (ويلز) أن جميع ما ظهر في العالم من أبجديات حقة مشتقة من خليط من الكتابة السومرية والهيروغليفية، ويحق لنا – والحديث لويلز – أن نقول أن هذه المنجزات، لم تكن لولا الجهود العظيمة التي بذلها المفكر الرافدي حتى سادت "الحياة السعيدة المشرقة الممدنة ما يقارب العشرين قرنا"، ولو استعرضنا بابل سنة ٢٠٠٠ ق.م. لوجدناها تعج بأناس مثقفين، لم يقف عطاؤهم الفكري عند جيل، حتى يوم الناس هذا، يشهد عليها أكثر من "مليون لوح طيني" موزعة الآن بين متاحف الدنيا [4].

وفي القدم كان لبيت الألواح (المكتبة) موقع هام في حياة الفرد والمجتمع، في حفظ النتاج الفكري، وأقدم ما عرفناه جاءنا من مدينة (نفر) حيث احتوى هذا البيت على عشرات، بل مئات الألوف من الألواح، كما كان لمكتبات المعابد شأن يذكر في توسيع آفاق المعرفة وبخاصة تلك التي اقترنت بعبادة إله المعرفة والحكمة والتأمل "بنون"، ومع تقدم الزمن والمجتمع، وتوسع آفاق المعرفة، وجدنا في (نينوى) أوسع

---

[1] الدكتور صبحي رشيد: تاريخ الآلات الموسيقية، بيروت، ١٩٧٠م، ص٣٠-٣١، ٥٧.

[2] ويلز: موجز تاريخ العالم، ص ٦١.

[3] راجع الفصل الأول من هذا الكتاب وخاصة التعقيب.

[4] ويلز: موجز تاريخ العالم، ٦٢، ٧٠.

مكتبة تلك التي حملت اسم (آشوربانيبال) [1]، حيث تفرد هذا الحاكم المفكر بحب عجيب للحكمة والمعرفة.

وتكمن مصادر التراث في ميداني الفلسفة الكونية (الطبيعية)، والفلسفة الخلقية، في المأثورات والملاحم التي تعكس صورة واضحة عن الإتجاهات الفكرية لدى حكماء العراق القديم [2].

---

[1] سارتون: تاريخ العلم ٣٥٥/١ و ٣٨٨ و ٣٤٢، راجع أيضا ديورانت: قصة الحضارة ٢٧٨/٢-٢٨٥ وراجع أيضا:

- **Delitzch (F.), Assurbanipal und die assyrische Kultur seiner zeit, Leipzig, 1909 (Deralte Orient).**

[2] نستطيع القول أن إجابات العراقي القديم على المشكلات الطبيعية والاجتماعية-، تمثل بدايات جيدة للتأمل الفلسفي، ومن الخطأ الحكم عليها بمنظور العصر، أو على ضوء نتائج البحث الفلسفي اليوناني، فتحفل حضارة وادي الرافدين بالعديد من المفكرين الذين دخلوا دائرة الحكماء، نذكر منهم:

- "سين-ليقي-أونني Sin-Lege-Uninni" الذي يرجح بأنه واضع الصيغة النهائية لملحمة جلجامش سنة ١٢٥٠ ق.م ، وهي بـ ٣٠٠٠ مقطع،

- و" كبتي إيلاني-مردوخ"، وهو مؤل قصيدة إله الطاعون "ايرا" التي تلقاها عن "مردوخ" بواسطة الرؤيا.،

- و"ساكل-كينام- أوبب" الذي تحدث عن العدل الإلهي في قصيدته الفلسفية المسماة "لأمجدن رب الحكمة " [راجع عن كل هؤلاء: طه باقر، خواطر، آفاق عربية، بغداد، الأعداد ١٠ لسنة ١٩٧٧م، ٦، ٧ لسنة ١٩٧٨م].

- "اترا حاسس الحكيم"، لقب بمنقذ البشرية، والمتناهي في الحكمة" [طه باقر: خواطر، آفاق عربية ٤٥/١ لسنة ١٩٧٧م].

- "آتانيا Etana"، الذي اقترن اسمه بالتساؤل عن سر الحياة ومعالجة مشكلة العقم، والبحث عن سر المولد [كريمر، أساطير سومر، ترجمة يوسف داود عبد القادر، بغداد، ١٩٧١م، ص ١٠٤].

- "آدابا الحكيم": العارف المتصف برجاحة العقل، ولقب بالابن الأحكم لمدينة اريدو السومرية، وصف بأنه "نموذج للإنسان الكامل، وهو أحد الحكماء السبعة. [ديورانت، قصة الحضارة، ٢٨٥/٢، وفرانكفورت: ما قبل الفلسفة، الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٢م، ص ٢٧، كريمر: الأساطير السومرية، ص ١٠٢-١٠٢].

وتضمنت هذه المأثورات والملاحم أبرز المشكلات الفكرية الأساسية، والتي تدور حول الكون والحياة، وأصل الوجود والأشياء، والخلق والإنسان، وقصة الحضارة، والمجتمع الإنساني ومشكلاته، وسلوك الفرد، وقيم المجتمع وقضية العدل الإلهي، ومسألة الخير والشر، وماهية الصراع في الوجود وحدوده.

وتظهرنا هذه المأثورات والوثائق الأثرية – التي وصلتنا عن العراق القديم – على أن طبيعة الأشياء (العالم) المحددة، جاءت متأخرة، سبقها في فجر الزمن عالم الوعد (الوجود بالقوة) الذي كان سديما (هيولي) لم يتخذ له شكلا، ولا اسما "إنه في طور الإمكان"، ثم بدأت عملية "تسمية" الأشياء والخلق من مبادئ مركبة من عناصر متناقضة.

إن فكرة العراقيين القدماء – عن الكون – تعود إلى أكثر من أربعين قرنا خلت حيث رفضوا الاعتقاد بجمود الدنيا أو فراغها، بل نظروا إليها باعتبارها "حية" توحدت فيها الظواهر الطبيعية بالعلاقات الاجتماعية، بما يقربنا من وحدة الوجود المقترنة بالتشبيه والتجسيم [(1)]، وتلك مسألة ترتقي إلى السومريين والأكديين، حيث جاءت آراؤهم حول الخلق وتنظيم الكون ومولد العناصر (الآلهة) بما ينم عن تناول عقلي ناضج يمكن التعرف من ورائه " على قدر من التأمل اللاهوتي والكوني" [(2)].

وقد عمق الإنسان الرافدي استنتاجاته الطبيعية، مستفيدا من الحرية التي تمتع بها في تعديل مجرى الأفكار الفلسفية عن الكون بفضل تطور معتقداته الدينية والجارية وفق مقتضيات الزمن، وكأن نظرية ديناميكية فيضية [(3)] تلك التي ورثها فيما بعد هرمس البابلي ثم أفلوطين.

= – "كوديا الحكيم"، الذي يمثل نزوع الإنسان إلى الإصلاح والتأمل، اسمه بالسومرية يعني "ذا فكر = واسع "[ما قبل الفلسفة، ص ٢٥، ٢٨، ٢٢٤ – ٢٢٥.]

(1)، (2) كريمر، أساطير سومر، ص ٧٧، ١٢١.

(3) جاء في أحد الألواح "بعد خلق (آنو) السماء، خلقت السماء الأرض، وخلقت الأرض الأنهار، وخلقت الأنهار القنوات، وخلقت القنوات المستنقعات، وخلقت المستنقعات السدود.." [كريمر، أساطير سومر ص ١٠١].

واعتقد العراقي القديم أنّ كل شيئ في هذا الكون يحمل سر قوته بالأسم الذي يحمله، وليس هناك شيئ دون اسم، أي أنّ الشيئ بلا اسم لا وجود له، لأنّ وجود الشيئ وسره أمران متلازمان، والأسم هو القوة الكامنة في الأشياء) والأشخاص) تدفعهم في إتجاه معين [1]، فاسم الشيئ مرادف لوجوده، ولذلك فهو "جوهر الشيئ" [2].

وبالنسبة لنشأة الكون فقد أكدت التصورات السومرية (الكوزمولوجية) - إذا ما استخدمنا لغة العصر - على أنّ الآلهة وصفت البحر (الماء) بأنّها الأم التي ولدت السماء والأرض على شكل (جبل كوني)، وعلى ذلك الجبل الكوني ولد (آن) زملاؤه (آلانو - ناكي) في قمة الجبل (السماء) اما القاعدة فكانت (الأرض-آيـا). وإذا ما حللنا هذه التصورات، وجدناها تعترف بالخلق المادي، وذلك لأنه، في البدء ومنذ (الأزل) كان (البحر الأول) - الماء - ولم يكن غيره، وهذا قولٌ صريح بقدم الهيولي الأولى لنشوء الكون، وأن المياه الأولى كانت سبباً لظهور (الجبل الكوني) ممثلاً بالأرض والسماء المُتحدتين، وتولّد من جراء ذلك الاتحاد الأرضي السماوي، عنصر (الهواء) الذي أصبح فيما بعد سبباً في انفصالهما؛ وبعد انفصال السماء عن الأرض كان (آنو) في الأعالي و (أيا) في القاعدة، وأنه من اتحاد الهواء بالأرض تعينت مراحل تنظيم الكون وخلق الإنسان وتأسيس الحضارة، ومعنى ذلك أنّ الماء والهواء، كانا سبباً للحياة والكثرة.

وبعد إزالة المسحة الأسطورية عن هذه الآراء وتحليلها تحليلاً موضوعياً، يتأكد لنا وجود تصورات عن نشأة الكون حرية بأن تسمى (فلسفة)، فقد تميزت، هذه التصورات السومرية، بالقول بالسرمدية والأزلية للمادة الأولى في الكون (الجوهر)، وبأنّ الماء هو (جوهر) الكون الذي كان سبباً في ظهور الأرض والسماء المتحدتين، أي تولد الحالة الصلبة، من أصل (سائل)؛ وتولد (الهواء) من اتحاد الشمس والأرض، ثم أصبح سبباً فى أنفصالهما، كما أن الهواء أصلٌ لوجود الشمس والقمر وبقية الكواكب المعروفة.

---

[1] فرانكفورت: ماقبل الفلسفة، ص٢٥.

[2] باقر، خواطر، آفاق عربية، العدد ١٠ لسنة ٧٧، ص٥١، ٨ لسنة ١٩٧٨، ص ٨٢.

وبعد انفصال اليابس، وانبعاث الحرارة من الشمس، ولوجود الرطوبة من الماء، أمكن وجود النبات والحيوان والإنسان على وجه الأرض، بصورة حاول محاكاتها الفيلسوف اليوناني أنبادوقليس [1].

إنّ هذه الأفكار الفلسفية – عن الكون – كادت تشير إلى نظرية "الفيض" التي سنجدها عند أفلوطين فيما بعد [2]، فالكون – الذي يضم كل ما في الوجود من الظواهر والأفكار المجردة – يأخذ شكلاً هرمياً، أعلاه (السماء) بما فيها من كواكب وأفلاك ونجوم، ثم (الهواء) (فالأرض) (فالماء)، ومعنى ذلك أنّ حقيقة عملية الخلق، في الفكر الرافدي، تظهر على شكل ولادات تمخضت عن تجاذب "السالب والموجب" من أصلٍ أزلي، ظهرت بعدها سلسلة الموجودات، وكل واحدة منها سر قوتها بذاتها (جوهرها)، وبذلك تكون عملية الصنع، هي عملية خلق وتنظيم "إنبثاقي" من مادة كانت تحكمها عناصر الفوضى والظلام "حيث كان الخلق وفق رغبة عناصر التجريد.

ويلخص لنا (جاكوبسون) الخلق الإنبثاقي هذا بقوله:

---

[1] أساطير سومرية: ص ٦٤-٦٦، ٦٩-٧٨، ١١٤-١١٩. وأنبادوقليس، أحد فلاسفة اليونان السابقين على سقراط، وُلد بمدينة أجراكاس بجنوب صقلية حول عام ٤٩٠ ق.م. وتوفي حول عام ٤٣٠ ق.م.، وقد اعتقد في نفسه قدرة تفوق الطبيعة، بل ادعى الألوهية، وقد ألهه الناس بعد موته الذي تحوطه الأساطير، وقال بالعناصر الأربعة (النار والهواء والأرض والماء) مفسِّراً بها الطبيعة، وقال بفكرة وجود نفس كونية اعتبرها علة حركة الكون الذي نشأ – في رأيه – عن الإمتزاج والإنفصال في العناصر الأربعة بفعل قوتين إلهيتين، الحُب الذي يجمع، والكراهية التي تفرق. (راجع الدكتوره أميرة حلمي مطر، الفلسفة عند اليونان، ص ٩٦ وما بعدها).

[2] ولد -أفلوطين – حسب رواية تلميذه فورفريوس، بمدينة ليقوبوليس – أسيوط بمصر، عام ٢٠٥ وتوفي عام ٢٧٨م، ذهب إلى القول أنّ لهذا العالم ظواهر حية، وهو دائم التغير، ولم يوجد نفسه، بل لابد له من علة سابقة هي السبب في وجوده (الواحد المحض)، والأشياء كلها صدرت – فاضت أو انبجست – منه، وبه ثباتها وقوامها، وإليه مرجعها، وأول ما فاض عن الواحد، العقل، ثم النفس، ثم بقية المحسوسات.

(راجع: الدكتور عبد الرحمن بدوي: أفلوطين عند العرب، ط٢، دار النهضة العربية، ١٩٦٦م، ص ١٣٤ وما بعدها.

إننا نجد لدى سكان مابين النهرين ''إشارة إلى الخلق، وفصل السماء عن الأرض، ودور الهواء في ذلك، إنها دراسة لأصل معالم الكون الرئيسية، كما أنها تحوي كيفية تأسيس نظام العالم الحالي، فنجد مبادئ (الزمن الأول) والفلسفة الاسمية) و(المادة الأولى) – الهيولي – و(الكون بالقوة) – عالم الوعيد – بشكل واضح، مع استمرار القول (بالماء كمصدر أول للوجود)، لكنه مركب من عنصرين، وهما الماء العذب، والماء المالح، حيث كان سبباً لظهور (السحب والسديم) والتي امتزجت في كتلة كبيرة، فكونت لنا (المادة الأولى) إنها (الكون بالقوة)، ثم بدأت عملية الخلق (الصنع) الثلاثية على شكل أزواج ثنائية متقابلة، تنتهي بمركب جديد''[1]

ثالثاً: "الفلسفة الخلقية" بين "ملحمة جلجامش" و"تشريعات حمورابي":

(أ) "الطاعة" جوهر الحياة الفاضلة عند العراقي القديم:

آمن إنسان وادي الرافدين، بأنّ كل ما في الكون يسير حسب ''خطط'' إلهية تستند على قواعد ونواميس مقررة ''وما على الإنسان إلاّ أنْ ينقاد لها طائعاً مختاراً ''لأن الآلهة استهدفت من ورائها خير الإنسان وعدالته، كما استهدفت تسيير الكون دونما اضطراب أو خلل فوضعت له نظاماً دقيقاً عادلاً من أجل الحفاظ على التوازن والأنسجام الكلي فيه، ما على الفاضل إلا طاعته.

واحتلت فضيلة ''الطاعة'' الواعية موقعاً مهماً في الأخلاق الرافدية، تعضدها مفاهيم خلقية ظهرت في مجري التطور اللاحق لمدارك ووعي الإنسان الرافدي، أهمها ''فضيلة الإنسجام والتوافق''.

والحياة الفاضلة هي الحياة ''المطيعة''، والعصر الذهبي، هو عصر الطاعة، حيث تتدرج فيه هذه الفضيلة من دائرة الأسرة، فالمجتمع، فالدولة، والنظام، وفق سلطة موجهة، إذ يستحيل في عُرف العراقيين القدماء وجود عالم منظم دون سُلطة تكون دائماً على ''حق'' لأنها تطبق ''القانون العام'' و ''النظام الإلهي''، وعلامة التنظيم في حياة الفرد هي الطاعة والتخطيط للمستقبل من أجل حياة أفضل، ومركب ''الطاعة'' و''التخطيط'' هو الصحة والعمر الطويل والمركز المرموق، والأبناء الكثر، والمال.

---

[1] ما قبل الفلسفة، ص ١٥٦ – ١٧٢.

فنحن واجدون نشيداً يصف عصراً ذهبياً قادماً، يتميز بأنه عصر الطاعة؛
يوم يحجم المرء عن السفاهة إزاء غيره، ويكرم الابن أباه،
يوم يبين الاحترام جلياً في البلاد، ويبجّل صغيرُ القَدْرِ الكبيرَ،
يوم يحترم الأخ الصغير .. أخاه الكبير،
ويرشد الولد الأكبرُ الولدَ الأصغر، ويتمسك الأخير بقراراته [1].

ويوصّي العراقي القديم دائماً بأن "اسمع كلمة أمّك، كما تسمع كلمة إلهك"، و"احترم أخاك الأكبر"، و "اسمع كلمة أخيك الأكبر كما تسمع كلمة أبيك"، و"لا تغضب قلب اختك الكبرى".

وما طاعة المرء للأفراد الذين يكبرونه سناً في العائلة إلاّ البداية، فوراء العائلة دوائر أخرى وسلطات أخرى: الدولة والمجتمع، فثمة المراقب حيث يعمل المرء، وثمة المشرف على الأعمال الزراعية التي يشترك فيها المرء، وثمة الملك، وكلهم يطالب بالطاعة المطلقة، والعراقي القديم ينظر إلى الجمهور الذي لا قائد له نظرة الأستياء والشفقة – ونظرة الخوف أيضاً. والجنود بلا ملك غنم بغير راعيها."

وإذا كان الجمهور بلا قائد ينظمه ويوجهه، ضائعاً حائراً كقطيع من الغنم دون راع، فإنه أيضاً شئ خطر، قد يكون مدمراً كالمياه التي تحطم سدودها، وتغرق الحقول والساتين إذا لم يتداركها مفتش الري بصيانة السدود. "العمل بلا مراقب كالمياه بلا مفتش ري".

ثم إن الجمهور الذي يعوزه القائد والتنظيم لا يجدي ولا ينتج، كحقل لا ينمو الزرع فيه إذا لم يحرث "الفلاحون" بلا مشرف كحقل بلا حارث".

ولذا يستحيل وجود عالم منظم، إذا لم تفرض عليه سلطة عليا إرادتها، والفرد هنا يشعر بأنّ السلطة دائماً على حق، "أوامر القصر" كأوامر آنو، لا تتبدل، كلمة الملك حق، ونطقه كنطق الإله لا يغيره شئ" [2]، وفضلاً عن دوائر السطلة البشرية

---

[1] راجع جاكوبسن، ماقبل الفلسفة، ص ٢٣٩.

[2] راجع: جيمس ريشارد: أساطير بابلية، ترجمة سلمان التكريتي ص ٥١، ١٢٢، ١٢٧-١٢٧.

من عائلة ومجتمع ودولة للحد من حرية الفرد، هناك دوائر السلطة الإلهية التي لا يجوز له أنْ يتخطاها.

ويفسّر النجاح – عند العراقي القديم – بأنه قوة خارجية تتغلغل في أفعال الفرد، وتتيح له إنتاج النتائج، فالنتائج لا تصدر عن قدرة الإنسان نفسه، لأنه أضعف من أن يؤثر على مجرى الكون تأثيراً يذكر، ولا يقوى على ذلك إلا الإله، ولذلك، إذا حققت الأشياء ما كان يأمله الفرد، بل فاقت كل ما يأمل، فلا ريب في أنَّ إلهاً ما قد اهتم به وبأفعاله وأتاه بالنجاح، فهو على حد قول سكان ما بين النهرين، "قد حصل على إله"، واعتقادهم بأن الإله الشخصي هو القوة الكامنة وراء فلاح الإنسان ظاهرٌ بوضوح في أقوال مثل:

ليس بمقدور الإنسان، بلا إله (شخصي)،

أن يكسب خبزه،

ولا بمقدور الفتى أنْ يحرّك ذراعه ببطولة في المعركة.

ومثل:

عندما تختط المستقبل يكون إلهك إلهك،

وإذا لم تختط للمستقبل، ليس إلهك بإلهك [1]

أي أنك لن تحظى بالنجاح، إلا إذا اختططت للمستقبل، وعندئذٍ فقط، يكون إلهك معك.

ولذلك يعبد المرء، ويطيع هذا الإله الشخصي قبل غيره، وفي كل مكان للإله الشخصي حيث يصلي ربّ الدار ويأتي بالقرابين كل يوم.

على الإنسان أنْ يسبّح بعظمة إلهه.

وعلى الشاب أنْ يطيع بكل جوارحه أمر إلهه. [1]

---

[1] ما قبل الفلسفة، ص ٢٤١، وأيضاً: Genouillac (H.de), Tablettes Sumeriennes - arcaique. Paris, 1909.

والآن، مالذي كان الإنسان يرجوه من خير بتمسكه بحياة الفضيلة التي تمثل الطاعة - للأسرة والحكام والآلهة - جوهرها، إنّ الإجابة على ذلك تتفق ونظرة البابلي القديم إلى الدنيا، وتتفق ومنزلة الإنسان في الدولة التي يسيطر عليها الآلهة، فالإنسان قد خلق ليكون عبداً للآلهة، إنه خادمهم، وللخادم المجتهد المطيع أنْ يلجأ إلى سيده في طلب الحماية، وأنْ يتوقع الترقية والمكافأة منه، أمّا الخادم الكسول اللامطيع فلا أمل له في شيء من ذلك، فطريق الطاعة والخدمة والعبادة هي طريق التمتع بالحماية، وهي كذلك الطريق إلى النجاح في الدنيا، وأسمى القيم في الحياة البابلية - وكما سبق - الصحة والعمر الطويل والمركز المرموق بين الجماعة، والأبناء الكثر، والثراء. [٢]

(ب) "ملحمة جُلجامش" ومشكلة الحياة والموت:

لقد بقيت فكرة الدولة الإلهية [٣] مستقرة نسبياً طوال الألف الثالث ق.م.، غير أنّ الدولة البشرية الفعلية تطورت في أثناء ذلك تطوراً كبيراً، فازدادت السلطة المركزية قوة، واشتد جهاز العدالة كفاءة، وجعل العقاب يتلو الجريمة بانتظام متزايد، وفكرة أنّ العدالة شيئ من حق كل إنسان، أخذت تتبلور ببطئ في الألف الثاني ق.م.، وهو الألف الذي ظهرت فيه شرائع حمورابي بحيث أضحى الناس يشعرون أنّ العدالة حقٌ مشروع، لا مِنّة شخصية. غير أنّ هذا الرأي كان لابد له من أنْ يناقض نظرة الناس القائمة حينئذٍ إلى الدنيا فبرزت إلى الوجود مشكلات أساسية أهمها تبرير الموت والثورة عليه في صورة سخط مكتوم واحساس دفين بالظلم،

---

(1)- **Dhorme, Edouard, Les Religio 1945 pp. 11-15.**

(٢) **جاكوبسن، ما قبل الفلسفة، ص ٢٤٢ وأيضاً**

– Tablettes Summeriennes archaiques. Paris, 1909.

(٣) **الدولة الوحيدة التي تتمتع بالسيادة الحقيقية المستقلة عن كل سيطرة خارجية، هي الدولة التي يتألف منها الكون، أي الدولة التي يحكمها مجمع الآلهة، وهذه الدولة إلى ذلك، هي التي تبسط سلطانها على بقاع الرافدين، والأراضي الفسيحة فيها هي مُلك الآلهة، ولّما كان الإنسان قد خلق لمنفعة الآلهة، بوجهٍ خاص، فما غايته إذن إلا خدمة الآلهة، ولذلك لن تستطيع أية مؤسسة إنسانية أنْ تجعل هدفها الأول إسعاد أهلها من البشر، لأنّ هدفها الأول إنما هو السهر على خدمة الآلهة؛ وبالتالي فما نسميه بـ" دولة المدنية" ليس إلا منظمة خصوصية غرضها الأول إقتصادي، إنها مزرعة أحد كبار الآلهة.**

وهذا الإحساس منشؤه الفكرة الجديدة عن حقوق الإنسان والمطالبة بالعدالـــة في الكون، فالموت شر، وهو في قسوته شر من كل عقاب، بل هو العقاب الأكبر ونجد معالجة له في ملحمة جلجامش [١] التي يُعتقد أنها ألفت في أوائل الألف الثـاني ق.م، وهي ملحمة بنيت على أقصاصيص أقدم منها أُعيد كتابتـــها في قـــالبٍ جديـــد، وجُمِّعت حول موضوع جديد هو موضوع الموت.

(وجلجامش) شاب شديد العزيمة، وهو حاكم مدينة (أوروك) في بلاد سومر، إنـــه يسوق شعبه سَوقاً عاتياً، فيلتمس الشعب إلى الآلهة بأنْ تخلق منافساً لـــه يشـــغله، فيجد الشعب شيئاً من الراحة، فتستجيب الآلهة وتخلق (أنكيدو) ويصبـــح رفيـــق جلجامش، ويخرج الإثنان في طلب المغامرات والأخطار، ويشقان الطريق إلى ''غابة الأرز'' في الغرب، حيث يصرعان (حوُاوا) – وهو وحش رهيب يحـــرس الغابـــة (لانليل)، وقبل بدء المعركة مع (حوُاوا) تقاعس (انكيدو) برهة وقد خذلته شجاعته فراح (جلجامش) يؤنبه بقوله:

من الذي، يارفيقي أدرك من السمو (ما يمكنّه من)

الصعود إلى السماء والإقامة مع شماش إلى الأبد؟

مجرد انسانٍ – أيامه معدودات،

ومهما فعل إن هو إلا هبّة ريح.

أراك قد خشيت الموت.

أين بأسك وشجاعتك؟

دعني أقود،

وتخلّف أنت لتصيح بي: ''أطبق عليه، ولا تخف!''

وإذا سقطت مضّرجاً، أكون قد بنيت أساساً لشهرتي.

فيقولون عني ''قتُل جلجامش وهو يصارع حواوا الرهيب..''

---

[١] راجع: طه باقر، ملحمة جلجامش، ط٢ بغداد، ١٩٧٢م، وتعريبها للدكتور سامي الأحمد في مجلة التراث الشعبي البغدادية، الأعداد ٦ لسنة ١٩٧٦م، ٧، ٨ لسنة ١٩٧٧م.

ويردف قائلاً أنه إذا سقط قتيلاً سيروي (أنكيدو) لابن جلجامش عن بـأس أبيـه وقوته، فليس في الموت هنا رهبة أو هول، والشهرة تلطّف من حدته، لأنَّ إسم المرء يبقى حياً في الأجيال القادمة [1].

لم يعن الموت حتى تلك الآونة، شيئا لجلجامش، فهو قد قبـل مقـاييس البطولـة المعهودة ومقاييس حضارته المعهودة، الموت لابد منه، ومن العبث التخوف منـه، فإذا كان على المرء أن يموت، فليمت ميتة المجد والفخار في مقاتلة خصم جدير بـه، لكي تعيش شهرته من بعده، إلى أن يموت (أنكيدو) - عقابا له من الآلهـة علـى صرعه حواوا - فيدرك (جلجامش) ما لم يدركه من قبل.

"أنكيدو، يارفيقي، يا أخي الأصغر، يامن كان معي في التلال.

يصطاد حمار الوحش، والفهد في السهول.

من كان برفقتي يفعل كل شئ: تسلق صخور التلاع

وأمسك بثور السماء وارداه قتيلاً،

وقذف أرضاً بحواوا الساكن في غابة الأرز.

ولكن - ما هذا النوم الذي غرقت فيه؟

لقد اعتم وجهك وما عدت تسمعني."

خسارته الفادحة أفجع من أنْ يتحملها، فيرفض أنْ يعترف بها كأمرٍ واقع، يقول:

ذاك الذي شاطرني في كل خطر،

حتف الإنسان المحتوم قد أحاق به.

بكيته طيلة النهار وطيلة الليل بكيته

ورفضت الاذن بدفنه

فلعلّ رفيقي أن ينهض لصراخي.

سبعة أيام وسبع ليال

[1] ماقبل الفلسفة، ص ٢٤٧-٢٤٨.

إلى أنْ سقطت من أنفه دودة.

لا عزاء لي منذ أن راح،

ورحت أنا كالصياد أطوّف في الفيافي.

وتظل خواطر الموت تلاحق جلجامش، لم يبق له إلا خاطر واحد، وهدف واحد، هو العثور على الحياة الدائمة، فيخرج للبحث عنها، والكل يجيبه بأنّ بحثه لا أمل يرُجى منه

جلجامش، أين رحت تجول؟

إنّ الحياة التي تبحث عنها، لن تجدها أبداً

لأنّ الآلهة عندما خلقت الإنسان، جعلت

الموت نصيبه، وأمسكت

بأيديها عنه الحياة.

جلجامش، املأ بطنك.

وأملأ أيامك باللذائذ،

وأرقص واعزف الالحان ليلاً ونهاراً.

والبس القشيب من الثياب،

واغسل رأسك واستحم

وانظر إلى الطفل الممسك بيدك

ودع زوجتك تتمتع بعناقك

هذا وحده ما يبتغيه البشر."

ولكن (جلجامش) لا يستطيع أنْ ينصرف عن بحثه، ويستسلم لما هو من نصيب الناس كلهم، إنه ليتحرق شوقاً إلى الحياة الدائمة، فيستمر في البحث الجاد والمضي عنها، إلى أنْ يوفق في الحصول على نبتة تنمو في قاع البحر، تعُيد إلى من يأكل منها شبابه، فينتعش (جُلجامش) بعد اكتئابه، ويُلقي بنفسه في بركة باردة، ويترك (نبتته العزيزة) على الضفة، وفيما هي ملقاة هناك، تشم رائحتها إحدى الأفاعي، فتخرج

من جحرها، وتختطفها، وتأكل منها، فإذا ما طعنت في السن، وُلدت فتية من جديد، أمّا الإنسان فتستحيل عليه العودة إلى الشباب، لأنّ نبتة جلجامش ضاعت عليه، ويمتلئ قلبه مرارة، ويتأمل في هذه النهاية الساخرة لبحثه الطويل.

''لمن أجهدت عضلاتي؟

لمن سكبت الدم من قلبي؟

لم آت لنفسي بَبَركة واحدة -

ولم احسن الصنيع إلاّ لأفعى الثرى''.

وهكذا نجد أنّ الموت في عرُف العراقي القديم، ضربٌ من الحقيقة المجسدة ''حتف الإنسان المحتوم قد أحاق به''، والخلود محال ''إن الحياة التي تبحث عنها لن تجدها أبداً، والنتيجة (نعيش) نحن اللذة، ''املأ أيامك باللذائذ''، ''هذا وحده ما يبتغيه البشر''، مع انصياعنا للأمر الواقع المفروض حسب القوانين الالهية على الإنسان، إنما معادلة جدلية بين الحياة والموت، والأخير حتمٌ ''يلغي'' ''الخلود''.

ولّما كان لابد من الموت طمأن الإنسان نفسَه بالنظر إليه نظرة مادية، مع بقاء دنيانا هي الأجمل مهما كانت صورة الحياة الثانية (أرض اللاعودة)، لذلك حاول (جلجامش) أن يتمرد على (القانون الإلهي) ببحثه عن الخلود الحقيقي، وحينما فشل، استعاض عنه بالخلود المعنوي، ''لم آت لنفسي ببركة واحدة''، '' وإذا سقطت مُضرجاً، أكون قد بنيت أساساً لشهرتي''.

لقد أجابت الملحمة عن مسألة أخلاقية كُبرى شغلت فكر الإنسان طويلاً طرحتها كما يلي:

إذا كان الموت حتماً على الإنسان فماذا ينبغي على الفرد أن يسلك في هذه الحيلة؟ أينبذها ويفر منها متقشفاً؟ أم يسلك سبيل اللذة والتنعم بالحياة تنعماً كلياً، أم يقبل قانون الحياة والطبيعة، ويذعن لما ليس منه بُد، فيضبط زمام النفس، ويقوم بتلك الأعمال الإنسانية التي تخلده؟

وهكذا تكون الملحمة قد عرضت لنا أبرز الاتجاهات الخلقية تتمثل في:

(أ) فلسفة اللذة، خلاصتها اقتناص الفرص للتنعم بالحياة.

(ب) الفلسفة (الهروبية)، التي تسعي جاهدة للتنصل من مسؤولياتما في الحياة.

(جـ) الفلسفة التبريرية، التي يسعى الإنسان من ورائها إلى تبرير أفعاله حتى وإنْ كانت خاطئة.

(د) الفلسفة الواقعية، التي تسعى إلى تحقيق الإنسجام مع الطبيعة، والإتيان بالمفيد من الأفعال التي تخلد ذكرى صاحبها،

وبذلك نجحت الملحمة في مناقشة مشكلات خلقية مازالت تشغل بال الإنسان، وانتهت إلى موقفٍ أخلاقي ملتزم، تمثل في تأكيد التفاؤل بالمأساة الإنسانية، منطلقاً من حكمة مفادها، حارب خوفك من الموت بالعمل الصالح، فأنك تعيش أبداً، فذلك يجعل الحياة أسهل عليك وعلى الجميع [1].

(هـ) "فلسفة التشريع" عند حمورابي:

احتلت الدولة في حياة العراقي القديم، منذ الألف الثاني ق.م.، موقعاً متقدماً، وكذلك "القانون"، ولا نغالي إذا قلنا أنَّ فلسفة القانون والقاعدة الحقوقية والالتزام الخلقي من المبادئ الأساسية في المجتمع العراقي منذ ذلك الحين.

فقد تميز الإنسان الرافدي بوعي اجتماعي متطور وبخاصة في باب الحقوق والواجبات، حتى أنهم اعتادوا على ممارسة حقوقهم وحرياتهم في حدود "القانون" باعتباره الأداة التي تحقق "الإنسجام" و"العدالة" والهادي للسلطة، فرفضوا على هذا الاعتبار كل محاولة للانتقاص من حريتهم الشخصية [2]، وتقدم لنا (بابل) في علاقتها بمواطنيها أنموذجاً للمدينة الفاضلة التي هيأت لهم أجواء العيش والإبداع العلمي المتقدم، واحتل حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ق.م.) موقعاً هاماً في تاريخ هذه المدينة.

فقد نظم المذهب الإداري للإمبراطورية، وبسط سيادته حتى سواحل البحر المتوسط، وتقوم الأدلة على ثقافة عصره من الآثار الأدبية العظيمة التي تضم ألواح

---

(١) راجع: ملحمة جلجامش ص ١٩-٢٠، ص ٥١.

(٢) راجع ديورانت: قصة الحضارة ٢/١٣-٢٣، د./سامي الأحمد: المدخل إلى تاريخ العالم القديم، القسم الأول (العراق) بغداد ١٩٧٨م، ص ٢٧٤ - ٢٧٦.

عقود ورسائل ملكية، ولكن أهم أثر تذكاري لحكمه هو مدونة القوانـــين الـــتي كشف عنها في السنوات الأولى من هذا القرن علماء الآثار الفرنسيون [١].

وهذه المدونة – أحكام الاستقامة التي وضعها حمورابي، الملك العظيم – نظمـــت في دقة أحكام القانون المدني في بابل ويشمل الملكية والعقـــود والزراعـــة والتجـــارة وأعمال المصارف والزوج والتبني والارث، وكذلك ســـير المرافعـــات القضائيـــة، وتشهد على المكانة الهامة التي كانت بابل قد وصلت إليها في تجارة الأمم، وهـــي تكون مذهباً محكماً لقانون الدولة،وتمثل تقدماً عظيماً بالقياس إلى قانون العادات في المجتمعات الأولى.

وقد حرّم – حمورابي– الانتقام بسفك الدم وقصر تطبيق شرعه المثل بـــالمثل علـــى إجراءات المحاكم المقررة، والناس من كل الطبقات، الغريب والمولود في البلاد، على السواء تنظمهم حماية القانون، ومن الطرافة بمكان بالغ أنْ نقرأ كيف أنَّ أمثال هـــذه المسائل الحديثة كالاعفاء من الخدمة العسكرية وثبات الملكيـــة والتعويـــض عـــن التحسينات الزراعية ورقابة تجارة الخمور، وودائع المصارف، والمسئولية عن ديـــون الزوجة والحقوق الشرعية للنساء والأطفال، نظمها هذا الحاكم البـــابلي في ختـــام السنوات الألف الثالثة ق.م [٢].

وبامتداد المدنية البابلية إلى سوريا وفلسطين، فإنَّ مدونة قوانين حمورابي، والقـــانون الذي جاء بعد ذلك مستنداً إليها وضعا طابعهما على تشريع هذه البلاد، لدرجة أنه أصبح في قدرة الإنسان أن يمتطي متن دابته في أمان من الخليج الفارسي إلى البحـــر المتوسط تحت حماية قوانين حموارابي؛ التي أسست نظاماً قابلاً للتطبيق على شـــعوب وبيئات مختلفة متباينة، من تجار أو زراع، وضعوا تحت سيطرة هيئة نظامية قويـــة، وجعلوا خاضعين في القضاء للأوامر الملكية.

استمع إليه يقول في مقدمة " مدونته":

" أنا حمورابي، الأمير، المطيع، خائف الله،

لإقامة العدل في البلاد،

---

[١] - Scheil (r.), Trad. du code de Hammurabi (Mem. pub. par La Deleg. Ar. enperse, t IV), Paris 1902.

[٢] راجع بورج: تراث العالم القديم، جـ١، ص٤٠-٤١.

وتحطيم الأشرار والفاسدين، لكي
لا يؤذي القوي الضعيف،
وأطلع أنا كالشمس فوق الأناس
السود الرؤوس، وأنير البلاد"[1]

وللمرة الأولى ذكر عندئذٍ المثل الأعلى الأسيوى للملك الكامل، الذى أخذت عنه الصين تعليق ملك العدالة، تقليد ملك الأب لشعبه، وهى فكرة لا يقـل مداهـا الميتافيزيقى عن معناها الاجتماعى، ونشأ عن ذلك مصائر علم الإلهيات التوحيـدى ومصائر السلام العالمى والحق ، ومستقبل المذهب العقلى، فقبل أن يفكر الإغريـق فى أن الرجل الحكيم سيكون سعيداً حتى فى تنورفالاريس"[2] جاء حمورابى بعنـلصر حل مؤقت، وهو تخفيف المظالم الاجتماعية بالالتجاء إلى عدالة سـيد أب رحيـم يخفف شدة القانون بتطبيق قوانيين غير مكتوبة [3] .

وجاءت شريعة حمورابى اصلاحا قانونيا شاملا للتشريعات السابقة عليه، وهى غير قابلة للإجتهاد والتحوير، فلكل قضية عنده حكم هو الصواب، والحق لديه واحـد لايتغير، وعلى الإنسان أن يسعى دائما إلى تحقيقه، وإذا ما فشل فى ذلك فعليـه أن يدفع ثمن الخطأ [4]

ولكى ندرك حجم التقدم الحاصل فى وعى الانسان الحقوقى - كما أظهرته مدونة حمورابى- فليس هناك أظهر من تفحص " مكانة المرأة " فى القوانين العراقية، فهى معيار الكشف عن مستوى النضج الحضارى، فى ذلك المجتمـع، وفى أى مجتمـع أخر، إن الأحوال الشخصية فى شريعة حمورابى مثلتها المواد (١٢٧ - ١٩٤)، الـتى عالجت مسالة الأولاد ورضاعتهم، وعدم شرعية الزواج بدون عقـد شـرعى،

---

[1] جاكوبسون، ماقبل الفلسفة، ص ٢٢٨.

[2] فالاريس، طاغية صقلى عاش فى القرن السادس ق.م، وقد عرف بجبروته وتنوره النحاسى الذى كان يميت به حرقا من يريد.

[3] أورسيل، الفلسفة فى الشرق، ص٧٧- ٧٨

[4] راجع : د/عامر سليمان، القانون فى العراق القديم جـ١ الوصل ١٩٧٧ ص١٣٢ وما بعدها، والدكتور فوزى رشيد، الشرائع العراقية القديمة، ص٥ -٧، ٨١.

بالإضافة إلى نصيب المرأة بالتجارة، وتمتعها بالحرية فى ممارسة مهنة التجارة، وحرية الفتاة الغنية فى الزواج من عبد، وبروح المشرع المسؤول، تجاوز حمورابى فى المادة (١٣٣) مسألة زواج المرأة التى يفقد زوجها فى حرب أو ما شابه، فى الزواج بأخر، إلى الإنتظار، فى حالة وجود ما يكيفيها من الطعام، أما إذا ثبت عدم محافظتها على عفتها، مع تيسر سبل العيش لها، فتلقى فى الماء (المادة ١٣٣ ب). أما إذا لم يترك ذلك الرجل الطعام الكافى لها (المادة ١٣٤) فلا جناح عليها، لإن هى دخلت بيت رجل ثان (تتزوج)، وبذلك قرن المشرع سلوك الفرد بظروفه المعاشية والاجتماعية، أما إذا دخلت تلك الزوجة – التى لم تكن تمتلك الطعام الكافى – بيت رجل، قبل عودة زوجها، وانجبت منه أولاداً فتعود إلى زوجها عند عودته (تطلق) مع بقاء الأولاد مع أبيهم. وأكدت المادة (١٣٦) على عدم رجوع الزوجه التى دخلت بيت رجل ثان (تزوجها) بعد هروب زوجها من الحرب، إلى ذلك الزوج عند عودته فى نهاية الحرب.

ولكى لا يخدش (حمورابى) كبرياء الرجل ومكانته الاجتماعية ساوى فى المادة (١٧٠) بين أبناء الزوجه وأبناء (الأمة) وأبناؤها، ولايحق لزوجته أو أولادها التحكم بهم مطلقا (المادة ١٧١) ؛ معنى ذلك أن حمورابى أقر عدم ديمومة العبودية على الأرقاء (من النساء والأولاد)، ويتحررون حال وفاة الأب، على خلاف مالوحظ فى بيئات أخرى.

ولم تميز شريعة حمورابى، فى قسمة الآرث، بين الأولاد والبنات، مهما كانت درجاتهم، كما خصصت للزوجة، حصة مساوية لأبنائها فى الميراث، فإذا أساء الأبناء معاملتها، وارادوا إخراجها من البيت، فعلى القضاء معاقبة الأبناء، وابقاؤها فى بيت زوجها (المادة ١٧٢) .

كما ضمنت المادة (١٨٠) حق الفتاة المتزهدة فى المعبد من الارث، عند وفاة أبيها، حيث منحتها حصة مساوية لبقية الورثة، ويعود ميراثها بعد وفاتها إلى أخوتها، أما (التبنى) فنظمته المواد (١٨٥-١٩٣) حيث نصت الأولى على ما يلى:

إذا تبنى رجل طفلا (سمى) باسمة ورباه، فلايطالب بذلك الطفل المتبنى، ولهذا الأبن حقوق الأخرين.

أما حقوق الأبوه فضمنتها لمادة (١٩٥) بنصها على ما يلى:

إذا ضرب الابن أباه فعلى القضاء أن يقطعوا يده [1].

ويزيد حمورابي على ما سبق، تأكيده على أنه ليس بالضرورة أن يدفع الرجل مهراً لزوجته، إذا اكتفت بهديته، لأنه قيمة الإنسان فوق كل شيء، وأن الوفاء الزوجي بين الطرفين عنوان العلاقة الزوجية الطاهرة، وأيضا لا يحق للزوج أن يطلق زوجته إلا إذا كانت عقيما أو زانية أو غير منسجمة معه أو سيئة التدبير للمنزل، وأن للمرأة حق ترك الزوج (مفارقته) إذا كان قاسيا معها (دون الطلاق) إذا كان مخلصا لها، ويعلق ديورانت على ذلك قائلا.

" ولم تستمتع نساء انكلترا نفسها بهذه الحقوق إلا فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى" [2].

وبعد، فهل نغالى إذا قلنا - استنتاجاً من كل ما تقدم - أن " بدايات" فلسفية فى " الطبيعة" و " الأخلاق " ظهرت فى وادى الرافدين، ثم انتقلت إلى بلاد اليونان، مع أفكار شرقية أخرى، لتتعمق وتتجسد على أيدى فلاسفتها، بما يواصل التقدم الفكرى والفلسفى للإنسانية، ومن أبرز هذه " البدايات" :

١- أن الكلمة تساوى الاسم، والاسم يساوى الشئ، والشئ يساوى الوجود، بمعنى أن اسم الشئ يعنى وجوده، ولا شيئ فى الوجود بلا اسم، ولا اسم بلا كلمة، ولا كلمة بدون وجود، فما لا اسم له، لا وجود له.

٢- كل ماهو موجود، هو جزء من (الكون) ولاشيئ فى الكون دون (قانون) ينظمه، عليه تصبح جميع الموجودات، خاضعة للاتساق والنظام، ومن غير الممكن تصور وجود كون تحكمه الفوضى وتسوده العبثية.

٣- الكون كالانسان، حى وعاقل ومنظم، ولا حياة دون نظام وعدل، لذلك أصبحت الحياة الإنسانية السعيدة، لاتستقيم إلا فى ظل نظام عادل، ولما كانت الكائنات الحية محكومة بالنظام، فالإنسان قبل غيره - وبوصفه سيد المخلوقات- محكوم بالنظام والطاعة الواعية.

---

[1] راجع تفصيلا لهذا: شمار (جورج بويه) : المسؤوليه الجزائية فى الأداب الأشورية والبابلية، ترجمة سليم الصويص، بغداد ١٩٨١ ص٣٢ -٣٥، ٢٧٨ - ٢٧٩، ٣٤٧ -٣٤٩.،

والدكتور محمد كاظم العطار : حمورابى ذلك العظيم، بغداد ١٩٨٣؛

[2] قصة الحضارة ٢/٣٢-٣٣.

٤- ثم يرتقى منطق العراقى القديم إلى نسق أعلى فى دائــــرة الواقـــع الاجتمـــاعى والأخلاقى، متجاوزا حدود الأفق الطبيعى، فالكون يساوى المجتمع، والمجتمـــع لا يستقيم إلا بالنظام، ولا يمكن تصور النظام بدون(قوة) السلطة، ولا سلطة بـدون (عدالة) القانون، ولاعدالة بدون حاكم عادل، وشعب مطيع ومتعاون، عليـــه لا مسؤولية دون قانون عادل، إذن القانون هو الذى يحدد مسؤولية الإنسان العـــاقل، والعدالة هى قانون الحياة الفاضلة فى المجتمع السعيد. وهكذا، نجد أنه كان لحضارة وادى الرافدين، منذ زمن باكر دورها المؤثر فى تاريخ البشرية، وكـــان للفلســـفة الخاصة فيما بين النهرين - طبيعية وأخلاقية- نصيب ملحوظ فى تكوين الفكـــر العالمى.

الفصل الثامن

" الفلسفة الهندية"

ويشمل:

(أ) تمهيد.

(ب) السمات السائدة فى الفلسفة الهندية.

(ج) الفيدا والأوبانيشاد وبدايات الفلسفة الهندية وأعماقها.

(د) اليوجا-الطريق إلى ضبط النفس فى الفلسفة الهندية.



(أ) تمهيد:

للفلسفة الهندية تاريخ طويل، والشزرات التأملية الأولى التي يمكن أنْ توصف بأنها "فلسفية" تنتمي إلى الريج فيدا[1]، التي ربما تم تأليفها في وقتٍ مبكرٍ يعود إلى ١٥٠٠ ق.م، ومنذ تلك البدايات التي أضفى عليها مرور الزمن هالة من الغموض والالتباس، أحرزت الهند ثروة طائلة من الرؤى والتأملات والمناقشات الفلسفية.

ويمكن تصنيف فترات تطور التراث الفلسفي في الهند كما يلي:

تمتد المرحلة الفيدية من نحو ١٥٠٠ ق.م، بينما شغلت المرحلة الملحمية الفترة من ٨٠٠ ق.م إلى ٢٠٠م، ودامت مرحلة السوترا[2] حتى نحو ٤٠٠ ق.م إلى ٥٠٠م، وقد بدأت مرحلة الشرح على المتون في حوالي ٤٠٠م، واستمرت حتى نحو عام ١٧٠٠م، أما مرحلة النهضة التي مازالت مستمرة حتى اليوم، فقد بدأت نحو عام ١٨٠٠م.

وقد بدأ العصر الفيدي عندما انتقلت الشعوب الآرية من آسيا الوسطى إلى وادي السند في نحو عام ١٥٠٠ ق.م، واختلط التراث الثقافي الذي حملوه معهم بتقاليد الشعوب التي التقوا بها وعاداتهم، وبدأ ما يمكن تسميته بالثقافة الهندية بالمعنى الصحيح في التشكل، وتمت تغذية نموها من خلال مناخ وأوضاع الثقافتين السابقتين.

---

(1) الفيدا Vedas: كلمة سنسكريتية مشتقة من الأصل فيد Vid بمعنى "يعرف": والمقصود الكتب المقدسة الهندوسية الأقدم، والتي تضم أربعة أسفار هي: الريج فيدا، والسمافيدا، وهي تراتيم تصاحب تقديم القرابين، والياجورفيدا، وهي نصوص إضافية مرتبة حسب القرابين، وأخيراً الإترفيدا الذي تُعرف بسفر الفقراء والذي يضم نصوصا يفسرها البعض على أنها مادة للرقى السحرية.

أما [الريج فيدا] فهو قسمان، أولهما أدعية وصلوات وتراتيل شعرية، والآخر يشتمل على تعاليم تتعلق بالعبادات والوجبات الدينية.

(2) السوترا – Sutra – كلمة سنسكريتية، وتعني أصلاً الخيط أو القاعدة، والسوترا هي مرحلة التطوير، وفق المدارس المختلفة لنصوص الفيدا، والكلمة تعني كذلك تلخيصات لجانب من التعاليم الهندوسية أو مجموعة حكم أو محاورات.

وقد اندرجت الثمرة الفلسفية لهذه المرحلة المبكرة فى مجموعة من الكتابات تُعرف باسم "الأوبانيشاد"[1] التى تمثل ذروة التأمل الفلسفى لهذه المرحلة الأولى المبكرة؛ فقد طرح الهنود أسئلة عن أنفسهم وعن العالم من حولهم، وموضعهم فيه، مثل: ما الذى يجعل الريح تهب؟ من الذى وضع الشمس -مانحة الدفء والضياء- فى السماء، وكيف تجلب الأرض الوافرة الصور هذه الأشكال التى لاتعد ولاتحصى من الحياة؟ تلك أسئلة نموذجية مما احتوتة التأملات الأولى فى المرحلة الفيدية، وهى أسئلة تلقت فى بداية الأمر ردوداً تعزو كل هذه الأشياء، الرائعة والرهيبة معاً إلى الآلهة.

والأسئلة التى تدور حول "كيف" و"لماذا" هى جذور التأمل الفلسفى، ولقد حاول المفكرون فى البداية الإجابة عن هذه الأسئلة بمفاهيم الشخصية اللاإنسانية، وعزّوا الأحداث التى تقع فى الطبيعة إلى أشخاص فائقة للإنسان، أو إلى آلهة.

وبحلول عام ٤٠٠ ق.م، كان قد تم بالفعل إرساء بدايات العديد من التفسيرات الفلسفية النسقية للعالم وللطبيعة الإنسانية، وتمثل هذه المذاهب أول جهدٍ فلسفيٍ خالص فى الهند، فهى لم تحاول أنْ تفسر أساسيات الحياة والعالم فحسب، وانما قامت بذلك بوعيٍ ذاتيٍ وبانتقاد ذاتى، من أجل صحة الإجابات المقترحة على أساس العقل.

ونتيجة للمؤثرات الخارجية، لا سيما الاحتكاك بالغرب، بدأ الفلاسفة الهنود فى إعادة تمحيص تراثهم الفلسفى، وازدهر هذا التجديد للتراث القديم فى القرن التاسع عشر، ويعد غاندى وطاغور، وراماكرشنا، وراد أكريشنا، من بين مفكرى النهضة الأكثر تأثيرا فى الهند.

(ب) السمات السائدة فى الفلسفة الهندية:

لعل أكثر السمات إثارة فى الفكر الفلسفى الهندى، بعد ثرائه وشموله، تتمثل فى طابعه العملى، فقد نشأت تأملات حكماء الهند، منذ البداية، من محاولاتهم

---

[1] الأوبانيشاد–Upanishad–كلمة سنسكريتية، تتألف من مقطعين أوبا Upa: بمعنى قريب من، ونيشاد ni-shad بمعنى يجلس والمراد "يجلس قرب العلم" ويقصد بها محاورات تأملية ميتافيزيقية، تضم مائة وثمانى محاورة صيغت فيما بين ٨٠٠، ٥٠٠ ق.م.

تحسين الحياة، فقد واجه الفلاسفة الهنود العذاب الجسدى، والذهنى، والروحى، وسعوا لفهم مبرراته وأسبابه، وحاولوا تحسين فهمهم لطبيعة الإنسان والكون، كما أرادوا استئصال أسباب المعاناة وتحقيق أفضل حياة ممكنة[1] وتشكل الحلول التى وصلوا إليها، ومبررات النتائج الكامنة وراء هذه الحلول، فلسفات هؤلاء الحكماء الأوائل.

ولقد استجابت فلسفات الهند لدوافع عملية وتأملية، فقد كان هناك على الصعيد العلمى التعرف على الأشكال المألوفة من المعاناه-المرض، والجوع، والوحدة، والعلم بأن الموت سيحل فى نهاية المطاف بمن حلت المعاناة بساحته، وكان هناك، على الصعيد النظرى حب الاستطلاع الإنسانى الفطرى لفهم التجربة وتنظيمها، ودفعت اعتبارات عملية إلى البحث عن سبل التغلب على أشكال المعاناة المختلفة، وأدت اعتبارات تأملية إلى بناء وصف تفسيرى لطبيعة الواقع والوجود الإنسانى، ولكن هذه الاعتبارات لم تؤخذ بصورة منفصلة، فقد استخدم الفهم والمعرفة المستمدان من الفضول التأملى فى محاولة للتغلب على العذاب والمعاناة.

والمعاناة نتيجة هوة بين ما يكونه المرء وما يملكه، أو بين مايُريد أن يكونه وما يريد أن يملكه، فالإنسان الفقير إذ يرغب فى الثروة التى يفتقر إليها، يعانى، والإنسان الذى يرغب فى الخلود، على الرغم من أنه يعلم أنّ الموت حتمى، يعانى من هذه الحتمية، ولو لم يكن هناك فارق بين ما يكون عليه الإنسان وما يملكه، وبين ما يريد أن يكون عليه وأن يملكه، لما كانت هناك معاناة، وعندما يكون هناك فارق فالمعاناة حتمية، وإذا كان الأمر كذلك، ف إنّ حل المشكلة واضح وهو: **ينبغى أنْ يتطابق ماهو كائن وماهو مرغوب فيه.**

ولكن كيف يمكن هذا التطابق؟ يعتمد أحد مناهج الحل على مواءمة مايكون عليه المرء، وما يملكه، مع ما يرغب فيه، فإذا كان الإنسان فقيراً، ولكنه يرغب فى الثروة، فإنه ينبغى أن يجتهد فى جمعها، ويتمثل المنهاج الآخر فى مواءمة رغبات المرء مع مايمكنه، فإذا كان المرء فقيراً ويرغب فى الثروة، فإنّ المشكلة الناجمة عن ذلك يمكن التغلب عليها من خلال هذه الرغبة.

---

[1] جون كولر: الفكر الشرقى القديم، ص٢٧.

وقد تبنت الفلسفة الهندية بصفة أساسية المنظور الثانى، واختارت الهند التشديد على ضبط الرغبات، ونتيجة لذلك فإن فلسفات الهند تميل إلى التشديد على الانضباط الذاتى والسيطرة على النفس، كشرط مسبق للسعادة والحياة الخيرّة، فالسيطرة على الذات، لا إشباع الرغبات هى الطريق الأساسى للقضاء على المعاناة.

وهذه الحاجة إلى كبح جماح الرغبات والسيطرة عليها أكدت على نحو غير عادى أهمية معرفة الذات، فمعرفة الذات والسيطرة على النفس يُمكن أن تؤديا إلى تخفيف المعاناة على نحو يفوق بكثير ما يقوم به علم الطبيعة، ومن هنا أصبحت الممارسة العملية للفلسفة الهندية، فى أحسن صورها، هى فن العيش فى إطار سيطرة المرء الكاملة على ذاته.

ويتجلى الطابع العملى للفلسفة الهندية بأشكال عدة، فالكلمة ذاتها التى تترجم عادة بـ " الفلسفة" تشير إلى ذلك، وكلمة دارشانا[1] –Darshana– تعنى حرفيا " رؤية Vision" ، إنها ما تتم رؤيته، وهى تعنى فى معناها الفنى الدقيق ما تتم رؤيته عندما يجرى بحث الواقع المطلق.

وقد بحث حكماء، فى غمار سعيهم وراء حل لعذابات الحياة، ظروف المعاناة، وفحصوا طبيعة الحياة الإنسانية والعلم، للوصول إلى أسباب المعاناة وسبل القضاء عليها، وما وصلوا إليه بشكل رؤيتهم، أوفلسفتهم.

ومن الممكن، بالطبع، أن يخطئ أحدهم فى رؤيته، فهو قد لا يرى الأمور على نحو ماهى عليه بالفعل، ومن هنا، فإن رؤية الفيلسوف ينبغى تبريرها بتقديم دليل على صحتها.

---

(1) دار شانا: تعنى حرفيا "يرى" أو "ينظر" ، وهى تنصرف إلى تصنيف محدد لنسق أو رؤية أو تصور لم تتم مناقضته، ولم تجر الإضافة إليه، وهنا نلاحظ أن هناك افتراضا، ضمنيا، قوامه أنه لا يمكن للفرد الذهاب إلى أنه قد أدرك الحقيقة للمرة الأولى، وإنما بمقدوره أن يطرح. أو يفسر. أو يدافع عن شكل جديد للحقيقة، سبقت رؤيته من قبل، أو طرحه آخرون، أو دافعوا عنه ومن هنا يجيئ مادرج عليه المفكرون الهنود من بدء طرح أفكارهم الخاصة الجديدة بالإشارة إلى أنها تابعة أو لاحقة أو امتداد (للدارشانا) سابقة.

والتوحيد بين الطريق إلى الحياة الخيّرة، ورؤية هذه الحياة الخيّرة، هو ذاته عنصر التامل بين الدين والفلسفة فى الهند، وعندما يُنظر إلى الفلسفة باعتبارها لا تهتم إلا بـ " نظرية" الحياة الخَيِّرة فحسب، فإنّ الاهتمام بالوسائل العملية لتحقيق الحياة الخيرة لا يُعد اهتماماً فلسفياً، وقد يُنظر إلى وسائل الحياة عندئذٍ على أنها تنتمى إلى المجالات الدينية أو الاقتصادية، ولكن ليس إلى المجال الفلسفى.

وعندما يُنظر إلى الحياة الخَيِّرة باعتبارها "فى مستوى أسمى" من هذه الحياة العادية، فإنّ وسائل تحقيقها يُنظر إليها عادة باعتبارها سبلاً دينية؛ وعندما تسود وجهة نظر مادية عن الحياة الخَيرة، فإنه غالباً ما يُنظر إلى وسائل تحقيقها على أنّها وسائل اقتصادية، وفى جميع هذه الحالات لا يقع الموضوع فى مجال الفيلسوف.

وإذا كان الدين والاقتصاد مجالين عمليين، والفلسفة مجالاً نظرياً، فإنّ الخلافات المترتبة على ذلك من حيث النطاق والهدف، والمنهج ستحدد، فى حسم، منظور كل منهما، ولكن فى الهند يتعين اختبار نظرية الفيلسوف عن الحياة الخَيِّرة من خلال التطبيق أو الممارسة، كما أنه ينبغى على الفيلسوف أنْ يتوصل إلى وسيلة لتحقيق الحياة الخَيِّرة، لكى يكون فيلسوفاً ، فليس تحديدٌ حاسم يفصل بين النظرية والتطبيق، فالفلسفة والدين لا يُعتبران نشاطان منفصلان.

ولتشديد الفكر الهندى على التطبيق العملى، كمحك لاختبار الحقيقة الفلسفية أثرٌ آخر، هو التأكيد على أهمية منظور التأمل الذاتى أو الاستبطان، إذ ينبغى على المرء لكى يتغلب على المعاناة أنْ ينغمس فى فحص الذات، التى يمكن خلالها فهم الأوضاع الداخلية للحياة، وهذا يقتضى وعياً عميقاً متواصلاً.

وتهتم الفلسفة الهندية، قبل كل شئ ، بالبحث عن طريق لتحرير النفس من التقيد بأنماط هى شذرات محدودة من الوجود، وهى عبودية تسبب المعاناة، وبحسب الأوبانيشاد، فإن القُوة العظمى (براهمان[1] Brahman) التى تمنح الكون طاقته،

[1] براهمان : كلمة سنسكريتية، ويُقصد بها الاسم الذى أطلقة مُعلمو وحكماء الأوبانيشاد على الموجود الأسمى، وهم يجسدونه فى الإله الخالق براهما، ويصفونه طرفاً فى ثالوث مقدس[براهما-الخالق- وفشنو(الحافظ)-وشيفا (المدمر).

والطاقة الروحية للذات (أتمان[1] Atman) هما شئ واحد، فى نهاية المطاف، وهـــذه الرؤية التى توحّد بين الذات والحقيقة النهائية تقدم الأساس لمنهج التحريـــر، الـــتى تُشكل المحور العلمى للفلسفة الهندية.

وبالإضافة إلى سمات الفلسفة الهندية هذه، التى تنبع من توجهـــها العملـــى، هناك ميلٌ واسع الانتشار فى الفكر الهندى، لأنْ يفترض مقدماً وجود عدالة أخلاقية كلية، فالعالم يُنظر إليه على أنّه مسرحُ أخلاقى كبير تديره العدالة، وكل شيئ خـيرٌ أو شرير، أو مُحايد، يُكتسب ويستحقه من يصل إليه، ومن شأن هذا الموقـــف أنْ يُلقى بالمسئولية عن الوضع الإنسانى على كاهل الموجودات البشرية ذاتها، فنحـــن مسئولون عما نحن فيه، وعما نؤول إليه، وقد قررنا بأنفسنا ماضينا، وسوف نقرر مستقبلنا، بحسب ما يذهب إليه الفكر الهندى، ونحن نجد فى الكتابات المقدسة، مثل الفيدا، أن مفهوم الريتا[2]-Rita- (القانون الأخلاقى) يشير إلى العدالة علـــى أنها تحكم الكون، ومع التأكد على أهمية الواجبات الإنسانية استجابة للعدالة، أصبـــح مفهوم الدراما[3] -Dharama-على نحو ما تقرره البنية الأخلاقية للكـــون مفـــهوماً سائداً، وغدا مفهوم الكارما[4] --Krama- يشير "إلى العلاقة بين ما فعله المرء ومـــا كانه، وإلى التأثير السيئ لأفعال الإنسان، التى تنهض كمبدأ لتقرير المصير:

وهناك-أخيراً- إجماع واسع الانتشار فى الفكر الفلسفى الهندى بصـــــدد " اللاتعلق"، فالمعاناة تنشأ من تعلق المرء بما لا يملك، بل وحتى لا يمكنه أنْ يملـــك، ثم

---

(1) اتمان: كلمة سنسكريتية، يُراد بها فى الأبيات الهندوسية روح العالم، أو مبدأ الحياة، أو الروح المطلقة، أو نفس الكون الفعلية التى تتخلل كل شيء.

(2) الريتا: النظام الطبيعى والأخلاقى للكون، ووفقاً للهندوسية، فإنّ الإله (فارونا) هو الذى يقوم علـــى حراسة هذا النظام

(3) كلمة سنسكريتية، تعنى فى أبسط معانيها، فى تراث الهندوسية والبوذية، الشريعة الدينية، أو العمـــل بأحكامها، أو الدين، أو القانون، أو الفضلية، أو صفة جوهرية.

(4) كلمة سنسكريتية، تعنى حرفياً " الفعل" و " المصير" وتُعد مصطلحاً مهما فى التراث الهنـــدى حيـــث تُشير إلى مجمل أفعال الشخص فى واحدة من حالات الوجود المتوالية، وهى تقرّر ما سيكون عليه فى الحالة التى تعقب ذلك بعد أنْ تحددت بالحالة التى سبقتها.

تصبح هذه الموضوعات التى يتعلق بها سبباً للمعاناة، مادام لم يحصل عليها أو فقُدت منه، ومن هنا فإنه إذا ما أمكن غرس روح " اللاتعلق " بموضوعات المعاناة، فـإنّ هذه الأخيرة يمكن القضاء عليها، وهكذا فإنّ " اللاتعلق" يتـم إقـراره كوسـيلة جوهرية لتحقيق الحياة الخيِّرة.

وبسبب سمات الفكر الهندى التى أشرنا إليها، فـإنّ شـعب الهنـد يُقّـدر الفلاسفة، عادة، أسمى تقدير، كما أنه ينظر إلى الفلسفة باعتبارها أسمـى معرفـة، وأرفع حكمة.

(ج) الفيدا والأوبانيشاد وبدايات الفلسفة الهندية وأعماقها:

تكمن بدايات الفلسفة الهندية فى التأملات المسجّلة فى نصوص الفيدا، وهى نصوص الحكمة التى تعود فى أجزائها الأقدم إلى المرحلة التى تبدأ بعام ١٥٠٠ ق.م ، وقـد شكّلت هذه النصوص مصدر إلهام الفلاسفة الهنود على امتداد العصور، واستمرت كتابة الشروح على متولها حتى العصر الحالى، وأقدم نص هو نص الريج فيدا الـذى يعنى "أشعار الحكمة"، ويعد المصدر الأدبى الأكثر أهمية فى الديانة والثقافة الهنديـة، وقد أُلحقت بنصوص الفيدا كأجزاء ختامية لها مجموعة من النصوص، تعرف بـــ " الأوبانيشاد"، وهذه النصوص التى جرى تأليفها فيما بـين ٨٠٠ ق.م و٥٠٠ ق.م، تحفل بالفكر التأملى والتصورى فيما يتعلق بطبيعة النفس والواقع، وتقدم الأسـس التى قام عليها التفكير الفلسفى فيما بعد، غير أنه لابد أنْ يكون مفهوماً أنه رغـم قدم نصوص الفيدا، فإلها ليست تعبيرات صادرة عن شعب بدائى، فالأفكار المعُـبر عنها فى نصوص الفيدا والأوبانيشاد تجمع بين العمق والصقل، وهى نتيجة لقـرون من الفكر التأملى فيما يتعلق بأعمال أسرار الحياة، وهى تقدم استبصارات حـول مسار الحياة، تشكّل شهادة تتجاوز كل الأزمان على الحكمة الإنسانية، الأمر الذى مكّن هذه النصوص من أن تُلهم الثقافة الهندية وتغذيها حتى العصر الحالى.

(١) الفكر الفيدى:

نصوص الفيدا هى أشعار حكمة، تشكّل جوهر طقوس الهنـد المقدسـة، وتحدثنا الفيدا ذاتها بأنّ هذه الأشعار عندما تُرتل، وتنشد، ويُتغنى بها، فإنها تمكـن الخلق جميعاً من المشاركة فى حكمة الواقع الإلهى وطاقته، وينظر إليها على أنها نـوع

من المعرفة المرتبطة بالعمل القادر على قهر التجزئة والاغتراب فى إطار عملية توحيد كل الكائنات، وملء الحياة بطاقة مقدسة.

أمَّا التراث فهو ينظر إلى الحكمة الفيدية على أنها تتجاوز الزمن وليس لها مؤلف بعينه، وهذه الحكمة تتجلى لأفئدة أشخاص عظام، امتدت تجربتهم إلى الجوهى الداخلى للوجود، وهى تتجاوز الزمن لأنها تجلت للبشر الأوائل أنفسهم كما تتجلى اليوم لكل من تغوص تجربتهم فى أغوار الحياة، وليس لها مؤلف بعينه، لأنَّها لا يكشف عنها أشخاص، وإنما الواقع ذاته، وينظر إلى الريج فيدا، على أنَّها أقدم مجموعة من أشعار تلك الحكمة، على أنها منبع النزعة الروحية الهندية، فعلى امتداد ما يزيد على سبعة آلاف عام شكَّلت مصدر إلهام للتراث الهندى.

ومعظم الأشعار الفيدية موجهة إلى الآلهة، ولها وظيفة مركزية فى تأدية الطقوس، لكن ذلك لا يعنى أنها مجرد ترانيم للعبادة، أو تراتيل للطقوس، فبعضها أعمق من ذلك بكثير، فهو يقدم رؤى عميقة ودقيقة للواقع، بل إن الآلهة الذين تتم مخاطبتهم فى هذه الأشعار ليسوا موجودات ذات سمات بشرية، بل هى رموز للقوى الأساسية للوجود، أى تمثل القوى التى تخلق الحياة وتدمرها، والتى تسيطر على فيض الوجود.

وعلى الرغم من أن الآلهة الفيدية ترمز لقوى الوجود، فإنها لا تنظر إليها عادة باعتبارها خالقة الوجود، بل إن فكرة خالق منفصل عن الكون ذاته هى، فى الواقع، فكرة غريبة عن الريج فيدا، فكل من العقل ومادة الكون ينظر إليهما على أنهما متضمنان فى الوجود ذاته، ولا سبيل إلى فصل أحدهما عن الآخر؛ ولأن الوجود كان ينظر على أنه عاقل، بحكم مافى مضمونه، فإن الكون قد نظر إليه باعتباره كلا منظما، والنظام الكامن فى ضروب الانتظام العضوية يمضى إلى عمق أكبر ليصل إلى قلب الوجود، وهذا النظام العميق، الذى يقدم قواعد للتعبير عن الوجود، قواعد أخلاقية، نفسية، جمالية، دينية عضوية، يعرف بالريتا-Rita- والريتا باعتبارها الإيقاع الجوهرى للوجود، وهيكل هذا الوجود أكثر أساسية من الآلهة، فهذه الأخيرة بدورها خاضعة للمطالب.

أصل الوجود فى الفكر الفيدى:

وفى ترنيمة الخلق الشهيرة الموجودة فى الكتاب العاشر من الريج فيدا، يكافح الحكيم لتعرف أصول الوجود، وبعد أن تشير إلى، ماهو موجـــود، ومـــاهو غـــير موجود، فإن الوجود والعدم ينبغى تركهما وراءنا، وهو ينتهى مـــن ذلـــك إلى أن المصدر الأصلى، للوجود، ربما لا يمكن معرفته.

تقول أبيات الترنيمة:

١- فى البدء لم يكن هناك وجود ولاعدم،

لا وجود للعالم ولا للسماء فيما وراءه.

ما الذى أسدل عليه الستار؟ أين؟ من الذى منحه الحماية؟

٢- آنذاك لم يكن هناك موت ولا خلود،

ومامن أثر لليل أو نهار،

لم يكن هناك سوى الواحد الذى يتنفس، دونما نفس، بدافع من ذاته،

وعدا ذلك لم يكن ثمة شيء على الإطلاق.

٣- كان هناك ظلام، يلتف بالظلام،

وكل هذا كان طاقة لا تمايز فيها،

وذلك الواحد الذى حجبه الخواء،

كشف النقاب عنه من خلال قوة الحرارة-الطاقة.

٤- فى البدء كان الحب،

الذى كان البذرة الأولى للعقل.

وفى سعى الحكماء، الحكمة فى أفئدتهم،

اكتشفوا الصلة بين الوجود والعدم.

٥- من ذا الذى يعرف حقا؟ من ذا الذى يمكنه أن يقول هنا؟

متى ولد هذا الخلق؟ ومن أين جاء؟

لقد جاءت الآلهة بعد خلق هذا العالم،

فمن ذا الذى يعرف من أين جاء؟

٦- ذلك الذى من رحابه جاء الخلق،

سواء كان يضمه معا أم لا،

هو الذى يراه فى السماء العلا،

هو وحده الذى يعرف-أوربما حتى لا يعرف[١]

تكشف لنا هذه الأشعار ، عن إلمام بالمحاولات السابقة لتحديد أصول الوجود، ويحاول الحكيم هنا الوصول إلى ما هو بصورة مطلقة، ولما كان الوجود والعدم يعارض أحدهما الآخر، فإن الحكيم يفترض وجود حقيقة واثقة أسبق هى مصدر هذا الزوج من الأضداد، ونجده يتساءل: ما الذى كان هناك قبل الوجود والعدم؟ وفى غمار جهوده للمضى إلى ما يتجاوز الثنائيات التى تفصل الموت عن الخلود، والليل عن النهار، والنفس عن المتنفس، لا يجد مجالا للنفى أو الإثبات، فالعقل الذى يبحث فيما وراء الكينونة واللاكينونة لا يجد إلا ظلاما.. (ظلاما يلتف فى ظلام).

وربما فى الحب، الذى يمضى إلى ما وراء العقل، يمكن العثور على الواقع الأول،فجذور الوجود إنما توجد فى الحب، وهو-الحب- قوة توحد الأضداد فى كل جديد خلاق، وهكذا، فإن الشاعر، فى المقطوعة الشعرية الرابعة، يشير إلى أنه فى الحب تلتقى قوى الوجود والعدم، لتلد كل أشياء هذا العالم، لكنه يدرك أن ذلك لا يفسر أصول الوجود والعدم، وإنما يوضح انتاجها المشترك للعالم.

إذن من ذا الذى يعرف هذا السر؟ من ذا الذى يستطيع اختراق لغز الحياة الأساسى؟ إن الترنيمة تختتم بالإشارة إلى أنه حتى " هو الذى يراه فى السماوات العلا" لا يستطيع أن يصل إلى هذه المعرفة، والفكرة التى تتضمنها هى أن الموجودات البشرية يتعين عليها أن تظل منفتحة على هذا السر، مشاركة فى عملية التجدد الذاتى، التى من خلالها يتحقق الكل غير المنقسم فى الحياة اليومية.

---

[١] راجع كولر: الفكر الشرقى القديم، ص٤٩-٥٠

واكتشاف الواقع الأساسى الذى يجاوز المنطق واللغة، هو أحد الاستبصارات العظيمة، للفيدا، ف" ذلك الواحد غير المقسم، والذى لا سبيل إلى تسميته، يشكل الأساس والطاقة لكل وجود.

(٢) " الأوبانيشاد" والطابع الفلسفى:

الأقسام الأخيرة من الفيدا، والتى تعرف بالأوبانيشاد، ذات طابع فلسفى أكثر من الأجزاء المتقدمة، ذلك لأنها تخلو من قيود الحقيقة المقررة سلفا، وهى تتضمن اعترافا بالحاجة إلى تقديم دليل على دعواها، كما أنها تعنى بالمبادئ الأساسية للوجود.

وتميل [الأوبانيشاد] إلى تأكيد أهمية مضمون رؤية الحكيم أكثر من ميلها إلى التشديد على الوسائل التى يمكن عن طريقها تبرير هذه الرؤية، والسؤال الرئيسى الذى تطرحة نصوص الأوبانيشاد هو:

" ما الطبيعة الحقة للواقع النهائى؟"

وهذا السؤال يفترض مقدما أن هناك اختلافا بين ما " يظهر" أنه واقع، وما هو واقع حقا، فالمظهر لا ينظر إليه على أنه يكفى لتبرير وجوده الخاص، وانما يعتمد على واقع أسمى، ولم يكن البحث منصبا على عالم المكان والزمان، المليء بالأصوات، والروائح والألوان.. الخ، أو ما "يظهر" لنا على أنه عالمنا، وانما هى "الشروط" التى تجعل هذا العلم الظاهر أمرا ممكنا.

ولم يبحث حكماء [الأوبانيشاد] الشروط الخاصة بمظاهر بعينها، وإنما كانوا يسعون إلى معرفة ذلك الذى فرض الشروط، أو الذى جعل الوجود نفسه أمرا ممكنا؛ ولم يكن لدى هؤلاء الحكماء تصور واضح عما يبحثون عنه، فقد كانوا يعرفون أنه لا بد من وجود ذلك الذى عن طريقه وجدت كل الأشياء الأخرى، والذى جعلها عظيمة، والأسم المعطى لهذا "الشيء" هو براهمان " Brahman " وهو يعنى "ذلك الذى يضفى العظمة"، وقد كان اسما غير وصفى، فهو لا يسمى أى شيء محدد، مجردا كان أم متعينا.

وقد سجلت [الأوبانيشاد] البحث عن "براهمان" باعتباره بحثا عن الواقع الخارجى النهائى، وقد كانت هناك فى البداية محاولة لتعرف ذلك "الشيء" عن

طريق الرموز، والطقوس الدينية، وعن طريق الأشياء الطبيعية، مثل الشمس والقمر، وعن طريق وظائف سيكولوجية معينة للموجودات البشرية، وكل هذه المحاولات لتحديد ماهية "براهمان"، من خلال شيء آخر، تفترض مقدما حدودا لتلك القوة، ولكن إذا كان "براهمان" مطلقا فمن المستحيل أن يكون مقيدا، ذلك أنه ليس من الممكن أن يكون هناك شيء فيما وراءه ليقيده، وعندما بدأ الحكماء يدركون، بصورة أكثر وضوحا، أن "براهمان" لا يمكن وصفه على نحو مناسب، بالالتجاء إلى خبرتهم بعالم الظاهر، حاولوا تحديد هذا الواقع بالسلب.

فيصفه أحدهم قائلا:

"إن براهمان لا سبيل إلى تصوره، فهو لا يتغير، ولاينالـه أذى، ولا يمكن إدراكه، ولا سبيل إلى سماعه، ولا مجال لرؤيته أو تذوقه، وليس بالوسع شمه، وهو بلا بداية ولانهاية، وأعظم من العظيم"[1]

ويصفه آخر بقوله:

" لا سبيل إلى رؤيته، أو الإحاطة به، لانسل له، ولا لون، بلا عين ولا أذن، وبلا أيد ولا أقدام، يتخلل كل شيء، وهو كل الوجود، إنه الواحد، الذى لا يتغير، الذى ينظر إليه الحكماء باعتباره مصدرا للموجودات"[2]

وهناك اهتمام آخر لحكماء [الأوبانيشاد]، تركز حول [الذات المطلقة]، ماهي؟ وذهبوا إلى أنه إذا كان من المعتقد أن الذات هى الجسد، فإنها تكون الطعام بصفة جوهرية، ذلك أن الجسد هو طعام مهضوم، ولكن من المؤكد أن الذات لايمكن أن تتحد مع الجسد فحسب، لأنها شيء يفوق ذلك، فهى حية ومتحركة، وإذا لم تكن الذات طعاما، فربما كانت الحياة المستمدة من الطعام، ولكنهم أدركوا أنه بينما يفيد ذلك فى تمييز المادة الحية من المادة الجامدة، فهى ليست ذات الشخص المطلقة، ذلك أن الشخص يزيد على كونه طعاما حيا، والذات ترى، وتسمع، وتحس، الخ، وبمعنى هذا التأمل ليقول إنه ربما كان ينبغى النظر إلى الذات من خلال مفاهيم العقل أو الإدراك، ولكن هذا بدوره بدا غير مناسب، ذلك أن التفكير والفهم يتعلقان على نحو أكثر ملاءمة بالذات منهما بالإدراك، غير أن هذا الطرح

---

[1]، [2] راجع تomلين: فلاسفة الشرق، ص١٨٢ ومابعدها

رفض بدورد، باعتباره طرحا غير مناسب، ذلك أنه لابد أن يكون هناك من يمنح الوجود للتفكير والفهم، وكما تقول الأوبانيشاد:

" مختلفة عن ذلك الذى يتألف من الفهم، وقائمة فى أغواره، هى الذات المباركة"[1]

كان هذا البحث عن الذات المطلقة، هو بصفة جوهرية، مسألة تسير على نحو أعمق وأعمق فى أسس الوجود الإنسانى، وهى مسألة نظر إليها باعتبارها تتناول الحياة، وتلك بدورها تتناول الذات التى تحس؛ وكان النشاط العقلى أعمق من الإحساس، ولكن ماهو أكثر عمقا يتمثل فى نعيم الوعى الكلى، وعلى ذلك فينبغى ألا تتحد الذات مع أى من الصور الأدنى للشخص على وجه الحصر، وإنما يتعين النظر إليها بإعتبارها موجودة فى صميم الطبقات المختلفة للوجود، تضفى عليها الحياة، بينما تظل متميزة عنها.

وهكذا يتخذ البحث عن الذات المطلقة، صورة السعى وراء الفاعل النهائى أو القائم بالنشاط الإنسانى، وتطرح الاسئلة التالية:

" بمشيئة من وتوجيهه، يشرق العقل على موضوعاته؟ بأمر من تتحرك الحيلة الأولى؟، بمشيئة من يتفوه البشر بهذا الحديث؟ وأى إله ذلك الذى يستحث العين والأذن؟"

وبمعنى آخر: من ذلك الذى يوجه كل الأنشطة الإنسانية؟ والجواب عن هذه الأسئلة هو أنه مجهول، ذلك أنه "حيث لا تعمل العين، ولا يعمل الكلام، ولا الذهن، نحن لا نعرف، ولا نفهم كيف يمكن للمرء أن يعلم"

وهكذا، فعلى الرغم من أن الذات المطلقة، بمعنى من المعانى لايمكن معرفتها، فإنها بمعنى آخر، متصلة بالتجربة المباشرة، ويمكن معرفتها على نحو حميم وكامل من تجربة الوعى الذاتى الكلى، وبهذا المعنى فإنها تعرف على نحو أكثر يقينية واكتمالا من أى موضوع للمعرفة، وبهذا هو يقين وجود المرء، الذى يتجاوز أى شك أو تساؤل.

الحب و " وحدة أتمان وبراهمان"

---

[1] كولر، الفكر الشرقى القديم، ص ٥٥

ويصل حكماء [الأوبانيشاد] إلى أنه يمكن معرفة النفس المطلقة - أتمان - مباشرة، وفى الحال، باعتبارها مسألة تجربة مباشرة، ذلك أنه هاهنا لا يمكن أن توجد شكوك، أو تأرجح لليقين، وهذه إجابة تتيح لدى إدراكها الرضا التام للفرد. ولاكتشاف "أتمان" أهميته من وجه آخر، فحكماء نصوص [الأوبانيشاد] الذين كانوا يسعون وراء كل من الواقع الخارجى المطلق (براهمان)، والواقع الداخلى المطلق (أتمان)، وصلوا إلى الاستفسار عن العلاقات والصلات بين هذين الواقعين.

والاكتشاف المثير الذى وصلوا إليه الآن هو أن "أتمان" ليس إلا "براهمان"، فهناك واقع مطلق واحد يمكن الدنو منه، إما من خلال النظر إلى خارج نفس المرء، أو بالنظر فى أعماق نفسه.

وتعد وحدة [أتمان وبراهمان] أعظم اكتشاف فى الأوبانيشاد، وهذه الوحدة هى قبل كل شيء السر والتعاليم المقدسة (أوبانيشات) التى يرعاها حكماء [الأوبانيشاد] بمزيد من الحرص، والتى تشكل الرسالة الأساسية لدراستهم.

ومن أجمل وأعمق ما انتهى إليه حكماء [الأوبانيشاد]، أن معرفة أتمان تماثل معرفة الحب، فأولئك الذين يجربون الحب، هم وحدهم الذين يعرفون طبيعته، وقد يطرح آخرون مزاعم شتى عن الحب، ولكنهم يفتقرون بجلاء إلى التجربة المناسبة، أما بالنسبة للشخص صاحب التجربة، فإنه ما من شيء يمكن أن يكون أكثر يقينية من وجوده، رغم أن الشخص الذى يفتقر إلى التجربة، يحتمل إلى حد كبير أن يتشكك فى وجود الحب، وبطريقة مماثلة، فإن من يفتقرون إلى الإيمان أو التجربة قد يتشككون فى وجود "أتمان" وفى إمكان إدراكه، ولكن من جربوا نعيم أتمان يعرفون النشوة المطلقة، فقد تحققوا منه تمام التحقق.

وكان من الممكن أن توجد ثلاثة مواقف أساسية حيال معرفة "أتمان" وذلك بسبب الطبيعة التجريبية لهذه المعرفة، فقد نفى المتشككون وجود أى ذات مطلقة من هذا النوع، على أساس أنهم لم يجربوها، وكان آخرون على استعداد لقبول وجود "أتمان" وطبيعته كافتراض فلسفى يتعين إثباته على أساس العقل، وكان هناك آخرون، وربما شكلوا الغالبية العظمى من شعب الهند، على استعداد لقبول شهادة الحكماء والعرافين، باعتبارها دليلا مقنعا على إيمانهم بوجود أتمان، وإمكان الدخول معه فى تجربة، فقد كان موضع الاهتمام الكبير بالنسبة لهؤلاء الناس هو الوصول إلى سبيل لهذا التحقق المدهش.

لم يكن هذا الاهتمام ميزة يتمتع بها القلة، وإنما يشترك فيه أعضاء المجتمع كافة، ونمت بصورة تدريجية أقاصيص خرافية، وحكايات، وقصائد، وقوانين قدمت للعامة فى الهند إرشادات ومثلا عليا لنوعية الحياة التى من شأنها أن تجعل تحقيق أتمان أمرا ممكنا.

وتقدم هذه الكتابات الوسيلة الأساسية لتحويل التعاليم المقدسة التى قال بها كهنة الفيدا وحكماء الأوبانيشاد، إلى طريقة لحياة الناس، وقد ارتبط التأكيد الفيدى المبكر على أهمية الطقوس الدينية مع التعاليم الفلسفية الواردة فى نصوص الأوبانيشاد، بتشديدها على الانضباط الذاتى والمعرفة، وذلك بطريقة خفضت كلا من الطقوس والتجريد الفلسفى.

(د) اليوجا – الطريق إلى ضبط النفس فى الفلسفة الهندية:

تعتبر اليوجا – yoga – أمرا مطلوبا لتحقيق الحكمة، التى من خلالها يمكن القضاء على الجهل، وضبط النفس، وبالتالى معرفة "أتمان" فى الفلسفة الهندية، ونلتقى فى الفلسفة الهندية، بقوى خمس، تعوق الوعى الخالص ورؤية الروح:– أولها **الجهل**، وهو الافتقار إلى إدراك أن الذات تنتمى فى نهاية المطاف إلى طبيعة الروح، وليس إلى طبيعة المادة، ولأن الذات تظن، على نحو خاطيء، أنها مجرد كيان نفسى – عضوى، فإنه ينظر إليها، خطأ على أنها متحدة تماما مع المادة، ونتيجة لذلك فإن هذه النفس المتجسدة تكافح للحفاظ على وجودها باعتبارها كيانا ماديا، ناسية أن طبيعتها النهائية هى من طبيعة الوعى الخالص.

والقوة الثانية، التى تقيد نشاطات النفس المتجسدة هى **الإلحاح الدائم لخلق الأنا ودعمه**، هى تحول كل شيء إلى "ملكى".

والقوة الثالثة، **هى الافتتان بالأشياء**، ويعبر عن نفسه من خلال التشبث والتعلق، فالذات الجاهلة تقوم، للحفاظ على وجودها المادى، بالتشبث بموضوعات التجربة، رابطة ذاتها بوجود هذه الموضوعات الهامشية، وتتعلق الذات المتجسدة، على نحو يائس، فى غمار خوفها من أن يفلت ما تمسك به – لكل خبرة أو تجربة تبعث على الشعور باللذة.

والقوة المقيدة الرابعة، هى **الكراهية والخوف**، وهى المقابل للقوة الثالثة، إنها كره كل شيء يهدد الذات المادية ومقته، وتقوم القوتان معا، قوة التشبث وقوة

المقت بدفع الشخص، وإذ تدفع كل منهما وتجذب على نحو مضاد للأخرى، فإنهما تتركان الفرد فى حالة من حالات الوجود مترعة بالعذاب على نحو مستمر.

والقوة الخامسة، هى **إرادة الحياة للأبد**، وهى قوة أكثر عمقا من المقت، ومن الارتباطات، وتكتسحها معا، عندما تتهدد الحياة بالخطر، وهذه القوة تحكم الفرد بحيث يخاف الموت، وكل ما يرتبط به، وهى إذ تضرب جذورها فى الجهل، فإنها تدعم دافع الأنا الخاص بالنفس المتجسدة، متشبسة بوعد زائف بالخلود النفسى-العضوى.

ولأن هذه القوى الخمس تحكم الكيفية التى تسلك بها الذات المتجسدة، وتفكر، فإنه لابد من فهمها بوضوح، والتصدى لها، فهى القوة الأساسية التى تؤكد "تذبذبات وتقلبات مادة الذهن" التى تسعى اليوجا إلى إيقافها، ومن خلال وقف هذه التحركات، والقضاء على القوى الدافعة التى تكمن وراءها، فإن الوعى يغدوا صافيا، ويمكن التمييز بينه وبين المادى، وهكذا فإن اليوجا هى على نحو جوهرى عملية "إنهاء تقييد" النفس ذات الوعى المتجسد.

وتبدأ الأساليب المتبعة لإنهاء التقييد من خلال اليوجا، بمجموعة من الضوابط الأخلاقية، ويقصد بها إعادة توجيه إرادة الشخص وأعماله، فبدلا من التصرف انطلاقا من الشعور بالارتباط أو بالمقت، بدافع قوى من الأنا العمياء، يتوقع من الشخص أن يتصرف انطلاقا من الإشفاق المفعم بالتعاطف حيال رخاء الآخرين، ويتمثل الضابط الأول فى "**اللا أذى**" أى استبعاد كافة التصرفات التى تؤذى الكائنات الأخرى، وكل الأعمال التى تقوم على أساس الكراهية، وسوء النية، وتعبر عن الحب المفعم بالتعاطف حيال كل المخلوقات الحية، وتطوير هذا الحب الشامل يتم إقراره كوسيلة فعالة للتخلص من النوازع الأنانية للأنا.

ويتعلق الضابط الأخلاقى الثانى **بالكلام**، ذلك أن الكلام ينبغى أن يسهم فى رخاء الآخرين، ويتعين تجنب النوايا السيئة، والكلمات التى تؤذيهم، وهذا يشمل الحديث الأجوف، والثرثرة الخرقاء، والكذب، وحيث إن المبدأ هو أن الكلام ينبغى أن يدفع خير الآخرين قدما، فإن أية نوايا أو كلمات تؤذى الآخرين تعتبر زائفة، ويتعين تجنبها.

"**وعدم السرقة**"، هو الضابط الأخلاقى الثالث، وهو استبعاد أخذ ماهو ملك الآخر، ويهدف، إلى القضاء على الحالة الذهنية التى ترغب فيما يملكه شخصٌ آخر، وينظر إلى التشوق إلى ممتلكات شخصٍ آخر، فى حد ذاته، باعتباره نوعاً من إيذاء هذا الشخص، ومن ثم فإنه يتعين محوه من الذهن.

والضابط الأخلاقى الرابع، هو "**عدم التشبث**" ويعنى القضاء على الرغبة بأسرها فى امتلاك الخيرات، حتى ما يُدعى بـ" الملكية المشروعة"، فإنَّ مبدأ الملكية نفسه هو تعبيرٌ عن الطمع.

والضابط الأخلاقى الخامس، **موجه ضدّ "النشاط الجنسى"**، وبقدر ما ينطلق هذا النشاط من الأنا، ويغذيها، فإنه يُشكّل عائقاً أمام الوعى بالذات، ينبغى القضاء عليه، وعلى الرغم من أنَّ النشاط الجنسى له موضعه المشروع فى حياة الناس العاديين، فإنه بالنسبة لمن يمارس "اليوجا" يُمثل لوناً من القيد أو العبودية، ولهذا يجب على الممارس التزام العفة.

وهذه الضوابط الأخلاقية الخمس، لاتستهدف فى مجملها، القضاء على النشاط المحرَّم فحسب، وإنما هى أيضاً قضاءٌ على الدافع الذى يثير هذا النشاط.

وإضافة إلى هذه الضوابط الأخلاقية الخمس، يلتزم ممارس اليوجا بأساليب الانضباط الروحية، مثل النقاء فى الفعل والتفكير والكلمة، ولابد من إبقاء الجسم نظيفاً، ويتعين تجنب كل أشكال التلوث الاجتماعى والشعائرى، وينبغى للمرء أن يرضى بما لديه كائناً ما كان، دون أنْ تقلقه الأحداث والظروف، والرضا بما لدى المرء يساعده كذلك على أنْ يستشعر إحساساً باستقلال الذات الحقة.

ويجب عليه أيضاً أن ينزع إلى الزهد أو التقشف، وهنا يقوم المرء بالعديد من الأنشطة، التى تستهدف نكران الذات، وكبح جماح شهواتها، من أجل تحرير المرء نفسه من تجاذب وضغوط ما يحب وما يكره، من خلال توليد شعور بالاستقلال عن الجسد، والزهد، على خلاف الشخص العادى، لاتحكمه الرغبات، وإنما هو سيدها المسيطر عليها.

وهناك أيضاً الدراسة، وضرورة الانفتاح على التعليم، وضرورة الإجلال للمُعلم.

وإذ يستقر الدارس فى انضباطه الأخلاقى والروحى، فإنه يغـدو مسـتعداً للقيام بالتدريبات، أو لأداء الأوضاع التى يُراد بها تحقيق انضباط الجسد والسـيطرة عليه، وأوضاع اليوجا، التى لايمكن تعلمها على نحو سليم، إلا من معلـم مؤهَّـل لذلك، ينبغى أنْ تتم ممارستها إلى أنْ تصبح شيئاً بلا مجهود.

وتُعد السيطرة على التنفس أمراً جوهرياً بالنسبة لممارس اليوجا، ذلـك أنَّ التنفس يتيح الطاقة الحيوية التى تديم الحياة وتغذيها، وهذه الطاقة الحيوية تعطى لكل شخص عند الميلاد، ويتم تغذيتها وتطهيرها من خلال التنفس، وبالإضافة لذلـك، فإنَّ السيطرة على التنفس مهمة للتأمل، فاضطلاع المرء بوظائفه النفسية-العضويـة يعتمد بكامله على إيقاع طاقة التنفس وتدفقها.

ويستطيع مَنْ يمارس اليوجا، عقب السيطرة على الجسم والحواس، أنْ يركـز على وضع العقل تحت السيطرة بحيث يمكن إيقاف أنشطته، ونحـن بحاجـة إلى أنْ نتذكر أنَّ العقل مختلفٌ عن الوعى الخالص، بل إنَّ العقل ينظر إليه، فى الواقع، علـى أنَّه نوعٌ من التدخل الذى يُشوِّش الوعى الخالص، وهكذا فإنه لابد من السـيطرة على العقل من خلال عمليات ممارسة التركيز، وينبغى تسكين حركاتـه وتفريـغ محتوياته، وذلك للكشف عن الوعى الأكبر عمقاً.

الفصل التاسع

" البوذية.. منهجٌ لتجاوز المُعاناةِ وتحقيق الاستنارة"

ويشمل على:

(أ) تمهيد.

(ب) البوذية والمعاناة

(١) الحقائق الأربع النبيلة.

(٢) الطريق الأوسط والفلسفة العملية للبوذية.

(جـ) تعقيب.



(أ) تمهيد:

تحظى "البوذية" بنصيب موفور من الدراسات المتصلة بالتراث الروحي الشرقي، لاستناد مبادئها *على الرحمة والأخلاق الكريمة والمساواة، والبوذية في الواقع، مجموعة من الأديان والفلسفات، ذلك أنّ "بوذا" لم يخلف كتاباً مقدساً، ولم يدون تعاليمه، ولم تُسجَّل آراؤه إلا بعد إنقضاء أربعمائة سنة على وفاته، وبالتالي تنقسم البوذية إلى أربع مدارس أساسية، تنقسم بدورها إلى فرق وشيع:

الأولى: مدرسة تيرافادا Theravada (أي مذهب الراشدين)، وهي أقدم المدارس البوذية، ولعلها أقربها إلى تعاليم "بوذا" الأصلية، وتعتنقها غالبية سكان سيلان، وبورما، وتايلاند،وكمبوديا، وتعرف كذلك باسم "بوذية هينايانا" (أي المركبة الصغرى).

الثانية: يطلق عليها "ماهايانا" (أي المركبة الكبرى"، والهدف في "الماهيانا" هو أن يصبح المرء كائنا مناط اهتمامه الوحيد مساعدة الآخرين على القضاء على المعاناة.

الثالثة: بوذية التيبت، وتعتنقها - بالإضافة إلى التيبت - البلاد المجاورة لهذه المقاطعة وهي: بوتان، وسيكيم، ونيبال.

الرابعة: بوذية زن "zen"[1]، وتفترق تماماً عن جميع فروع البوذية، سواء بالنسبة للاتجاهات الدينية أو الفلسفية، ويعتنقها معظم بوذيّي اليابان.

ويرجع العهد بالبوذية إلى أكثر من ٢٥٠٠ سنة، وقد نشأت أصلاً في الهند، ويُعتبر

---

[1] زن هذا هو الرسم الصحيح للكلمة على الرغم من أنّ البعض يؤثر كتابتها "زين"، فاليابانيون ينطقون الكلمة خطفاً، وبما لايدع مجالاً لكتابتها على النحو الثاني، و "زن" شكلٌ من أشكال البوذية المهايانية، يوجد أساساً في اليابان، وإنْ كان قد ترك أثراً قوياً أخيراً في الغرب، وبصفة خاصة في الولايات المتحدة، ويُقدَّر عدد أتباع زن بحوالى تسعة ملايين شخص، والكلمة تعني حرفياً "التأمل" وهي مستمدة من الكلمة الصينية chan وهذه بدورها تعود إلى الكلمة السنسكريتية Dhyana وفي لغة بالي Thana وتشدد زن على نوعٍ معين من الانضباط الروحي، يُساعد على تحقيق استنارة مفاجئة، هي بدورها مرحلة على طريق الاستنارة الكاملة.

(جوتا ما سدهارتا- بوذا [1]) مؤسس البوذية، وولِد جوتاماسدهارتا فى حوالى العام ٥٦٣ ق.م، فى كابيلافاستو Kapilavastu ، فيما يعرف اليوم باسم نيبال Nepal، وقد حاول والده وقايته من مشاهد المعاناة البشعة التى تنتشر من حوله، وتزوج زيجة سعيدة من فتاة جميلة، وعاش حياة مرفهة، مليئة بالملذات، إلى أنْ بلغ التاسعة والعشرين من العمر، ثم بعد أنْ تعرَّض لمشاهد الشيخوخة. والمرض، والموت، وبعد أنْ فكَّر فى أنَّه سيكون من الخير اكتشاف بعض وسائل قهر المعاناة، غادر قصوره وعائلته ولزم حياة الزهد.

وعلى امتداد ستة أعوام مارس - جوتاماسدهارتا - أشد أشكال ضبط النفس وإنكارها تطرفاً، بلا طائل، وأخيراً، وبينما هو على حافة الموت، توصل إلى أنَّ الحقيقة الخاصة بسبب المعاناة ووقفها لن يتم الوصول إليها بالتزام أقصى درجات الزهد، ومن هنا فقد عقد العزم على سلوك الطريق الأوسط بين الانغماس فى الملذات والتنسك، وسرعان ما حقق الإستنارة، التى كان ينشدها، وطوال الأربعين عاماً التالية من حياته ضرب بوذا فى أرجاء الهند، معلماً للحقائق الأربع النبيلة والطريق ذى الشعاب الثمانى - والتى سيأتى الحديث عنها تفصيلاً - وخلال سنوات التعليم هذه، اجتذب بوذا العديد من الاتباع، وعندما مات بوذا حوالى عام ٤٨٣ ق.م، كان سلك الرهبان البوذيين يضم عدداً كبيراً بالفعل.

ويستهجن البوذا الطقوس والمراسم الخرافية، ويحط من شأن آلاعيب الكهان، ويُحمد له بالذات جهاده لتقويض صرح الفوارق الطبقية، فإنه القائل: "لايصبح الإنسان عضواً فى طائفة البراهمة أو المنبوذين لأنه ولد كذلك، لكن أفعاله وحدها هى التى تحدد وضعه، سواء بين البراهمة أو بين المنبوذين!".

ويندد باستخدام العنف فى أية صورة من الصور، ويدين القرابين، بشرية وحيوانية، ويستقبح سفك الدماء، ومن رأيه أن الرفق فضيلة أسمى من ممارسة الطقوس الروحية، ولقد هفت نفسه إلى أن يلتزم كل إنسان بالفضائل ويتصف بالحكمة، لا

---

[1] بوذا - Buddha- الكلمة تعنى حرفياً المستنير" أو "المتنور" أو "المستيقظ" وهى لقب واحد من ألقاب عديدة تُطلق على سدهارتا جوتاما، مؤسس البوذية (٥٦٣-٤٨٣ ق.م)، وأبرز ألقابه إلى جوار بوذا، لقب شاكيا مونى،أى حكيم قبيلة شاكيا التى ينحدر منها سدهارتا، وكذلك لقب تاثاجاتا، وهو لقب غامض، ولكنه ربما كان يعنى الذى مضى على هذا النحو " أى ذلك الذى يمكن أنْ يُشار إلى حياته العملية دونما سبيل إلى وضعها"، وهناك كذلك لقب جينا أى المنتصر، وغيره من الألقاب.

أنْ يعزِّى نفسه بالانتساب إلى قلة مميزة، وكان يستعين فى عظاته بلغة القوم الذين يتحدث إليهم، عوضاً عن استعمال لغة لا تفهمها سوى قلة من مستمعيه المتعلمين. وليست عقيدة البوذا الدينية نظاماً تحكمياً من الطقوس السرية، والرسوم الخفية، والصلوات الجوفاء، لكنها منهاجٌ للحياة وأسلوبٌ للتفكير الصافى والحوار المتزن والفعل السديد.

وفى الواقع، يُعتبر البوذا أول مفكر أنجبته البشرية يُعلى من شأن العقل، ويؤكِّد سلطان الإنسان على أفعاله، وأنّ بيده وحده توجيه مصيره.

(ب) البوذية والمُعاناة

لسي من الممكن لمن يعيش فى هذا العالم أنْ يظل بعيداً عن المعاناة الإنسانية، فلابد لكل حياة أنْ تعانى من الظلم، أو المرض أو البؤس أو القلق أو الموت، أو أى شكلٍ آخر من أشكال النقص والشر، فالوجود الإنسانى بعيدٌ عن الكمال، وحتى أسعدُ الناس، وأوفرهم حظاً، يتعين عليه التسليم بقدرٍ من البؤس أو التعاسة.

ونادراً مايكون هناك شخصٌ يوجه الانتباه، بعناية، وبصورة منتظمة، إلى "[illegible]ـباب" الأساسية للمعاناة وسُبل القضاء على هذه الأسباب، وقد كان جوتاما سـ[illegible]ـرتا، بوذا ، شخصياً من هذه النوعية، والفلسفة الدينية التى نبعت من تعاليمه تمثل تحليلاً نسقياً لطبيعة المعاناة وأسبابها، وتقدم العديد من الوسائل لقهر المعاناة أو التغلب عليها.

والبوذية طريقٌ للحكمة، يتم تعليمها وممارستها من أجل تحسين نوعية الحياة من خلال إزالة منابع المعاناة؛ ويشكِّل مضمون هذه الاستنارة، الرسالة الأساسية للبوذية، وتتمثل هذه الرسالة، فى أبسط صورة فى الحقائق الأربع النبيلة، والطريق النبيل ذى الشعاب الثمانى.

(١) الحقائق الأربع النبيلة:

وهذه الحقائق هى:

١- هناك معاناة.

٢- للمعاناة أسبابها.

٣- المعاناة يمكن القضاء عليها من خلال التخلص من أسبابها.

٤- السبيل إلى القضاء على أسباب المعاناة هو اتباع الطريق الوسط، الـــذى يشكله الطريق ذو الشعاب الثمانى.

وفيما يتعلق بالحقيقة النبيلة الأولى، فقد علمهاجوتاما على النحو الاتى:

" تلك ، أيها الرهبان، هى الحقيقة النبيلة للمعاناة فالميلاد معاناة، والملل معانـــــاة، والمرض معاناة، والموت معاناة، ووجود الأشياء التى نكرهها معاناة، والانفصال عن الأشياء التى نحبها معاناة، وعدم الحصول على مانرغب فيه معاناة".

ويقول (جوتاماسدهارتا، بوذا) مفسراً الحقيقة النبيلة الثانية، إنَّ المعاناة:

"تضرب جذورها فى تلك الرغبة الملحة Craving (أو الشهوة) التى تســـبب تجـــدد الصيرورة أو الميلاد من جديد، وتصحبها اللذة الحسية، وتسعى إلى الإشباع فى التـو واللحظة (هنا ، والآن)، أى التوق إلى الملذات، التوق إلى الصـــيرورة، التـــوق إلى اللاصيرورة".

فالمعاناة يمتد أصلها إلى الرغبة الملحة أو الشهوة، وبمعنى من المعانى فإنَّ المعاناة يسببها توق المرء إلى مالايستطيع حيازتة، أو الرغبة الملحة فى تجنب مالاســـبيل لتجنبـــه، وهكذا فإن الرغبة الشديدة فى المال عندما يكون المرء فقيراً، تُفضـــى إلى المعانـــاة، والرغبة الشديدة فى الصحة، حينما يكون المرء مريضاً، تقود إلى المعاناة، والتوق إلى الخلود، فى مواجهة حتمية الموت، يؤدى إلى المعاناة، والتـــوق إلى الفنـــاء، الـــذى تواجهه استمرارية المادة التى صيغت منها الحياة، يؤدى إلى المعاناة..، ولكن هنـــاك معنى أكثر عمقاً للتوق، وهذا المعنى هو التوق بمعنى "الإكراه الأعمى على أنْ يكـون المرء ذاتا أو أن تكون له ذات".

وفى تناوله للحقيقة النبيلة الثالثة، أوضحها - بوذا - على النحو التالى:

" هذه، أيها الرهبان، هى الحقيقة النبيلة الثالثة المتعلقة بتوقف المعاناة، إنهـــا حقـــا، التجرد من الانفعال، التوقف دونما أثر لهذا التوق ذاته، تنحية هذه الرغبة الملحـــة، والتخلى عنها، والتحرر منها، وعدم التعلق بها".

فإذا تم تحليل الأشكال الواضحة للمعاناة، فسوف نجد أنها تشمل عاملين أساسيين، فهناك أولا مايمكن تسميته بوجود عوامل موضوعية معينة فى العالم، وهناك ثانيـــا النفس التى تعانى، فلا وجود للمعاناة، إلا إذا ارتبطت العوامل الموضوعية فى العـــالم بنفس ما، وعندما ترتبط هذه العوامل الموضوعية بنفس ما، فإن هذه النفـــس قـــد

تشتاق إلى تلك العوامل، أو تتوق إلى تجنبها، وعندما لايتم الحصول على ماتشتاق إليه تنشأ المعاناة.

وعلى هذا تنبني الحقيقة الثالثة، حقيقه أن المعاناة يمكن القضاء عليها، على تحليل أسباب المعاناة، فإذا كان التوق الأنانى هو سبب المعاناة، فإن توقف المعاناة يكمن فى انقطاع ذلك التوق، وذلك هو، على وجه الدقة، ما أوصى به بوذا، والواقع إن الهدف الحقيقى للرجل البوذى هو النرفانا وهو يحمل معنى "الإخماد أو الانطفاء" - ومايتم إطفاؤه كالمصباح - أو إخماده هو الرغبة الملحة أو التوق الأنانى، وعندما يتم إطفاء هذا التوق الأنانى تجتث المعاناة من جذرها، وهكذا فإن حقيقة المعاناة هى الحقيقة القائلة إن إنقطاع التوق من شأنه أن يجلب توقف المعاناة.

غير أن الطريق يمتد طويلا مابين تعرف مايجلب المعاناة وبين الإنجاز الفعلى لذلك التوقف، و لم يتوقف - بوذا - لحكم كونه ذلك الطبيب البارع، عند تحليل المرض وتشخيصه، ولاعند تعرف ماهو مطلوب لتحقيق الشفاء، وإنما وصف طريقة للعلاج، من شأنها القضاء على المرض، وتتألف الوصفة العلاجية من الحقيقة النبيلة الرابعة، التى تعلم الناس "طريق البوذية الأوسط" الشهير.

يقول بوذا عن هذه الحقيقة النبيلة الرابعة:

"إنها الطريق ذو الشعاب الثمانى، أعنى أنها سلامة الرأى، وسلامة النية، وسلامة القول، وسلامة الفعل، وسلامة العيش، وسلامة الجهد، وسلامة ماتعنى به ، وسلامة التركيز.."

(٢) الطريق الأوسط والفلسفة العملية للبوذية:

تلخص الحقيقة النبيلة الرابعة، الطريق الأوسط، الذى يرتكز على مبادىء ثمانية هى: سلامة الرأى، سلامة آلنية، سلامة القول، سلامة الفعل، سلامة العيش ، سلامة الجهد، سلامة الوعى أو الانتباه العقلى، وسلامة التركيز.

وينبغى لألوان السلوك المختلفة فى الحياة، التى تعمل بهذه المبادئ الثمانية، وتعبر عنها، أن تمضى بشكل متزامن على نحو أو آخر، حيث إن الهدف هو تحقيق حياة مستقيمة من أسمى طراز، والعلاقات بين التصرفات الحياتية والمبادئ التى تشكل أساس هذه التصرفات يمكن إدراكها من خلال تأمل الحقائق الثلاث الخاصة

بالسلوك الأخلاقى، والانضباط الذهنى والحكمة، التى تشكل أساس المبادئ والتصرفات كافة.

وتشمل حقيقة السلوك الأخلاقى: سلامة القول، وسلامة الفعل، وسلامة العيش، وتشمل حقيقة الانضباط الذهنى، سلامة الجهد، وسلامة الانتباه العقلى، وسلامة التركيز، وتشمل حقيقة الحكمة، وسلامة الرأى، وسلامة النية.

ويقوم السلوك الأخلاقى- فى رأى بوذا - على أساس الحب والحنان، وينبع من الحكمة أو من عقل مستنير، ولكن لتحقيق الحكمة ولمراعاة الحب والحنان، فإن إنضباط النفس يعد أمرا مطلوبا، وهكذا فإن السلوك الأخلاقى والانضباط والحكمة هى الحقائق الثلاث للحياة الخيرة.

وتكشف الحكمة عن طبيعة الأشياء وأسباب المعاناة، ولكنها لاتتوقف عند هذا الحد، وإنما هى تعبر كذلك عن نفسها فى التصميم على قهر المعاناة، من خلال تنحية كل ضروب الرغبة الأنانية، ويتضمن هذا التصميم غرس حب شامل فى عمقه ومداه، يكشف عن نفسه فى الشفقة واللا أذى، حيث يتم التخلى كلية عن الرغبات الأنانية، وسوء النية والكراهية والعنف، عندما نبلغ الحكمة.

وتتعلق سلامة التركيز - فى رأى البوذا - بإعادة خلق ذات المرء بوصفه شخصا مستنيرا، فالجهل والاستنارة والمعاناة والسعادة تضرب جذورها فى نشاطات المرء العقلية، وقد ورد فى أقوال بوذا أن:

" العقل يسبق كل حالات القصور، وهو عمادها، فهى جميعا مفعمة بالعقل، وإذا ما تحدث شخص ما أو تصرف بعقل دنس، فإن الشقاء سيلاحقه، كما تلاحق عجلات العربة قدم الثور، والعقل يسبق حالات الكمال، وهو عمادها، فهى جميعا مفعمة بالعقل، وإذا ما تحدث شخص أو تصرف بعقل نقى، فإن السعادة ستتبعه، كظله الذى لايفارقة".

وإذا كان الأمر كذلك، فإن من الممكن التركيز على تطهير أنشطة المرء العقلية كوسيلة لتحقيق السعادة.

وعادة ما يتم التمييز بين أربع مراحل من التركيز، فى المرحلة الأولى يركز المرء على التخلص من الشهوة، وسوء النية، والكسل والهم، والقلق، والشك، وهذه الأنشطة الذهنية القاصرة وغير الصحيحة، تحل محلها مشاعر البهجة والسعادة، وفى المرحلة

الثانية يركز المرء على النفاذ ببصيرته عبر الأنشطة الذهنية ، والوصول إلى ماوراءها، على الرغم من احتفاظه بالوعى بالبهجة والسعادة، وفى المرحلة الثالثة يمضى المرء إلى ماوراء النشاط الذهنى المسئوول عن البهجة، ويحقق اتزانا تتخلله السعادة، وفى المرحلة الرابعة والأخيرة من مراحل التركيز هناك اتزان كامل ووعى كلى يتجاوز السعادة والتعاسة فى آن معا.

والسلوك الأخلاقى هو، فى آن واحد، انعكاس للحكمة والانضباط وشرط لهما، فالشخص الحكيم هو وحده الذى يمكن أن يكون خيرا، والشخص الخير هو وحده الذى يمكن أن يكون حكيما، وكل من الحكمة والخير يقتضى الانضباط، وبناء على هذا فإن المرء يبدأ وينتهى بالأمور الثلاثة بصورة متزامنة، والسلوك على نحو أخلاقى يعنى سلامة القول، وسلامة الفعل، ووسائل كسب العيش.

وسلامة القول تعنى، بصفة عامة، تجنب كل قول يفضى إلى التعاسة، واستخدام العبارات التى تجلب السعادة.

وتعنى سلامة السلوك، تجنب القتل أو الإيذاء، والتعفف عن السرقة والغش، والنشاط الجنسى غير الأخلاقى، وهو على الصعيد الإيجابى يعنى أن سلوكيات المرء ينبغى أن تهدف إلى دعم السلام والسعادة للآخرين، واحترام خير الكائنات الحية جميعا.

أما سلامة العيش فهى تمد نطاق مبدأ السلوك الحق إلى المهنة التى يختارها المرء على امتداد حياته، وبناء على هذا، فإنها تستبعد المهن التى من شأنها أن تؤذى الآخرين، مثل الأتجار فى الأسلحة النارية، والخمور، والمخدرات، والسموم، والقتل، والدعارة، الخ، وسبل كسب العيش التى تنشر السلام والخير هى وحدها التى تتفق مع هذا المبدأ؛ وهكذا يتضح كيف تقوم قاعدة السلوك الأخلاقى على الشفقة على الآخرين وحبهم.

وهكذا نجد أن تعاليم الطريق الأوسط "هى التى تفضى إلى البصيرة، وهى التى تفضى إلى الحكمة، وهى التى توصل إلى الهدوء، وإلى المعرفة، وإلى الاستنارة ، الكاملة، وإلى النرفانا[1]

---

[1] النرفانا –Nirvana– كلمة سنكريتية، وهى تتألف أصلا من المقطعين: نر –Nir– (يطفئ أو يخمد) وفا بمعنى ينفخ، الأمر الذى يجعل الكلمة تعنى فى مجملها "الانطفاء" أو "الإخماد"، أى الهدف البوذى المتمثل=

(جـ) تعقيب:

هذه هى التعاليم الأخلاقية – الدينية التى تُشكّل الجوهر الأساس للبوذية كطريقة حياة، والتى تعكس التعاليم الأساسية لبوذا التاريخى، وهذه التعاليم، التى تستهدف تكريس الانضباط والشفقة، اللذين يميّزان حياة الإنسان البوذى وموافقة، لا تختلف اليوم بصورة أساسية عمّا كانت عليه قبل خمسة وعشرين قرناً خلت، ومن ناحية أخرى، فإن فلسفات البوذية، التى تعكس المحاولات لتنظيم طريقة الحياة البوذية، ولتقديم أساس عقلى لهذه التعاليم الأخلاقية– الدينية قد تعرضت لتغير وتطور هائلين.

والتمييز بين البوذية كطريقة حياة، وبين الفلسفات البوذية هو تمييزٌ بين أسلوب فى العيش، وبين المحاولات التى يتم القيام بها لتبرير ذلك الأسلوب، وهكذا فإنه على الرغم من أنّ البوذيين كان بمقدورهم على امتداد العصور، الاتفاق على كيفية الحياة، فإنهم كان باستطاعتهم كذلك الإختلاف حول السؤال المتعلّق بلماذا ينبغى أنْ يعيشوا بتلك الطريقة، وإذا كان المرءُ بوذياً، فإنّه يترتب على ذلك قبول الطريقة البوذية باعتبارها أفضل طريقة للحياة، ولكن مسألة تبرير هذا القبول تظل مطروحة.

وقد تركت التعاليم الدينية – الفلسفية الخاصة بالبوذية، أثرها فى جانب كبير من الحضارة الآسيوية، فقد تغلغلت البوذية، فى الثقافات التى ارتبطت بها فى سريلانكا وبورما وكمبوديا وتايلاند ولاوس والتبت والصين وكوريا واليابان وفيتنام.

ونستطيع أنْ نُجمل الخصائص الأساسية للثقافة البوذية فى التالى:

١- **التأكيد على الكرامة الإنسانية:** فلم يتم فى الثقافات البوذية إخضاع البشر للأشياء والآلات، فالبشر ينظر إليهم على أنهم مبدعون لأنفسهم وقادرون على تحديد مصيرهم من خلال جهودهم، وأى كرامة أعظم يمكن إضفاؤها على الأشخاص من الاعتراف بأنهم يسيطرون على حياتهم ومصيرهم؟

٢- موقف اللاتعلق:

= فى الوجود الخالى من المعاناة، حيث تسعى البوذية إلى الوصول إلى حالة سامية من التحرر عن طريق إخماد رغبات الفرد وورعه.

لا يربط البوذين أنفسهم إلى الذات أو الأشياء فى هذا العالم، وذلك بسبب اقتناعهم بأنه ليست هناك نفوس أو أشياء تبقى للأبد، وإذ يدركون إن الزوال هو سمة العالم الذى توجد فيه المعاناة، فإنهم يرفضون التشبث بمفاهيم الدوام العبثية، وكنتيجة لهذا، فإن التغيير لا يزعجهم، وهم يواجهون المستقبل برباطة جأش، ولا يحزنون كثيراً على ما مضى، وتتميز معظم الثقافات البوذية بروح تقبل الحياة عن طواعية.

٣- التسامح:

البوذية هى طريقة للإدراك العملى لحقيقة اللامعاناة، التى يمكن الوصول إليها عن طريق الانضباط الذاتى والنقاء العقلى؛ ولا ينظر البوذيون إلى غير البوذيين باعتبارهم أدنى منهم، ودون أمل فى السعادة، ويستحيل الخلاص بالنسبة إليهم، لأنهم يعيشون خارج إطار البوذية؛ والمرض والمعاناة اللذان يطاردان البشر يحدثان للشخص الفرد، والشخص الفرد هو الذى ينبغى أنْ يقطع الطريق من المُعاناة إلى السلام والسعادة، وهذا الإدراك يكمن فى قرار احترام الخلافات الفردية فى المجالات المختلفة فى الحياة.

٤- روح الشفقة واللاعنف:

والعنف مناقضٌ لتعاليم البوذية ولممارستها، ويشيع بين البوذيين فى كل مكان، أنَّ الغضب والعُنف لا سبيل إلى تهدئتهما والتخلص منهما إلاّ بالطيبة والشفقة اللتين أبداهما - جوتاما سد هارتا- وهو يجوب أرجاء البلاد معلماً أسباب المعاناة، وكيفية وقفها.

٥- الميل إلى التأمل:

نتيجة للتأكيد البوذى على الانضباط الذاتى وتنقية النفس، فإنَّ من الممارسات الشائعة بين البوذيين فى كل مكان، التركيز على إفراغ أنفسهم من كل ما هو غير نقى ومؤد إلى المعاناة، رغم التنوع الكبير فى الأشكال أو الدرجات، فإنَّ الأساليب التأملية المتضمنة فى هذه الممارسات هى أساساً متعلقة بتنمية النفس، وتحقيق الانضباط الذاتى، والهدف منها هو تمكين الشخص من المشاركة بصورة مباشرة فى الواقع دون وسائط من الأنفس الزائفة والرغبات والطموحات التى تؤدى إلى اغتراب المرء عن الواقع.

٦- التوجه العلمي:

وعندما يكونُ المرءُ فى سلامٍ مع نفسه، ولاتتجاذبه الرغبة، ولايعذبه الشك، فإنهَّ من الممكن أنْ ينغمس بحرية وبصورة كاملة فى الأنشطة المطروحة أمامه، ويُعد التَعلم من الماضى والتخطيط للمستقبل - فى البوذية - من الأمور الأساسية لتحسين مستوى الحياة فى كل المجالات، ولكن هذين الأمرين هما فى ذاتهما نشاطان ينتميان إلى اللحظة الراهنة، ولاينبغى الخلط بينهما، وبين العيش فى الماضى أو المستقبل، فلا يمكن أنْ تكون هناك سعادة حقيقية فى التفكير فى المستقبل الذى لم يأت بعد، كما لا يمكن أنْ توجد السعادة فى البكاء على الماضى، ويؤدى إدراك البوذيين لهذه الحقيقة - وبالتالى انهماكهم وانغماسهم النسبى فى أنشطة الحاضر الفردى - إلى موقف عملى إلى أقصى حد.

الفصل العاشر

[بدايات الفلسفة الصينية بين كونفوشيوس ولاوتسو]

ويشمل:

(أ) تمهيد.

(ب) كونج – فو –تزى (كونفوشيوس) مؤسس الكونفوشية.

(ج) لاو – تزر (لاوتو) مؤسس التاوية

(د) الكونفوشية فلسفة إنسانية احتماعية:

(١) الطريق الكونفوشى طريق "جين" أو "طيبة القلب الإنسانية"

(٢) ضرورة احترام "آداب المجتمع" فى فلسفة كونفوشيوس.

(٣) دور "العائلة" فى فلسفة كونفوشيوس.

(٤) دور "الاستقامة" فى فلسفة كونفوشيوس.

(هـ) التاوية.. والتأكيد على الأسس الميتافيزيقية للطبيعة.



(أ) تمهيد:

يبدأ التاريخ الفعلى المُسَّجل للصين بأسرة شانج [1] shang فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهذا يدل على وجود حضارة متقدمة فى الصين، فالفن الذى يعود إلى هذه الفترة هو فن مصقول ومركب حتى وفقاً للمعايير الحديثة، وقد انتهت هذه الأسرة بالغزو على يد شعب تشو chou الأكثر بدائية، والذى يفيد التراث أنه قد أسس أسرة تشو فى عام ١١٢٢ ق.م.

وعلى الرغم من أن "التشو" كانوا أكثر بدائية على الصعيدين الفنى والثقافى، فإنهم كانوا شعباً قوياً ذا عزم وتصميم، وقد قاموا بغزو أجزاء كبيرة من الصين، معتمدين على القوة والعنفوان وحدهما، وإذا لم تتوافر لهم السُبل التى تمكنهم من إدارة كل الأراضى التى قاموا بغزوها كدولة مركزية واحدة، فقد فوضوا سلطة إدارية لزعماء القبائل والنبلاء، الذين تربطهم بهم علاقات طيبة، وقدموا مساحات من الأرض مقابل الصداقة والتعاون من جانب هؤلاء الملاك الجدد الذين مُنحوا الأرض، ويبدو أنَّ هذا النظام الإقطاعى قد ساد بشكل جيد خلال صدر عهد التشو، وكانت قوة ملوك التشو هى وحدها التى منعت الأتباع من الإقطاعيين من التمرد، وبمرور الوقت تبينّ أنَّ الملوك لايقدرون على السيطرة على كل الأراضى المفتوحة، حتى ولو من خلال النظام الإقطاعى، حيث وقع المزيد من القلاقل، وانقلب الحكام الإقطاعيون أحدهم على الآخر.

وبحلول عام ٧٧٠ ق.م، كانت الأمور قد تردت إلى حد تمكن معه تحالفٌ من الحكام الإقطاعيين من شن هجوم ناجح على عاصمة التشو فى الغرب، وقتل الملك واغتصاب سلطته، ومنذ ذلك الوقت أصبح الصراع والحرب يفرضان حضورهما خلال القرنين اللذين سبقا كونفوشيوس، وشكّل العنف والتآمر الطابع السائد للساحة السياسية، وتغلبت النفعية على الأخلاق، وشكّل الغش والخداع أساس المؤامرات التى حلّت محل الحكم السياسى، وكانت عواقب هذه المؤامرات

[1] شانج – shang– الأسرة المالكة التى يبدأ بها التاريخ المُسّجل للصين، وقد استمر حكمها من القرن الرابع عشر حتى القرن الحادى عشر ق.م ، وقد تم إلقاء أضواء قوية على الحياة فى حكم هذه الأسرة وذلك لدى اكتشاف مجموعة من العظام نقُشت عليها بعض النصوص، قرب نهاية القرن التاسع عشر.

والحروب التى نجمت عنها مما يتجاوز القدرة على التخيل، مما تمثل فى الفقر والمعاناة والموت.

وغالباً ما كان ينظر إلى حكماء أمثال " لاو - تزى" و "كنفوشيوس" على أنهم قد علموا الناس طريقاً جديداً للحياة، فعملهم كان العودة بالناس إلى الحكمة القديمة، و "كنفوشيوس" بصورة خاصة، فيما يتصل بآرائه، لم يدع أنها تحمل أى ابتكار، لقد أعرب عن أسفه فقط أنه نتيجة للإهمال والجهل صار الكثير من الطقوس الدينية فى حالة عدم استعمال، إضافة إلى فقدان الحقائق التى كانت ترمز إليها [1] .

وعلى شاكلة "لاو-تزى" أكبر الاثنين سناً، شرع فى أنْ يوضح للناس الطريق إلى الفضيلة والقناعة، وهذا المسلك أطلق عليه على الوجه السليم جداً اسم "الطريق" أو "الطاو" - Tao- ، أما كيف يمكن اكتشاف هذا الطريق، فقد اختلف فيه، مع ذلك،"لو-تزى" و"كنفوشيوس" اختلافاً واضحاً، أحدهما عن الآخر.

وترجمة "الطاو" بـ "الطريق" ترجمة معقولة، وهى تعنى أيضاً أساس الكون، ذلك الذى يحفظه ويمنحه الحركة والنظام، وتماماً كما أنّ النجوم قد حددت مسارها، فهناك أيضاً طريق للإنسان، وسيلة قد يستطيع بها أنْ يربط وجوده بالواقع، واقع قد صار بعيداً عنه إلى حدٍما، و "الطاو" هى أصل كل معنى فى الكون، وهى مسئولة أيضاً عن كل الأشياء المخلوقة.

ويتعين فى سياق هذه الأزمة القاسية التى تردت فيها الصين فى القرنين السابقين على ميلاد كونفوشيوس ولاوتو، دراسة هذين الفيلسوفين.

(ب) كونج-فو-تزى (كونفوشيوس) مؤسس الكونفوشية

واسم "كونفوشيوس" هو أحسن الأسماء التى أمكن لأوربا، بثقافتها اللاتينية، أنْ تعيه من اسم "كونج-فو-تزى" kung-fu-tze- الذى يعنى حرفياً "كونج، المعلم" كان اسمه الحقيقى هو "كونج-تشيو kung-chiu"، وعلى شاكلة غيره من زعماء البشرية الروحانيين، خطر "كونفوشيوس" بمولد اعجازى، مصحوباً بمعجزات سماوية، ولد فى سنة ٥٥١ ق.م فى مملكة لو-Lu- ، شانتونج shantung الحالية،

---

[1] توملين، فلاسفة الشرق، ص ٢٠٨.

ولقد وصفوه، ولربما كان على سبيل التورية، بأن كانت له شفتا ثور وفم أشبه بالبحر، ولعل أكثر الأوصاف صدقاً هو أنه كانت له جبهة ضخمة، ومن ثم أطلق عليه اسم تشيو chin، وبعد وفاة والده اضطر لأنْ يعول أمه، فكان يؤدى أعمالاً إضافية بعد ساعات الدراسة، ولاشك أنه كان دائماً يكبر عمره.

ولم يكن- كونفوشيوس - انطوائياً، وكانت الرياضة التى يحبها بصورة خاصة، هى رماية السهام وصيد السمك، وكان منذ نعومة أظفاره شديد الولع بالموسيقى بالرغم من أنَّ تذوقه لها، كان متحفظاً، ولقد تزوج فى سن التاسعة عشرة.

ومارس حكيمنا رسالته معلماً أو حكيماً أكثر تبكيراً فى حياته من معظم زعماء البشرية الروحانيين، وما أنْ بلغ سن الثانية والعشرين حتى ذاع صيته فعلاً لحكمته ولحياته المستقيمة معاً، وفضلاً عن هذا، كانت له موهبة عظيمة فى الفصاحة، ولما شجعه نفرٌ من عشيرته المتحمسين، قرر أنْ يفتح مدرسة، ففتح داره لأى شخص يريد العلم، بيد أنه لم يبدأ بتقديم نوع من الحكمة المجردة، لقد أخذ على نفسه تعليم "موضوعات معينة" أهمها التاريخ والشعر ومبادئ ما أسماه بالسلوك العام -Decorum-، وكان على إيمان كبير بفاعلية وتأثير الموسيقى فى الصقل الأخير لشخصية الإنسان.

وفى سنة ٥٠١ ق.م، صار كونفوشيوس، رئيساً للقضاة أو حاكم مدينة "تشونج- تو chung-Tu" ، ثم رقى إلى منصب وزير الأشغال العمومية، ثم وظيفة وزير العدل، وأسندت إليه أخيراً وظيفة رئيس الوزراء.

وقد أحسن حكيمنا استخدام السلطات التى مارسها، فنقرأ مثلاً:

"كان الغش والفساد خجلين وأخفيا رأسيهما، وصار الولاء والإيمان الصادق خصال الرجال، والطهر ودماثة الأخلاق صفات النساء، ووفد الأغراب فى حشود، من الولايات الأخرى، وصار كونفوشيوس معبود الناس"

وهذا القول فيه مبالغة ولاريب، ولكن إذا ماعُيِّن حاكمٌ له شخصية قوية، فإنَّ مثل هذه التغييرات ليست بالمستحيلة، والمستحيل هو أنْ تستمر وتبقى.

فقد كان من الواضح بالنسبة لكونفوشيوس،، أنَّ مشكلات الشعب تنبع من السلطة الحاكمة، التى تمارس بغير مبدأ أخلاقى، ولمجرد تحقيق مصلحة الحاكم، ورفاهيته فحسب، ومن هنا كانت دعوة حكيمنا إلى الإصلاحات الاجتماعية،

التى من شأنها أنْ تسمح بأنْ تدار الحكومة لمصلحة الناس جميعاً، وقد شدّد على أنْ ذلك يمكن القيام به، إذا كان أعضاء الحكومة ممن يتميزون بأقصى قدر من الاستقامة الشخصية، ويتفهمون احتياجات الناس، ويهتمون بمصالحهم وسعادتهم قدر اهتمامهم بأنفسهم.

ولم يبحث كونفوشيوس عن أساس الطيبة والأخلاق خارج البشر، فداخل الإنسانية ذاتها يوجد مصدر الطيبة والسعادة الإنسانيتين وبنيتهما؛ وهذا الموقف نفسه هو الذى يجعل الكونفوشية نزعة إنسانية أكثر منها نزعة طبيعية.

وجوهر تعاليم كونفوشيوس، يُعبر عنه بالقول بأن الشخص من خلال تطويره لإنسانيته الداخلية يمكن أنْ يصبح عظيماً فى السلوك الشخصى، والحياة الخاصة، وكذلك فى العلاقات مع الآخرين، وعندما يقوم كل الأفراد بذلك فإنّ الخير سينتشر، والسعادة ستتحقق.

(جـ) لاو-تزى Lao-Tze(لاوتو) مؤسس التاوية:

ولاو-تزى، شخصية غامضة، والواقع أنّ هناك بعض الشك فيما إذا كان له وجودٌ بالمرة، واسمه قد يوحى بشخصية أسطورية، لأنه يعنى ببساطة، "المعلم العجوز"، ولكن من الواضح أنْ كان له إسمٌ آخر هو "لى-Li- " ومعناه، البرقوق؛ ومن ناحية أخرى يُقال إن كونفوشيوس التقى به، كما ذُكر اسمه عند فلاسفة آخرين.

وُلد (لاو-تزى) فى سنة ٦٠٤ ق.م، فى هونان Honan فى الصين الوسطى، وبرغم أنه نشأ فى بيت فقير، فقد ارتقى حتى صار أمنياً للمكتبة الملكية فى تشو -chou- وعاش حتى سن متقدمة، وذاع صيته كحكيم، وقرب نهاية حياته، إيماناً منه بأنّ مآل وطنه الفوضى، عزم على مغادرته، وعند الحدود، صُرِّح له بمغادرة البلاد بكل ما معه من أمتعة بشرط أنْ يخلّف وراءه شيئاً لصالح بلاده، أعنى حكمته، ولّما لم يكن (لاو-تزى) قد دوَّن أفكاره حتى ذلك الوقت، وافق على هذا الشرط، وهكذا دُوِّن كتاب "طاو-تى-تشنج" وهو سجلٌ لأفكار (لاو-تزى)، والتى يجب أنْ تسجل - لأهميتها وطرافتها- فى سجلات الفلسفة؛ أما ما حدث له بعد ذلك، فلم تذكر أى رواية عنه شيئاً، اللهم إلاّ تسجيل تاريخ وفاته الذى حُددٌ بعام ٥١٧ ق.م.

وتعتبر فلسفة [لاو-تى-تشنج] واحدة من أكثر الفلسفات ثورية فى صياغتها، فهى تمثل هجوماً على كل شىء اتجه إلى تشكيل ما يدعى حضارة، فينصحنا (لاو-تزى) "بألا تتدخل فى أمرٍ من الأمور" وهو يطالب الحكومات بصورة خاصة بألاّ تتدخل فى أمرٍ منْ الأمور، ولايرى شيئاً سوى الشر فى فكرة الحكومات، وعلى غير شاكلة جل الفلاسفة الآخرين، هو لايُمجد المعرفة، ولايصفها بالفضيلة، كما فعل سقراط، بعد ذلك بزمنٍ يسير، ويرى أنَّه ليس أخطر من تلقين الاستقامة ذاتها، مادام أنَّ كل المحاولات فى بث الخير من خلال التشريع سينتج عكس ماهو مقصود.

ويتلخص جوهر رسالته فى:

" لو تخلصت من العلم، لما عرفت الحزن، تخلص من الحكماء ولاتتقبل الحكمة، وسيستفيد الناس مائة مرة، لاتركن إلى الإحسان، وانبذ الاستقامة، وسيعود الناس إلى واجبهم الأخوى، وإلى الحب الأبوى، تخلص من الحيل وانبذ المكاسب يختفى السالبون واللصوص، كن صريحاً وتمسك بالبساطة."

ومثلما ينصح " لاو-تزى" مواطنيه بألاّ يتدخلوا فى أمر من الأمور، فهو ينصحهم كذلك بأنْ يبقوا حيث هم، وفى ذلك يقول:

"دون أنْ يغادر المرء بلاده، يستطيع أنْ يعرف كل شىء عن العالم، وبدون التلصص من النافذة، يستطيع المرء أنْ يرى طاو السماء، وكلما طالت أسفار الإنسان، كلما قلت معرفته، ولذلك فإنَّ الحكماء يعرفون كل شىء دون أنْ يسافروا، وهو يُسمى كل شىء دون أنْ يراه، وينجز كل شىء دون أنْ يؤديه".

لذلك فالمجتمع المثالى هو "دولة صغيرة بها قلة من الناس"،هذه القلة يجب أنْ تكون راضية بما عندها، وستكون راضية بما عندها مالم تكن تسعى لتوسيع أفقها، "وبرغم أنَّ الدول المجاورة داخل نطاق الرؤية، ويُسمع صياح ديكتها ونباح كلابها، فلن يقترب أهالى (تلك الدولة الصغيرة) منها طوال حياتهم".

لاشك أنَّ هذا المبدأ كان غريباً، أنْ يصدر عن شخصٍ هو، فى الوقت الذى كان يدوِّنه على ورق، كان يُعد نفسه فعلاً لمغادرة وطنه، ولكن وجهة نظره كانت طريفة فى أنَّها كانت حلاً بالنسبة للكائنات البشرية، التى لم تجربها قط.

وقد اكدت (تاوية) لاوتو على الحاجة إلى النظر فيما يتجاوز وعود البشر والمعاهدات التى يبرمونها، وذلك للوصول إلى نبع السلام والرضا، وقد دعا (لاوتو) إلى حياة بسيطة ومتناسقة، حياة يتم التخلى فيها عن دافع الربح، وتنحية الحذق جانباً، والتخلص من الأنانية، وتقليل الرغبات.

وقد شعر (لاوتو) بأنه مادام الطمع وحب اكتساب المال يشكلان دوافع الأفعال الإنسانية، فليس هناك أملٌ فى تحقيق السلام والرضا، وبناء على هذا فقد دعا إلى المبدأ القائل بأنه لا ينبغى القيام إلاّ بتلك الأفعال التى تتسق مع الطبيعة.

(د) الكونفوشية.. فلسفة إنسانية اجتماعية:

أشرنا إلى أنَّ العصر الذى عاش فيه كونفوشيوس، اتسم بالتفكك السياسى والاجتماعى ، والتردى الواسع النطاق للأخلاق. وقد كان من الطبيعى فى ضوء هذه الأوضاع أن يتجه حكيمنا إلى إصلاح حال المجتمع، وتركزت إشكاليته فى (كيف يمكن تحقيق رفاهية المجتمع؟).

وكان رده على هذا السؤال هو فلسفته، وهى فلسفة إنسانية اجتماعية، تدور حول البشر ومجتمعهم، وليس حول الطبيعة أو معرفة الطبيعة، ووصف الكونفوشية بأنها نزعة إنسانية هو إشارة إلى أنها فلسفة ترد على هذا السؤال:

"كيف يمكن تحقيق الخير والسعادة؟" بالإشارة إلى مبادئ الفعل التى يتم العثور عليها فى الإنسانية ذاتها، ومصدر هذه المبادئ هو ما يجعل من البشر مخلوقات إنسانية.

(١) الطريق الكونفوشى طريق "جين" أو طيبة القلب الإنسانية":

يقول كونفوشيوس إنَّ ما يجعل إنسانيين على نحو فريد هو "جين" Jen- أو طيبة القلب الإنسانية، ولقد تُرجمت كلمة "جين" بطُرق شتى، ومن هذه الترجمات: الفضيلة، الإنسانية، الإحسان، الرجولة الحقة، الطابع الأخلاقى، الحب، الخير الإنسانى، وطيبة القلب الإنسانية؛ والتعبير الإنجليزى - Human Heartedness- يوحى بأنَّ "جين " هى ما يجعلنا إنسانيين، وأنها أمرٌ متعلق بالشعور، وكذلك بالتفكير، وأنها أساس العلاقات الإنسانية كافة، وتكشف ترجمة كلمة "جين"

بطبيعة القلب الإنسانية كذلك عن التشديد الصينى على القلب، وليس على العقل، باعتباره السمة المحددة للطبيعة الإنسانية.

وعندما سُئل- كونفوشيوس- عما هي "جين" رد قائلاً:

"إنها حب البشر" موحياً بأنَّ قدرتنا على الحب تشكل جوهر إنسانيتنا.

غير أنَّ قدرتنا على حب الآخرين لها تبعات أخلاقية مهمة، الأمر الذي يقتضي التفكير في الـ "جين" من منظور أخلاقى، يقول كونفوشيوس:

" يرغب كل إنسان فى الثروة والشرف، ولكنهما إذا تم تحقيقهما عن طريق مخالف لمبادئ الأخلاق، فإنه لا ينبغى الإبقاء عليهما؛ ويكره كل إنسان الفقر وتواضع المرتبة، ولكن إذا لم يكن بالإمكان تجنبهما إلا بمخالفة المبادئ الأخلاقية، فإنه لاينبغي تجنبهما، وإذا ما نأى شخصٌ رفيع المكانة عن الإنسانية (الجين) فكيف يمكن أنْ يحقق تلك المكانة؟ ذلك أنَّ الإنسان الرفيع المكانة لايمكنه قط التخلى عن الإنسانية (الجين)، حتى ولو من أجل وجبة طعام واحدة، فهو فى لحظات التعجل وهو مسرع يعمل وفقا لها، وهو فى أوقات الشدة والاضطراب يعمل وفقاً لها".

وتشير هذه العبارة بوضوح إلى أنَّ (جين) كونفوشيوس، هي المبدأ المطلق للفعل الإنساني، والكائن البشرى الحق لا ينحرف عن طريق "الجين" قط ومن ينحرف عن هذا الطريق لا يعبر عن كمال الإنسانية، والكلمة التى تترجم بالمبادئ الأخلاقية فى هذه الفقرة هى "التاو" أو "الطريق" الأمر الذى يعنى ضمناً أنَّ الطريق السليم للعفل الإنسانى ليس طريق تحقيق ما يحبه المرء وتجنب ما يكرهه، وإنما هو طريق العمل وفق مبدأ أعمق، هو مبدأ [الجين].

ويرى كونفوشيوس إن الجين بالغة الأهمية، بحيث إنَّ الحياة من دونها ليست جديرة بأنْ يحياها الإنسان، ومن يتسم بالحكمة، ويعد مثقفاً حقيقياً، لايقترف ما من شأنه الإضرار بـ [الجين]، وفى هذا يقول حكيمنا:

" إنَّ المثقف الحازم، ورجل الإنسانية (الجين) لايسعى قط للحياة على حساب الإضرار بالإنسانية (الجين)، وهو يؤثر التضحية بحياته، لكى يحقق الإنسانية (الجين)".

لأنَّ الجين، هي على وجه الدقة ما يجعلنا إنسانيين حقاً، فإنَّ التخلى عنهـا هـو تخلٍ عن الحياة الإنسانية بصورة كاملة؛ والجين، جديـرة بـأنَّ يضحى المـرء بحياته من أجلها، فهى أساس لكلٍ قيمة وجدارة إنسانيتين، والجين، هى فى نهاية المطاف، مـا يجعل الحياة جديرة بأنْ تعاش.

(٢) ضرورة احترام " آداب المجتمع" فى فلسفة كونفوشيوس:

وفى رأى كونفوشيوس، أنَّ السيطرة على النفس، تقهر الأنانيـة، وتغـرس الخـواص الداخلية للإنسانية، التى تشمل الإخلاص والاستقامة الشخصية.

وانصت إلى إجابته، عندما سُئل عن الجين، قال:

" أنْ يسيطر المـرء علـى نفسـه، وأنْ يعـود إلى آداب المجتمـع، تلـك هـى الإنسـانية (الجين)".

ويضيف حكمينا قائلاً:

" إذا كان بمقدور إنسان (الحاكم) أنْ يسيطر على نفسه ليوم واحد، وأنْ يعـود إلى اللياقة، فإنَّ كل ماتحت السـماء سيعود إلى الإنسـانية (جين)، وممارسـة الإنسـانية تعتمد علِى المرء نفسه".

ويتعين علينا لفهم الأهمية التى يعلقها كونفوشيوس على "آداب المجتمـع" أن نـرى ماذا يعنى هذا التعبير عنده، يعنـى الديـن، ويعنـى المبـدأ العـام للنظـام الاجتمـاعى، ويعنى كيان الممارسات الاجتماعية والأخلاقية بأسره والذى علمـه كونفوشـيوس، وأضفى علية طابعاً عقلانياً، ويعنى أيضاً الطقوس والاحتفالات، ويعنى نظامـاً مـن العلاقات الاجتماعية المحددة بوضوح، مع مواقف نهائية من جانب كل طرف تجـاه الطرف الآخر، الحب فى حالة الآباء، الولاء البنوى فى حالة الأبنـاء، الاحـترام فـى حالة الإخوة الأكبر، الولاء بين الأصدقاء، الاحترام للسلطة بـين الرعايـا، والـنزوع إلى الخير فى حالة الحكـام، ويعنـى الانضبـاط الأخلاقـى فـى السـلوك الشـخصى، والآداب العامة فى كل شيء.

وبهذا المعنى، فإن [آداب المجتمع] هى القانون العرفى، أو الأخلاقى السائدة وتحـل محل القانون المكتوب، على الرغم من أنها تختلف عـن القـانون المكتـوب فـى أنهـا

إيجابية، وليست سلبية بمعنى أنّها يقول "افعل هذا" بدلاً من "لاتفعل هذا"، وهى لاتجلب معها العقاب، التلقائى، ويفرض بشكّل عام أنها تشير إلى سلوك الارستقراطية، وليس العامة.

(٣) دور "العائلة" فى فلسفة كونفوشيوس:

ويؤكد كونفوشيوس أهمية العائلة فى تطوير (الجين)، لأنّ العائلة تشكّل البيئة الاجتماعية المباشرة للطفل، ففى العائلة يتعلم الطفل احترام الآخرين وحبهم، حيث يأتى الآباء أولاً، فالإخوة والأخوات والأقارب، ثم باتساع النطاق التدريجى، الإنسانية كافة، ويقوّل أحد أتباع كونفوشيوس- توتسو Tutzu- إنّ "الولاء البنوى، والاحترام الأخوى هما جذر الإنسانية".

فالولاء البنوى، هو فضيلة توقير العائلة واحترامها، فأولاً وقبل كل شىء، يتم توقير الأبوين، لأنّ الحياة نفسها متولدة عنهما، وفى غمار إظهار التوقير للوالدين، من المهم حماية الجسم من أنْ يلحق به أذى، حيث الجسم من الأبوين، ومن هنا فإنّ حماية الجسم هى تكريمٌ للأبوين، بل أكثر من ذلك، فإنّ التوقير ينبغى إظهاره للأبوين من خلال حسن السلوك فى الحياة، وجعل إسهامهما معروفاً ومبجلاً، وإذا لم يكن بمقدور المرء أنْ يُشرّف إسم أبويه، فعليه ألاّ يجلب لهما الخزى والعار، على الأقل، وهكذا، فإنّ (الولاء البنوى) لايتمثل فى الرعاية البدنية من جانب المرء بوالديه فحسب، وإنما كذلك فى جلب الثراء العاطفى والروحى، (والولاء البنوى) ليس فضيلة عائلية فقط، فهذه الفضيلة التى تنشأ فى العائلة تؤثر فى الأفعال خارج المحيط العائلى، وتصبح من خلال اتساع نطاقها فضيلة أخلاقية واجتماعية، وعندما يتعلم الأطفال احترام أبويهم وتوقيرهم، فإنّ بمقدورهم أنّ يحبوا إخوتهم وأنْ يحترموهم، وعندما يحققون ذلك، فإنّ بإمكانهم أنْ يحبوا الإنسانية بأسرها، وأنْ يحترموها وبالتالى يتصرفون وفقاً لإنسانيتهم، أو وفقا للجين، زهكذا فإنّ بدايات "جين" إنما توجد فى الولاء البنوى.

(٤) دور "الاستقامة" فى فلسفة كونفوشيوس:

وهناك فضيلة أخرى شدّد عليها كونفوشيوس، باعتبارها ضرورية لتطوير "جين"، هى الاستقامة، يقول:

" إنَّ الاستقامة تدلنا على الطريق الصحيح للتصرف فى مواقف محددة، بحيث إننا نكوَن على توافق مع (جين)، وهكذا فإن الاستقامة، هى الاستعداد الأخلاقى للقيام بالسلوك، والقدرة على إدراك ماهو صحيح فى آنٍ معاً" وهى قدرة تعمل كنوع من الحس أو الحدس الأخلاقى.

وهو يقول أيضاً:

" ينظر الرجل الأسمى إلى الاستقامة، باعتبارها جوهر كل شىء، وهو يلتزم بها بحسب مبدأ آداب المجتمع، ويبرزها فى تواضع، ويمضى بها إلى نهايتها فى إخلاص، إنّه حقاً الرجل الأسمى!".

ويتحدث حكيمنا فى بعض الأحيان عن هذه القدرة من خلال شخصية المرء أو استقامته الأخلاقية، ذلك أنَّ الشخص ذا الشخصية الأخلاقية القوية، الذى يرى فرصة للكسب يفكر أولاً فيما إذا كان القيام بذلك من شأنه أنْ يكون صواباً على الصعيد الأخلاقى (الاستقامة)، ومثل هذا الشخص على استعداد للتضحية بحياته من أجل شخصٍ يتعرض للخطر.

فالشخص ينبغى أنْ يحترم أبويه ويطيعهما، لأنَّ ذلك صوابٌ على الصعيد الأخلاقى والتزامٌ ينبغى القيام به، وليس لأى سببٍ آخر.

وعلى هذا، تكون الاستقامة، والولاء البنوى، وطيبة القلب الإنسانية، هى خصائص الشخص الأسمى، الشخص الذى طورت إنسانيته، والذى تفتحت مداركه ونضج وعيه، وهذا الشخص الأسمى، هو نقيض الشخص الضئيل أو المنحط، الذى لم تنضج مداركه أخلاقياً، والذى يتصرف بوحى الغريزة، ومن أجل النفع.

وقد كان كونفوشيوس مقتنعاً بأنَّ العناية بالإنسانية من خلال احترام آداب المجتمع، والولاء البنوى، والاستقامة، سوف تفضى بالشخص إلى تجسيدٍ شخصى للفضيلة، الأمر الذى سيسفر عن مجتمع منظم خير تنظيم، وليس هناك تمييزٌ حادٌ هنا بين الأخلاق والسياسة، فإذا كان الناسُ صادقين مع أنفسهم، ويتسمون بالإخلاص، فإنهم سيُجسدون الفضائل المختلفة، وإذا ما قام كلُ شخصٍ بهذا، فمن المؤكد أنّه ستكون هناك حكومة جيدة، ونظام اجتماعى تعُمه السعادة.

(هـ) التاوية.. والتأكيد على الأسس الميتافيزيقية للطبيعة:

ترجع بدايات التاوية، شأن بدايات الكونفوشية، إلى الاحتجاج الفلسفي على الظروف التي كانت سائدة في عصرها، وعصر لاوتو هو نفسه على وجه التقريب عصر كونفوشيوس، وتكشف الاتهامات التي وجهها لاوتو - والقائلة بأنَّ الفقر والجوع سببها الحكام السيئون، وأنَّ الطمع والجشع تسببا في الحروب والمجازر، وأنَّ الرغبات في الثروة والسلطة، والمجد، تجلب دمار المجتمع - عن أنَّ فلسفته قد استمدت الهاما من القلق إزاء الأوضاع الاجتماعية الجديرة بالإدانة التي كانت سائدة في ذلك العصر.

وقد أكد التاويون على تناسق الطبيعة، وكمالها، وقوام الموقف التاوى هو أنَّ حيل البشر وأفاعليهم تفضي إلى الشر والتعاسة، ويتعيَّن عليهم للعثور على السلام والرضا أنْ يتبعوا طريق الكون، أو "تاو" الكون، وأنْ يحققوا التوحد مع هذا التاو.

ويرى لاوتو أنَّ الحياة المثالية، هي الحياة البسيطة والمتناسقة، والحياة البسيطة هي الحياة العادية، التي فيها تجاهل الربح، والتخلي عن الحذق، وتقليل الأنانية إلى حدها الأدنى، وكبح الرغبات، وهذه السمة الأخيرة من سمات الحياة البسيطة تفيد في إيضاح التباين بين "لاوتو" و"كونفوشيوس"، فقد دعا الأخير- كونفوشيوس- إلى الطقوس والموسيقى، بحيث يمكن إعلاء الرغبات والانفعالات وتنظيمها، أما بالنسبة لـ"لاوتو" فإنَّ الجهود المبذولة لتطوير الرغبات والانفعالات وتنظيمها قد بدت مصطنعة، وتميل إلى التدخل في تناسق الطبيعة، وبدلاً من تنظيم الأشياء وضبطها لتحقيق الكمال، فإن لاوتو سيترك الأشياء تعمل وصولاً إلى كمالها على نحو طبيعي، فالتباين بين كونفوشيوس ولاوتو تباينٌ بين الاعتقاد بأنَّ البشر هم معيار كل الأشياء ومصيرها، وبين الاعتقاد بأنَّ الطبيعة هي معيار كل الأشياء ومصدرها.

وتنظر التاوية إلى الإنسانية والطبيعة باعتبارها وحدة واحدة، ولاتميز بينهما، وفقاً لهذه الفلسفة، فإنَّ أساس الإنسانية ليس من صنعنا، وإنما هو متضمنٌ في شمول الكون وعمله، وبناءً على هذا فإنَّ التاوية في جوانبها النقدية والسلبية تحلل العيوب والشرور التي تواجه المجتمع البشرى، وتصل إلى أنها تنبع في المقام الأول من وجهة النظر الخاطئة للإنسان والكون.

ومهمة الفلسفة هى أنْ تقود البشر إلى الوحدة مع الكون من خلال إضاءة " تاو" هذا الكون، وتشير كلمة "تاو" إلى الدرب أو الطريق، وهى تعنى فى التاوية، المصدر والمبدأ الذى يعمل على أساسه كل ماهو موجود، وعندما يتوحد تاو الانسانية وتاو الكون، فإنَّ البشر سيدركون طبيعتهم اللا متناهية، وعندئذٍ سيسود السلام والتناسق.

والوظيفة الأولى للقواعد الأخلاقية والمؤسسات الاجتماعية- فى رأى لاوتو- هى تنظيم أفعال الناس، لكى يتحقق الحد الأقصى من الإشباع للجميع، وينتهى لاوتو، إلى ضرورة التخلى عن الرغبات كمصادر للفعل، وأنَّ الناس ينبغى أنْ يتبنوا طريق التاو السهل، وألا يفرضوا رغباتهم على الطبيعة، بل يتبعوا مبادئ الطبيعة، وقد دعا فيما يتعلق بالمجتمع، إلى حكومة للشعب تتفق مع الطريق السهل والطبيعى للتاو، الذى يعززٍّ الطريق الطبيعى فى حياة الناس.

ذلك أنَّ وضع المعايير الأخلاقية لايحل المشكلات، فالتنافس والصراع- بين الناس- يبقيان على حالهما، والقواعد تنتهك ، ويتم إقرار قواعد جديدة لحماية القواعد القديمة، ولكن القواعد القديمة والجديدة تنتهك، وتظل الرغبات دونما إشباع بينما يتدعم الشر واقتراف الخطأ، وبما أنَّ التوصل إلى معايير أخلاقية لا يحل المشكلة، فإنَّ الحل يمكن فى التخلى عن هذه المعايير.

والطريق السهل للفعل فى رأى لاوتو يفترض مقدماً التناغم مع الكون والترف وفقاً للتاو الكونى الشامل.

ونتيجة لذلك، فقد نظر "لاوتو" إلى فشل الأخلاق الكونفوشية فى تحقيق الأوضاع الاجتماعية المثالية على أنه مؤشرٌ على عدم كفاية المنظور الأخلاقى، فالأخلاق لاتدرس المشكلة فى جذورها، ومن خلال السماح للرغبات بأنْ تعمل كمصادر شرعية للفعل الإنسانى، لهذا فإنَّ الأخلاق تعجز عن القضاء على التنافس، والنزاع، وأقصى ماتستطيع عمله هو تنظيم التنافس والتقليل من النزاع، ولكن هذا يؤدى، ببساطة إلى تعقيد مسألة إشباع الرغبات على نحو يتفق مع القواعد الأخلاقية، ويؤدى إلى تحطيم القاعدة، وبذلك يظهر السلوك اللاأخلاقى، فهى لا تقضى على التنافس، ولاتتيح المجال للإشباع الكامل للرغبات، ومن هنا فقد قال لاوتو:

" عندما يضيع التاو، عندئذٍ فقط ينشأ مذهب الفضيلة، وعندما تضيع الفضيلة، عندئذٍ ينشأ مبدأ الإنسانية"

ونصيحة "لاوتو" للحكام هي أنهم ينبغى أنْ يحكموا فى إطار أدنى حد ممكن، وأنْ يتمسكوا بالطريق الطبيعى، وأنْ يتركوا الناس يمضون فى طريقهم، وهو يشير إلى أنَّ الناس يصعب حكمهم، لأنَّ الحاكم يقوم بأكثر مما ينبغى من الأمور.

وما ينبغى أنْ يضعه الحاكم فى ذهنه هو أن "حكم بلد كبير يشبه طهو سمكة صغيرة" وفى القيام بطهو سمكة صغيرة يتعين على المرء ألاّ يعالج أمرها بخشونة وقوة، لأنَّ المبالغة في المعالجة ستفسدها؛ وفى إطار حكم بلدٍ يتعين الحرص على عدم دفع الناس دفعا، وإجبارهم على التمرد، وعندما يتم إرضاء الناس فلن يكون هناك تمردٌ أو حروب،، وبالتالى فإنَّ الطريق السهل فى الحكم إعطاء الناس مايرغبون فية، وجعل الحكومة تتوافق مع إرادة الناس، وليس محاولة إجبار الناس على التوافق مع إرادة الحكومة.



الملاحق

نصوص مصرية قديمة، من كتاب:

" نصوص مقدسة، ونصوص دنيوية من مصر القديمة " - المجلد الأول والثانى، نقلا عن الترجمة الفرنسية بقلم: كلير لالويت، الترجمة العربية، ماهر جويجاتى، مراجعة: د. طاهر عبد الحكيم، الطبعة الأولى، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦م.

وتشمل:

أولا: التكوين أو كيف خلقت الآلهة العالم

١- " بتاح " الإله الخالق فى "منف".

٢- بزوغ الشمس فى فجر البداية الأولى فى " هليوبوليس".

٣- الآلهة الثمانية فوق التل فى " هرموبوليس".

ثانيا: ترنيمة من عصر أمنحوتب الرابع.

ثالثا: تعاليم الملك امنمحات الأول إلى إبنه " مرى - كا - رع".

رابعا: تعاليم الملك أمنمحات الأول إلى إبنه " سنوسرت".

خامسا: الإستقبالات الرسمية للوزير " رخ - مى - رع".

سادسا: الفلاح الذى تعرض للسطو، وعرائضه التسع(شكاوى الفلاح الفصيح).

سابعا: مرثيات "إيبو- ور".

ثامنا: أناشيد اليائس.

تاسعا: فن الحياة للوزير " بتاح حوتب".

أولا : التكوين أو كيف خلقت الآلهة العالم

١-" بتاح الإله الخالق فى "منف".

من التفسيرات التى طرحت لتفسير وجود العالم، ما ورد فى نص مترابط قام بصياغته فى مدينة "منف" كهنة الإله "بتاح".

وبالفعل فقد عثر على لوحة جراتينية ضخمة[١] كان الملك "شاباكا" من ملوك الأسرة الخامسة والعشرين(حوالى عام ٧١٠ ق.م) قد أمر بحفر نص على سطحها وهو - بشهادة الوثيقة ذاتها - نسخة من مخطوط محفوظ فى أرشيف معبد "منف" وكان مخطوطا شديد التلف، قرضته الديدان. إن لغة النص وأسلوبه القديمان تشهدان على هذه الحقيقة. ولسوء الحظ اصاب التلف الشديد بعض أجزاء اللوحة، فقد استخدمت فى العصور الحديثة كقاعدة لحجر طاحونة.

فليحى "حورس": "ذاك الذى يعمل على ازدهار القطرين"-

"السيدتان": "ذاك الذى يعمل على ازدهار القطرين" -

"حورس الذهبى": "ذاك الذى يعمل على ازدهار القطرين" -

ملك الوجهين القبلى والبحرى: "نفر- كا- رع"-

ابن "رع": "شباكا" - محبوب "بتاح" -إلى -الجنوب-من-جداره" الحى مثل "رع" للزمن اللانهائى.[٢]

لقد كرس جلالته هذا النص من جديد، فى معبد أبيه "بتاح- الذى - يوجد - إلى - الجنوب - من - جداره". وبالفعل فقد اكتشف جلالته أن الأمر يرتبط بمؤلف من مؤلفات الأجداد، كانت الديدان قد قرضته، فبات من الصعب على الناس أن يلموا بمعناه "إلماما كاملا" من مطلعه وحتى نهايته. فكرسه جلالته من جديد " فنسخه" ليصل أيضا إلى مستوى رفيع من الكمال أكثر من ذى قبل - وذلك من أجل بقاء اسم "الملك" وليدوم أثره طويلا فلى معبد أبيه "بتاح-الذى - يوجد- إلى - الجنوب -من - جداره" على امتداد كل الآماد للزمن اللانهائى، وهو ما صنعه ابن "رع": "شباكا" من أجل أبيه "بتاح-تاتنن"[٣] لكى ينشط بعد أن وهب حياة لانهائية.

بتاح الإله الملكى.

تان ملك الوجهين القبلى والبحرى] هو "بتاح"[٤] الذى يشار إليه بالاسم العظيم [تات]نن - [الذى -يوجد -على-الجنوب من-جداره] .... [جامع شمل] الوجهين القبلى والبحرى، إنه هو، هذا الموحد الذى ظهر متألقا كملك الوجه القبلى(ثم) ظهر متألقا كملك الوجه البحرى ....،ذاك الذى انجب نفسه بنفسه حسب أقوال "أتوم" الذى أنجب التاسوع الإلهى.[٥] [لقد أمر "جب" رب الالهه] أن تتجمع إلى جواره الآلهة التسعة، حتى يتم الفصل بين "حورس" وبين"ست"[٦]، ولوضع حد لخصومتهم. ونصب "ست" ملكا على أرض الوجه القبلى، حتى المكان الذى ولد فيه، فى مدينة "سسو".[٧] ثم قام "جب" بتنصيب "حورس" ملكا على الوجه البحرى فى بلاد مستنقعات(النيل) حتى المكان الذى غرق فيه والده، أى "تقسيم الأرضين".[٨] وعلى هذا النحو سيشرف "حورس" على منطقة

و"ست" على منطقة(أخرى). وسوف يعملان على إقرار السلام فى القطرين فى "عيان"[٩] وعلى هذا النحو إذن سيتم تقسيم الأرضين.

وقال"جب" ل"ست": اذهب إلى المكان الذى ولدت فيه".(فأردف) "ست" "الوجه القبلى".ثم قال"جب" ل "حورس": "اذهب إلى المكان الذى غرق فيه والدك".(فأردف) "حورس": "الوجه البحرى". عندئذ قال "جب" ل"حورس" و"ست": "لقد فصلت بينكما"- الوجه البحرى والوجه القبلى[١٠].

عندئذ بدا أن قلب "جب"مستاء، لأن نصيب "حورس" كان مماثلا لنصيب "ست". ولذا فقد أعطى ميراثه الخاص ل "حورس" فهذا الأخير كان ابن ابنه البكر[١١]. ثم قال "جب" للتاسوع: "الميراث هو من نصيب "حورس" وحده.(وقال) "جب" للتاسوع: "حورس" هذا الوريث، له ميراثى(وقال)"جب" للتاسوع: لابن ابنى "حورس"، ابن آوى، الوجه القبلى ".(وقال) "جب" للتاسوع: "المولود البكر "حورس" الذى يفتح "الدروب".(وقال) "جب" للتاسوع: لقد ولد ابن هو "حورس" يوم ولد فاتح الدروب"[١٢].

هكذا تولى "حورس" أمر البلاد(بأسرها). فهو الذى لم شملها([١٣] والذى يشار إليه بالاسم العظيم "تاتنن- الذى -يوجد -على-الجنوب من-جداره" رب الزمن اللانهائى([١٤]. عندئذ ازدهرت على جبينه "صاحبة-السحر-العظيم"([١٥]. إنه "حورس" الذى يتجلى متألقا بصفته ملك الوجهين القبلى والبحرى، موحد القطرين فى إقليم "الجدار"(الأبيض)([١٦] وهو نفس المكان الذى كانا قد اجتمعا فيه.

والآن يظهر البوص والبردى([١٧] على الباب العظيم المزدوج لمعبد "بتاح" وذلك يعنى أن "حورس" و"ست" فى سلام وهما متحدان.سوف يتآخيان من الآن

ويضعان حدا لنزاعهما فى كل مكـان يتوجهـان إليـه، نظـرا لأتحادهمـا فـى معبـد "بتاح"، "ميزان القطرين" حيث جرى فيه وزن الوجهين القبلى والبحرى.

[يلى ذلك نص طويل إلى حد ما، شـديد التشـويه، ومسـتلهم مـن أصـول أوزيريـة واضحة].

الخلق

الآلهة التى جاءت إلى الوجود على هيئة "بتاح":[18]

"بتاح-على-العرش-العظيم. . . "

"بتاح-ننوت"، الأب، الذى أنجب "آتوم"

"بتاح-ننوت"، الأم التى ولدت "آتوم"

"بتاح-العظيم"، قلب ولسان التاسوع.

["بتاح"] . . . الذى أنجب الآلهة

["بتاح"] . . . الذى أنجب الآلهة

["بتاح"] . . .

["بتاح"] . . . ["نفرإتم"، يوميا، من أجل أنف "رع".[19]

عندئذ، وفى قلب("بتاح") و(علـى) لسـان("بتـاح")، ظهـرت إلى الوجـود صـورة "آتوم".[20] العظيم جدا هو "بتاح" الذى ينظم(حياة) الآلهة جمعاء و"كاءاتها".[21]. وفى قلبه، وفى نفس الوقت، ظهر "حورس" إلى الوجـود، ك(شـكل مـن أشـكال) "بتـاح"- وظهـر "تحـوت إلى الوجـود علـى لسـانه، ك(شـكل مـن أشكال)"بتـاح".[22]وهكـذا تجلـت هيمنـة القلـب واللسـان علـى سـائر الكائنـات

حسب التعليم(الذى يرى)، أن القلب هو العنصر المسيطر على كل جسد، واللسان هو العنصر المسيطر على كل فم،(فالقلب واللسان هما) من نصيب الآلهة جمعاء، والبشر أجمعون والماشية جمعاء والكائنات الزاحفة جمعاء وكل ما يحيا. إن الأول يتصور كل ما يبتغيه "بتاح"، والآخر يأمر به.

تاسوع"بتاح" هو فى حضرته، على هيئة أسنان وشفتين.(إنها المقابل) لنطفة "آتون" ويديه. وفى الحقيقة فقد ظهر تاسوع "آتوم" إلى الوجود بواسطة نطفته أنامله.[٢٣] إن تاسوع "بتاح" هو الأسنان وشفتا فمه التى نطقت اسم كل الأشياء ومنه انبثق "شو" و "تفنوت"[٢٤].

لقد خلق تاسوع("بتاح") الإبصار، بفضل العينين، والسمع بواسطة الأذنين، والتنفس بالأنف. وكل هذه ترفع بعد ذلك إلى القلب(ما تستقبله من أحاسيس). والقلب هو الذى يسمح بظهور كل معرفة، واللسان هو ما يردد ما يتصوره القلب. وعلى هذا النحو، ولدت الآلهة جمعاء(ومن بينها) "آتوم" وتاسوعه. لأن كل كلمة إلهية تظهر إلى الوجود حسبما فكر فيه القلب أمر به اللسان.

وهذا خلقت بفضل هذه الكلمة منابع الطاقة الحيوية وتحددت صفات الكائن، كما خلقت كل الأطعمة وكل المأكولات النافعة. كذلك أيضا(خلق الثواب العادل) من أجل مناعتان أن يفعل ما يحبه الناس و(العقاب) لمن يرتكب الأفعال المكروهة. ووهبت الحياة للكائن المسالم، والموت للمجرم وهكذا تم خلق الأعمال كلها وجميع الحرفيين وعمل الأيدى وسير السيقان، وحركة كل عضو، حسب الأمر الذى تصوره القلب وافصح عنه اللسان، والذى ما زال يشكل دلالة كل شيء.حدث إذن أن قيل عن "بتاح": "ذاك الذى خلق كل شيء وأتى بالآلهة إلى الوجود. إنه "تاتنن" الذى أنجب الآلهة وانبثقت منه كل الخيرات والمأكولات النافعة

والأطعمة والقرابين الآلهية وكل ما هو طيب وجميل." هكذا يعترف الناس أن قدرته عظيمة، وأعظم من قدرة(غيره من) الآلهة. وكان "بتاح" راضيا بعد أن خلق كل هذه الأشياء وكل الألفاظ الآلهية.

لقد أنجب الآلهة وأسس المدن وأنشأ الأقاليم. وأقام الآلهة في معابدها. وزاد من قرابينها ونماها. وأسس هياكلها وصنع أجسادها التى صنعت من شتى أصناف الخشب، ومن مختلف أنواع الحجر ومن الصلصال ومن مختلف الأشياء(الأخرى) التى تنمو عليه "بتاح" والتى تتجلى من خلالها.(٢٥) وهكذا تجمعت كل الآلهة وكاءاتها إلى جواره راضية، متحدة مع رب القطرين.(٢٦)

منف العظيمة

مخزن غلال الإله "تاتنن" العرش، العظيم،(المدينة) التى تفرح الآلهة الموجودة فى معبد "بتاح"،(إنها) "سيدة الحياة. لقد أغرق "أوزيريس على صفحة مياهها، واستطاعت "إيزيس" و"نفتيس" أن ترياه.وعندما لمحتاه، أعانتاه أمرهما "حورس" أن تمسكا ب"أوزيريس" بلا إبطاء، لتحولا بالتالى دون غرقه، وأسرعتا ووضعتاه على اليابسة: عندئذ دخل من الأبواب الخلفية: إلى أمجاد رب الأبدية، مقتفيا خطى ذاك الذى يتألق فى الأفق، عبر دروب "رع"، كالمتربع على العرش العظيم. ودخل القصر وتآخى مع الآلهة ومع "تاتنن-بتاح" سيد السنين. وهكذا ظهر "أوزيريس على الأرض، فى القصر الملكى، شمال هذا البلد الذى جاء إليه. وظهر ابنه "حورس" ساطعا بصفته ملك الوجه القبلى، ثم ظهر ساطعا بصفته ملك الوجه البحلرى، بين ذراعى أبيه "أوزيريس"،وسط الآلهة التى تتقدمه وتتبعه.

هذا النص مترابط ولكنه متشعب ومركب، وينطوى على دلالتين عظيمتين. فهو يستعرض من ناحية، الأساليب الذهنية والروحية التى يعتمدها "بتاح"(معبود)

مدينة "منف" عند خلق العالم. فبعد أن تصور فى البداية عناصر الكون فى قلبه - وهو مركز كل وجدان وكل ذكاء-تخرج هذه العناصر بعد ذلك إلى الوجود بواسطة الكلم الخلاقة. إن الإقرار بالقدرة السحرية للفظ هى حقيقة منتشرة كل الإنتشار فى الحضارات السامية والإفريقية على حد سواء. ولكن"ترتيب" الخليقة كما تظهر على هذا النحو ليس بالأمر العديم الأهمية: وبالطبع فالآلهة هى التى تظهر أولا، الآلهة التى امتزجت شخصيتها إلى حد ما مع شخصية الإله الخالق المنفى الذى كان يحتويها جميعا. ثم أعطى -للمخلوقات- من بشر وحيوانات على السواء- القلب واللسان، وهما ضروريان لكل كائن عاقل، فلا يوجد تمييز جوهرى بين مملكتى الحيوان والإنسان. ثم خلقت المقومات الروحية والأخلاقية الضرورية لدوام الكون وتأسيس جماعة بشرية إلى مغالبة الأيام.

ثم تأتى الأعمال وجماعة الحرفيين حسب ترتيب الخلق: فعندما ينحت الحرفيون أو يرسمون أو يشكلون أو يكتبون، فإنهم يخلقون على هيئة تماثيل أو نقوش أو تصاوير -أغلفة، هى كتل أو بمجرد ملامح، فى الإمكان أن تدب فيها الحياة عند النطق بالكلمات. وعلى كل حال فإنهم يعرفون بعبارة "سى عنخ" أى "ذلك الذى يحى(بضم الياء)".وفضلا عن ذلك فهى طريقة لإسباغ الخلود على الخلق الجديد، من خلال إجاد أشكال تغالب الأيام، فتحييها عناصر الكائن اللامادية. وللإنتهاء من عمله يلجأ الخالق إلى الأسس الفيزيقية للحياة ولا سيما إمنانات الفعل والحركة. وأخيرا، فإنه يدبر شئون العالم دينيا وإداريا. لقد تصور الإله الخالق "بتاح" مهمته وتفكرها أنجزها على خير وجه بلا أى تدخل فيزيقى. أما الدلالة الأخرى لهذا النص فهو إعترافه الواضح منذ هذا العصر القديم بهيمنة الآلهة الثلاثة: "بتاح"(إله عاصمة المملكة) و "رع"(القوة الكونية الشمسية) و "أوزيريس"(إله الإنبات والتربة الخصبة الذى سيبعث حيا).وإلى ما عرف ثلاثتهم من تبجيل على

المستوى المحلى، فإنهم سيظلون آلهة مصر العظمى طوال التاريخ الفرعونى. إذن فمنذ قديم الزمان كان الوعى يدركهم على هذا النحو ورفعهم إلى هذا المقام، بعد أن أدمجهم فى أساطير معقدة.

كان "بتاح" إلها ملكيا وعادلا، فى مدينة كبرى وأيضا إله خلق رئيسى، وإذ يلجأ إل مختلف الأساليب، فإنه لا يعطى الوجود فحسب، بل إنه يسبغ على عمله النظام والأبدية فيعطى "للروح" دورا بارزا.

٢- بزوغ الشمس فى فجر البداية الأولى، فى "هليوبوليس".

لا يوجد عرض مترابط للاهوت "هليوبوليس" ولكن فى الإمكان تحليل وفهم المنظومة التى صاغها كهنة الشمس بفضل ما ورد عنها من إشارات فى مختلف النصوص ولا سيما كبرى أسفار الطقوس الجنائزية: متون الأهرام، ومتون التوابيت، وكتاب الموتى -والأناشيد.

قبل أى خلق، كان إله -الشمس القديم، بمدينة "هليوبوليس"("آتوم" أو "آتوم-رع") مغمورا فى المحيط الأزلى مع الآلهة، فى حالة كمون.

قال "آتوم"... "كنت" وحيدا فى ال"نوو" وكنت خاملا. كنت لا أجد موطنا استطيع أن أقف فيه، كنت لا أجد مكانا استطيع أن أجلس فيه. ومدينة "هليوبوليس" التى كان مقررا أن أقيم فيها(فى المستقبل)، لم تكن قد تأسست بعد، والعرش الذى كان مقدرا أن أتربع عيه، لم يكن قد تشكل بعد. لم أكن بعد قد خلقت "نوت" من فوقى. وجماعة(الآلهة) الأولى لم تكن قد جاءت إلى العالم. وتاسوع الآلهة الأولية، لم يكن موجودا. كانت(الآلهة) لاتزال معى." عندئذ

قال"آتوم"لِ"نوو": كنت طافيا،خاملا كل الخمول، وكانت ال"بعت" بلا حركة.
إن ابنى، الحياة، هو الذى أعادنى إلى الوعى وبعث فى قلبى الحياة، بعد أن جمع
أعضائى التى كانت إاى الأن بلا حركة ".[٢٧] وقال "نوو" ل "آتوم":
فلتتنفس(يا"آتوم") ابنتك "ماعت"(الحقيقة والعدالة)، ارفعها إلى أنفك ليحيا قلبك.
ليت ابنتك "ماعت" وابنك "شو" الذين يطلق عليهما أيضا اسم الحياة، لا يبتعدان
عنك".[٢٨]

وعلى هيئة صورة أسطورة أكثر إستعلاء، إذ يمتزج الخالق بمفرده مع المحيط الأزلى،
متواجدا وجودا فريدا، فإنه يبعث حياته الخاصة: "أنا"نوو"، أنا الواحد الأوحد،
ليس كمثلى شيء . . . لقد جلبت جسدى إلى الوجود بفضل قدرتى السحرية،
لقد خلقت نفسى بنفسى وشكلت نفسى حسبما كنت أتمنى، حسب رغبتى"[٢٩].

تماما، كما أن الحياة كامنة فى القدرات الإلهية الغارقة فى الخواء السائل، كذلك
فإن هذا المحيط اللاعضوى هو بأبعاده صورة مسبقة للكون، إن العالم ونظامه
المحكم المرتب(الكوزموس) هو على قد الإله الخالق:

. . .ال"نوو" الذى يحمل "آتوم" والذى يبلغ اتساع السماء وعرض الأرض.[٣٠]

عندئذ ينبثق "الشمس"(لفظ مذكر فى المصرية القديمة م.) خارج الكتلة السائلة،
بإرادته الخاصة، على هيئة انبعاث وضاء:

"أنا السرمدى، أنا "رع" الذى خرج من ال"نوو" . . . أنا سيد النور"[٣١]

كل فجر جديد سيكون تكرارا لهذا الإنبعاث الأول للنور، إذ خلط علماء
اللاهوت، من خلال صورة أسطورية أكثر تعقيدا، بين البزوغ الأول للنجم
والميلاد اليومى للرة الوضاءة التى تلد "نوت" إلهة السماء كل يوم، فى دورة ثابتة

لا تتغير، وهكذا تتداخل الأزمنة السابقة على الخلق واللاحقة عليه لتضفى على نشاط الشمس الحيوى سرمدية لا تفارقها.

السماء حبلى ب"رع" وعندما ستلده"نوت" ترتفع الأيدى ويلتف من حوله الأتباع ... رب الأفق "رع" السرمدى.إنه يبزغ خارج ال"نوو" و"المتألقة"[٣٢] من حوله.إن تاسوعه يتحرق من حوله، وقدرته تخيف الآلهة التى أتت من بعده إلى الوجود. إن ملايين "ك"ءاته، هى فى فمه، فهو السحر، ذاك الذى ولد من ذاته. والآلهة عندما تراه يغمرها الفرح، وهى تعيش من عرقه العطر. إنه ذاك الذى خلق الجبال وشكل السماء.[٣٣]

لاينبغى أن نبحث فى هذه الأساطير عن هياكل عقلانية أو أطر نظامية، فهى تتراكب وتسعى إلى الوقوف على أحوال من الوعى الدينى ولحظات متنوعة منه.

فى اليوم الأول، و"آتوم" خارج ال"نوو"، فإنه يجسد فى الوجود الإلهين التوأمين: الإله "شو" والالهة "تفنوت" وهما أول زوجين مخلوقين. واستنادا إلى تقليد قديم، ظل قائما منذ عصر متون الأهرام، فإن الإله الخالق قد شكلهما بلعابه أو بتفاله:

"لقد تفلت "آتوم" من فمه، باسمك هذا، الذى هو "شو".[٣٤]

"يا"آتوم" ... لقد تفلت "شو" و "نفثت "تفنوت".[٣٥]

"تفالك ولعابك، أى "شو" و "تفنوت".[٣٦]

وحسب تصور أخر، فقد شكل "آتوم" الأعزل "فرخيه" بفعل يده النشطة عن طريق الإستمناء:

فما أن خرج "آتوم" إلى الوجود، مارس الإستنماء فى "هليوبوليس". فوضع ذكره فى قبضة يده. فأوجد اللذة لنفسه. عندئذ ولد فى آن واحد التوأمان: "شو" و "تفنوت".[٣٧]

فى عالم الثلاثة هذا، ظهر المشهد الأسطورى الأول:

يقول"آتوم": "-"تفنوت"، تلك التى هى الحياة، هى ابنتى.إنها فى صحبة أخيها "شو" الذى يدعى أيضا ذاك الذى هو الحياة. وهى تدعى أيضا "ماعت" إنى أحيا مع فرخى. إنى وسطهما، أحدهما خلفى والأخر أمامى. لقد نهضت فوقهما، بينما كانت سواعدهما تطوقنى."[٣٨](إنه ثالوث مقدس، لازال غير منقسم تقريبا.)

هكذا كانت النسمات الهوائية والرطوبة اللازمة للحياة قد تشكلت فى نفس الوقت الذى كان يكتسب فيه الكون أبعاده الزمنية بصورة كامنة:

"شو" هو الزمان السرمدى و "تفنوت" هى الزمان اللانهائى.[٣٩]

وحيث أن "شو" و "تفنوت" قد شكلا إذن أول زوجين فى العالم، فقد أنجبا بعدذلك عن طريق وسائل الإنجاب الطبيعية عناصر الفضاء فى الكون: "جب" إله الأرض، و "نوت" إلهة السماء. فكانت الأرض هى العنصر المذكر والسماء هى العنصر المؤنث - نظرا لأن السماء هى مبأ الخصوبة فى العالم المصرى لأنها تحتوى على النور واهب الحياة. لذا تصور السماء فى الغالب على هيئة امرأة أو بقرة، وهى أيضا حيوان ولود ومصدر غذاء. ونظرا لأن "جب" قد صار "ثور"نوت""، فقد رزق الزوجان الثانيان أربعة أولاد وبعد النظام الكونى، استقر النظام الأرضى مع "أوزيريس"(ملك الأرض الذى سيخلف أبيه "جب" و "إيزيس"-و"ست" و"نفتيس" وهما زوجان جديدان على أساس إقتراح الأخ بأخته(وهو ترتيب إلهى

سوف يحاكيه اللملوك) حيث يرمز الزوجان الأولاد لقوى خصوبة التربة وتوازن الحياة. أما الزوجان الثانيان فيرمزان إلى الجدب والتقلبات البائسة. إنه تعبير عن التعارض الملموس بين وادى النهر والصحارى والتضاد الأخلاقى بين الخير والشر. وهكذا يكتمل التاسوع:

أيها التاسوع العظيم الذى يقيم فى "هليوبوليس" أيا "آتوم" أيا "شو" و"تفنوت"، أيا "جب" و "نوت"،أيا "أوزيريس" و "إيزيس"، أيا "ست" و"نفتيس"، الذين أنجبهم "آتوم" بينما قلبه مفعم بالسعادة بسبب أولاده.(٤٠)

وتتواصل عملية الخلق المتبقية، جنبا إلى جنب مع خلق البشرية:

كلمات نطق بها ...سيد الكون ...."لقد أتيت أربعة أعمال صالحة عند باب الأفق، لقد خلقت الرياح الأربع. ليستطيع كل امرىء أن يتنفس حيثما يوجد: وذلك أحد أعمالى، لقد خلقت الأمواه الدافعة(الفيضان) لتزدهر أحوال الصغير والكبير، ولم أسمح أن يرتكبوا الشر، ولكن قلبهم خالف ما قلته فكان(عملا آخر) من أعمالى، وتصرفت بحيث لا تفكر قلوبهم فى الغرب(٤١) وتوفر القرابين الإلهية لآلهة الأقاليم، فكان(عملا أخر)من أعمالى، لقد خلقت من عرقى(بفتح العين) والبشر من دموع عينى "(٤٢)

وتمتدح جميع الطقوس قدرة "أوزيريس" الإله الخامس من الهة تاسوع "هليوبوليس".

إن قلب "جب" و "نوت" مفعم بالسعادة، ويتردد الاسم الجديد: طونن-نفر"(٤٣) قوى الجانب كالنبات "رع" هو إشعاعه وسوف يدوم ما يقال له: أنت الفيضان، أنت أعظم الآلهة، الذى يعمم ما يتذوقه البشر، الحلو على القلب. لا وجود لما

يجهله. إنه صاحب القدرة المرهوب الجانب، عداء التاسوع.[٤٤] ذاك الذى يبجل "با"ؤه، الأكثر فطنة من آلهة الجنوب والشمال.[٤٥]

هذا النسق تمت صياغته بكل دقة لعرض نشأة الكون وأصل مكوناته الأساسية، وأيضا لرسم صورة لتاريخ الشعائر. لقد رأى كهنة "هليوبوليس" أنه من "الكياسة" بمكان، إذا لاحظوا صعود نجم الشعائر المكرسة ل"أوزيريس "(إله القدرات النباتية والبعث والذى ترجع أصوله إلى الدلتا)، أن يضموه إلى نسقهم، الذى نشأ حول الإله -الشمس، فأضافوا للاهوتهم مزيدا من الفاعلية الإلهية والقدرة السحرية. لقد تأكد اضفاء صبغة شمسية مقصودة على "أوزيريس" من خلال ما أختص به من أوصاف وصفات تعود فى المعتاد إلى "رع".

هذه الصورة وهذا الإيمان اللذان ولدا فى وعى البشر، قبل أربعة آلاف سنة من الميلاد، كانت ما تزال قائمة قبل قرون معدودات من ميلاد المسيح.إنه مثال لا يضاهيه مثل، على عقيدة راسخة ودائمة. إن سفر طقسيا يرجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد([٤٦]) يعرض على النحو التالى قصة الخلق فى "هليوبوليس":

يقول سيد الكون: "عندما جئت إلى الوجود، تجلى عندئذ الوجود، لقد جئت إلى الوجود على هيئة "خيرى"([٤٧]) هكذا جئت إلى الوجود للمرة الأولى. جئت إذن إلى الوجود على هيئة "خيرى" فكنت موجودا. هكذا إذن تجلى الوجود لأننى كنت سابقا على الآلهة السابقة، التى تكفلت بخلقها. كنت سابقا على الآلهة السابقة، وكان اسمى سابقا على اسمها.لقد صنعت(الزمن) السبق والآلهة السابقة. لقد فعلت كل ما كنت أتمنى(أن أفعله) على سطح هذه الأرض وانتشرت فيها. وعقدت يدى، أنا الأعزل، قبل أن تولد، حيث لم أكن قد تفلت "شو" أو نفثت "تفنوت". ودربت فمى، إذكان اسمى "السحر"، وكنت "ذاك -الذى -

ينمث". وجئت إلى الوجود على هيئتى، جئت إلى الوجود على هيئة "خيرى "
جئت إلى الوجود في(الزمن) السابق، ثم جاءت إلى الوجود العديد من الأشكال
في "الزمن الأول " والتي لم يسبق أن تجلى أى منها على هذه الأرض. لقد أنجزت
كل عملى فى عزلتى، دون وجود أحد غيرى يستطيع أن يعمل معى فى هذا
المكان. لقد خلقت الأشكال بفضل هذه القوة العليا(التى بداخلى). لقد
جمعت(الأشياء) بينما كنت في ال"نوو". أشبه بكائن ما زال غافيل، لأننى لم أكن
قد وجدت بعد مكانا أنهض فيه. ثم(ولدت) الفاعلية فى قلبى، وبدت
خطة(الخلق) أمام بصرى. ومن ثم حققت عملى كله وأنا فى عزلة. لقد صغت
خطة في قلبى، فخلقت عندئذ أشكالا أخرى، وكانت الأشكال التى عملت على
ظهورها لا حصر لها. وبعد ذلك جاء أبناؤها إلى الوجود فى أشكالها كأبناء.وأنا
الذى تفلت"شو"ونفثت "تفنوت". كنت قد جئت إلى الوجود، إلها أعزل، والأن
يخصنى ثلاثة آلهة، بعد أن جاء إلى الوجود، على هذه الأرض الإلهان(التوأمان).
كان "شو" و "تفنوتط ينشطان ال"نوو"فى السعادة، وهما ما يزالان بداخله
...وبالفعل فقد اتحدت بجسدى ذاته، بحيث خرجا منى بعد أن أوجدت الإثارة
بقبضتى المضمومة، فنبعت الشهوة من يا ى وسالت النطفة من فمى. وهكذا
تفلت"شو" ونفثت""تفنوت". هكذا إذن جئت إلى الوجود، إلها أعزل، والآن
يخصنى ثلاثة آلهة، بعد أن جاء إلى الوجود على هذا الأرض الإلهان(التوأمان).
وهكذا كان "شو" و "تفنوت" ينشطان ال"نوو"فى سعادة،(ومرة أخرى يكرر
نص الفقرة السابقة) لقد كان أبى الغافى(٤٨) هو الذى(؟). وكانت عينى هى التى
طاردتهما(وأعدتهما) بعد زمن لانهائى، بقيا خلاله بعيدا عنى ....وبكيت
عليـ(هما) بالدمع، وبعد أن بكيت عينى على هذا النحو، جاء البشر إلى
الوجود(٤٩)... وبعد ذلك قام "شو" و "تفنوت" وأنجبا "جب"و "نوت". وهذان

أنجبا من جسديهما "أوزيريس" و"حورس-مختنى-إرتى"[٥٠] وست" و"إيزيس" و"نفتيس". وهؤلاء أنجبوا وشكلوا(بدورهم) عددا غفيرا من الأشكال على هذه الأرض، أى أبناؤهم وأحفادهم..."

إنه نص متشعب، يجمع بين تقاليد مختلفة فى ترتيب أسطورى تلفيقى عن قصد. إنه نص تعزيمى يذكر باستمرار كلمة "خير": ومعناها "جاء إلى الوجود يتجلى" واشتقاقها "خيرو"ومعناه الأشكال. إنها تراتيل حقيقية، تدور حول عمل الإله الخالق.والتكرار مقصود، وكأنه تكرار لإبتهالات سحرية من أجل الوجود الجديد الذى انبثق فى اليوم الأول من سطح السائل السابق. ويكاد يكون نصا مفرحا، يسوده شعور بالعرفان تجاه عمل الآلهة. إنه نص ترجع أصوله الروحية إلى الأزمنة الغابرة عندما بدأ الإنسان يعيش على ضفاف وادى النيل.

فى هذا العالم الأول، كان البشر والآلهة يشكلون شيئا واحدا. فلم يكن البشر قد استحقوا من جراء جحودهم أن يفرق بينهم وبين الآلهة. كان العصر الذهبى للكون.

٣- الآلهة الثمانية فوق التل، فى "هرموبوليس".

اللاهوت الذى صيغ أصلا فى "هرموبوليس"-عاصمة الأقليم الخامس عشر من أقاليم الوجه القبلى والمدينة المقدسة للإله "تحوت"- لم نعرفه من خلال أى نص مترابط. ولكن يدل اسم المدينة فى اللغة المصرية القديمة وهو "خمنو" أى "مدينة الثمانية "[٥١](الأشمونين، حاليا) -يدل على أن هذا النسق الفكرى قد صيغ منذ زمن سحيق ويمكن أن نفهم جوهر هذا النسق بفضل نصوص ترجع إلى عصور متأخرة، ولا سيما العصر البطلمى. وبالفعل، نرى أن لاهوتيى "منف" ولاهوتيى

طيبة على وجه الخصوص، قد خصوا مفاهيم "هرموبوليس" بمكانة بارزة في أبحاثهم المتأخرة، التي تنحى منحى تلفيقيا في عرضها لقصص الخلق.

في الأصل، كانت ثمانية آلهة أولية موجودة فوق تل انبثق في "هرموبوليس" من المحيط الأزلي. إنها أربعة أزواج إلهية، يتكون كل زوج منها من عنصر ذكر وعنصر أنثوي، وكانت تتخذ هيئة الضفادع(من سكان المياه المعتادة) والأفاعي(وهي رمز قديم للحيلة المتجددة أبدا). وقائمة اسمائهما موجودة في المعابد الطيبية، لا سيما في مدينة هابو حيث جرى تكريس معبد لهذا الثامون، في الأزمنة المتأخرة.

وتستعيد هذ الأسماء إلى الأذهان "المشهد الطبيعي " الأول للعلم. أسماء الثمانية هي: "نون و "نوت"([٥٢]) وهما يشخصان العنصر السائل الذي كان يغطي "المكان"غير العضوي واللانهائي.-"ححو" و "ححت" رمزا سرمدية "الزمان - "كيكو" و "كيكت" اللذان يشخصان "الظلام"في عالم بلا نور وهي الظلمات التي كان الخواء غارقا فيها.-وكان "آمون" و "آمونت" هما "القدرة الإلهية الخفية" التي يضمها العنصر السائل.-إنه مشهد لانهائي أزلي، حالك الظلمة، ستدب فيه الحياة.

وذات يوم شرعت الآلهة السابقة في العمل. وتقول رواية متواترة أنها شكلت بيضة فوق تلها. وحطم النجم الساطع غلافها لينبثق منها. وتصور رواية أخرى الثمانية وهي تخلق من نطفتها، زهرة لوتس، زهرة الأمواه، التي تنفتح بتلاتها مع شروق الطفل الشمس الذي سطع بنوره على العالم.

(زهرة) اللوتس التي جاءت في البدء إلى الوجود وطردت الغمامة المعتمة، دون أن يتمكن أحد بعد، أن يتعرف عليها(الزهرة).(لقد صنعتم) أنتم(الآلهة الثمانية) نطفة من سائل خرج منكم وسكبتم هذه النطفة على زهرة اللوتس، بأن أرقتم سائلا

نطفيا. لقد وضعتموه فى ال"نوو" وكثفتموه فى شكل واحد، وجاءت ولادة وريثكم الوضاءة على هيئة طفل[٥٣].

(زهرة) اللوتس ... هذا الإله الذى فى قلب حوض الماء الخاص به الذى أنبعث من جسدكم(أيها الثمانية)، زهرة اللوتس الضخمة المنبثقة من البركة الكبرى التى كانت فاتحة النور، عند "المرة الأولى".. إنكم تبصرون نورها، وتستنشتون عبيرها، وأنفكم ملآن بها إنه ابنكم الذى يظهر على هيئة طفل، ليثير البلاد بعينيه[٥٤]... لقد جئت إليكم بزهرة اللوتس الواردة من المستنقعات،(فهى)، عين"رع" شخصيا[٥٥] ذاك الذى يحقق(فى ذاته) حصيلة الأقدمين، الذى خلق الآلهة السابقة وصنع كل ما يوجد فى هذا البلد... وإذ يفتح عينيه، فإنه ينير الأرضين، ويفصل الليل عن النهار. لقد خرجت الآلهة من فمه والبشر من عينيه، فكل شيء ولد منه، هذا الطفل(الذى يتألق) فى زهرة اللوتس، والذى تحى أشعته كل الكائنات[٥٦].

وهناك نص أحدث، ويرجع إلى ما قبل بداية التقويم الميلادى بقليل، يقدم ثمانية شركاء فى أشكال مختلفة. ولكن تظل أسطورة "الطفل-الشمس" المنبعث من اللوتس باقية بفعل أندفاع تكاثرى.

نزل الثمانية إلى "هرموبوليس" ... بينما [كانوا يتحولون إلى أبقار وثيران حسب] طبيعتهم[٥٧] كان الأسود والأخضر ... لونى الثيران والأبقار،[٥٨] عن هؤلاء الذين نادى[٥٩] عليهم قائلا: فلتتحد [الثيران الأربعة] فلتتحد الأبقار الأربع! فل[تتحد] على الفور !" وصارت الذكور ثورا أسودا، والإناث بقرة سوداء. وأطلق [عليهما اسما]"آمون" و "آمونت"- وأنقض الثور على البقرة [بسرعة حتى] أنه أراق نطفته على الماء فى "البركة العظمى " فى "هرموبوليس" التى كانت قد

أزهرت [زهرة اللوتس] وبرعم اللوتس ... كانت زهرة لوتس على هيئة جعران، برأس [كبش] [٦٠] واتخذت شكل طفل، [يضع] أصبعه [على فمه. ويحمل [تاجا عليه صل. [٦١]

إن شعيرة تقدمة زهرة اللوتس هى مظهر دائم وثابت لعقيدة "هرموبوليس" هذه وسواء هى زهرة اللوتس الزرقاء أو زهرة اللوتس البيضاء، الموجودة على صفحة المياه، أو هى زهرة اللوتس اللازوردية أو زهرة اللوتس الفضية، فإن رفع الزهرة حتى الأنف الإلهى، أثناء الخدمة الإلهية، داخل المعبد، يعتبر رمزا للحياة الشمسية.

وانتظم الكون. وكان رجال "هرموبوليس"، يتطلعون أيضا إلى هذا العصر الذهبى الذى عرفته أزمنة العالم الأولى.

* لقد خلقت(الآلهة) "السابقة" إله الأفق. وفى زمانها أيضا خلق الجمال والرفق والسعادة. وفى عصرها جاء إلى السماء ناموس الحقيقة والعدالة("ماعت"(.وأتحد مع أهل الأرض. وفى زمن الآلهة السابقة، كانت الأرض تفيض(بالخيرات) والبطون متخمة والمجاعة لا وجود لها فى القطرين والجدران لا تتهدم والشوكة لا تخز.

* لقد خلقت(الآلهة) الدائمة قرص الشمس،نن والبشر وجميع الأبرار، فى عصرهم. وهبط ناموس الحقيقة والعدالة على الأرض، وتآخى مع الآلهة - وفى زمن الآلهة السابقة، كان الطعام وافرا فى جسد البشر لا وجود له على سطح الأرض والتمساح لا يخطف(فريسته) والثعابين لا تلدغ. [٦٢]

هوامش

(١) لوحة حجرية تبلغ ١٣٧سم ارتفاعا و ٩٢ سم عرضا- وهى محفوظة حاليا بالمتحف البريطانى **British Museum**. وتضم نصا من سطرين أفقين و٧٢ عامودا رأسيا.

النص المصرى

K. Sethe, Denkmal Memphitische

Der Shabako Sten des Britischen Museums.

Leipzig , 1928(2e ed :1964) ,pp.20-80

(٢) الملوك الأجانب ومنهم الملك " شاباكا " على سبيل المثال، كانو عندما يتربعون على عرش مصر، يتخذون لأنفسهم الألقاب الفرعونيه المكونة من خمسة اسماء والتى تربط الملك بآلهه الوادى المشهورة. وإذا كان الاسم الشخصى("شاباكا") يلازمه كالمعتاد لقب " ابن رع " فإن صيغة اسم التتويج الذى اختاره(والذى يلى لقب " ملك الوجهين القبلى والبحرى ") - هى صيغة مصرية صرفة ويعنى " كاملا -هو -كا -رع ". وقد سبق لأحد ملوك الأسرة العاشرة ان حمل هذا الاسم.

و" ذاك- الذي -يوجد - جنوبي - جداره" - هي صفة قديمة جداً يوصف بها إله "منف" وربما يرجع تاريخها إلى زمن تشييد المدينة، عندما كان بتاح إلهاً محلياً وله معبد جنوب سور المدينة الجديد.

(٣) شكل آخر من أشكال الإله " بتاح " ومرتبط بإله محلى آخر هو " تا -تنن " ومعناه حرفيا " الأرض التى ترتفع " وأصبح هذا الإسم من الناحية العملية صفة لإله " منف" على اعتبره بمثابة إشارة إلى عمله الخلاق، عند بروز الأرض من المحيط الأزلى.

(٤) يروى التقليد ان الألهة قد حكمت الأرض فى بداية المر قبل الملوك على ما يبدو وتوجد أشارات كثيرة إلى هذه الإسرات الإلهية الأولى فى العديد من الوثائق: كما أوردت إحدى البرديات المحفوظة فى متحف مدينة تورين اسم " بتاح " بصفته اسم أول ملوك الوجهين القبلى والبحرى واعتمد " مانتون" على هذا المصدر.

ومن ثم فإنه " شاباكا " يسير على خطى " اقدم الملوك والآلهة. وقد سعى مؤسسو الإسرات الأجنبية إلى أن " يتمصروا" بشتى الوسائل.

(٥) " آتوم " الإله الشمسى فى هليوبوليس. راجع فى هذا الفصل: " بزوغ الشمس فى فجر البداية الأولى فى هليوبوليس "

(٦) هذا النص الذى لايلزم بالترتيب الزمنى لعملية الخلق على وجه التحديد يبدأ بتأكيد قيام الآلهة بتنظيم شئون المملكة بزعامة الإله "جب" إله الأرض.إن احاد " حورس " و"ست" ابن وشقيق " أوزيريس "المتخاصمين سيقف شاهدا إلهيا على اتحاد القسمين الطبيعيين للمملكة. وبداية، يبدو الخلق عملية تنظيم لمجمع الآلهة، ونزعة تلفيقية كبرى، تتصدرها شخصيتا " جب" " وبتاح " أيضا على نحو خاص، والأخير سيندمج فى " حورس " رمز الخير. ويتشكل تاسوع هليوبوليس على هيئة محكمة.

(٧) شمال الوجه القبلى فى منطقه الفيوم.

(٨) ان " أوزيريس " الذى ترى فيه بعض بعض المصادر الأخرى أول ملك يحكم الأرض هو رمز اتحاد المملكة وهو الإتحاد الذى يسعى إلى " جب" إلى إعادة تحقيقه من خلال اتحاد " حورس" و" ست " اللذين على ميراث أبيهما

(٩) موقع على مقربة من رأس الدلتا.

(١٠) إذا كان الوجه القبلى - الذى انطلقت منه حركة الوحدة التاريخية - يتصدر دائما الألقاب والشعائر بالمقارنه مع الوجه البحرى فإننا نرى هنا وبصفة استثنائية أن الشمال قد ورد قبل الجنوب وذلك إعلاء من شأن الإله " حورس" على الإله " ست " وربما تكريما للإله " ازويريس " الذى وافته هنا المنية.

(١١) وفقا لما جاء فى لاهوت " هليوبوليس " فإن "أوزيريس " والد " حورس" كان فى الواقع هو المولود البكر للإله " جب"(الأرض) والإلهة " نوت "(السماء) اذ تمتزج الأفكار والأساطير لتشكل من جديد مجموعات روحية ضخمة. ومن ثم تصبح بأكملها، ميراث " جب".

(١٢) " أوب– واوات" " ذاك الذى يفتح الطريق هو إله على هيئة ابن أوى ورب مدينة " أسيوط" وفى الغالب كان يحدث الخلط بينه وبين " حورس"

واذ تم تقسيم ميراث _" جب" أو " أوزيريس ") فى بداية الأمر على " حورس" و" ست" فقد آل هذا الميراث فى النهاية إلى " حورس " كما يختلط ايضا تقليدان فى هذا السياق: فمن ناحية كانت رواية التقليد التاريخى، تضع المملكتين الأوليين اعصر فجر التاريخ تحت رعاية " ست" فى الجنوب و " حورس" فى الشمال – ومن ناحية أخرى كان التقليد الأسطورى يجعل من " حورس" الوريث القانونى لوالده " أزويريس" الذى قتله " ست" ولكنه أى " أوزيريس " – بعث حيا من جديد.

(١٣) إشارة محتملة أيضا إلى وقائع تاريخية فقد كان " نعرمر " الملك الذى وحد البلاد ينحدر أصلا من الجنوب ومن مدينة هيراكنيوليس" حيث كان يعبد " حورس "(ونظرا لان لفظ "حور" هو الـ " حور" الملكى حقا، الذى تسبق صورته الاسم من مجموعة ألقاب ملوك مصر.

(١٤) يشهد كل ذلك على الصفة الملكية للإله " بتاح " فقد آل إليه ميراث البلاد بصفته " حورس "

(١٥) الصل.

(١٦) كانت " منف" عاصمة إقليم " الجدار الأبيض ".

(١٧) الشارتان الشعاريتان للجنوب والشمال وتتصدران الاسم الرابع من أسماء الملوك وهو اسم التتويج " نسوت -بيتى " الذى نترجمه بـ " ملك الوجيهن القبلـى والبحرى " ولكنه يعنى حرفيا: ذاك الذى ينتسب الى البوص والنحلة"

(١٨) يلى ذلك قائمة بأقانيم إله "منف" التى كانت أول مـ جاء إلى الوجود.

(١٩) إن الإله "بتاح" يتكون إذن من ثمانية أقانيم: ويؤكد الأقنوم الأول على صفته الملكية كما سبق أن تحددت. ثم يمتزج بعد ذلك الإله "بتاح" مع المحيط الأزلى("نوو") ونقيضه الأنثوى("ننوت") اللذين ينجبا "آتوم" الإله الشمسى الأولى فى هليوبوليس. وبتاح هو أيضا الذكاء وقدرة التصور الذهنى والإرادة للتاسوع المعبود فى هذه المدينة. ومن خلال علاقته المستمرة بالشمس(العنصر الأساسى فى الكون المخلوق) فهو "نفرتوم" "الإله-اللوتس" الذى ينبثق النجم منه انبثاقا مقدسا مع فجر اليوم الأول والذى يرضى عطره الذى يرضى عطره الذكى الرائحة الأنف الإلهية. ومن المؤسف جدا وجود فجوات فى النص على إمتداد ثلاثة أسطر.

(٢٠) إن "بتاح" -الإله الأساسى -يتصور شكل آتوم ذهنيا، ويخرجه إلى الوجود. وآتوم "هو الشمس" هليوبوليس , الذى كان يعتبر خالقا فى هذه المدينة. كل عاصمة إقليم كانت تنظر إلى إلهها بصفته مبدع الكون.

(٢١) الـ"كا" هى الطاقة الحركية للكائن، حيويته الكامنة.

(٢٢) جميع الآلهة الموجودة من"بتاح " هى أيضا صورة مختلفة. وقد صاغت "منف" وكهنتها أيضا نظرية تلفيقية كبرى منأجل إلهها.

(٢٣) راجع بزوغ الشمس فى "هليوبوليس".

(١٩) إن الإله "بتاح" يتكون إذن من ثمانية أقانيم: ويؤكد الأقنوم الأول على صفته الملكية كما سبق أن تحددت. ثم يمتزج بعد ذلك الإله "بتاح" مع المحيط الأزلي("نوو") ونقيضه الأنثوي("تنوت") اللذين ينجبا "آتوم" الإله الشمسي الأولى في هليوبوليس. وبتاح هو أيضا الذكاء وقدرة التصور الذهني والإرادة للتاسوع المعبود في هذه المدينة. ومن خلال علاقته المستمرة بالشمس(العنصر الأساسي في الكون المخلوق) فهو "نفرتوم" "الإله-اللوتس" الذي ينبثق النجم منه انبثاقا مقدسا مع فجر اليوم الأول والذي يرضي عطره الذي يرضي عطره الذكي الرائحة الأنف الإلهية. ومن المؤسف جدا وجود فجوات في النص على إمتداد ثلاثة أسطر.

(٢٠) إن "بتاح" -الإله الأساسي -يتصور شكل آتوم ذهنيا، ويخرجه إلى الوجود. وآتوم "هو الشمس" هليوبوليس , الذي كان يعتبر خالقا في هذه المدينة. كل عاصمة إقليم كانت تنظر إلى إلهها بصفته مبدع الكون.

(٢١) ال"كا" هي الطاقة الحركية للكائن، حيويته الكامنة.

(٢٢) جميع الآلهة الموجودة من"بتاح " هي أيضا صورة مختلفة. وقد صاغت "منف" وكهنتها أيضا نظرية تلفيقية كبرى منأجل إلهها.

(٢٣) راجع بزوغ الشمس في "هليوبوليس".

(٢٤) دليل جديد على الإهتمام "بتجميع" نظريات الخلق اللاهوتية.و "شو" و "تفنوت" هما إلهان "توءمان" خلقهما آتوم أولا، عند انبثاقه من المحيط الأولي. كما أن "شو" إله الهواء, و "تفنوت" العنصر الإلهي للرطوبة، هما وجهان للزمان والأزل.

(٢٥) المقصود به هنا التماثيل التي تم تشكيلها كأغلفة جسدية وأوعية للحياة الكامنة. إنه أحد المبادىء الكبرى للفن المصرى، فجعله سحرا عظيما باعثا للحياة، وقد أقيم للأمد اللانهائي فتدوم إمكانات الكائن إلى الأبد.

(٢٧) هنا الإبن الملازم لشخصية الإله الخالق والذي سيحي هذا الأخير - فيجمع أعضاء جسده ويدفع روحه ووعيه إلى الوجود - هذا الابن هو الإله "شو" مبدأ الحياة الأصلي الذي يشخص "فراغ" الكون غير المخلوق("شو" هو في اللغة المصرية "الفراغ أو الخلاء") والهواء الذي لا غنى عنه لكل حياة. إن "إحياء" الأب هذا بفضل الابن هو صورة متأثرة بأسطورة أوزيريس. راجع السفر الأول من العهد القديم(وهو سفر التكوين، من الكتاب المقدس-م) فإن النور سيرتبط أيضا "بنسمة الحياة التي ترفرف فوق الأمواه". ولا ريب أن في استطاعة وعلى الساميين الوصول إلى صور مماثلة في أوساط مختلفة، ولكن تأثير مصر الروحي على الشعوب القديمة ظل عظيم الشأن.

(٢٨) إن العنصرين الأساسيين الضروريين للعالم فى حالة تكونه هما الهواء(المبدأ الفيزيقى) والحقيقة والعدالة(وهما مبدأن أخلاقيان لا غنى عنهما لكل حياة) Textes des sarcophages, 80 blc: متون التوابيت.

(٢٩) نفس المرجع 741 B3L.

(٣٠) نفس المرجع 78 BIC.

(٣١) كتاب الموتى.

Livre des Morts, chapitre 159 B. Budge, B.D. III,P. 8,1.13.14.

(٣٢) الصل- الثعبان الشمسى الحامى.

(٣٣) Textes des sarcophages,648 GIT

(٣٤) (T.P.S1652C,(N 663)متون الأهرام). وذلك مطابق للفكرة القائلة بأن فى إمكان الفم، بواسطة الكلام، أن يخلق الأشكال ويمنحها الوجود. ولكن ينطوى الأمر أيضا على السعى وراء التجانس الصوتى بين الجذر الإشتقاقى "إشش" أى "يبصق" والكلمة "شو" وهى مباحث شكلية كان المصريون مغرمين بها وهى ليست تلاعبا لا نفع منه، ولكنه إهتمام يريد إضفاء فاعلية سحرية أكبر على الكلمة.

(٣٥) متون الأهرام T.P.S 1652 c((N 663). نفس النزعة الشكلية بحثا عن التجانس الصوتى بين الجذر الإشتقاقى "تفن" "ينفث" والإسم "تفنت"(حرفيا: "تلك التى تنفث")

(٣٦) Textes des sarcophages,331 GIT

(٣٧) T.P.S 1248 a-d (9465-466)

(٣٨) Textes des sarcophages, 80BIC.

(٣٩) نفس المرجع 80 Bic.

(٤٠) T.P.S 1655 a-c(M 205)

(٤١) مملكة الأموات.

(٤٢) تجانس صوتى جديد بين كلمة "رمت"(البشر) وكلمة "رميت"(الدموع)

Livre des deux Chemins, 1130 B3c.

(٤٣) من أسماء "أوزيريس" ويعنى "ذاك الذى يظل كاملا"

(٤٤) من الصفات المعتادة المنسوبة للإله "رع" تبعا لدورته.

(٤٥) Livre des morts ,chapitre 136 A-Budge, B.D. P182,1. 6-8

(٤٦) بردية "برمنر رند"

British Museum, (n10188) Bremmer -Rhind

النص المصرى:

R.O. FAULKNER, The papyrus Bremmer-Rhind Bruxelles 1933, pp.69-72(1.28/20-29/6)

(٤٧) الإله الجعران، الشمس عند الفجر.

(٤٨) الإله الخالق، ولم يكن بعد فاعلا حيث كان هو ذاته فى وضعه السابق.

(٤٩) راجع الهامش رقم ٤٢.

(٥٠) الهيئة الشمسية.

(٥١) هرموبوليس هو الإسم الذى أطلقه الإغريق على المدينة بعد أن إندمج الإله الإغريقى "هرمس" مع الإله المصرى "تحوت".

(٥٢) "نونت" كلمة مؤنثة من المذكر "نون" سوف تتكون الأسماء الأخرى على نفس الوتيرة: أن هذا الخلق المستند إلى قواعد النحو يضمن تآلف الزوجين الأسطوريين.

(٥٣) معبد إدفو. Sauneron, Naissance du monde, pp58-59

(٥٤) ينظر إلى الشمس والقمر فى الغالب على أنهما عينا الطفل البدئى -أو عينا الصقر الذى يعانقه بجناحيه ويندمج معه، عندما يحلق فى السماء، وذلك وفقا لصورة أسطورية قديمة جدا وثابتة.

(٥٥) تتجمع الصور وتندمج فى وعى دينى على درجة كبيرة من الورع، والزهرة هى التى تندمج هنا مع عين "رع" وسوف تكون بعد بضعة أسطر، ذات عينين على شاكلة الشمس التى ترمز إليها.

(٥٦) معبد إدفو. Sauneron, Naissance du monde, pp-59

(٥٧) تسعى الأشكال إلى تأكيد القدرة الولادة والجوهر المخصب لكل ماهو أولى وبدئى.

(٥٨) إصرار مماثل، على التجديد الأبدى لهذا الفجر الأول، و "الأسود" هو لون الطمى الذى يخصب تربة مصر ويعطيه إمكانات وجوده، والأخضر: هو لون النبات، بدورته التى لا تتبدل.

(٥٩) ينظر إلى "بتاح" فى هذا النص باعتباره خالق الثمانية. إنها نظرة تلفيقية، بتأثير عقيدة "منف".

(٦٠) شكل آخر ذو نبرة تلفيقية. الجعران هو أحد أشكال الشمس عند الفجر، عندما يهب الحياة من جديد كاليوم الأول من أيام الخالق. والكبش هو الحيوان المقدس للإله الشمسى "آمون-رع" إنها صورة أسطورية ودلالتها المؤكدة تشير إلى الوجود الكامن للإله فى الزهرة.

(٦١) بردية P.13603 فى متحف برلين

Sauneron, Naissance du monde, pp-58

(٦٢)

Sethe, Amun und die acht Urgotter, Tafel IV

S.Sauneron, Le temple d'Esna,5vol., le Caire, 1959-1962.

(publication de I' Institut francais d'arche'ologie orientale du Caire

[ثانيا]

ترنيمة من عصر أمنحوتب الرابع[١]

التعبد لـ " رع – حور – أختى " الذى يبتهج فى الفق باسمه النور الذى يوجد فى القرص (آتون)[٢]، الحى للزمن اللانهائى والزمن الأبدى.(التعبد) لـ " آتون " الحى العظيم(الملك)[٣] فى أعياد يوبيله سيد كل ما يحيط به القرص، رب السماء ورب الأرض سيد معبد " آتون " فى " اخت آتون "[٤]، ملك الوجهين القبلى والبحرى الذى يحيا فى الحقيقة والعدالة، رب القطرين " جميلة – هى صيرورات – رع – انه الوحيد – الذى – ينسب إلى – رع " ابن رع الذى يحيا فى الحقيقة والعدالة سيد التجليات المتألقه " اخناتون"[٥] صاحب الحياه المديدة

(التعبد) للزوجة الملكية العظمى، محبوبته سيدة القطرين " جميل – هو –جمال آتون – نفرتيتى " فلتحى وتزدهر فى شباب دائم للزمن اللانهائى والزمن الأبدى حامل المروحة عن يمين الملك المسئول عن كافة جياد جلالتة الذى يرضى البلاد بأسرها، أثير الإله الكامل الأب " آى " – إنه يقول:

" إنك تشرق برفق فى أفق السماء أيها القرص الحى الذى يدبر الحياه وبينما تتجلى فى الأفق الشرقى بعد أن ملأت بكمالك البلاد بأسرها فأنت جميل وعظيم ومتألق وعلى فوق الارض فى جميع أرجائها إن أشعتك تحيط البلاد حتى حدود كل ما خلقته إنك " رع " وتقرب بين أطرافها وتربطها من أجل ابنك المحبوب أنك قصى ولكن أشعتك على الارض انك فى النظرات ويمكن للمرء أن يتأمل

رحلتك ولكن حين تغيب فى أفق الغرب(تبيت) البلاد فى ظلام وكأنها ميتة والناس ممددون فى حجراتهم تكسوهم أغطية وكل عين لاترى حتى رفيقها ولو تم الإستلاء على كل ثروتهم وإن وضعت تحت رؤسهم لما تنبهوا إلى ذلك كل أسد يخرج عرينه والثعابين كلها تلدغ لأن الليل هو(بالنسبة لها) زمن النور والأرض(يعمها السكون لأن خالقها موجود فى أفقه.

وعندما تبيض الأرض(من جديد) عند ظهورك متألقا فى الافق فإنك تتألقين[٦](هكذا ! فى المؤنت – م.) أيا " آتون " مثل النهار. إنك تطردين الليل وتهبين أشعتك والقطران يهللون فرحا(ومن كانو نائمين) يستيقظون وينتصبون على اقدامهم، إنك تساعدهم على النهوض ويغسلون أجسادهم ويتناولون ثيابهم فى حين يقدمون بأيديهم الثناء والتهليل لتجليك الساطع والبلاد بأسرها تنجز أعمالها والحيوانات من شتى الأنواع ترقد فوق كلأها والاشجار والنبات تعود إليها النضرة والعصافير تطير هنا وهناك فى أعشاشها، فى حين تبسط أجنحتها ثناء وتهليلا لـ " كا " ثك. والأغنام تقفز على اقدامها وكل ما يطير ويحيط عندما تتجلى متألقا والسفن تصعد(ضد) التيار وتهبط معه أيضا وكل طريق ينفتح عندما تتجلى. وأسماك النهر تقفز صوب وجهك. وتنفذ أشعتك إلى أعماق " الشديدة الأخضرار " أنك تجعل لنساء ولودة وتخلق النطفة فى الرجال فتحى الابن فى أحشاء أمه وتسكن من روعه، وتجفف دموعه،(فأنت) مرضعه وهو لايزال فى بطن(المرأة) واهبا الهواء لتحيا المخلوقات كلها عندما ينزل(الطفل) من بطن أمه يوم ميلاده فإنك تفتح فمه وترزقة باحتياجاته، الفرخ فى العش يزقزق داخل غلاف بيضته لأنك تعطيه النسمات لتنشطه وتشكل هيئته بالكامل بحيث يتمكن من كسر البيضة وعند خروجه معها يزقزق زقزقة قوية ويسير على قدميه.

ما اكثر أعمالك !(إنك) تتوارى(أحيانا) عن النظار أيها الإلـه الوحـد فلا وجـود بجوارك لآخر سواك[٧] لقد جلبت الأرض حسب رغبتك - في حين كنت بمفردك - والبشر أيا والأنعام كلها من ماشية وأغنام وكل ما يمشى على الأرض وكـل مـا يحلق فيطير بأجنحته وبلاد سوريا وبـلاد كـوش[٨] ومصـر ونعطـى إنسـان مكانتـه وترزقه باحتياجاتـه هكـذا(ينـال) كـل امـرئ قوتـه ويقـدر لـه زمـن حياتـه ولغـات(البشـر) متعـددة وأشـكالهم أيضـا وألـوان(بشـرتهم) مختلفـة لأنـك مـيزت الاحانب[٩].

وتخلق النيل فى العالم السفلى للعلم الآخر وتـاتى به جسبما ترغـب لتحيى الناس فى مصر كل الحماية كما صنعت هؤلاء مـن أجلـك إنـك سيدهم أجمعين فتعبت بسببهم(أنت) سيد البلد الذى يسطع من اجلهم يا " آتون" النهـار صـاحب الهيبة العظمى كما تحى ايضا أبعد البلدان الأجنبية لأنك تعطيها نيلا يهبط إليها مـن السماء[١٠] محدثا أمواجا فوق الجبال على غـرار(أمـواج) " الشـديدة الإخضـرار " ويفيض على حقولها فى مدنها[١١] فما أروع مقاصدك ياسيد الزمن الأبدى !

النيل فى السماء هو من أجل الاجانب وسائر حيوانات كل بلد أجنبى(الحيوانـات التى تسير على أقدامها. النيل القادم مـن العـالم السـفلى ينتمـى إلى البلـد المحبـوب. ولكن أشعتك هى مرضعه جميع الحقول فالحيـاه تعـود إليهـا حينمـا تشـرق وهـى خصبـة بفضلـك لقـد وضعـت فصـول(السـنة) ليوجـد كـل مـا خلقـت ففصـل الإنبات[١٢] لتلطيف الجو والجو الحار حتى يمكن التمتـع بـك لقـد فطـرت السـماء البعيدة لتسطع فيها ولمشاهدة جميـع الخلائـق. أنـت الواحـد الحـد بينمـا تتـألق فـى اشكالك(المتنوعة) مثل الـ " آتون " الحى الذى يتجلى متألقا الذى ينير، الذى يبتعد ثم يقترب(منجديد). إنك تصنع ملايين الأشـكال الصـادرة عنـك وحـدك(تصنـع)

مدنا وقرى وحقولا ودروبا وأنهارا. كل عين تشاهدك أمامها. أنت " آتون " النهار الأسمى إنك ترحل([13]) لضمان وجود كل(كائن) من الكائنات التى خلقتها أنت الذى فوقها ولاتنفك ترى غبطتها.

أنت فى قلبى ولا يعرفك أحد سوى ابنك " كاملة - هى صيرورات - رع - إنه - الوحيد - الذى - ينتمى - إلى - رع "([14]) وقد أذنت أن يدرك مقاصدك ومقدرتك. على يدك أتت الأرض إلى الوجود كما أنك صنعت البشر وحالما تشرق يحيون من جديد ولكنهم يموتون عندما تغرب. أنت أمد النهار بسبب جسدك ذاته وبك يحيا الناس وتظل العيون تمعن النظر فى جمالك إلى أن تختفى وعندما تستريح فى الغرب ويهجر الناس الأعمال وجميع من يسعون على أقدامهم منذ أن أسست الأرض، فإنك ترتقى بهم من أجل ابنك المولود منصلبك، ملك الوجهين القبلى والبحرى... ابن " رع.. " اخناتون " المديد الحياه ومن أجل زوجته الملكيه العظمى، محبوبته، سيدة القطرين نفرتيتى "

هوامش

(١) نص هذه "الترنيمة العظمى " مدون فى مقبرة "أى" فى تل العمارنة، حوالى عام ١٣٦٥ق.م.

النص المصرى:

DAVIES,Amarna, VI, Pl. XXXVII = SANDAM,Texts From the time of Akhenaten , pp 93-96

(٢) كلمة "آتون " كانت الاصل هى الإسم الذى يدل على قرص الشمس.

(٣) كان امنحوتب الرابع يعتبر نفسه أحد أقانيم الشمس وشكلا للإله الحى على الأرض والأمير الشاب الصوفى النزعة كان أيضا يعانى من جنون العظمة.

(٤) حرفيا " أفق آتون " - وهو اسم العاصمة العابرة التى حاول امنحوتب الرابع إقامتها على بعد ٣٢٥كم إلى الشمال من طيبة - وهى تل العمارنة حاليا.

(٥) حرفيا " ذلك الذى يكون مفيدا لآتون " من أسماء امنحوتب الرابع الأخرى

(٦) الضمير المستخدم هنا هو ضمير المؤنث - للتأكيد على ان " الشمس " يعتبر أبا وأم الخليقة بأسرها.

(نذكر مجددا ان الشمس مذكر فى المصرية القديمة، المترجم)

(٧) تستخدم هذه الصيغة مع آلهة أخرى من قبل المؤمنين بها.

(٨) منطقة تابعة للسودان فى الوقت الراهن وتقع بين الجندل الثانى والجندل الرابع من نهر النيل

(٩) يظل الكبرياء المصرى العتيق باقيا.

(١٠) إشرة إلى أمطار بلدان آسيا التى تساعد على خصوبة التربة - على غرار نهر النيل المصرى، الذى خلقه الإله تحت الأرض ليتفجر من بين صخور جزيرة إلفنتين فيجلب الحياة للبلاد.

(١١) تندرج هذه الفقرة فى التطور التاريخى للحظة الآنية. لقد فتح أسلاف أمنحوتب الرابع قبل قرنين من الزمن إمبراطورية شاسعة امتدت من الجندل الرابع على نهر النيل وحتى نهر الفرات. وكانت طيبة العاصمة مركز عالميا واسعا متعدد الأجناس. ولكن أمنحوتب الرابع بنزعته كأمير متصوف أهمل الشئون السياسية هو وخلفاؤه الضعاف. وتخلى عن هذه الإمبراطورية التى كانت مصدر ثراء لمصر. فتفتت هذه الإمبراطورية إلى أن جاء الملوك الرعامسة المظفرين.

(١٢) من ١٩ نوفمبر إلى ١٩ مارس.

(١٣) ظلت الأساطير القديمة دون تغير.

(١٤) كبرياء الملك الذى يعانى من جنون العظمة. وتعبر بقية النص عن نفس هذا الشعور.

[ثالثا]

تعاليم الملك خيتى الثالث[1] إلى ابنه"مرى-كا-رع"[2]

[التعاليم التى وضعها الملك"خيتى"] من أجل ابنه "مرى-كا-رع"..

[بداية النص مهشمة جدا]

[السطر ٢١:] إذا [التقيت برجل] كان أنصاره كثيرين إذا ما تجمعوا، وكان محببا فى أعين رجاله..(رجل) هو خطيب مسهب فاطرده، واقض [عليه]، وامح اسمه... أزل ذكراه وذكرى أنصاره أيضا.

أن رجلا عنيف القلب، هو أيضا مصدر قلاقل بين المواطنين. إنه يثير الفرقة بين الشباب. وإذا لاحظت أن المواطنين يخضعون لتأثيره... فحقر من شأنه فى حضرة رجال البلاط، واطرد[3]. إنه عدو أيضا. والثرثار هو أيضا مثير للفتن فى المدينة.اخضع الجموع وادرأ عنها الإثارات...

[الأسطر من ٢٧ إلى ٣٠ مهشمة جدا] ... تكون أفعالك مبررة[3] إلى جوار الإله. وسوف يقول الشعب ... فى غيابك، إنك تنزل العقاب حسب ...إن طبيعة صالحة وسعيدة هى سماء للإنسان.[4] ولكن لعنة رجل ذى قلب [سيء] هى شىء مؤلم.

- كن صانعا ماهرا للكلام[5] لتكون قويا، قدرة الإنسان فى لسانه. الكلمات أقوى من أى قتال[6]. أنه لا يمكن مباغتة رجل ذكى الفؤاد...

إن الإنسان الحكيم مدرسة للعظماء. هؤلاء الذين يعرفون علمه لا يهاجمونه، ولا يقع [الشر] أبدا فى محيطه. الحقيقة والعدالة تأتيان إليه وقد "عجنتا"(٧)، طبقا للنصائح التى أعطاها الأجداد.

اسع إلى أن تكون صنوا لآبائك، الذين عاشوا من قبلك... أنظر، إن أقوالهم تظل باقية فى الكتب...افتح(ها) واقرأ وانسخ معارف(ها). هكذا يصبح الإنسان الماهر إنسانا متعلما.

لا تكن شريرا. يحسن إن يكون المرء صبورا. فليدم عملك بفضل الحب الذى يحمله لك الناس...يعبد الإله من أجل فضائله وسوف يعبد(ك) الناس من أجل كمالك، ويصلون من أجل رفاهك.

- اظهر الاحترام للكبار، واسع إلى أن يزدهر شعبك. عزز حدودك، ومراكزك الحدودية(٨). إنه لأمر طيب أن يعمل الإنسان من أجل الزمن القادم. احترم... حياة الرجل الذكى(٩). ولكن الثقة تقود إلى الشر. تصرف بحيث يأتى الناس [إليك]، بفضل طبيعتك الطيبة السعيدة. الإنسان الخسيس هو ذلك الذى يشتهى لنفسه أرض [جاره]، إنه إنسان فاقد العقل ذلك الذى يشتهى ما يملكه الأخرون. لأن [الحياة] على الأرض تنقضى وحسب، فهى لن تطول ... إن مليون رجل، لايمكنهم أن يعادلوا "سيد القطرين". هل هناك إنسان يستطيع أن يحيا إلى الأبد ؟ فذلك الذى يأتى مع "أوزيريس" يذهب، كما يتحلل(١٠) كل ماكان يروق له.

وقر عظماءك ليطبقوا] قوانينك. الإنسان الثرى فى داره لن يكون منحازا، لأنه يمتلك الخيرات وليس له احتياجات. أما الإنسان المعوز فلن يتحدث طبقا للحقيقة، ولن يستطيع أن يكون عادلا ذلك الذى يقول: " آه ! لو

كـان عنـدى." ولسـوف يميـل ناحيـة مـن يرضيـه، ويحـابى مـن يقـدم لـه المكافآت "عظيم" هو "العظيم" الذى يكون "عظماؤه" عظمـاء. قديـر[11] هـو الملـك صـاحب الحاشـية الملكيـة، ورفيـع الشـأن هـو الإنسـان الغنـى "بعظمائه" قل الحقيقة فى قصرك، وليخشاك عظماء الأرض. عدالة القلب شىء يليق بالملك. ومقدمة قصرك هى التى تثير الرهبة فى مؤخرته[12]

أقم العدالة مادمت تعيش على الأرض. هدىء مـن روع مـن ينتحـب. لا تقهر الأرملة. لاتطرد إنسان مـن ممتلكـات أبيـه. لاتوقـع ضـررا بالعظمـاء وهم يمارسون وظائفهم تجنب أن توقع عقوبة بالباطل. لاتقـض علـى مـن هو غير ذى فائدة لك. وإذا وقعت عقوبة، فليكن بـالضرب أو بالسـجن. ومن ثم تستقر أحوال البلاد، فيما عدا المتمـرد الـذى تنكشـف مخططاتـه، لأن الله يعرف الإنسان صاحب القلب الخسيس والله يعاقب بالدم العمـل السىء ... لاتقض على إنسان طالما تعرف فائدته.(وهو) الإنسان الـذى أنشدت معه الأسفار[13] فيمـا مضـى. ذلـك الـذى يسـتطيع أن يقـرأ فـى كتاب "سيبو"[14] تسير قدما(ه) بحرية فى الأماكن السـرية وتنتقـل بـاؤ(ه) إلى المكـان الـذى تعرفـه، ولاتنقصـه الـدروب التـى تقـود إلى "الغـد" ولايستطيع أى إفتتان سحرى أن يرده على أعقابه، ويلـق بـأولئك الذيـن سيقدمون له الماء.

القضاة الالهيون الذيـن يحـاكمون الأشـقياء، أنـت تعلـم أنهـم لايعرفـون الرحمة، فى هذا اليوم العظيم عند محاكمة البائس، ساعة النطـق بـالحكم. ويكون الأمر مؤلما عندما يكون الحكيم(="تحـوت") هـو ممثـل الإتهـام. لاتركن إلى طول السنين(التى عشتها) لأنهم يعتبرون زمن الحياة كما لـو

كان ساعة زمن. يبقى الإنسان بعد وفاته(١٥) وتوضع أفعاله فى كومة بجواره. إنها الأبدية هنا، إنه لاحق ذلك الذى ارتكب ما يأخذه عليه(=القضاة).ولكن ذلك الذى وصل إلى هذا المكان دون أن يرتكب سيئات، سيبقى هنا مثل الإله، يسير بحرية، شأنه شأن(الأخرين) أصحاب الزمن الأبدى.(١٦)

- جند الفرق الشابة التى ستكون تابعة لك، حتى يحبك المقر الملكى،(١٧) وأكثر ممن انصارك بين المجندين.(١٨) انظر، إن أهل مدنك يضمون العديد من "البراعم الشابة" فى العشرين من عمرهم. وهؤلاء، الشباب سعداء لأنهم يتصرفون حسب رغبتهم.(١٩) وعندما يخرج مجندون جدد، يعود الجنود القدامى إلى ذويهم.(٢٠) وهل يجوز أن يقوم القدماء بخوض المعارك من أجلنا؟ وحال تتويجى توليت أنا شخصيا تجنيد(فرق) من صفوفهم(=الشباب).

اعط أهمية لعظمائك، ضع فى المقدمة ...أكثر من الشباب المنتمين لحاشيتك، وخصص لهم الخيرات، ووفر لهم الحقول، وكافئهم [بهبات] من القطعان.

لاتفضل ابن إنسان(ثرى) على ابن إنسان فقير. قرب منك(٢١) الرجل حسب أفعاله، لأن كل مهنة تؤدى ...من أجل رب القوة.(٢٢)

أحم حدودك، وأربط بين قلاعك،(٢٣) فالقوات مفيدة لسيدها.

شيد العمائر ..من أجل الإله، إنها تخلد اسم صانعها. وعلى الإنسان أن يفعل ماهو مفيد ل"با"ئه(٢٤)،(خلال) خدمة الكاهن الشهرية،(٢٥) البس نعالا بيضاء وتردد على المعبد، وادخل إلى قدس الأقداس، وكل من خبز

"قصر-الإله". حدد مائدة الماء الطاهر وأكثر من المؤن الغذائية وضاعف من القرابين اليومية،حافظ على مبانيك، حسب ثرائك. إن يوما واحدا يمكن أن يفضي إلى الأبدية، وساعة واحدة قد تكون فعالة بالسبة للمستقبل، فالإله يعرف ذلك الذى يعمل من أجله. وسوف تذهب تماثيلك إلى بلد قصى دون أن يكون فى وسع أحد أن يجمعها كلها.[٢٦]

الإنسان المريض، وحده هو الذى لا أعداء له، وفى داخل مصر ذاتها لايهدأ العدو وتقاتل القوات بعضها البعض([٢٧] مثلما تنبأ به القدماء. إن مصر تقاتل فى الجبانة ذاتها، منتهكة حرمة[٢٨] المقابر ومنتهكة حرمة الرفات لقد ارتكبت مثل هذه الأمور، ونفس الشىء يحدث الآن، حسبما يحدث لذلك الذى يرتكب على نحو مشابه، جريمة فى حق الإله[٢٩]

لاتكن علاقاتك سيئة مع الجنوب. أنت تعرف ما أعلنه المقر الملكى فى هذا الصدد...ولكنهم لم يعبروا(حدودنا) كما يقولون. لقد اقتربت من مدينة "ثنى" ومدينة "معقى" عند الحدود الجنوبية ل"تاوت".[٣٠] واطبقت عليهم كسحابة تهطل مطرا.[٣١] والملك "مرى[ايب] رع"[٣٢] "صادق-القول" لم يستطع أن يفعل ذلك. كن رحيما فى هذا الصدد لتستطيع إعادة النظام...تحديد المعاهدات. وما من عمليات تطهير يمكن أن تظل خافية. ومن الأفضل أن يعمل المرء من أجل المستقبل.

- فلتسر الأمور على مايرام مع الجنوب من اجلك، حتى يأتى إليك حاملوا الجزية محملين بالعطايا. لقد فعلت أنا، فى هذا الصدد نفس الشىء على غرار السلف.

كن رقيقا مع من لايملك شعيرا ليعطيك إياه، لأن(البشر) بجوارك، هم كائنات ضعيفة. واكتف بخبزك وبجعتك. إن الجرانيت يصلك دون معوقات،[٣٣] لذلك لاتلحق الضرر بآثار الآخرين([٣٤]. واستخرج الحجر من محاجر طرة. ولاتشيد مقبرتك مستعملا مواد سبق استخدامها، أو مستخدما ماسبق تشييده من أجل ماسوف يشيد. انظر، على الملك أن يكون رب السعادة. إذا كنت عادلا، تستطيع أن تنام بفضل قوتك. لذلك اتبع رغبتك مثلما فعلت أنا. ولن يكون هناك أعداء بعد ذلك داخل حدودك.

(أنا) أنهض، سيدا على المدينة، ولكنى جريح القلب بسبب الوجه البحرى. من "حوت شنو" وحتى "سمباقا"([٣٥]، وفى الجنوب حتى قناة السمكتين[٣٦]، لقد أعدت السلام إلى كل ربوع الغرب حتى -ساحل البحر(؟). وهكذا يستطيعون أن يعملوا وأن يقدموا الخشب "ميرو"[٣٨]، كما يمكن مشاهدة الخشب "عن"([٣٩] الذى يعطونه لنا. أما الشرق فهو يغص بالقبائل الأجنبية . . .[٤٠] والجزر الداخلية تتجه(إلىّ)، وكذلك سكانها وتقول الأقسام الإدارية الحضرية: " العظيم([٤٢] يبجل أكثر منى".

انظر، البلد الذى أعملوا فيه السلب والنهب، أصبح الآن منظما فى أقاليم ومختلف أنواع المدن الكبيرة . . .إن حكومة الفرد الواحد، هى الآن فى إيدى عشرة رجال. والكاهن أيضا قد منح الحقول(والجميع) يعملون من أجلك كفريق واحد. ولن يظهر بينهم متمرد واحد، ولن يؤذيك النيل بعدم عودته(٤٣)، ومنتجات الوجه البحرى ملك يديك.

انظر، إن وتد الرسو الذى صنعته أنا فى الشرق من أجلك، قد ضرب[٤٤].(والأراضى الممتدة) من حدود "حبنو" وحتى طريق

"حورس"(٤٥) قد انتظمت على هيئة مدن امتلأت بالرجال والنساء، بنخبة من ربوع البلاد جميعها، من أجل صد(العدد الذى قد يوجد) عند هذه الحدود.

ليتنى أرى رجلا جسورا سيحاكى ذلك(٤٦)، ويفعل لنفسه أكثر مما فعلته. وليبتعد عنى وريث سيء.

والآن، فما يلى من قول يخص الأجانب. إن البلاد التى يقيم فيها الأسيوى الخسيس وعرة: ماؤها شحيح، والوصول إليها عبر الغابات الكثيرة صعب، وطرقها سيئة بسبب الجبال. إنه لايقيم فى مكان واحد ويطلق لسيقانه العنان. إنه يحارب منذ زمن "حورس"(٤٧)، وهو لا يغزو ولكنه لايغزى، ولايعد التقارير يوم المعركة، مثله مثل لص رفض الحياة فى مجتمع(٤٨). وفى الحقيقة، سوف أظل كما أنا ما حييت. كان هؤلاء الأجانب أشبه بجدار مصمت ففتحته.. وعملت على أن يوجه الوجه البحرى لهم الضربات، وسلبت ممتلكاتهم وأستوليت على قطعانهم، حتى ضج الآسيويون من مصر. لاتعر إذن هذا الموضوع أى إهتمام، لأن الأسيوى قد صار من الآن فصاعدا أشبه بتمساح على شاطيء(مصر)، فى إمكانه أن يسرق شخصا واحدا، ولكنه عاجز عن الإستيلاء على أرض به مدن عديدة.

لقد أعيد بناء مدينة "مدنيت"(٤٩) والبحيرات المرة تروى أحد جوانبها(٥٠) انظر، إنها الحبل السرى للأجانب. لقد سيدت أسوارها من أجل القتال وجنودها الكثيرون وسكانها يعرفون حمل السلاح بإستثناء الإنسان الحر داخل المدينة ؟ و(بالنسبة) لمنطقة مدينة "جدوسوت"(٥١)(يصبح) المجموع ١٠٠٠٠ رجل، بما فى ذلك الناس العاديون والأحرار المعفون من

الضرائب. كما تضم المدينة أيضا العظماء منذ أن كانت المقر الملكى(=العاصمة). حدودها القائمة ثابتة ورجال حاميتها صناديد. ويتولى ريها العديد من رجال الشمال حتى حدود الوجه البحرى، وتفرض عليهم ضرائب الحبوب شأنهم شأن الرجال الأحرار ٠٠٠انظر إنها بوابة الوجه البحرى. بل إنهم أقاموا سدا حتى مدينة "ننىنسوت".(٥٢) وتلك فكرة صائبة من جانب العديد من المواطنين ليتجنبوا أن يضرب خدام العدو من حولهم الحصار زان الحذر يجذب السنين.

إذا هوجمت حدودك الجنوبية، عندئذسوف يشد أجانب الشمال السير المصنوع من الجلد(٥٣)، شيد إذن المعابد فى الوجه البحرى، فسمعة الإنسان لاتضعف وذلك بفضل ما فعله. والمواطنون المستقرون لن يكونوا مصدر إزعاج لك ٠٠(وعلى العكس) فإن العدو يحب الضرر والأفعال الخسيسة. لقد أعلن الملك "خيتى" "الصادق-القول" فى تعاليمه(٥٤) إن الذى يقف صامتا فى وجه العنف يحطم(فى الواقع) موائد الماء الطاهر والإله يهاجم من يتمرد على معبده.

- احم موائد الماء الطاهر، بجل الإله ولاتقل: إنه لأمر شاق، ولاتحول يدك فى إتجاه الأرض.(٥٥) من يتمرد عليك يدمر السماء. هذا العمل يمكن أن يجلب الرخاء لمائة سنة(٥٦). وإن كان العدو على علم بالأمر لما دمره، وهكذا فإن مافعله ملك، يصبح(أكثر) فاعلية على يد من يأتى بعده(=ابنه)، وعلى كل ليس هناك شخص لاأعداء له.

من ينتسب إلى " الضفتين"(٥٧) فهو عالم. إن ملكا سيدا لرجال البرط، لا يمكن أن يكون جاهلا، فقد كان حكيما منذ أن خرج من رحم(أمه) وقد

اصطفاه الإله أمام مليون رجل. إن الملك وظيفة جميلة وطيبة، لاابـن لهـا ولا أخ يعملان على تخليـد آثارهـا. إن شـخصا واحـدا يحيـل شـخصا آخـر إلى إنسان فعال.(٥٨)(كل) رجل يعمل وفقا للذى سبقه، بحيـث أن مافعلـه هـذا الأخير سوف يحافظ عليه من سيأتى بعده.

انظر، لقد وقع عمل خسيس فى زمنى. لقد سلبت ونهضت نواحـى مدينـة "ثنى" حدث ذلك من جراء خطأ منى. و لم أحط به علما إلا بعد أن حـدث ما حدث. انظر، فالخطأ الرئيسى الذى ارتكبته مؤلم دون ريـب.(٥٩) ولكـن لن يفيد فى شىء إن نعيد الحياة إلى ماسبق أن دمر، أن نهدم ماسبق تشـييده أو ترميم وزخرفة مالحق به الضرر. فلتراع ذلك. إن الضربة تستدعى ضربـة أخرى. هذه هى خلاصة الأفعال جميعا.

بين البشر تمر الأجيال وراء الأجيال. والإله الذى يعـرف مخلوقاتـه محتجـب، ولكن أحدا لايستطيع أن يقاوم رب القدرة الذى يحيط بكل ماتراه عيناه.

علينا أن نسبح للإله فوق دربه، سواء كان مصنوعا من الأحجار الكريمة أو من النحاس، كما يحل فيضان محل فيضان آخر.(٦١) فليس هنـاك نهـر يمكـن أن يخفيه لأن الأمواه تطلق ذلـك الـذى يختفـى فيهـا.(٦٢) ومـن ثـم تسـتطيع ال"با" أن تذهب إلى المكان الذى تعرفه ولن تخرج عن الطريق الذى سارت فيه بالأمس.

فلتثر دارك فى الغرب(=مقبرتك). واجعل مكانك فى الجبانـة قـابلا للـدوام بوصفك إنسانا عادلا يقيم العدالة، ويستطيع البشر أن يعتمـدوا علـى قلبـه. إن الأفعال الحميدة للإنسان العادل أكثر نفعا من ثـور ذلـك الـذى يرتكـب الشر(٦٣). اعمل من أجل الإله - وسوف يعمل بالمثل من أجلـك -(اعمـل) عن طريق القرابين التى ستجدد مذبحه، وأيضا عن طريـق مدونـة منقوشـة،

تكون ذكرى لإسمك. إن الإله يرضى عمن يعمل من أجله. لقد أنعم الإله بالكثير على البشر فهم قطيعه، وقد شكل السماء والأرض حسب رغبتهم، وردع مخلوق الماء الشرير(=التمساح)، لقد خلق نسمة الحياة من أجل أنوفهم، إنهم صوره المنبثقة من جسده. إنه يتألق فى السماء حسب رغبتهم، ومن أجلهم خلق النبات والماشية والطيور والأسماك غذاء لهم. ويقتل أعدائهم ويقضى على أعداء أبنائه الذين كانوا يعتزمون القيام بتمرد.[٦٤] وخلق النور حسب رغبتهم، ويبحر ليشاهدهم.[٦٥] لقد أقام معبد(ه) من حولهم وعندما يبكون فإنه يسمعهم. لقد خلق لهم زعماء منذ البويضة، و(جعل) منهم قادة ليكونوا سندا لظهر الرجل الضعيف. ومن أجلهم خلق الإفتتان السحرى ليكون سلاحا لصد ما يمكن أن يحدث، ساهرا عليهم طوال النهار وطوال الليل. وقتل الرجال الأدنياء الذين كانوا بينهم، مثلما يستطيع رجل أن يضرب ابنه و أخاه، فالإله يعرف كل الأسماء.[٦٦] لاتسبب أى ألم لى، أنا الذى منحتك القوانين الخاصة بالملك، حتى ينفتح وجهك وتنهض كرجل، وحتى لا يكون هناك من يوجه لك الإتهام عندما تلحق بى [فى العالم الآخر]. لاتقتل أيا من المقربين إليك بعد أن تكون قد منحته الحظوة، فا لله يعرفه وهو واحد من ذوى الميسرة على الأرض، لأن رفات الملك كائنات إلهية.

امنح حبك لشعب البلاد أجمعين: فالناس يتذكرون الكائن الجميل الطيب، عندما ينقضى [زمنه]. ذلك أن المقربين من قصر خيتى "الصادق-القول"[٦٧] سيقولون عنك. وهم يفكرون فيما يحدث اليوم: "ذلك الذى قضى على فترة المعاناة".

انظر، لقد أخبرتك بما يمكن أن يكون مفيدا، وبما هو لدى. اعمل الآن وفقا لما ثبت صحته أمامك.

رابعا

تعاليم الملك امنمحات الأول إلى ابنه سنوسرت(٦٨)

بداية التعاليم التى صاغها ملك الوجهين القبلى والبحرى: "ستحب -إيب-رع" "ابن رع": "امنمحات"-"صادق القول" ويوجه رسالة حق إلى ابنه، سيد الكون قائلا: "أنت يا من ظهرت بجلال كإله، اصغ لما سأقوله لك، حتى تصبح ملك البلاد، وتدير شئون "الضفتين"(٦٩) وتحقق الخير الوفير. احذر مرؤوسيك، حتى لايقع(حادث) خطير لم يكن أحد قد تنبه له. لا تقترب منهم، ولاتبقى بمفردك. لاتضع ثقتك فى أخ. لاتعرف أصدقاء ولا تخلق صداقات حميمة، فلا فائدة ترجى من ذلك. وإذا خلدت إلى النوم فليكن قلبك هو ذاته الذى يتولى حراستك، فالإنسان لايجد الأصدقاء فى يوم الشدة. لقد أعطيت المعوز، لقد نشأت اليتيم، لقد سعيت بحيث يرتقى من كان لايملك شيئا بنفس مستوى من يملك. ولكن ذلك الذى كان يأكل من طعامى، هو نفسه الذى كان يوجه اللوم(لى)، والذى مددت له يدى، هو نفسه الذى كان يثير الرعب بسبب ذلك. ومن كان يرتدى من أرق كتانى، كان ينظر إلى على نحو ماكان يفعل أولئك الذين كانوا محرومين منه. والذين كانوا يتضمخون بطيب المر(الخاص بى)كانوا يبصقون على تعطفى.

أيا صورى الحية،(أيا) عناصر ذاتى بين البشر،(٧٠) نوحى من أجلى، كما لو كنت تنوحين على من لم يعد مسموعا. المعركة لم يعد يدرك خطورتها أحد، لأن الناس يتقاتلون فى الساحة، بعد أن نسوا الأمس. فلا وجود للسعادة الكاملة، بالنسبة لمن يجهل ماكان ينبغى أن يعرفه.(٧١)

كان ذلك بعد وجبة المساء، كان الليل قد حل. وأخذت ساعة راحة .[٧٢] فتمددت فوق سريرى، وأنا فى غاية التعب، وبدأ قلبى، بالنسبة لى، يسعى وراء نعاسى.[٧٣] عندئذ شهرت أسلحة كان ينتظر منها على العكس، أن تسهر على. وفعلت مثل أفعى الصحراء.[٧٤] واستيقظت على(ضوضاء) القتال، إذ كنت بمفردى. واكتشفت إنه كان هناك اشتباك عنيف بين الجند. ولو كنت امسكت على الفور بسلاحى لأستطعت أن اشتت شمل هولاء الجبناء، شذر مذر، ولكن لاوجود لإنسان جسور فى الليل، ولا يمكن إنسان أن يحارب بمفرده. إن النصر لا يتحقق بدون حماية. انظر، لقد وقعت محاولة الإغتيال هذه، بينما كنت بدونك، بينما لم يكن البلاط، قد عرف أننى قد نقلت السلطة إليك "[٧٥] حيث لم أكن قد جلست بعد على العرش فى صحبتك.[٧٦] ليت(الوقت يتسع معى) لأقوم بترتيبات من أجلك -لأننى لم أكن قد توقعت ذلك، لم أكن قد فكرت فى ذلك، وماكان ينبغى لـ(قلبى) أن يؤدى([٧٧] إلى عداوة خدمى. هل حدث ابدا أن تجمعت النساء فى تشكيل معركة ؟ وهل تربى مثيرو الشغب داخل البيت ؟ وهل حدث أبدا أن الماء الذى بحفر التربة قد شق بحيث ينصرف الناس البسطاء عن أعمالهم؟[٧٧] إلا أنه لم يحدث قط أن حاصرتنى المصائب، منذ أن جئت إلى العالم ولم يحدث أبدا أن كشف أحد عن عمل جسور مماثل لأعمالى.

لقد مشيت حتى إلفنتين ووصلت حتى مستنقعات الدلتا([٧٨] ووقفت عند حدود البلاد وشاهدت ماكان بها. ودفعت حدود السلطة إلى الخلف([٧٩] بفضل ساعدى وبفضل هيئتى فأنا الذى ينتج الحبوب(أنا) صديق " نبرى[٨٠]" والنيل يكرمنى فى كل طلعة من طلعاته.[٨١] ولم يكن هناك جوعى طوال سنوات(حكمى) ولم يعرف الناس العطش بفضلى وبسبب ما فعلته كان الناس يجلسون([٨٢] ويحكون عنه وكل ما أمرت به كان فى مكانه(السليم) لقد روضت الأسود وأبعدت التماسيح

واخضعت أهل بلاد " واوات" واصطحبت " المجاى"[٨٤] وعملت على أن يمشى الأسيويون كالكلاب. وشيدت قصرا مزخرفا بالذهب سقفه من اللازورد وارضيته من الفضة وأبوابه من النحاس ومزاليجه من البرونز. كان قد صنع من أجله الابدية واعد للزمن اللانهائى. والأن هناك اعترافاً بى بصفتى ذلك الذى ينتسب إلى الصقر فأنا سيد الكون.

الشبان والجموع فى الشوارع. الانسان الذى يعرف يقول: نعم أما الجاهل فيقول: لا. لأنه لايعرف ذلك وهو محروم من وجهك. الانسان ينتسب إلى ابنى سنوسرت[٨٥]

قدماى تسيران لتقربانى من قلبى[٨٦] فى حين أن عينى سوف تشاهدانك وسيحصل الشباب على ساعة سعادة بجوار الشعب بينما هم يمتدحونك ويهللون لك.

انظر لقد حققت البداية واجمع الخاتمة من اجلك أنا بالنسبة لك المرفأ الذى فى قلبى. صورتى وهى بذرة ا لله[٨٧] سوف ترتدى التاج الابيض(٨٨) طويلا وسوف تظل القلاع فى مكانها كما امرت من أجلك[٨٩].

الفرح فى قارب "رع " لأن ملكك قد تجلى منذ بداية ملكى لأنك تتصرف بحب وتحقق أعمالا جسورة[٩٠] شيد المبانى حتى تدوم طويلا وتكون قويا. لقد قاتلت لكى يعرف القوم أنك رجل فطن.

هوامش

(١) من أظهر النصوص القديمة التى تكشف" مثالية العلاقة بين الحاكم والمحكوم"

(٢) وصلنا هذا النص مدونا على عدد من البرديات Pap 1116 A بلنينجراد والبردية ٤٦٥٨ Pap بمسكو والبردية Garlsberg VI.Pap . بكوبنهاجن و" خيتى " الثالث هو من أواخر ملوك الأسرة العاشرة التى حكمت مصر وكانت عاصمتها " هرقليوبوليس فى الفيوم ولكن ظل جزء من الوجه القبلى بعيدا عن سيطرتها(وكان جنوب الوجه القبلى قد توحد سيطرة أمراء طيبة الذين سرعان ماعادوا توحيد البلاد لحسابهم) بينما عانى الوجهه البحرى من مشاكل كثيرة نتيجة تسلل الشعوب الاسيوية (لاسيما فى قسمه الشرقى) وتمدنا هذه التعاليم بايضاحات عظيمة الفائدة حول الأوضاع السياسية لذلك الزمن وحول مبادىء الحكومة الملكية ذاتها و"واجبات" الملك تجاه الآلهة وتجاه البشر على حد سواء.

النص المصرى:

.Aksel Volten, Zwei altagptische Schriften Copenhague , 1945,p.1a. 81

(٣) بعد محاكمة الإله " أوزيريس" التى " تزن " أفعال المتوفين.

(٤) ضمان الحياة الأبدية

(٥) تعنى كلمة " حمو" الشخص الذى يشكل المادة أى ليعطيها شكلا هو غلاف محتمل للحياه وهنا تعتبر الكلمات مماثلة للمادة التشكيلية فعندما " تتخذ تصبح ايضا قادرة على الخلق الحيوى ويمتلك الخطيب والنحات نفس الموهبة القادرة على بث الحياة فى العالم

(٦) تفوق قوة " الكلمة " وحدها أى فعل مادى عنيف

(٧) على غرار الحبوب التى تم إعدادها لصنع الشعير وهى صورة عينية تؤكد كيف أن الحقيقة والعدالة هما تحت تصرف الانسان الحكيم

(٨) اشارة إلى أعمال تسلل الاسيويين الى مناطق الدلتا الشرقية

(٩) حرفيا " المفتوح الوجه " كان المصرى يلجا فى الغالب عند التعبير عن الصفات المجردة إلى وصف ملامحها العينية. والصفة المقصودة هنا هى سمة " التقبل " " لدى الأذكياء

(١٠) مثل فك الرباط

(١١) إن ترديد كلمة واحدة كلازمة متكررة هو من الصيغ التى شاع استخدامها فى الاساليب الخطابية

(١٢) أى أن الرهبة التى تثيرها علنا هى التى تدفع المقربين وأفراد البلاط إلى الحذر.

(١٣) ربما " يرتل " حسبما هو متبع فى مدارس تحفيظ القرآن فى الوقت الحالى.

(١٤) غير معروف ويرجح من سياق النص أنه كتاب مرشد لرحلة العالم الاخر

(١٥) حرفيا " الرسو أو الإرساء " يشبه الموت بوصول الملاح إلى بلد آخر ليرسو بسفينته

(١٦) إنهم بلا شك الموتى " البرينو الساحة "

(١٧) محل الاقامة الرسمية للملك - عاصمة المملكة

(١٨) حرفيا " اصحاب الريشة " جرى العرف على ان يضع الجندى ريشة فوق رأسه

راجع أيضاً: **Posener , Annuaire du College de France , 1964 , vol 64 p. 305**

(١٩) ربما شملت عمليات التجنيد الشباب الذين فى العشرين من عمرهم.

(٢٠) معنى " الجنود القدماء" هذا نقلا عن **Volten , op. cit. et Posener , op . cit.**

(٢١) حرفيا " احضره نحوك "

(٢٢) الملك

(٢٣) كانت القلاع الحدودية لاتزال قليلة جدا وعلى اتصال فيما بينها عن طريق اشارات دخان

(٢٤) الـ " با" من الاجزاء المكونة لكل كائن وهو يصور على هيئة طائر آدمي وتنتهي رجلاه بيدين انه العنصر المتحرك للفرد ويستطيع الـ" با بعد الوفاه ان يترك المومياء ليتجول على الارض سعيا وراء نسمات الحياه المنعشه واحضارها الى المتوفى فى "دار الابدية " ويصور احيانا على المومياء وقد وضع رجليه على القلب دلالة على الحماية وتنشيطا للحياة.

(٢٥) كان الملك وحده من الناحية النظرية هو الذى يقيم ويصور دائما على النقوش وهو يؤدى الطقوس الخاصة بالآلهة أما فى الواقع فقد كان يخول سلطاته للكهنة ولكن لا يعفيه من خدمة دينية شخصية.

(٢٦) كان فى امكان الآلهه ان " تقوم برحلات " كشاهد على الهيمنة المصرية على البلدان المجاورة والتشديد هنا على عددها الكبير

(٢٧) من المرجح أنها اشارة الى المعارك التى احتدمت بين الملك " نبى نسوت "(هرقليوبوليس) وقوات حكام اقاليم مصر العليا(راجع الهامش رقم)

(٢٨) حرفيا: "بالحفر بمعرفة " وهى صورة عينية " للهدم "

(٢٩) من الواضح أنها اشارة إلى انتهاك حرمة جبانة ثنى.

(٣٠) "ثنى" من مدن الوجه القبلى(على مقربة من أبيدوس – العرابة المدفونة حاليا) – وكانت عاصمة المملكة فى ظل الأسرتين الأولى والثانية. وكانت توجد جبانة هامة على مقربة من المدينة، وكانت تشكل آنذاك الحدود بين مملكة هرقليوبوليس ومجموع الأقاليم التى كانت تعترف بسيادة أمراء طيبة، ومن هنا جاءت أهمية المعارك الضارية التى دارت فى هذا المكان.

(٣١) بقوة ومباغتة السحابة التى تتناثر مطرا. وتسعى الصورة أيضا إلى التأكيد على تأثير مفاجأة الهجوم.

(٣٢) اسم الملك "خيتى " الأول وهو أول ملوك الأسرة التاسعة التى حكمت قبل "خيتى" الثالث بقرن من الزمن.

(٣٣) محاجر الجرانيت كثيرة فى مصر ولاسيما فى الجنوب عند منطقة أسوان. وكانت طرة الواقعة على الضفة اليمنى من النيل فى مواجهة مدينة "منف" تضم محاجر هامة من الحجر الجيرى الأبيض.

(٣٤) إشارة إلى "عادة" مصرية، كان الملك يستخدم بمقتضاها مواد المبانى التى شيدها أسلافه لتشيد مبانيه بتكاليف أقل.

(٣٥) "حوت شنو" مدينة تقع إلى جوار "هليوبوليس".

(٣٦) اسم فرع النيل فى الدلتا الذى يخترق "ليتوبوليس". والمقصود به هنا الحدود الجنوبية للقسم الغربى من الدلتا.

(٣٧) من الدلتا.

(٣٨) أخشاب من العائلة الصنوبرية، تميل إلى الأحمرار، كانت تستورد من لبنان ومن الراجح أنه خشب الأرز. (راجع

Helek, Maerialen- zur Wirtschaftgeschichte des neuen Reiches, Mainz, 1961-1970, pt. V,p.906)

(٣٩) نوع أخر من الأشجار الأسيوية وهى شجرة العرعر على مايظن.إن وجود هذه الأخشاب، رغم المشاكل التى عانى منها النظام الملكى فى "هرقليوبوليس"يؤكد أن المواصلات قد ظلت قائمة بين سواحل البحر المتوسط الاسيوية(وعلى رأسها فينيقيا) وهرقليوبوليس.

(٤٠) القبائل البدوية الاسيوية التى كانت تسكن أرض كنعان.

(٤١) القسم الأوسط من الدلتا(ويتكون من أراض تحيطها أفرع النيل وتفريعاتها الهادرة).

(٤٢) الملك.

(٤٣) فيضان النيل الذى يعود فى ميعاده جالبا على مصر الخصب والحياة.

(٤٤) إن الحدود الشرقية "قد رست رسوا".

(٤٥) اشارة محتملة إلى انشاء شبكة من القلاع هدفها صد الغزوات الاسيوية. وسوف يقيم امنمحات الأول هذه المجموعة("جدران الأمير") على كل حال بعد أكثر من قرن من الزمن. وربما كانت هذه المجموعة تمتد هنا إبتداء من مدينة "حنكو"(عاصمة الإقليم السادس عشر من أقاليم الوجه البحرى – زاوية الميتين –حاليا) وحتى طريق "حورس"وهو الطريق الحربى القديم الذى يخترق غزة ليصعد بمحازاة ساحل البحر المتوسط والذى يبدأمن قلعة "سيلا".

(٤٦) أى الأمير الوراثى شخصياً.

(٤٧) اشارة إلى الإلهية التي سبقت على مايعتقد حكم الفراعنة. ومن ثم يتم التأكيد على قدم هذه الصراعات العسكرية.

(٤٨) لا توجد سجلات ولا حياة اجتماعية لهؤلاء البدو.

(٤٩) عند الحدود الشرقية للدلتا.

(٥٠) منخفضات بحرية تقع عند رأس خليج السويس الحالى وهى من بقايا أزمنة سابقة عندما كان النيل يتصل بالبحر الأحمر عبر إحدى تفريعات النهر.

(٥١) ربما كان اسما من اسماء "منف".

(٥٢) ترمى هذه الجملة إلى تأكيد العلاقات القائمة بين الفيوم والدلتا.

(٥٣) اللجام ؟

(٥٤) يبدو أن خيتى الأول كان قد ألف تعاليم لم تصلنا.

(٥٥) "لاتهمل الله " كانت شعيرة التعبد تعنى رفع الساعدين مع اتجاه الراحتين ناحية الإله.

(٥٦) " مائة سنة " حسب قراءة

G.Posener, Annuaire duColle'ge de France, 1965,Vol 65 P.345.

(٥٧) كناية عن ملك مصر.

(٥٨) تعبير يفسر تواصل الملكية أبا عن جد

(٥٩) يعرف " خيتى " الثالث بأنه ارتكب خطأ

(٦٠) حرفيا: " تستبدل الضربية بمثيلتها "

(٦١) يمكن لاى شكل أن يكون بديلا لشكل آخر تماما كما تحل مياه غيرها ويسكن الله مختلف هذه الاشكال.

(٦٢) اشارة إلى الخلق الأول عندما انبعثت القدرة الإلهيه بفضل ارادتها الخاصة من أمواه الخواء بعد أن ظلت محتجبة حتى الآن في المحيط البدائي.

(٦٣) واجع سفرى العهد القديم من الكتاب المقدس: سفر صموئيل ١٥ :٢٢ وسفر الأمثال ١٥ :١٧ وهى حكمة قديمة شاعت فى فكر الشعوب السامية.

(٦٤) اشارة الى تمرد البشر الاسطورى ضد الإله الخالق " آتوم "

(٦٥) تصور البشر " الشمس " مبحرا(اسم مذكر فى المصرية القديم - المترجم) فى سفينته على صفحة النيل السماوى اثناء النهار وعلى صفحة النيل السفلى تحت الارض اثناء الليل.

(٦٦) كان الاسم محملا بقدرة سحرية(بفضل قوة الكلمة الخلاقة) وهو عنصر هام من عناصر الشخصية اذا عرف المرء اسم أى شخص فمعنى ذلك انه اكتسب سلطانا عليه.

(٦٧) خيتى الأول(وقد برئت ساحته أمام محكمة "أوزيريس")

(٦٨) نص مدون على عدد من البرديات(بردية " ميللينجن " **Millingen** - بردية ساليه رقم ١, **Sallier** وساليه رقم ٢ **Salier11** بالمتحف البريطانى **British Museum** - بردية برلين رقم ٣٠١٩ **Berlin 3019** ولفافة من الجلد(فى متحف اللوفر **Le Louvre**) ولوحات خشبية صغيرة(فى بروكلن **Brooklyn**) والعديد من الأسواكا.

تعبر نبرة " خيبة الأمل " السائدة فى التعاليم عن وجود مصاعب سياسية كان يعانى منها النظام الملكى إبان الاسرة الثانية عشرة منذ بدايتها(حول عام ٢٠٠٠ ق.م) وتعيد بخاصة إلى الاذهان قيام مؤامرة ضد الملك " أمنمحات " الأول بتحريض من المقربين إليه فى حين ان ابنه الذى سيحمل فيما بعد لقب " سنوسرت الأول " لم يكن قد اختير بعد وريثا للعرش(إن احتمال وجود مؤامرة ثانية ضد نفس هذا الملك عندما كان الأمير " سنوسرت " يقاتل فى ليبيا تظهر من قصة " مغامرات سنوهى " وربما لم يخرج الامر عن كونه احتدام التنافس بين أمراء البيت المالك) تقدم التعاليم نصائح واقعيه.

إن النبرة العامة وهى على قدر من التشاؤم هى نبرة رجل كان قد مر لتوه بتجربة شخصية قاسية ويترك العنان لما يضمره من ضغينه ضد خيانة غير عادله إن النصائح التى أورثها "امنمحات " الأول لابنه هدفها اساس أن تعلمه الريبة والحذر حتى يستطيع أن يحافظ على الملك.

النص المصرى:

Wolfgang HELCK , Der text der " Lehre Amenehats 1 Fur seinen Sohn" , Wiesbaden , 1969.

(٦٩) ضفتا نهر النيل – مصر

(٧٠) اشارة محتملة إلى الفراعنة اللاحقين(؟) من نسل الملك(فهم بالتالى على صورته " وجزء " منه)
راجع: **Gardiner , in Melanges Maspero 1 , p 484**

(٧١) اشارة إلى جحود الناس الذين اغدق عليهم الملك من نعمه.

(٧٢) حرفيا " فرح – القلب "

(٧٣) الاغفاءة البطيئة – للانسان المتعب.

(٧٤) بمفردى وتحت التهديد.

(٧٥) حرفيا " سوف اخضوضر ثانية أو سوف التجدد(على غرار النبات) من أجلك " إن الأب يعيش ثانية فى الابن.

(٧٦) كان الامير " سنوسرت " مشاركا فى السلطة خلال السنوات الأخيرة من حكم ابيه

(٧٧) جميع الامور التى لاتخطر على بال كجحود الذين استفادو من نعم الملك

(٧٨) أى أرجاء المملكة المصرية التى كان " امنمحات " الاول قد اخضعها على هذا النحو

(٧٩) قام بالتوسع فى أراضيه بان نقل حدوده إلى الوراء

(٨٠) إله القمح والحصاد.

(٨١) مع حلول كل فيضان. يسهر الملك على رفاهية البلاد المادية

(٨٢) من علامات استرخاء الجسد وراحة القلب والفكر فى بلد يعمه الرخاء.

(٨٣) منطقة فى النوبة تمتد من الجندل على النيل وحتى الجندل الثانى.

(٨٤) الفرق النوبية المساندة التى كانت تخدم فى الشرطة والجيش.

(٨٥) جمل مبهمة وهى الواقع " تكرارا " لنص " مراثى ايبورر" وقد وردت فى سياق غاب عنا معناه.

(٨٦) أى " أيا ابنى المحجوب"

(٨٧) إنه ابنه الإلهى مثله شخصيا.

(٨٨) حرفيا " سوف يدوم طويلا من حيث التاج الابيض "

(٨٩) كان " امنمحات " الاول قد أقام على وجه التحديد شبكة من القلاع على الحدود الشمالية الشرقية للدلتا ربما كانت تشير هذه الجملة إلى " أسوار الأمير" المعروفة.

(٩٠) حرفيا " بصفته رجلا يحب ورجلا ينجز افعالا جسورة "

[خامساً] الاستقبالات الرسمية
للوزير" رخ. مى. رع " [1]
(عام ١٤٧٠ ق.م تقريباً)

التعاليم الملقاة على الوزير " رخ. مى. رع "

بداية يتم إدخال كبار موظفي المجلس إلى قاعة المقابلات الرسمية لفرعون " له الحياة – والصحة– والقوة " ثم يتم إحضار الوزير " رخ. مى. رع " الذي عُين حديثاً (في هذا المنصب).

قال له جلالته : " عليك من الآن فصاعداً أن تسهر على قاعة المقابلات الرسمية للوزير وان تراقب كل ما يحدث بها فتلك هي دعامة البلاد بأسرها. فلاحظ أن شغل منصب وزير ليس بالأمر الهين أو المحبب، بل ينطوى الأمر أحياناً على مرارة كـ " مرارة " العلقم.

انظر ! إن الوزير هو النحاس الذي يحمى ذهب بيت سيده [2] انه لا يخفض وجهه أمام كبار الموظفين والقضاة. ولا يقبل أن يكون كائناً من كان من عملائه. إذا أقام إنسان في صحبة سيده، فعليه أن يبذل مافي وسعه من أجله، ولكن عليه ألا يفعل نفس الشيء من أجل (شخص) آخر.

سوف يحضر أصحاب الشكاوى من الجنوب ومن الشمال، ومن جميع أرجاء البلاد. ... وأنت، سوف تسهر على أن تكون جميع الإجراءات وفقا لما هو القانون، ووفقا أيضاً لحقوقهم، مع كفالة العدالة لكل إنسان. ينبغى أن يكون القاضى صاحب

وجه سافر، فالماء والرياح تنقل كل ما فعل، ولا يجهل أحد أفعاله. إذا وقع خطأ فيما يفعله قاضٍ آخر ولايتم إعلانه من فم قاض التحقيق فلسوف يعرفه الناس من فم (الشخص) الذي يحاكم : وبالفعل فسوف يقول هذا الأخير الذي يقف بجوار هذا القاضى : " ليس في ذلك تعضيد لصوتى " (= أنصاف لى).

لاحظ، أنه عندما يستجيب القاضى لطلب الشاكى، فيتصرف بمقتضى القاعدة، فهذا هو الملاذ الأمين. ومن ثم لن يستطيع من يقدم للمحاكمة أن يقول : " لم ينصفنى أحد ". أمعن النظر في هذه الحكمة التي وردت في "سفر منف " والتي تقول : " الملك وقور، وزيره إذن يراعى القوانين. .. " [تجنب أيضا] ماكان يقال عن الوزير " خيتى" ومفاده انه كان يغبن أقرباءه لصالح الآخرين. .. [٣] وإذا استأنف إنسان (من أقرباء خيتى) حكماً كان الوزير قد فكر في إصداره ضده، ولو تمادى هذا الأخير في رفضه، بدافع المغالاة في العدالة. ... ولكن المحاباة أمر يمقته الإله.

هذا التوجيه هو من أجلك، وعليك الالتزام به. عليك أن تراعى من لاتعرفه كما (تراعى) من تعرفه، من هو قريب منك لأنه من أقربائك كمن هو بعيد عن دارك.

القاضى الذي سيتصرف على هذا النحو سينال الفلاح هنا في منصبه. لاتصرف أى شاك دون أن تحفل بما يقول. وإذا جاء أحدهم يشتكي إليك، فلا ترفض ما يقوله على اعتبار انه سبق قوله. يمكنك أن تصرفه ولكن بعد أن تفهمه لماذا ترده. انظر لقد جرت العادة على القول :" أن الشاكى يفضل أن يلقى خطابه حسن الالتفات عن أن يستجاب لشكواه. لا تغضب على رجل بلا وجه حق. اغضب على الذي يستحقه فحسب. ابعث الرهبة حتى يخشاك الناس. انه قاضى (حق) هذا (القاضى) المرهوب

الجانب. ولكن لاحظ أن كرامة القاضي هي في أن يقيم العدل. إذا كان أحد الرجال مرهوب الجانب "لملايين المرات" (=للغاية)، فسوف يرى الناس انه به بعض الأمور السيئة. ولن يقال عنه أبداً : " هذا رجل" [إذا] تحدث [قاض] زوراً وبهتاناً فسوف يخرج حسب حقيقته (=فسوف يمضي إلى حاله كما يستحق).

انظر سوف تحقق النجاح، في أداء الوظيفة، بإقامة العدل، فما يتطلع إليه المرء، في المقام الأول، هو ضمان العدالة فيما يتخذه الوزير من إجراءات. انه الساهر المدقق على القوانين منذ زمن الإله. (٤) انظر إذن فرئيس كتبة الوزير يسمى، كاتب " الحقيقة - العدالة" هكذا يطلق عليه. أما القاعة التي سوف تخصصها لمقابلاتك، فبها "حجرة فسيحة" معروفة باسم الـ"ماعتين" (مثنى: "ماعت" م.) (٥) حيث ستتخذ قراراتك.

الوزير هو من يحكم بالعدل في حضرة الشعب كله. ولكن لاحظ، أن الإنسان يظل في وظيفته طالما يتصرف وفقاً لما يشار به عليه. كل شئ يسير على ما يرام بالنسبة له، إذا فعل حسبما قيل له. لا تكف في أية لحظة عن إقامة العدل الذي تعرف قوانينه. لا تنضم إلى الإنسان المتعجرف، لان "السيد" الملكي يفضل الخائف على المعتد بنفسه. تصرف إذن بمقتضى التوجيهات التي قدمت لك. انظر، إن ذلك "موضوع أمامك" لكي تحققه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هوامش:

(١) مدونة منحوتة على الجدار الغربي لإحدى قاعات مقبرة "رخ -مي- رع" على البر الغربي بطيبة تضم هذه الفترة العديد من المدونات خلاف خطاب العولية الذي ألقاه تحوتمس الثالث. (١٤٨٠-١٤٥٠ ق.م) يوم أن خلع منصب الوزير على "رخ -مي- رع" (الخطاب المترجم هنا) وقام هذا الأخير بتدوينه على أحد جدران مقبرته. وهذه المدونات هي من ناحية، عبارة عن "سيرة ذاتية" (والنص للأسف مهشم تهشيماً بالغاً). ومن ناحية أخرى، فإنها تقدم صورة مفصلة وتوضح الأساليب الفنية لأعباء منصب الوزير (من قضائية ومالية وعسكرية وإدارية وزراعية).

النص المصرى:

Urkunden, Iv, pp. 1086- 1093

راجع أيضاً النص الذى نشره

R.o FAULKNER in Jpurnal of Egyptian Arcehaeology, 1955,vol. 14, pp 18 sq

(٢) الذهب هو مادة جسد الآلهة ومادة الشمس على نحو خاص ويصور ابن رع.

أما النحاس ذو الإشعاع الأقل حدة فهو مادة النجوم (التي تصور أحيانا على أنها أجساد البشر المبجلين المؤلهين) ويصور الوزير الذى يبدو أنه كان مشاركا فى الوهية سيده منذ زمن حياته.

(٣) إمعانا فى الحيدة- وحتى لا يظهر بمظهر الذى يحابى أقرباءه.

(٤) منذ يوم خلق العالم، وهى جملة شكلية محض.

(٥) " ماعت " هى إلهة الحقيقة- العدالة، وكانت قاعة "الماعتين" تضم جنوب وشمال البلاد.

●●●●●

[سادسا]

الفلاح الذي تعرض للسطو وعرائضه التسع [9]

(شكاوى الفلاح الفصيح)

ذات مرة، كان هناك رجل يدعى " خـو - أن - أنبو "[2] وهو فلاح من " واحة الملح "[3] وكانت زوجته تدعى " مريت " [4] وذات يوم، قال " خو - أن - أنبو " لزوجته : " انظري سوف أنزل إلى مصر لأحضر منها طعاما لأولادي. هيا إذن كيلي لى هذا الشعير الذي لا يزال في مخزن الغلال، وما يتبقى. .. فكيلت ثمانية مكاييل من الشعير عندئذ قال الفلاح لزوجته : " سأترك لك مكيالين لطعامك أنت والأولاد واعدى لى بالستة الأخرى خبزا وجعة (لوجباتي) اليومية. . ".

هبط "خو - أن - أنبو " إذن إلى مصر، بعد أن حمل حميره بوصاً ونبات " ردميت " ونطرونا وملحا وخشبا، وعلى نحو خاص خشب " عانوت " من واحة الفرافرة، وجلود الفهود، وفراء الذئاب، ونبات " نيشا " وحجر " عانو " ونبات " تينم " ونبات " خبرور ". .. " ساهوت " وحبوب" ساكسوت " ونبات " ميسوت " وحجر "سنت "وحجر " عبا " ونبات " إبسا " ونبات " إينبى " وحماما وعصافير " تعرو " وعصافير " أ وجس " ونبات " أوبن " ونبات " تيبس " وحبوب " جنجنت " و " شعر - الأرض " وحبوب " اينست " ومجموعة مما لذ وطاب، من منتجات واحة الملح[5]

مغامرة الفلاح

هبط " حو - أن - أنبو " النهر متجهاً إلى " هيراقليوبوليس " [٦] وعندما وصل إلى منطقة " برففى " إلى الشمال من "مدنى " [٧] التقى برجل كان يقف عند الشاطئ وكان يدعى " جحوتى نخت " [٨] وهو ابن ل " إنسي "، وخادم رئيس الحجاب " رنسى " بن " ميرو ".

وعندما رأى " جحوتى - نخت " حمير الفلاح (وهو مشهد) أمتع قلبه، خطر على باله : " آه ! لو كان عندى صورة لها قدرة (سحرية) فاعلة، لاستطعت بفضلها أن أسرق ممتلكات هذا الفلاح ! " غير أن منزل " جحوتى - نخت " كان قائما على الطريق المحاذى للشاطئ كان هذا الطريق ضيقاً، ولا يزيد عرضه على قطعة قماش إضافة إلى ذلك كان أحد جانبيه مغمورا بالماء والآخر مغطى بالشعير. عندئذ قال " جحوتى - نخت " لخادمه : " انصرف واحضر لى من المنزل قطعة من نسيج الكتان " فجاءوا بها له على الفور وفرشها على الطريق بحيث تصل حاشيتها إلى الماء وأهدابها إلى الشعير.

على أن الفلاح كان قادما على الطريق الذي يخص الجميع. عندئذ قال له " جحوتى - نخت " : توقف [٩] أيها الفلاح ! هل ستدوس على ثيابى ؟ قال الفلاح: " سوف افعل ما تريد، ولكن طريقى هو (الطريق) " الصحيح وصعد إلى أعلى الجسر (الذي يحجز مياه الفيضان) عندئذ (قال) جحوتى - نخت " : " هل سيصبح الأن شعيرى طريقا لك أيها الفلاح ؟ " فيقول هذا الأخير : " طريقى هو (الطريق) الصحيح. ولكن حيث أن الجسر مرتفع والطريق مغطى بالشعير وأنت تشغل أيضاً

الطريق بملابسك ألا يمكنك أن تسمح لنا بالمرور على هـذا الطريـق ؟ " وبينتمـا كـان ينتهي من النطق بهذه الكلمات ملأ أحد الحمير فمـه بحزمـة مـن الشـعير، عندئـذ قـال جحوتي - نخت " : انتبه أيها الفلاح سوف استولى على حمارك لأنه يـأكل شـعيرى، فيشارك من الآن في أعمال الحـرث [١٠] لأنـه يبـدو قويـا ". (وقـال) الفـلاح : "طريقى هو (الطريق) الصحيح. وبكل بساطة، أن (المياه) قد ضيقـت أحـد جانبيـه وسقت حمارى على الجزء الذي تشعله (ثيابك). فهل تستولى على حمارى لأنه مـلأ فمه بحزمة شعير ! ولكننى اعـرف سيد هـذه الأمـلاك فهـي ملـك رئيـس الحجـاب " رنسى" بن " ميرو " فهو الذي (ذاعت شهرته) بأنه يعاقب كل لص في هـذه البـلاد! فهل يتفق أن أسرق فوق أرضه ؟ " حينئذ قال" جحونى - نخت " أليست هذه حكمة (من الحكم) الجارية على ألسنة الناس ؟ : " يمكن النطق باسم الرجل الفقير في حضرة سيده " ولكنني أنا الذي أتحدث إليك في هذا المقام، وأنـت تذكـر رئيـس الحجـاب ". وتناول غصنا من شجرة إثل نضرة وضربـه بـه علـى جميـع (أجـزاء) جسده وسـلب حميره التي ادخلها القوم إلى أملاكه.

عندئذ بكى الفلاح بكاء حارا، نظرا لمـا تعـرض لـه مـن معانـاة. وقـال " جحوتـي - نخت": " لاتصيح هكذا، أيها الفلاح، لأنك قريب مـن مقـر " سيد الصمـت " [١١]. (قال) الفلاح : " واعجبا، أتضربني، وتسرق ممتلكاتى وتريد أيضا أن تخرس الشـكوى في فمى أيا " سيد الصمت " رد لى ما امتلكه حتى أتوقف عن الصـراخ، فاسبب لـك الفزع ! ".

طوال عشرة أيام، ظل الفلاح هنا يتوسل إلى " جحوتي - نخت ". ولكن هذا لم يعر توسلاته مجرد إذن.

عندئذ هبط الفلاح إلى الجنوب حتى(وصل) " هيراقليوبوليس " ليلتقى برئيس الحجاب " رنسي " بن " ميرو " فصادفه وهو يغادر باب منزله ويتأهب للنزول إلى سفينته[١٢] الرسمية فقال الفلاح : " واه ! ليتنى أسعد قلبك بشان هذه المشكلة (التي حدثت لى). أنها لفرصة، لتأمر بان يحضر إلى رجلك الموثوق فيه [١٣] وسوف أبعثه إليك فيما بعد، (مزودا بمعلومات) عن قضيتى. وسمح رئيس الديوان " رنسى " بن " ميرو " أن يحضر رجله الموثوق فيه لدى " خو - أن - انبو " فصرف هذا الأخير في أعقاب خطاب كامل وشامل.

وأستفسر رئيس الحجاب " رنسى " بن " ميرو " عن " جحوتي - نخت " عند الأعيان الذين في معيته. " فقالوا له : يا سيدى"، لاشك انه واحد من هؤلاء الفلاحين الذي ذهب (ليسلم بضاعته) إلى آخر، من جيرانه. لاحظ فهذا ما يفعلونه ضد فلاحيهم من مرتكبى هذه الجريمة. [١٤] أهي واقعة جديرة بان تقضى إلى عقاب " جحوتي - نخت " هذا، بسبب القليل من النطرون والقليل من الملح ؟ فليؤمر بكل بساطة بان يقدم تعويضاً وسوف يمتثل [١٥] " والتزم رئيس الحجاب " رنسى " بن " ميرو " الصمت، و لم يرد على أعيانه وعلى الفلاح، على حد سواء.

الشكاوى التسع

عندئذ تقدم الفلاح ليستعطف رئيس الحجاب " رنسى" بن "ميرو" وقال :" أيا رئيس الحجاب، ياسيدى يا أعظم العظماء يا مرشد ما هو غير موجود وما هو

موجود. إذا نزلت إلى بحيرة العدالة : من المؤكد انـك ستبحـر فيهـا مـر ريـح مواتيـة. ولن يقتلع شراعك، ولن تتقدم سفينتك ببطء، ولن يصيب ساريتك ضرر، ولن تنكسر عوارض السوارى ... ولن تجرفك المياه، ولـن تعـانى مـن مشـاق النهـر، ولـن تشـاهد وجوها مرعوبة [١٦] بيد أن الأسماك ستتجه إليك وقد فزعت بسرعة، وسوف تصطـاد الطيور السمينة، لأنك أب لليتيم، وزوج للأرملة، وأخ للمطلقة، ومئزر لمـن فقـد أمـه. ليتك تسمح لى، أن أجعل لك في هذه البلاد شهرة تفوق تلك، التي يعرفهـا كـل قـانون مفيد، أيها المرشد الخالى من كل حسد، الرجل العظيم المجرد من الشراسة الذي يقضي على الكذب ويوقظ الحقيقة. تعال على صوت من يتحدث إليك، وأجهز على نعم أنى أتكلم لكى تسمع. أقم العدالـة، أيهـا الرجـل الممـدوح الـذي يمتدحـه الذيـن يمدحون، اطرد ضيقى. لاحظ، إنني ارزح تحت وطأة حزنى لقد وهنت بسببه. أعرني انتباهك، فإنني، كما ترى، أعاني الفاقة ".

ألقي الفلاح خطابه هذا فى زمن جلالة ملك الوجهين القبلى والبحرى " نـب - كـاو - رع " [١٧] صادق - القول ومثل رئيس الحجاب " رنسى " بن " ميرو " بين يـدى جلالته وقال " أيا سيدى لقد التقيت بأحد هؤلاء الفلاحين، وهـو يتحـدث في حقيقـة الأمر بطلاوة، وقد سـلبت ممتلكاتـه مـن جـانب رجـل يعمـل في خدمتـى [١٨] وجـاء ليتقدم بشكواه بشأن هذه القضية " وقال جلالته : " كما أنك لا تنفك تتمنى أن ترانى مزدهرا (كذلك) استبقيه هنا دون أن ترد على مـا يقولـه [١٩] فـالزم الصمـت حتـى يستمر في حديثه، وبحيث يكون في الإمكان إبلاغنا [٢٠] نحن بخطاباتـه كتابـة فنسـتمع إليها، ومع ذلك أمن سبل العيش لزوجته وأولاده، ولهذا الفلاح شـخصياً، لأنـه عندمـا يشد أحد هؤلاء الفلاحين الرحال، فما ذلك إلا لان منزله خاو حتى الأرض.

وسوف تعمل على أن يقدم له الطعام، دون أن يعرف انك أنت الذي تقدمه لـه. ومن ثم كان يسلم يوميا لـ " خو - أن - انبـو " عشـرة أرغفـة وإبريقـان مـن الجعـة. فكان رئيس الحجاب " رنسى " بن " ميرو " يعطيها إلى أحد أصدقائـه، وهـذا الأخـير يسلمها ل " خو - أن - انبو ". ثم أوفد (رسولاً) إلى حاكم " واحة الملح " ليمنـع حصصاً غذائية لزوجة الفلاح أى : ثلاثة مكاييل شعير يوميا.

* عندئـذ جـاء الفـلاح يستعطف رئيـس الحجـاب للمـرة الثانيـة وقـال " أيـا رئيـس الحجاب، يا سيدى يا أعظـم العظمـاء، يـا أغنـى الأغنيـاء، الـذي هـو أعظـم مـن العظماء المحيطين به، [٢١] الذي هو أغنى الأغنياء المحيطين به، يا سكان (سـفينة) السماء يا وتد الأرض أيها المطمار، أيها الثقل أيها السكان لا تغـير اتجـاهك،أيهـا الوتد لا تميل، أيها المطمار لا تجنـح إلى عـدم الدقـة وهـل يسـتطيع سـيد عظيـم أن يستولى علـى كـل شـيء لا يملكـه، أو أن يسـطو علـى شـخص وحيـد ؟ ولكـن الممتلكات التي تخصك موجودة في دارك، إبريق جعة وثلاثة أرغفة، انظر يمكنك أن تحصل عليها بسهوله ليشبع من هم تحت وصايتك. وسوف يموت مخلوق في نفس الوقت الذي يموت فيه من يتبعونه، فهل ستكون مخلد إذن ؟

أليس من الأمـور السـيئة أن يميـل الميزان، وإن تنحـرف وزنـة الرصـاص، وان يصبح الرجل الدقيق العادل شخصا مشوشا ؟ انظر، أن الحقيقة والعدالة قـد طردتـا (؟) من مكانها في ظلك. والشخصيات البارزة ترتكـب الإثـم، واسـتقامة القـول طرحت جانباً، والقضاة يسرقون، ومن كان عليه أن يمسـك مـن يخـادع، يرتكـب المخالفات التي من واجبه الوقوف ضدها. من كان عليه أن يمنح النسمة هـو ذاتـه

محروم منها. ومن كان عليه أن ينعش يجعل القوم يلهثون. ومن كان عليه أن يقسم قسمة (عادلة) هو لص، ومن كان عليه أن يطرد الحاجة، هو الذي يتسبب في وجودها والمدينة (محاصرة) بأمواجها. ومن كان عليه أن يطرد الأفعال السيئة هو الذي يرتكب الشر ".

عندئذ قال رئيس الحجاب " رنسى " بن "ميرو" : " هل ما يجثم على قلبك هو بالنسبة لك أهم من (المجازفة) بان يمسك بك أحد خدامى ؟ ".

وأردف الفلاح : " إن من يكيل أكوام الحبوب يغش لصالحه. ومن يملأ (مخزن غلال) الغير لا يكيل بالقسطاس أملاك هذا الأخير. من كان عليه أن يشرف على (تطبيق) القوانين يأمر بالسرقة. من إذن سيعاقب الأعمال الناشئة أن كان الذي عليه أن يدرأ الظلم يرتكب هو ذاته المخالفات ؟ فأحدهم وهو عادل، عليه أن ينحنى على الدوام، والآخر يبارك الشر.

ما عساك (تقول) بشأنك؟ العقاب لا يدوم سوى لحظة، ولكن الشر يدوم طويلا، فما يكون عليه (الرجل) من حال، يعود (دائماً) إلى ما كان عليه بالأمس[٢٢]. إليك هذه الحكمة : اعمل حيال من عليه أن يعمل، بحيث يعمل (عملا طيباً). إنه (مثلاً) التضرع إلى الإله لصالحه بسبب ما يفعل، وهو أيضاً (معرفة) تفادى ضربة قبل أن تنطلق، وكذلك إصدار أمر إلى من عليه أن يؤمن تنفيذه[٢٣]. وآه! (فلتحل) لحظة خراب، تقلب كرمتك، وتنقص من (إعداد) طيورك، وتقلل من صيد الماء. لان الإنسان الذي كان يبصر صار كفيفاً، والذي كان يسمع صار الأن أصماً، والمرشد بات الأن هو الذي يضللنا. .. انك رجل

قوى وشديد البأس، ساعدك متفوق ولكن قلبك طماع. وتمر الرحمة من فوقك. وكم يستحق الرثاء ذلك الشخص المسكين الذي تدمره ! انك أشبه بمبعوث الإله - التمساح، بل انك تتفوق على "سيدة الطاعون" (٢٤) إذا كان لا يوجد شئ من أجلك، فلا يوجد أيضا شئ من اجلها. إذا لم يكن هناك شئ (ضدها، فلن يكون هناك أيضا شئ ضدك، وعندما لا تفعل شيئا فهي لا تفعله.

من عنده ممتلكات، عليه أن يكون حليماً. السرقة أمر طبيعي بالنسبة لمن لا يملك شيئا و(أيضاً) سلب الممتلكات بالنسبة لسجين. وهو أمر يستوجب العقاب لمن لا ينقصه شئ ولكن لا ينبغى أن نأخذ الفقير على ذلك، فهو يبحث (فحسب) عما يسد به رمقه. انك تستطيع أن تشبع بخبزك وتستطيع أن تثمل بجعتك، فأنت ثرى. ..

ولكن عندما يولى المتحكم في الدقة وجهه شطر المقدمة، تسير السفينة على غير هدى كما يحلو لها. وعندما يتواجد الملك في جناحه الخاص ويكون السكان في يدك يستتز الشر في محيطك. الشكوى يطول بها الزمن " وعزق " (الشر) أمر شاق.

ويتساءل الناس. ولكن من هو إذن الذي يوجد هناك ؟(٢٥) كن إذن مأوى وليكن شاطئك سالما، لان المدينة محاطة الأن بالتماسيح. وليكن لسانك صارما، ولا تضل فقد يكون جزء من جسد الإنسان ثعبانا له (٢٦) لا تتفوه بالكذب.

تجنب الأعيان وربما يتحول القضاة (أحيانا إلى مجرد) سلة فواكه. لان قول الكذب مرعاهم. ولذلك فهو (أى المرعى) خفيف على قلوبهم.

أنت العالم من أجل جميع البشر، هل تظل تتجاهل قضيتي ؟ أنت الذي يقضي على أى نقص في الماء، انتبه، إنى اقف اسفل الطريق، شاكيا. أنت الذي يسمح لجميع من يغرقون أن ينزلوا إلى الشاطئ، أنت يا منقذ الطريق، أغثني (؟) قدر إمكانك (٢٧)

* وجاء الفلاح أيضا ليتوسل إلى رئيس الحجاب للمرة الثالثة قائلا : "أيا رئيس الحجاب ياسيدى، أنت "رع" "سيد السماء" في صحبة المحيطين بك (٢٨) أنت قوت البشر أجمعين، أنت المياه الهاردة، أنت إله النيل الذي يعيد الاخضرار إلى المروج ويخصب الحقول المحروث، (٢٩)

عاقب اللص، ساعد الرجل المسكين، لا تصبح الموجة (التي تقف) في وجه من يتوسل. أحذر حقيقة أن الأبدية تقترب. ولتكن أمنيتك أن تحيا طويلاً عملاً بهذه الحكمة : "إقامة العدالة هي نسمة فتحة الأنف". عاقب من يستحق العقاب، فلن يستطيع أحد أن يتفوق على استقامتك. هل يخدعنا ميزان اليد ؟ وهل يميل الميزان إلى جنب ؟ و"تحوت" أهو لين الجانب ؟ (وإذا كان الأمر على هذا النحو) عندئذ ستتمكن من اقتراف الشر وتستقر كرفيق "لهؤلاء الثلاثة". فلو كان هؤلاء الآخرون بحاملين في نظرك، فلتكن أنت أيضا كذلك. لا تقابل الخير بالشر، لا تضع شيئا مكان شئ آخر. ولكن خطابى ينمو أكثر من نبات "سميت" (٣٠) [مقطع غامض جدا]

وإذا أدرت السكان حسب الشراع، عندئذ ستسحبك الأمواه صوب تحقيق العدالة. ولكن تجنب القيام بعبور معاكس لك، بسبب حبل السكان. أن توازن

البلاد قائم على تحقيق العدالة، لا تتفوه بالكذب لأنك شخص له شأنه. لا تكن خفيفا، لأنك إنسان ثقيل (في مسلكه). كلا، لا تتفوه بالكذب، لان عليك أن تكون ميزانا. ولاتكن مشوشا، لان عليك أن تلتزم بالاستقامة.

انتبه، ليس عليك في الحقيقة أن تكون سوى شئ واحد أنت والميزان. إذا مال، ستميل أنت. لا تنجرف على غير هدى عندما تدير السكان. فاجذب الحبل. لا تأخذ شيئا عندما تعمل ضد الذي أخذ. ليس عظيماً بالطبع هذا العظيم صاحب القلب الشره. على لسانك أن يكون ثقالة(الميزان)، وقلبك هو وزنته، وشفتاك هما ذراعاه. إذا أشحت بوجهك عن الرجل العنيف، فمن إذن سيعاقب الشر ؟

انظر، أنت أشبه بالبائس، بعسال ذى قلب جشع، الذي يضر صديقاً ويتخلى عن القريب من أجل زبون، لان شقيقه هو الذي "يشى" له.

انظر، أنت أشبه بالمعدي الذي يسمح فقط بعبور من معه الأجر - أنت عادل (تمزق مفهومه عن) العدالة، أرباً أرباً.

انظر، أنت أشبه بمدير متجر(٣١) لا يسمح للمعوز أن يمر بسهولة(٣٢).

انظر، أنت صقر للشعب، (صقر) يحيا على أضعف الطيور.

انظر، أنت طاه،(يجد) سعادته في ذبح (الحيوانات)، دون أن يحاسب على التمثيل بها.

انظر، أنت أشبه بالراعى.. أنت لم تحص (قطيعك) وسوف تتكبد (بعض) الخسائر بسبب التمساح الشره، حيث أن (شتى) الملاذات قد اختفت من (كل) مدينة في جميع أرجاء البلاد.

أيها السامع، أنت لا تسمع. لماذا إذن لا تسمع؟ لقد وقفت اليوم ضد رجل عدوانى، ولكن (هذا) التمساح قد انسحب [٣٣] وأى نجاح يعود عليك من ذلك؟ اجل سوف تكتشف سر الحقيقة، وإذا أجهزنا على الكذب، فلسوف نعرض عنه. لاتسعى في تدبير شئون الغد قبل أن يأتى، إذ لا تعرف مابه من شر".

كان الفلاح يلقى هذا الخطاب على رئيس الحجاب "رنسى" بن "ميرو" عند مدخل قاعة الاجتماعات. فأمر هذا الأخير اثنين من الحراس بالنهوض حاملين سوطين وأوسعاه ضربا على كل جسده. وقال "خو- أن - انبو" : " ما فتئ بن "ميرو" في ضلال. (لازال) وجهه يتعامى عما يرى، وأصم لما يسمع، (بل) نساه لما نذكره به.

انظر، انك أشبه بمدينة بلا حاكم، أشبه بفرقة بلا قائد، أشبه بسفينة بلا ربان، أشبه بجماعة من الناس بلا مرشد.

انظر، انك أشبه بشرطي يسرق، بحاكم يسلب، بمدير منطقة إدارية عليه أن يعاقب أعمال السلب، وسار نموذجا لمن يعمل (الشر) ".

* وجاء الفلاح أيضاً ليتوسل إلى رئيس الحجاب للمرة الرابعة.

والتقى به في هذه المرة بينما كان يهم بالخروج من باب معبد "حريشف" (٣٤)
وقال:" أيها الرجل الطيب الذكر، ليت "حريشف" يثني عليك أيضاً، بينما أنت
قادم من معبده ! الخير مغبون الآن ولا يستطيع أحد أن يدعى انه قد طرح الكذب
أرضاً على ظهره.

وكيف سنستطيع العبور إذا كانت المعدية قد عادت ؟ بيد أن العبور لابد وان
يتم ولو على مضض. وهل يكون عبور النهر وراء نعاله، عبوراً سعيداً ؟ لا من ذا
ينام الأن حتى مطلع النهار ؟ (بل انه) لم يعد من الممكن أن يسير المرء ليلاً، أو
يتجول أثناء النهار أو يسمح للمرء بأن ينهض (مدافعاً) عن قضية عادلة، بالحق.

انظر، إن الافصاح لك عن كل هذا يظل بلا جدوى وتمر الرحمة من فوقك. وما
أكثر الرثاء الذي يستحقه الرجل المسكين الذي حطمته !

انظر، انك أشبه بالصياد الذي يلهو ويهتم على الدوام بان يفعل ما يحبه : طعن
أفراس النهر بالخطاف، تسديد السهام إلى الثيران الوحشية، وإصابة الأسماك
واصطياد العصافير بالشباك.

لا يوجد إنسان مندفع في كلامه يكون معصوماً من التهور، ولا يوجد إنسان
خفيف القلب لا يكون أسلوب وجوده الجسدى ثقيلا. فليكن قلبك رحيماً إذن،
وتعلم كيف تعرف الحقيقة. امح. ..[فجوة] لا يوجد إنسان عنيف يمكنه أن يبلغ
الكمال. ولا يوجد إنسان مندفع القلب تطلب مساعدته. ولكن عندما تبصر
العينان، يسعد القلب. لا تكن فظاً بقدر ما تكون شديد البأس، حتى لا تصيبك
التعاسة شخصياً ذات يوم. تغاضى عن مشكلة، وسوف تصبح اثنتين. (٣٥) أن

الذي يأكل هو الذي يتذوق، والذي يوجه إليه الكلام هو الذي يجيب، والنائم هو الذي يرى في منامه الأحلام. أما القاضى الذي يستحق العقاب، فهو مثال للذى يتصرف (تصرفا شريرا).

انظر، أيها الأرعن، فقد أصبت. انتبه أيها الجاهل فقد استجوبت. أنت، يا من يفرغ الماء، انتبه، فقد نجحوا في الوصول على مقربة منك [٣٦]. أيها النوتى لا تترك سفينتك تنحرف مع التيار أيا موزع الحياة، لا تسمح بان نموت. أيا مخرب، لا تتصرف بحيث يحل بنا الخراب. أيها الظل، لا تتصرف كالشمس. أيها المأوى لا تسمح للتمساح أن يقبض (على فريسته).

تلك هي المرة الرابعة التي أتوسل إليك. فهل أقضي أيامي في ذلك ؟

* وجاء الفلاح مرة أخرى ليتوسل إلى رئيس الحجاب للمرة الخامسة قائلا: "أيا رئيس الحجاب، ياسيدى الصياد" خودو". ... [فجوة] الصياد. .."يو" يجهز على السمكة "إى" والصياد حامل الحربة الثلاثية يطعن الأسماك "عاويب" في لمح البصر"، والصياد "جابحو" [يعمل] ضد الأسماك "أكر". أما صياد الشباك فإنه يعكر النهر.

انظر، انك تفعل نفس الشيء.

لا تجرد فقيرا من (القليل) الذي يملكه، لا تجرده بأكثر مما جردت إنسانا ضعيفا أنت تعرفه. [٣٧] لان ممتلكات البائس هي نسمة (الحياة) بالنسبة له، ومن يسلبها منه كمن سد انفه.

لقد وظفت لكى تستمتع إلى الخطابـات، والفصـل بـين شـخصين، ولإبعـاد قـاطع الطريق، ولكن انظر، أن ما تفعله هو تقديم العون للسـارق. والنـاس قلبهـم مفعـم بك (=يثقون فيك)، في حين انك أصبحت مجرما. كما انك وظفـت لتكـون سـداً للبائس فإياك أن يغرق فأنت بالنسبة له في واقع الأمر سطح مائي شديد (التيار).

* وجاء الفلاح أيضا ليتوسل إلى رئيس الحجاب، للمـرة السادسـة قـائلا "أيـا رئيـس الحجاب، ياسيدى. ..[مقطع غامض] استدع إلى الوجود الحقيقة والعدالة، اعمل على ظهور الخير، اقض على الشر مثلما يحل الشبع عندما يـزول الجـوع، أو تضـع الثياب حداً للعرى، مثلما تهدأ السماء بعد عاصفة هوجاء، وتمنع الدفـء إلى جميـع من كانوا يشعرون بالبرد، ومثل اللهب أيضاً الذي ينضـج النبـات الطـازج، ومثـل الماء أيضا الذي يروى العطش.

انظر بعينيك ذاتها : من كان من المنتظر أن يتولى القسمة (بالعدل) هـو لـص ومـن كان من المنتظر أن يمنع السلام هو الذي يثير الاضطراب. ومن كان من المنتظر أن يخفف (من المشاكل) هو الذي يجلـب الألم. أجـل، أن الغشـاش ينتقـض مـن قـدر العدالة. املأ بالقسطاس المستقيم، بحيث لا تكون الحقيقة والعدالـة غـير كـافيتين، ولكن بحيث لا تطفحان أيضاً، وإذا أعطيت فأعط الغير. لان الفكـين يفتقـران إلى الإحساس بالعدالة (٣٨). أجل، قـد يقـود حزنـي إلى الفـراق، (٣٩) فربـان السـفينة (أيضا) يصدر إليه (الأمر) بالإبحار. يستحيل معرفة مافي القلب. لاتكن إذن بطيئاً إلى هذا الحد، تصرف إذن بشان ما سردته لك. وإذا قطعت فمن الـذي يوصـل ؟ العود الاعقف بين يديك أشبه بعصى طويل يفتح الطريق، عندمـا يحتـاج الأمـر إلى

(سبر غور) الماء. وإذا حاولت السفينة دخول الميناء بينمـا يجرفهـا التيـار، فسـوف تضيع حمولتها على البلاد، فوق الشطان [٤٠].

أنت متعلم، أنت ماهر، أنت كفء، وأنت غير شـره بـالطبع . ومـع ذلـك، فـإنك تتصرف على الدوام، على غـرار جميع النـاس، وشئونك مضطربـة. أن (الأكـثر) مخادعة في البلاد بأسرها (يبدو) مستقيماً. وبستانى التعاسة يـروى روضتـه أفعـالاً رديه، محولا إياها إلى روضة أكاذيب ليروى شرور رعاياه.

وجاء الفلاح أيضا ليتوسل إلى رئيس الحجاب للمرة السـابعة قـائلاً : " أيـا رئيـس الحجاب، ياسيدى، أنت دفة البلاد بأسرها، فتبحر البلاد حسب ما تأمر به. انـك رفيق "تحوت" الذي يصدر أحكامه دون أن يميل إلى أحد الجانبين. أيا سيدى كـن رؤوفاً عندما يناشدك أحد الرجال أن تقف إلى جانب قضيته العادلـة. ليـت قلبـك لا يقف موقفاً عدائيا، فالأمر لا يليق بك. الإنسان صـاحب الوجـه العريـض هـو أيضا إنسان ضيق القلب (= ذلك الذي يتطلع إلى ما وراء الحـاضر يصبـح قلقـا). لا تشغل بالك بما لم يحدث بعد. ولا تفرح بالمثل بما لم يحدث بعد. الرأفة تسـعدنا كالصداقة، ولا تأخذ الماضى بعين الاعتبار، ولكن لا يعـرف المرء بمـا في القلـب. من يكسر القانون ومن يخل بالقاعدة، لا يوجد معوز قـام هـو بسـرقته وأمكنـه أن يظل على قيد الحياة. والعدالة على ما يظن لن تتمكن من محاسبته!

كان جسدى ملاناً وكان قلبى ثقيلاً، فخرج ذلك مـن جسـدى بسـبب مـا كنـت عليه من أحوال. كان الأمر(أشبه) بثغرة في سد تسربت منهـا الميـاه، فـانفتح فمـى

لأتكلم، عندئذ، حركت العود الاعقف، أفرغت مائى وصرفت كل ما كان في جسدى، وغسلت ثيابى القذرة.

لقد توقفت الأن عن الكلام، لان بؤسي بأكمله، أمام وجهك. ماذا تحتاج أكثر من ذلك ؟ إن خمولك يضلك، وطموحك يفقدك الرشد، وشراهتك تخلق لك الأعداء.

ولكن هل في إمكانك أن تجد فلاحا يكون مساوياً لي ؟ وهل وجد (آخر غيري) (جاء) إليك متوسلا بعد أن ترك عمله [٤١] ليقف عند باب منزلك ؟ (لا)، لايوجد إنسان صامت دفعته إلى الكلام، لايوجد إنسان نائم ايقظته أنت، ولاإنسان اخرق جعلته فطنا، لايوجد إنسان اخرس فتحت فمه، ولاجاهل سمحت له ان يصبح عالماً، ولاأحمق علمته. .. ومع ذلك فالاعيان عليهم طرد الشر واستحواذ الخير، وعليهم ان يكونوا فنانين يبعثون إلى الوجود كل ماهو كائن، ويربطون الرؤوس المقطوعة [٤٢]

* عندئذ جاء هذا الفلاح جاء هذا الفلاح ليتوسل إلى رئيس الحجاب للمرة الثامنة قائلا :"أيا رئيس الحجاب، يا سيدي، يمكن للمرء أن يسقط بعيدا بسبب الشراهه، لان الإنسان الطماع يفتقر إلى أفعال (سعيدة)، فالفشل هو فعله الوحيد، بيد أن قلبك طماع وهذا لا يليق بك. انك تسرق، وهذا لا يفيدك في شيء، أنت الذي من واجبك (على العكس) أن تسمح للرجل أن ينهض للدفاع عن قضيته العادلة والمشروعة. إن ما تحتاج إليه موجود في منزلك، وبطنك ممتلئة، ومكيال الحبوب يفيض، وإذا اهتز (؟) يتم جمع ما تبعثر منه على الأرض.

الأعيان سلابون ولصوص ونهابون، وهم الذيـن أنيـط بهـم (في الحقيقـة) درأ الشر، الأعيان ملاذ الرجال العدواني وهم الذين أنيط بهم درأ الكـذب. والخـوف الذي تبعثه في النفس كان قميناً بالأ يسمح لي بأن أتوسل إليك (على هذا النحـو)، ولكنك لا تعـرف قلـبي، الصـامت عـادة، ولكنـه الآن يتجه (إليـك) ليقـدم إليـك شكواه. انه لا يخشى ذلك الذي في إمكانـه أن يـؤول الأمـر تـأويلا خاطئـاً، ومـن المؤكد انه يستحيل إحضار أخيه إليك (٤٣)

لك أراض في الريف، وعندك المخصصات (العقارية) في الأملاك الملكيـة (٤٤) وطعامك في المتجر، والأعيان يعطونك، ومع ذلك فإنك تأخذ المزيد ! ترى أتكون لصا ؟ ويقدم الناس لك المزيد، عندما تكون وسط جنودك عند تقسيم الأراضي.

أقم العدل إذن من أجل سيد العدالة الـذي يقيـم عدالتـه الخاصـة. انـك أنـت القلم، وقرطاس البردي ولوحة (الكتابـة)، أنـت "تحـوت" فتجنـب اقـتراف الشـر. الخير طيب عندما يكون سعيداً، العدالة تدوم إلى الأبد. إنها تهبط آلي الجبانـة مـع من يقيمها.

عندما يدفن، تتحد الأرض معـه، ولكـن لـن يمحـى اسمـه مـن علـى وجـه الأرض، سوف تدوم ذكراه بسبب (ما قدمه) من خير : تلك هي القـاعدة الخاصـة بكـلام الإله. وإذا كان هذا ميزان يد فلن يميل. وإذا كان ميزانا بركيزة فإنه لـن يميـل إلى أحد الجوانب.

وسواء جئت أنا أو غيري، انقذه بـالرد، باسـتجواب ذلـك الـذي يلـتزم الصمـت، بالاقتراب من ذلك الذي لا (يجرؤ) على الاقتراب. أنت لست رءوفا، ولكنـك لا

(تبدو) متضايقاً. أنت لا تدمر، ولكنك لا تقدم لي أي عوض على هذا الخطاب الجميل الذي (يبدو) خارجا من فم "رع" ذاته، انطق العدالة، أقم العدالة، لأنها هامة، لأنها عظيمة، لأنها تدوم، وعندما يتعرف المرء على هيئتها فإنها تسمح بالانتقال إلى وضع "إيماخو".

إذا مال ميزان اليد نظراً لأن الكفتين محملتين بالأشياء فلن تكون هناك نتيجة سليمة.(كذلك) لا تستطيع فعلة خسيسة أن تقود إلى الميناء، في حين يصل الإنسان الحكيم إلى اليابسة".

* ثم جاء هذا الفلاح أيضاً ليتوسل إلى رئيس الحجاب للمرة التاسعة قائلا : "أيا رئيس الحجاب، يا سيدي، أن ميزان الرجل هو لسانه، والميزان هو الذي يسعى وراء ما تأخر من جزاء (=الذي ما زال مستحقا). فلتوقع الجزاء على من يستحقه، ولن يكون أحد أكثر منك مماثلا للاستقامة.] ..فجوة]. ..وإذا شد الكذب الرحال، فسيضل الطريق، ولن يعبر على متن المعدية. ..أما من يثرى بفضله، فلن يرق بنوناً، ولا ورثة على الأرض. ومن يبحر معه لن يصل إلى اليابسة، ألن ترسو سفينة في مينائه.

لا تكون ثقيلا، فأنت لست خفيفا. ولا تكون بطيئاً، فأنت سريعا. لا تسلكن سلوكا منحازا، لا تستمتع إلى قلبك. لا تخف وجهك، ممن يعرفك، لا تشح بوجهك عمن وقع نظرك عليه. لا ترد من يتوسل إليك. اعدل عن هذا التباطؤ في

إصدار حكمك، اعمل لصالح من يعمل لصالحك. لا تستمع إلى جميع الناس عندما يستغيث رجل (دفاعا) عن قضية العدالة.

لا وجود للبارحة بالنسبة لإنسان لا عمل له ولا صديق للإنسان الذي يصم اذنيه عن العدالة، ولا أيام سعيدة هناك للإنسان الشره. من يندد (يعمل سيئ) يصبح بائسا، وبائس من فرض عليه التوسل. عندئذ يصبح العدو قاتلا.

انظر، إني أتوسل إليك وأنت لا تستمع إلى. وسوف انصرف إذن لرفع التماس إلى آله "انبو")انوبيس) [٤٥]

عندئذ أرسل رئيس الحجاب "رنسى" بن "ميرو" اثنين من الحرس ليطلبا منه أن يعود. وخاف الفلاح. إذ ظن أن ذلك يعني معاقبته بسبب ما ألقاه من خطب . وقال "إن يقترب رجل ظمآن من الماء. أن يمد الرضيع فمه، هو (أشبه) برؤية الموت، لمن يرغب أن يراه انه لم يأت بعد، بكل تأكيد، ولكن سيأتي أن عاجلا أو آجلا..

عندئذ قال رئيس الحجاب "رنسى" بن "ميرو" لا تخف أيها الفلاح، انظر، إذا كنت قد عوملت على هذا النحو، فإنما كان ذلك من أجل أن تبقى معي، (فأردف) الفلاح " هل سأظل إذن أعيش على أكل خبزك وشرب [جعتك] إلى الأمد اللانهائي وإلى الأبد ؟"وقال رئيس الحجاب "رنسى" بن "ميرو" هيا، انتظر هنا، حتى تتمكن من الاستماع إلى عرائضك ". وأمر بان [يعاد قراءتها] على لفافة من البردي الجديد، كل عريضة على حدة [حسب مضمونها] ثم قام رئيس الحجاب "رنسى"بن"ميرو" بإرسال هذه اللفافة إلى جلالة ملك الوجهين القبلي

والبحري " نب - كاو - رع " صادق - القول. وكان ذلك شيئا محببا إلى قلب جلالته، اكثر من أي شئ آخر في هذه البلاد بأسرها وقال إذن جلالته : " احكم بنفسك، يا ابن "ميرو" !.

عندئذ أمر [رئيس الحجاب] "رنسى"بن"ميرو" اثنين من الحرس أن يتوجها لإحضار ["جحوتى- نخت"] واحضروه إذن ثم جرى تجريده وتجريد رجاله من أملاكهم [أي] ستة أفراد، خلافا [لمؤنة(؟)] وشعيره في الوجه القبلي وقمحه وحمير[ه] [والماشية] وخنازيره وأغنامه [ـه] وسلم "جحوتى-نخت" هذا، [كخادم في خدمة] هذا الفلاح [إلى جانب] تسليم كل أملاك[ـه] للفلاح.

وقال[رئيس الحجاب] إلى "جحوتى - نخت" [هذا]...

[الجمل الأخيرة حسب التصحيحات التي اقترحها جوستاف ليفيفر

G. Lefebvre]

*****

[سابعاً]

مرثيات "إيبو- ور"(٤٦)

من المؤسف أن هذا النص شديد التشويه وبدايته ونهايته مفقودتان حاليا، كما تعانى بعض المقاطع من فجوات خطيرة.

انه يصف حالة الفوضى التي عمت مصر في أعقاب اضطرابات الثورة الاجتماعية التي شهدتها البلاد مع نهاية الدولة القديمة وإبان مرحلة الانتقال الأولى (حول ٢١٩٠- ٢٠٧٠ ق.م) ويشدد المؤلف بإسهاب على انقلاب الأوضاع. إن بعض التكرار أو الإطناب لا يحول دون أن يأسرنا جمال بعض الصور الأخاذة.

ويشتمل هذا النص، على ما يبدو، على ستة أجزاء أو " أدوار" تعرفنا بها كلمة أولى تتكرر كلازمة في مستهل كل مقطع شعري أو كل مقطع أكثر طولا. وننتقل من اليأس، الذي يسهب النص في التعبير عنه، إلى التحسر على التوازن المفقود للملكة المستقرة، ثم الأمل في مستقبل يكفل العودة إلى الحياة المعتادة والمحبوبة على شطان النيل.

وعلينا أن نستوعب روح النص (إذ أن الشعب المصري بعادته شعب مولع بالنظام والاعتدال) أكثر من محاولة استخلاص درس تأريخي حرفي فالنص رسالة "شعرية" مرهفة الحس، حول موضوع الثورة الاجتماعية التي تقلب الأوضاع وتدمر.

...[فجوة طويلة]. .. يقول البوابون: "إننا راحلون للنهب". .. ولم يعد الحمال يفكر في حمل حملة... واصطف صيادو العصافير في وضع المعركة... ويحمل أهل الدلتا

الترس... وينظر المرء إلى أبنه على أنه عدوه... تعال واستول...الإنسان القوى الشكيمة (٤٧) يسير مغموما بسبب ماحل بالبلاد. .. وفي كل مكان يختلط الأجانب بشعب مصر بحيث يصعب التمييز بينهم.

الدور الأول

انظروا إذن، فالوجه شاحب... لقد وصلنا إلى ما تنبأ به الأجداد... لقد ابتليت البلاد بعصابات اللصوص، وعلى المرء أن يذهب للحرث ومعه ترسه...

انظروا إذن فالوجه شاحب والقواس مجهز، فالجريمة في كل مكان. ورجل البارحة لا وجود له.

انظروا إذن، فالسلاب... في كل مكان والخادم محمل بما استولى عليه.

انظروا إذن فالنيل يضرب (ضفافه)، ومع ذلك فليس هناك من يحرث. وكل واحد يقول" لا ندري ماذا حدث في أرجاء البلاد"

انظروا إذن، فالنساء عواقر ولا يحملن. و"خنوم" لم يعد يخلق، من جراء أحوال البلاد(٤٨)

انظروا إذن فالرجال المفلسون صاروا أصحاب ثروات. ومن كان يتعذر عليه أن يصنع لنفسه زوج نعال يملك منها أكواما.

انظروا إذن، أن خدمهم (٤٩) مهمومو القلب. وعظماء (الأمس) لم يعودوا يختلطون برجالهم ليفرحوا.

انظروا إذن القلوب عنيفة، والشـقاء يعـم البـلاد بأسـرها، والدمـاء في كـل مكـان ولا ينحسر الموت. وتظن أشرطة المومياء أن المرء لم يعد يقترب منها (٥٠)

انظروا إذن، فكثير من الموتى يلقى بهم في النهر. المياه هي القبر و "المكـان الطـاهر"(٥١) موجود الآن في النهر.

انظروا إذن، الأغنياء ينتحبون، والمعوزون في فرح. وكل مدينة تقـول : "دعونـا نطـرد الأقوياء من دارنا".

انظروا إذن، الشعب شبيه بأبي منجل (٥٢) والنجاسات تعم البلاد بأسرها ولا يوجد في الوقت الراهن من يرتدى الملابس البيضاء.

انظروا إذن، فالبلاد تدور كما تدور عجلة الفخاري. واللص صاحب ثروات...

انظروا إذن، النهر صار نهراً من دم. وإن شرب منه أحد فسيصقه لأن هذا (الدم) دم بشرى، والناس ظمأى للماء.

انظروا إذن، إن الأبواب والأساطين والقواطع مشتعلة. ولكن جدران القصر الملكي- "له الحياة-والصحة-والقوة"- (مازالت) سليمة وثابتة.

انظروا إذن، إن سفينة الجنوب (٥٣) تغرق، إن مدينة(؟) الجنوب تسلب و[البلاد] بـاتت مقفرة.

انظروا إذن، التماسيح استولت على "الأسمـاك" من شباكها : فالرجال هـم الذين يحضرون من تلقاء ذاتهم. .. لقد قالوا بالفعل :"لا تذهـب هنـاك، تنبه، هنـاك فـخ."

ولكنهم يهتزون كالأسماك. والإنسان المذعور لم يعد يميز شيئا، من جراء ما يشعر به من خوف.

انظروا إذن، الرجال اقل عددا ومن يضع أخاه في التراب (نلتقي به) في كل مكان.

...

انظروا إذن، لم يعد المرء يميز ابن الإنسان الطيب المنبت. .. لان ابن سيدة الدار هو الآن ابن الخادمة (٥٤)

انظروا إذن، الصحراء تعم البلاد، الأقاليم سلبت ونهبت، وآسيويو الخارج جاءوا إلى مصر (٥٥)

انظروا إذن. .. لم يعد أحد في كل مكان.

انظروا إذن، الذهب واللازورد، الفضة والفيروز، العقيق الأحمر والبرونز، وحجر النوبة تحيط بجيد الخادمات، بينما تهيم السيدات الكريمات الأصل في طول البلاد وعرضها، وتقول من كانت (في الماضي) سيدة بيت :"واه ليتنا نحصل على بعض ما يسد الرمق!".

انظروا إذن، إن جسد هذه السيدات النبيلات، يعانى من الأسمال التي يرتدينها، وقلوبهن مغمومة عندما يقوم المرء بتحيتهن...

انظروا إذن، لقد حطمت الصناديق الصغيرة المصنوعة من الأبنوس، ونقر خشب سوريا النفيس....

انظروا إذن، من كانوا يشيدون المنازل باتو الآن يعملون في الحقول. من كانوا في قارب الإله، باتوا الآن يساقون للعمل على متنه.

لا يبحر أحد إلى بيبلوس (٥٦) هذه الأيام. كيف سنتصرف للحصول على خشب الأرز من أجل مومياواتنا ؟ إن الكهنة يدفنون مع منتجاتهم فحسب، والأثرياء يدفنون مع زيت، ورد من أماكن قصية، مثل جزيرة كريت، ولكنهم لا يعودون أبدا (٥٧) إننا نفتقر إلى الذهب، وأيضا إلى المواد (اللازمة) لمختلف الأعمال، وما كان يمتلكه القصر الملكي "له الحياة- والصحة- والقوة" قد تم نهبه. ومن ثم فانه لأمر هام عندما يحضر أهل الواحات محملين، بقرابينهم وحصرهم وجلودهم ونباتاتهم الطازجة وشرابهم (؟) وطيورهم. ..

انظروا إذن، إن إلفنتين و"ثني" و... في الوجه القبلي لم تعد تدفع الضرائب بسبب التمرد. إننا نفتقر إلى الفاكهة وفحم الخشب ومختلف أنواع الخشب :

"ارتيو" و " ماعاو " و"نوت" و"شيتاو" فقد أحرقت أعمال الحرفيين (؟). ..

ما نفع خزانة بدون عوائد ؟ (فيما مضى) كان قلب جلالته سعيدا عندما كان (حملة) القرابين يتقدمون نحوه، وعندما تأتي البلدان الأجنبية : هذه كانت إمبراطوريتنا، (٥٨) هذا كان رخاءنا. ماذا سنفعل في هذا الصدد ؟ كل شئ تهدم.

انظروا إذن، لقد اختفت البسمة، فلا أحد يبتسم، إن الشكوى هي التي تعم البلاد مختلطة بالنحيب.

انظروا إذن، فمن كان لا يملك شيئا، هو الآن الذي يمتلك. ومن يشكلون شعب مصر هم منذ الآن قوم آخرون، يدلهم الناس على الطريق.

انظروا إذن، .. لا يمكن التمييز بين ابن الرجل الطب المولد من البائس. ..

انظروا إذن، الكبار والصغار يتمنون الموت، ويقول الصبية الصغار :" ما كان ينبغي ل"أبي" أن يمنحني الحياة".

انظروا إذن، أبناء العظماء يدفعون دفعا إلى الجدران، في حين أن الرضع الذين لازالوا (متعلقين) برقبة (أمهم) (يعرضون) فوق مرتفع. [٥٩]

انظروا إذن، إن الذين كانوا في "المكان الطاهر" يوضعون فوق المرتفع [٦٠] لان أسرار التحنيط قد ضاعت.

انظروا إذن، ما كنا لا نزال نراه بالأمس، قد هلك. والبلاد ضاعت (تحت وطأة) ضعفها، مثلما تكون عند اقتلاع الكتان. [٦١]

انظروا إذن. الدلتا بأسرها لم تعد متوارية، فقلب الوجه البحري يعج الآن بالدروب المطروقة، [٦٢] فما العمل ؟. ... ويقال " اللعنة على "مكان الأسرار" [٦٣] انظر، انه الآن بين يدي الذي لا يعرفه مثله مثل ذلك الذي كان يعرف أن الأجانب هم منذ الآن الحرفيون الذين يقومون بأعمال الوجه البحري.

انظروا إذن، إن مواطني (الأمس) ينحنون الآن فوق حجر الرحى، والذين كانوا يرتدون أرق أنواع الكتان يضربون الآن ب. .. ولكن الذين لم يروا النور أبدا يخرجون. وأولئك اللاتي كن على سرير أزواجهن، يردد الناس القول عنهن : " إنهن

يقضين الآن الليل على لوح خشبي" وإذا قالت (إحداهن): " اللوح المحمل بالمر ثقيل جدا بالنسبة لي" عندئذ سوف يحمل بجرار مملوءة. .(٦٤) واصبحن لا يتعاملن مع المحفات واختفي ساقي الخمور. ولا علاج لكل ذلك. ومن الآن ستتألم سيدات (الزمن العابر) ذات الحسب والنسب كما كانت الخادمات يتألمن (فيما مضى). والموسيقيات في حجراتهن، داخل بيوتهن وأغاني الحب هي عبارة عن مراثي (٦٥) والرواة (ينحون) على حجر الرحى.

انظروا إذن، إن الخادمات صرن الآن سيدات بقدرة ألسنتهن (=يتحدثن حسبما يحلو لهن). (وفي الماضي) عندما كانت السيدة تتحدث، كان الأمر قاسيا على الخدم.

انظروا إذن، الأشجار أتلفت، الأغصان تجردت، والخدم يهجرون منازلهم. ويقول الناس عندما يبلغهم ذلك : " لم تعد هناك مكافآت طائلة للأطفال بل و لم يعد هناك طعام فبماذا إذن نشبه مذاق اليوم ؟

انظروا إذن، العظماء جوعى ويتألمون، ولكن الخدم اصبح لهم من يخدمهم. ..

انظروا إذن، الرأس الساخن (٦٦) "لو.. كنت أعرف أين هو الإله لعملت من أجله...)

انظروا إذن، الناس يركضون ويتصارعون للتزود بالطعام. [الرجل الثرى] يسرق ويتم الاستيلاء على جميع ما يملك.

انظروا إذن، فقلب الحيوانات يبكى أيضا، والقطعان غارقة في النواحي بسبب أحوال البلاد.

انظروا إذن، أطفال العظماء يدفعون دفعا إلى الجدران، في حين أن الرضع الذين مازالوا (متعلقين) برقبة (أمهم) (يعرضون) فوق مرتفع، أن الإله "خنوم" بان من التعب... (٦٧)

انظروا إذن، فبعد أن تأكدت القدرة للجميع يضرب الإنسان شقيقه المولود من أمه فيقول الناس ماذا يحدث ؟

انظروا إذن، الدروب والطرق محروسة، ويجلس المرء في الأدغال حتى يصل أحد مسافري الليل فيستولي على أمتعته. ويجرده من كل ما معه، ويمتعه بضربات من عصاه ثم يقتله بإجرام.

انظروا إذن، ما كنا لا نزال نراه بالأمس قد هلك، والبلاد ضاعت (تحت وطأة) ضعفها مثلما هو الحال عند اقتلاع الكتان. ومواطنو (الأمس) يروحون ويؤوبون وهم

"واها ! لو كان هذا هو نهاية البشرية، لما حملت النساء ولما انجبن قط، ولغرقت الأرض في السكون، ولن تكن هناك بعد ذلك عواصف".

انظروا إذن [البشر يتغذون] على الأعشاب ويشربون الماء، فالفواكه والنباتات بل والطيور ذاتها، لم تعد موجودة. وينتزع المرء. .. حتى من فم الخنزير، دون أن يقول أحد (كما في الماضي) :"ذلك يطيب لك أكثر مما يطيب لي "بسبب الجوع".

انظروا إذن، لقد تلفت الحبوب على جميع الدروب. إننا محرومون من الثياب والعطور والزيوت. وكل واحد يقول :"لم يعد يوجد شيء" الحانوت خاو، وحارسه ممدد على الأرض وسط العشب : إن النباتات هي ما يرغبها المرء الآن وهي كثيرة. واه !

لو أن صوتي كان من الممكن أن ينطلق في تلك اللحظة، لأنقذني من الأسى الذي أعانيه !

انظروا إذن، إن قاعة المخفوظات الكبرى قد سلبت مدوناتها، إن مكان الأسرار قد جرد الآن (من محتويات).

انظروا إذن، إن الأدوار السحرية قد أميط اللثام عنها وشاعت وانتشرت. فبات مضمونها منذ الآن، غير فعال، لان الشعب (ذاته) يحفظها في ذاكرته،

انظروا إذن، المكاتب الإدارية مفتوحة، واختفت منها السجلات، بحيث أن من كان قناً يمكن أن يصبح سيد أقنان [٦٨]

انظروا إذن، لقد قتل [الكتبة]، واختفت مدونتهم. كم أنا تعس من بؤس هذا الزمان!

انظروا إذن، إن كتبة مكتب الحبوب قد انتزعت أيضا دفاترهم. إن حبوب مصر التي يعيش منها الناس في الوقت الراهن هي :"إني احضر واخطف".

انظروا إذن، إن قوانين القاعة الخاصة قد طرحت خارجا، [٦٩] بحيث يدوسها الناس في الشوارع ويمزقها المعوزون في الطرقات.

انظروا إذن، إن الإنسان البائس يقترب من مقام آلهة التاسوع، وأميط اللثام عن الإجراءات القانونية الشهرية "لمجلس الثلاثين". [٧٠]

انظروا إذن، المجلس الخاص العظيم قد تم اجتياحه [٧١] والمعوزون يروحون ويجيئون في "البيوت العظيمة". [٧٢]

انظروا إذن، إن أبناء الأعيان قد ألقى بهم فى الطرقات. ومن هو على علم يقول : نعم، ومن يجهل يقول : لا. ويبدو كل شئ جميلا في عيني ذلك الذي لا يعرف [٧٣]

انظروا إذن، إن الذين كانوا فى المكان الطاهر، يوضعون فوق المرتفع، لان أسرار التحنيط قد ضاعت.

الدور الثاني

انظروا في الحقيقة، سوف تتجه النار صوب المرتفعات ويتصاعد لهيبها ضد أعداء البلاد.

انظروا في الحقيقة، لقد حدث شئ لم يكن قد حدث قط من قبل : لقد انحدر الناس إلى أسفل سافلين حتى إن بعض الأشقياء اختطفوا الملك [٧٤]

انظروا، ذلك الذي كان قد دفن بصفته "صقرا" إلهيا (=الملك) هو الآن فوق محفة، والهرم بعدما كان يضمه اصبح من الآن خاويا.

انظروا، في الحقيقة، لقد انحدر الناس إلى اسفل سافلين حتى أن البلاد حرمت من الملكية على أيدي عدد محدد من الناس الذين فقدوا رشدهم.

انظروا، في الحقيقة، لقد انحدرنا إلى اسفل سافلين حتى حدث تمرد ضد الحية - الصل[ابنة(؟)] "رع" التي كانت قد أحلت السلام في الأرضين.

انظروا، إن أسرار البلاد التي كان يجهل الناس حدودها[٧٥] كشف عنها الحجاب الآن. لقد دمر المقر الملكي في ظرف ساعة واحدة.

انظروا، إن مصر قد انحدرت من الآن إلى اسفل سافلين حتى إنها "تصب الماء" (تقوم بأعمال الخدمة المنزلية) لان من كان يرش الماء (في الماضي) على الأرض قد قاد الإنسان الشديد البأس إلى البؤس.

انظروا، إن الثعبان "قرحت" [٧٦] قد خرج من جحره وتم إفشاء أسرار ملوك الوجهين القبلي والبحري.

انظروا، لقد روع المقر الملكي من جراء المجاعة. ويمكن للمرء أن يذكي نار الصراعات دون أن يصده أحد.

انظروا، إن عصابات اللصوص منتشرة في البلاد [٧٧] والرجل الخسيس يستولي على أملاك الرجل القوى.

انظروا، ذلك الذي لم يكن في إمكانه أن يصنع لنفسه تابوتا، بات يمتلك الآن مقبرة. [٧٨]

انظروا، لقد أقصى السادة المقدسون في "المكان الطاهر" إلى مرتفع. بينما ذلك الذي كان لا يستطيع أن يصنع لنفسه تابوتا بات الآن "في بيت الخزانة". (؟)

انظروا، في الحقيقة، إلى هذه التغيرات التي طرأت على الشعب المصري : فمن لم يكن في استطاعته أن يشيد لنفسه بمجرد حجرة، بات يمتلك الآن صناديق حليّ.

انظروا، إن قضاة مصر يطاردون في جميع أنحاء البلاد، وقد طردوا من بيوت الملكية(بفتح الميم).

انظروا، إن السيدات الكريمات الأصل يرقدن على الألواح والأعيان (الحقوا) بالحوانيت. ولكن الذي لم يكن في مقدوره أن ينام ولو على صندوق، يمتلك الآن سريرا.

انظروا، الرجل الثرى فيما مضى يبيت الآن ظمأنا، أما ذلك الذي كان في الماضي يستجدى رواسب الأقداح، فقد أصبحت الجعة عنده، من الآن تفيض عن الحاجة.(٧٩)

انظروا، من كانوا يملكون في الماضي ملابس كتانية، يرتدون من الآن ملابس رثة، ومن كان لا يستطيع أن ينسج لنفسه صار مالكا لأرق أنواع الكتان.

انظروا، من لم يكن قد صنع أبدا لنفسه سفينة، يملك من الآن سفنا مالكها القديم ينظر إليها بعد أن لم تعد ملكه.

انظروا، من كلن لا يعرف الظل، لديه الآن الظل، ومن كانوا في الماضي يعرفون الظل قذف بهم وسط العاصفة.

انظروا، من كان لا يملك بجرد القيثارة، عنده منذ الآن الجنك، وذلك الذي لم يكن أحد يغنى له، اصبح الآن يسبح لإلهة الموسيقى.

انظروا، من كانوا يمتلكون موائد نحاسية للمسكوبات، لم تعد هناك الآن جرة واحدة بين جرارهم تحاط بجدائل الزهور. (٨٠)

انظروا، من كان ينام بدون امرأة وكان محروما منها (٨١) [قد وجد] سيدات كريمات الأصل.

انظروا، من كان لا يمتلك شيئا هو الآن رجل موسر، والعظيم يقدم له التكريم.

انظروا، الرجل المعوز في البلاد صار ثريا. والثرى صار فقيرا.

انظروا، ..من كان رسولا، يوفد الآن شخصاً غيره.

انظروا، من كان لا يجد خبزا، يملك مستودع حصاد ولكن مخزنه ملئ بممتلكات الغير.

انظروا، الرجل الذي بلا شعر الذي كان يفتقر إلى الزيت، يمتلك الآن جرارا من المر الطيب.

انظروا، من لم يكن عنده مجرد علبة، في حوزته صندوق حليّ. ومن كانت ترى وجهها في الماء تمتلك الآن مرآة من النحاس.

انظروا، في الحقيقة، يكون الإنسان سعيدا عندما يأكل طعامه. "هنيئا لك. إذن وأنت تأكل من مالك، فلن يثنيك أحد، إذ يطيب للإنسان إن يتناول الطعام الذي خصصه الإله لمن يشمله برعايته..." من كان يجهل الإله يقدم له الآن القرابين ببخور الغير.

انظروا، النساء العظيمات وسيدات (الزمن الماضي) الكريمات الأصل، يضعن الآن أطفالهن فوق الأسرة. [٨٢]

[نص كله فجوات]

انظروا، من كانوا يمتلكون الأسّرة هم على الأرض، ومن كان يرقد في القاذورات يعد لنفسه منذ الآن وسادة من جلد.

انظروا، السيدات النبيلات جياع، في حين أن الخدم متخمون بما يعد من أجلهم.

انظروا، من الآن لا يوجد منصب في مكانه، مثل القطيع الذي يضل في غياب راعيه.

انظروا، الماشية شاردة دون أن يكترث بها أحد. يجلب منها كل رجل ويسمها باسمه بالحديد المحمى.

انظروا، إذا قتل رجل بجوار أخيه، يتركه هذا الأخير لينجو بجلده.

انظروا، من لم يكن يمتلك مجرد ثورين مقرونين صار في حوزته الآن قطيعا. من لم يكن في استطاعته أن يجد ثيرانا للحرث يمتلك الآن المواشي.

انظروا، من لم تكن عنده بذور، يمتلك مخازن غلال، من كان يجلب لنفسه قمحا يقترضه، يقوم هو الآن بتوزيعه.

انظروا، من لم يكن له مجرد جيران، صار الآن صاحب خدم. ولكن [نبيل البارحة] ينجز بنفسه مهامه.

انظروا، رجال البلاد ذوو السلطان لم يعد أحد يقدم لهم تقارير عن ظروف (حياة) الشعب، لان كل شئ خراب. (٨٣)

انظروا، لم يعد الحرفيون يعملون، لان الأعداء حرموا البلاد منهم. (٨٤)

[نص كله فجوات]

الدوران الثالث والرابع

مهشمان تهشيما بالغا. ويؤكدان أيضا على أعمال التدمير الناجمة عن الثورة الاجتماعية.

الدور الخامس – الذكريات والحسرات

تذكر الطيور السمينة؛ والأوز والبط والقرابين المخصصة للآلهة.

تذكر النطرون الذي كان يمضغه الناس[٨٥] والخبز الأبيض الذي كان يعده الإنسان.

تذكر السواري التي كانت تقام، وموائد القرابين التي كانت تقطـع، والكهنـة "وعـب" وهم يطهرون الهياكل، والمعبد الأبيـض كـاللبن، ورائحـة عطـر الأفـق الزكيـة، ووفـرة القرابين.

تذكر مراعاة القواعد، والتتابع الصائب للأيام. ..

الدور السادس... الحنين إلى الملكة الهادئة

أنه لأمر طيب بالتأكيد، أن نهبط على النهر.

أنه لأمر طيب بالتأكيد، عندما تكون الشباك ممدودة والعصافير ممسوكة....

أنه لأمر طيب بالتأكيد، عندما تكون الطرقات معدة للنزهة.

أنه لأمر طيب بالتأكيد، عندما تشيد أيادي الرجال الأهرامات وتحفـر البحـيرات وتعـد بساتين الفواكه للآلهة.

أنه لأمر طيب بالتأكيد، عندما يكون الناس سكارى ويشربون بقلب بهيج.

أنه لأمر طيب بالتأكيد، عندما تملأ صيحات الفرح جميع الأفواه، بينما رؤساء الأقاليم يقفون هنا يشاهدون من منازلهم الأفراح العامة، وقد ارتدوا الكتان الرقيق(وامسكوا) أمامهم عصى القيادة، بقلب أبيّ.

انه لأمر طيب بالتأكيد، عندما تكون الاسّرة مرتبة ويكون مخدع كبار القوم محميا على (يوضع) أحسن وجه، وعندما تكون حاجة كل إنسان مكفولة بكل بساطة بحصير في الظل، والباب موصد على من يرقد في الأدغال. (٨٦)

[ثامناً]

أناشيد اليائس[87]

بداية المخطوطة مفقودة. ويستهل النص بأحاديث مناجاة الإنسان اليـائس، فهـو شارد وسط عزلته، محاط بعالم مضطرب، هجر الناس فيه القيم الأخلاقية وتنكروا لهـا. إنسان يود الهروب من الحياة، ويتردد أحيانا. ولكنه يتمالك نفسه، وهو إنسان يتحـاور مع "با"ئه،[88] الرفيق الوحيد الذي بقى له. ويود هذا الأخير أن يستبقيه على الأرض، إلى أن يحل أجل الوفاة المضروب له. ويكتنف الحوار الغموض في بعض المقاطع، ولكن أناشيد القلق الأربعة التي تعقبه هي على قدر كبير من الجمـال في معظمهـا، فهـي تعبر تعبيراً أخاذاً عن وحدة الإنسان في الكون.

حوار بين الإنسان و"با"ئه

.... عندئذ فتحت فمي لأتحدث إلى "با"ئى، كي أرد على ما قاله :

"اليوم قد يصبح الأمر جد خطير بالنسـبة لي، لـو أن "بـا"ئـى لم يعـد يتحـدث إلى،[89] ولأصبح الأمر خطيراً، وبعيداً عن كل مبالغة، فسيكون الأمـر أشـبه بـالهجران. ولكـن "با"ئى لن يرحل، وسوف يقف إلى جانبي في مثل هذه الظروف. ولن يرتكب (هـذه) الجريمة وسوف يسقط في جسدي كما يسقط في شباك من حبـال(؟) [90]. كـلا، لـن يكون هروبه في يوم الشقاء. انظر، إذا تركنى "با"ئى، وإذا لم أعد اسمعه، فقـد يجرنـي ذلك إلى المـوت، قبـل أن يحـل اجلـه المضـروب، ولكـان معنـى ذلـك إلقـائي في النـار

لأحترق. ... كلا سوف يقترب مني في يوم الشقاء، وسوف يمكث بجواري كما يحدث لإنسان متوسل، انه هو الذي سيأتي ويكشف عن نفسه.

ولكن يا "با"ئي انه من غير المعقول الإبقاء على ذلك الذي سئم الحياة. قدني إذن إلى الموت، قبل أن يحل أجله المضروب، فلتجعل الغرب لطيفاً من أجلي. هل هذا من سوء الطالع؟ إن الحياة دورة، وهكذا تسقط الأشجار. تغاض إذن عن خطاياي واستعرض شقائي. سوف يحاكمني "تحوت" ذلك الذي يرضي الآلهة. وسوف يدافع عني "خنسو" كاتب الحقيقة والعدالة. وسوف ينصت "رع" إلى حديثي، هو الذي يقود(؟) قارب الشمس. وسيكون "إسدس" في القاعة المقدسة من أجلي (٩١). لقد اصبح شقائي منذ الآن عبئاً ثقيلا لا أقوى على حمله، ومن المستحسن أن تكون الآلهة قريبة من أسرار جسدي"

وهاك ما قاله "با"ئي إليّ : "لا ريب انك لست إنسانا (كريم المولد) ولكن ألست حيا ؟ وتنهي شكواك من الحياة، كما لو كنت إنسانا موسرا !". (٩٢)

وأقول : " لن أرحل إذا بقيت أنت (٩٣) على الأرض. ولكن سوف يتسلطون عليك، إذا أنت ابتعدت، فلن يحميك أحد أبدا، وسوف يقول كل كائن شرير : سوف امسك بك. إن مصيرك هو الموت، اسمك فقط هو الذي سيبقى على قيد الحياة (٩٤). وفيما وراء ذلك، يوجد المكان الشهير لراحة القلب، فالغرب هو المرفأ. .. ولكن إذا استمع "با"ئي إليّ دون (أن يثير)صعوبات، وإذا اتحد قلبه بقلبي، فسوف يكون ذلك مدعاة للسعادة. وسوف اعمل على أن يصل إلى الغرب مثل "باء" ذلك الذي يرقد في الهرم والذي من أجل دفنه مازال أحدهم باقياً على الأرض (٩٥). سوف

أقيم مأوى فوق جسدك (٩٦)، سوف يثير حسد "با" آخر، أصابه الإعياء. سوف أقيم مأوى رطبا، سوف يثير حسد "با" آخر أعياه الجو الحار. سوف ارتوى في موضع النهر حيث أقمت الظلال لأثير حسد "با" آخر جوعان. ولكن إذا اقتدتني على هذا النحو إلى الموت (٩٧) فإنك لن تجد في هذه الظروف مكانا لراحتك في الغرب.

كن رحوما، يا"با"ئى، يا أخي بحيث تصبح وريثي (٩٨) الذي سيقدم القرابين (من أجلي) ويقف أمام قبرى يوم الدفن، بينما يعد أيضا المرقد الجنائزي".

فتح "با"ئى فاه لأحلى وأجاب قائلا : " إذا كنت تقصد الدفنة، فهي أمر محزن للقلب، إنها تثير الدموع وتصيب الإنسان بالحزن، إنها تنتزع هذا الأخير من داره لتلقى به فوق أكمة.(٩٩) ولن تستطيع أبدا أن تصعد إلى السماء لترى الشمس. الذين شادوا (المباني) من الجرانيت وأقاموا. .. أهرامات كاملة، وهي أعمال مكتملة، هؤلاء البناءون صاروا آلهة. وأما الآن، فموائد قرابينهم عارية، مثل موائد أولئك المنبوذين الذين ماتوا على الشاطئ بلا ذرية. لقد نالت منهم الامواه نصيبها ونال منهم وهج الشمس نصيبه. واسماك الشطآن (وحدها) هي التي لا تزال تتحدث إليهم.

انصت إليّ إذن، لأنه كما ترى من المفيد للمرء أن يستمع : عش يوما هانئا وانسى الهموم.(١٠٠)

[عندئذ يروى الـ "با" قصتين]

* كان رجل (متواضع المولد) يفلح قطعة أرضه. وشحن محصوله داخل سفينة وسحبها. كان يوم عيده يقترب (=عندما وصل إلى غايته؟) فرأى رياح الشمال . تكفهر. عندئذ أخذ يراعى سفينته، في حين كانت الشمس "عائدة" وخرج مع زوجته

وأولاده. ولكن هؤلاء لاقوا حتفهم عند البحيرة، بعد أن باتت خطـرة أثنـاء الليـل مـن جراء وجود التماسيح. وعندما جلس في النهاية وعندما استعاد صوته قـال : " إنـي لا أبكى هذه الزوجة التي كانت على وشك أن تلد، والتي لن تخرج بعد الآن من الغـرب، لتعود (زوجة) أخرى على الأرض، ولكـن الـذي يعتصـر قلبي هـو (مصـير) أولادهـا، الذين انكسروا وهم لا يزالون في البيضة ورأوا وجه التمسـاح، في حـين انهـم لم يحيـوا بعد. "

* طلب رجل (متواضع المولد) طعام العشاء. فقالت له زوجته : " سوف يكون ذلـك في وجبة المساء" عندئذ خرج. .. وعندما عـاد إلى منزلـه كـان أشـبه برجـل آخـر و لم يسمع زوجته التي تتضرع إليه. .. " (١٠١)

عندئذ فتحت فاهي من أجل "با"ئى وأجبت على ما قاله لتوه :

النشيد الاول

انظر، إن اسمي ذو رائحة كريهة (=ممقوت). (١٠٢)

انظر، أكثر من رائحة الجيفة

في يوم صيف، والسماء محرقة.

انظر، إن اسمى ممقوت.

انظر، اكثر من صيد، يوم القنص

عندما تكون السماء محرقة

انظر، إن اتسمى ممقوت.

انظر، اكثر من رائحة الطيور

اكثر من (رائحة) أكمة بوص مغطاة بصيد الماء.

انظر، إن اسمي ممقوت.

انظر، اكثر من رائحة الصيادين

اكثر من (رائحة) المستنقعات عندما يصطادون.

_انظر، إن اسمي ممقوت.

انظر، اكثر من رائحة التماسيح

اكثر من واقع الجلوس عند شاطئ مغطى بالتماسيح.(١٠٣)

انظر، إن اسمي ممقوت.

انظر، اكثر من زوجة،

عندما تقال الأكاذيب في حقها لزوجـ(ها).

انظر، إن اسمي ممقوت.

انظر، اكثر من (اسم) طفل قوى البنية،

عند الحديث في حقه بينما هو يتمنى لذلك الذي يكرهه.(١٠٤)

انظر، إن اسمي ممقوت.

انظر، اكثر من (اسم) إحدى مدن الملك،

التي تعلن تمردها عندما يدير ظهره.

النشيد الثاني

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

الأشقاء (أنفسهم) أشرار

وأصدقاء اليوم لا يحبون البتة.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

القلوب جشعة

وكل واحد يستولي على ما يملكه الغير

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

الوداعة ماتت

وعادت السطوة للجميع

من عساي أتكلم اليوم ؟

الناس يرضيهم الشر

والخير ألقى به على الأرض، في كل مكان.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

فالإنسان الذي كان يثير الغضب بسبب أفعاله السيئة

يضحك الآن الجميع عندما تكون جريمته شنعاء.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

الناس ينهبون

وكل إنسان يسلب الغير،

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

فالمجرم شخص يحبه الناس(١٠٥)

ولكن الأخ الذي كان يعمل بالمشاركة "معي" (١٠٦) اصبح عدواً.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

ولم يعد أحد يذكر البارحة

ولا أحد يساعد الآن ذلك الذي كان يساعد فيما مضى.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

الوجوه محجوبة

وكل شخص يخفض نظره إلى الأرض، ضد أشقائه،

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

الرغبات جشعة

ولم يعد يوجد قلب إنسان يمكن الركون إليه.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

لم يعد للأبرار وجود

والبلاد تحت رحمة مرتكبي المنكر،

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

إننا محرومون من الصديق

ونلجأ إلى الغريب لنطلق العنان لشكوانا بجواره.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

لم يعد للرجل المسالم وجود

وذلك الذي كنا نسير في صحبته، لا وجود له.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

البؤس يرهقني

وقد أحتاج إلى صديق.

لمن عساي أتكلم اليوم ؟

لقد ضرب الشر البلاد

ولا نهاية له.

النشيد الثالث

الموت اليوم أمامي

مثل الشفاء بعد المرض

مثل أول خروج بعد حادثة.

الموت اليوم أمامي

مثل رائحة المر

مثل الجلوس تحت الشراع، في يوم تشتد فيه الرياح.

الموت اليوم أمامي

كعطر زهرة اللوتس

مثل حقيقة الوقوف عند شاطئ السكارى.

الموت اليوم أمامي

كطريق مألوف

كعودة الإنسان العائد من الحرب إلى داره.

الموت اليوم أمامي

كالسماء التي تصفو

عندما يكتشف المرء ما لم يكن يعرف. [١٠٧]

الموت اليوم أمامي

مثل اشتياق المرء لرؤية داره

بعد قضاء سنوات طويلة في الأسر.

النشيد الرابع

نعم في الحقيقة، إن الذي يوجد هنا، سيصبح إلها حيا، [١٠٨]

موقعا العقاب على من يقترف جريمة.

نعم في الحقيقة، إن الذي يوجد هنا، سيأخذ مكانه في قارب الشمس،

موزعا الأشياء المختارة في المعابد.

نعم في الحقيقة، إن الذي يوجد هنا، سيصبح رجلا عالما،

ولن يُردّ عندما يتضرع بخطبه إلى "رع".

كلمة الختام

إليكم ما قاله "با" ئى : " أهجر المراثي، أنت يا من تنتسب إلى يا أخي! سواء قدمت قربانك على النار أو اختلطت بالحياة - حسبما تقول - فسوف تحبني هنا، بعد أن تكون قد نبذت فكرة "الغرب".

ولكن عندما تصل إلى الغرب (في الأجل المضروب)، عندما ينضم جسدك إلى الأرض، عندئذ سوف أطير، بعد أن يكون التعب قد أعياك وسوف نقيم سوياً ".

هوامـــــش

(١) نص هام (ما يقرب من ٤٣٠ سـطرا) مسطور على عدة برديات : ثلاث منها موجودة حاليا في متحف برلين (وأرقامها (3023-3025-10499) وتعود البرديتان الأوليان إلى مجموعة "اتنازى" Athanasi في حين عثر على البردية الثالثة في الرامسيوم ولم يرد من هذا النص سوى شذرات في بردية بتلر Butler (في المتحف البريطاني) وفي بردية امهرست Amherst.

حبكة القصة بسيطة : يتوجه فلاح صغير إلى المدينة ليبيع منتجات صيعته وعبرها، وإذا سرق في الطريق، طلب الإنصاف من رئيس حجاب الأملاك التي كانت مسرحا للسطو. وإذ تأثر رئيس الحجاب بطلاقه لسانه، تحدث في الأمر إلى الملك " خيتى الثالث(الأسرة العاشرة – ٢١٢٠– ٢٠٧٠ ق. م تقريبا، راجع تعاليم الملك خيتى الثالث) الذي أمر بان يترك ليتحدث لفترة من الزمن ون يستدرج لإلقاء هذه الخطب التي سيرفه عن نفسه بقراءتها. وهكذا دونت تسع عرائض، وتم إنصافه في آخر الأمر.

إن هذه النصوص هي التي تسمح لنا بالوقوف على ظروف حياة سواد الشعب، وهي أيضا نصوص تتجلى فيها الأخلاق والمشاعر الشعبية في شكل حكم أو تضرعات شجية في الغالب. إن هذه النصوص تعرف بالتأكيد الإطناب والتكرار، ولكنها تنطوي أيضا على قدرة فائقة على التعامل بالكلمات : أهو حشو لغوى ؟ كلا، بل ولع بالكلمة والحديث الطلي، وهو ما نجده على هذا النحو تقريبا في مصر المعاصرة : فهذه الخطب موشاة بالطباق والجناس والسجع وتقابل الأفكار والصور الشاعرية، وهي لا تستسيغ أحيانا المنطق والوضوح، ولكنها تشد الانتباه بطابعها الشيق الذي لا يخلو من طرافة والذي يأسرنا أحيانا جماله الفاجى.

النص المصري :

F. VOGELSANG

et A.H.GARDINER, Die Klagen des Bauern, Leipzig,1908,24pl,

وقد ادخل " جاردنير" بعض التصويبات على هذا النسخ الهيروغليفي

GARDINER, IN JEA, vol.9,1923, pp.22-25.

(٢) حرفيا :"رجل حماه "انبو" ("انوبيس") أو "ليت"" انبو" يحميك !".

(٣) "وادي النطرون " حاليا. وهي واحة تقع في الصحراء. غرب الدلتا. وتضم في الوقت الراهن ١٢ أو ١٥ بحيرة (على امتداد ٢٥ كم) وتمدنا بملح الطعام والنطرون. وكانت هذه المادة الأخيرة مطلوبة جدا في العصور القديمة من أجل عمليات التحنيط وإقامة بعض الشعائر.

(٤) حرفيا " محبوبة" .

(٥) من بين الأسماء الواردة في هذه القائمة الطويلة لم يتم التحقق سوى من بعض العناصر. ويمكننا إن نلاحظ فقط أن العديد من أسماء النباتات والحبوب هذه، قد ورد ذكرها أيضا في البرديات الطبية.

(٦) عاصمة المملكة في ظل الأسرة العاشرة. راجع الهامش ٢ من الفصل الثاني من الباب الأول.

(٧) لم يتم التحقق من هذه الأسماء.

(٨) حرفيا "جحوتي" ("تحوت") القدير".

(٩) حرفيا "التزم الهدوء".

(١٠) كانت الحمير، على نحو خاص، تستخدم بعد الفراغ من أعمال البذر لدفن الحبوب في التربة بفضل دوسها المتكرر.

(١١) الإله "أوزيريس".

(١٢) حرفيا : ان يقترب".

(١٣) حرفيا :"خادمك المنتسب إلى ما هو قريب من قلبك"

(١٤) حرفيا :"عندما يلعبون (لتسليم بضائعهم) إلى آخر في منطقة مجاورة".

(١٥) حرفيا :" ان يستبدل ذلك، وسوف يستبدله ".

(١٦) إن اليقين بأنه يحمي حماية عادلة تطرد كل خشية.

(١٧) حرفيا :"رع هو مالك الكائنات "، وهو الاسم الرابع من أسماء الملك خيتي الثالث.

(١٨) لم ترد هذه الكلمات الأخيرة سوى في بردية الرامسيوم (Berlin 10499)

(١٩) جملة ذات سياق شائع في المصرية القديمة : فإذا قابلنا بين واقعتين في خطين متوازيين فالحكم بيقينية الأولى يعني أن الأخرى حقيقة واقعة.

(٢٠) تشير كلمة " نحن " هنا إلى عموم البلاط.

(٢١) حرفيا : "عظماؤه"

(٢٢) بمعنى آخر " اطرد الفطرة فتعود على جناح السرعة". لا يكفي العقاب لتغيير طبيعة الإنسان.

(٢٣) حرفيا : " إلى صاحب منصب "

(٢٤) كانت الإلهة "سخمت" (وهي غالبا برأس لبؤة) تعتبر مسئولة عن الأوبئة. .. ولكنها كانت تعرف أيضا كيف تشفي الأمراض وتحمى الأطباء.

(٢٥) ذلك الذي يشتكى باستمرار ولا يستمع إليه أحد لإنصافه. ومن ثم يعرف الجميع هذه القضية.

(٢٦) لاسيما اللسان الذي له القدرة على الخلق من خلال النطق بالكلمة، وفي إمكانه إذن أن يفعل الخير والشر.

(٢٧) حرفيا : " حتى حدودك".

(٢٨) موازنة مرغوبة بين كلمة "شنوت" التي تشير إلى " الذين يحيطون برئيس الحجاب " أو حاشيته، إذا صح القول، وكلمة " شنوت " (التي تكتب بمخصص مختلف) وتطلق على " الذي يحيط بالشمس"، مدار الشمس. انه نهج "أدبي" مصري هدفه التأكيد، من خلال الكلمات، على الصلة القائمة بين الإنسان الشديد البأس والإله رع.

(٢٩) هذا المقطع بكامله متأثر بغنائية الأناشيد الملكية، وقد ازدهر هذا الجنس الأدبي في ظل الدولة الحديثة. ونذكر على سبيل المثال "وصايا " سحتب – إيب – رع " الملكية". التي تتميز بنبرات مماثلة.

(٣٠) نبات كريه الرائحة يتكاثر بسرعة.

(٣١) يؤكد ليفيفر LEFEVER (Romans et contes e'gyptien p.58, note 67

"إن الأطعمة والخبز والفطائر كانت تخرج من المتاجر أو الورش- " شنعو" ولا يسمح المدير المعنى للفقير بالانتفاع بها بشكل مباشر أي دون مناقشة، إذ لا يعنيه في شئ زبائنه من الفقراء ".

(٣٢) حرفيا " على الفور – في الحال "

(٣٣) تسمية تحط جدا من قدر لص " خو-ان-انبو" فهو عدواني على غرار التمساح ويعيش مثله على الفرائس التي يخطفها.

(٣٤) إله كبش يعبد في " هرقليوبوليس " وفي الفيوم.

(٣٥) يترتب على المشكلة التي يتم إهمالها مضاعفات ويتطلب حلها جهدا مضاعفا.

(٣٦) حسب فرضية "جوستاف لوفيفر" (OP. cit. p61, note 83)

(٣٧) "خو – ان – انبو " شخصيا.

(٣٨) عندما يكون المرء جوعان لا يعبأ بأمر سرقة الطعام إلا في النزر القليل.

(٣٩) يستطيع رئيس الحجاب أن يطرد "خو – ان – انبو ".

(٤٠) هاتان الجملتان الأخيرتان منقولتان عن تصحيحات جوستاف لوفيفر.

(٤١) حرفيا : " أيوجد شخص لا عمل له قام في الماضي بالتوسل؟ ".

(٤٢) إشارة إلى "العاب" الساحر "جدى" الذي كان يتقن إعادة الرؤوس المقطوعة إلى مكانها.

(٤٣) كما في السابق يتم التأكيد على شخصية "خو – ان – انبو " المرموقة.

(٤٤) حسب جوستاف ليفيفر.

(٤٥) حامي الفلاح.

(٤٦) نص مسطور على بردية موجودة حاليا في متحف "ليدن" (1,344, recto) وترجع النسخة إلى الأسرة التاسعة عشرة.

لقد تم تقديم هذا النص أحيانا بصفته نبوءة، قد يقترب خطها العام من نبوءة "نفرتي" ولكن نظرا على ما يعتقد إلى أن جانبا من المخطوط قد فقد، فان حبكة الأحداث اقل وضوحا، فيقوم " إيبو – ور " بوصف الأحداث أكثر من التنبؤ بها كما يفعل "نفرتي" على ما يبدو.

النص المصري:

A.H GARDINER, The Admonitions of a Prophet , Leipzig , 1909 - pll. I a 1,

(٤٧) حرفيا : " من له شخصيته "

(٤٨) "خنوم" الإله الفخاري الذي يشكل الكائنات على عجلته – لا يجد عملا نظراً لتوقف الإنجاب.

(٤٩) خدم الأثرياء الجدد.

(٥٠) الموتى لا يحنطون في الواقع، ثم يدفنون ولكن يلقى بهم في النهر كما سيذكر ذلك فيما بعد، شانهم شان الماشية النافقة.

(٥١) تدل هذه العبارة على مكان التحنيط ولكن من الممكن أن تشير أيضا إلى المقبرة.

(٥٢) أبو منجل الذي يعيش على شواطئ النيل في طين النهر.

(٥٣) إشارة بلا شك إلى الوجه القبلي. حول هذه الصورة التي توجد بين السفينة والدولة وإحدى المناطق.

(٥٤) لان سيدات بيوت الزمن الماضي صرن خادمات

(٥٥) إشارة إلى البدو، وبدو ارض كنعان على نحو خاص، اللذين تسللوا إلى مصر عبر الحدود الشمالية الشرقية

(٥٦) تأكد وجود علاقات بين مصر وميناء فينقيا العظيم منذ اقدم العصور، وتشهد هذه العلاقات التجارية على ازدهار مصر(استيراد خشب الآرز على نحو خاص) وتختفي هذه العلاقات في عصر الركود الاقتصادي.

(٥٧) كان يستعمل شجر الارز في صناعة التوابيت النفيسة. وصار التحنيط منذ الآن أمرا " متروكا للصدف": فعند تحنيط الكهنة بصفة خاصة، استخدمت نفس المواد التي كانت تستخدم في السابق في الشعائر التي تقام للآلهة.

(٥٨) حرفيا : " ماؤنا ". كان تعبير " أن يكون على ماء مصر " تشير إلى البلدان الخاضعة لمصر وكانت موالية لها. وتزخر اللغة المصرية بالاستعارات النهرية.

(٥٩) "عرض " من جراء البؤس المدقع.

(٦٠) تغتصب المقابر وتلقى المومياوات خارجها.

(٦١) البلاد جرداء وخاوية مثلها مثل حقول الكتان بعد اقتلاع النبات، وبالفعل لا يتبقى شئ فوق التربة.

(٦٢) كان الوجه البحري الشديد الرطوبة يعج بالنبات وأدغال البردي. ولكن نقص الماء تسبب في ذبول النبات الذي لم يعد يخفي الطرقات. وربما المقصود هنا بهذه الصورة بروز مشهد جديد (؟)، اكثر تجرداً، ولكن من المحتمل أن يكون المقصود بذلك " الدروب " التي – سيسلكها من الآن الأجانب القادمون من آسيا.

(٦٣) ديوان الملك.

(٦٤) يستخدم نفس اللوح للنوم ولحمل الأحمال (؟)

(٦٥) أو " أغانيها من اجل آلهة الموسيقى ". (؟) وسوف تستخدم نفس الكلمة " مريت " فيما بعد، ولكن مع المخصص الإلهي، لتدل عندئذ بوضوح على الآلهة.

(٦٦) حرفيا : " ذو الوجه المتوهج ".

(٦٧) إن الفراغ الذي يعيش فيه الإله يجلب إليه الملل.

(٦٨) باختفاء السجلات لم يعد أحد يعرف الحر من غيره.

(٦٩) حرفيا : " قوانين القاعة الخاصة موضوعة من الآن أمامها ".

(٧٠) المجلس المكون من أعظم ثلاثين موظفا في المملكة.

(٧١) حرفيا :"المجلس الخاص العظيم. " فمنذ الآن "اخرج حتى يستطيع الدخول"

(٧٢) وزارات المملكة.

(٧٣) نفس هذا المقطع موجود في تعاليم أمنمحات الأول

(٧٤) إشارة إلى اختطاف أحد أبناء بيبي الثاني. (؟) اغتصاب المقبرة الملكيه

(٧٥) الأسرار التي يعرفها الملك وحده.

(٧٦) الثعبان الحارس لمكان مقدس، والقصر الملكي هو المقصود هنا.

(٧٧) حرفيا :"البلاد "معقودة" "وموجده" تحت سيطرة عصابات اللصوص" ؟

(٧٨) مقبرة قام بسلب مالكها الحقيقي.

(٧٩) حرفيا :"التي تفيض وتتساقط."

(٨٠) إن جرار النبيذ التي نشاهدها في النقوش والرسومات، كثيرا ما تحاط بأكاليل الزهور.

(٨١) حرفيا :" بالنظر إلى النقص ".

(٨٢) إشارة محتملة إلى دعارة الصبية (؟) لمواجهة المشاكل الناجمة عن البؤس.

(٨٣) حرفيا :"سقطنا في الخراب"

(٨٤) يعتبر ذلك في مصر من الأمور الخطيرة بمكان، لان كل شكل منحوت أو مرسوم فمن إذا ما توفرت له بعض الظروف، أن تدب فيه الحياة، ومن ثم تمكين الموتى من العودة إلى الحياة، ومن هنا يسهم في الحرفيين في عدم عودة الموتى على الأرض

(٨٥) كان الكاهن يمضغ النطرون ليطهر فمه.

(٨٦) المتشرد.

(٨٧) حفظت لنا هذا النص مخطوطة واحدة توجد حاليا في متحف برلين. ويرجع تاريخها إلى الأسرة الثانية عشر. وتعتبر هذه الوثيقة أيضا صدى للثورة الاجتماعية التي عمت مصر إبان عصر الانتقال الأول. وإلى جانب العديد من الإشارات إلى التقلبات الاجتماعية، يؤكد هذا النص على الأزمة الأخلاقية التي مر بها آنذاك الشعب المصري. كان الفرد حتى الآن يعيش في "إطار" مجتمع تراتبي ومتوازن وفجأة يترك لوجه مع نفسه. بعد أن ضرب بقيمة التقليدية عرض الحائط. حقا لقد كانت أزمة روحية خطيرة، سوف تقود إلى أن يدرك الإنسان ذاته "كفرد" وليس كعنصر من مجتمع جمعي.

النص المصري :

KURT SETHE ,Aegyptische Lesestucke , Leipzig , 1928 , pp . 34 - 46

H . GOE DICKE : The report about the dispute of a man with his "ba" Baltmore , 1970 , 10 pll .

(٨٨) راجع الهامش ٢٤ من الفصل الثاني في الباب الأول.

(٨٩) يبدو من ناحية، إن الإنسان سيبقى وحيدا تماما، وان هجو ال"با" من ناحية أخرى قد يعنى القضاء التام على الإنسان بعد الوفاة.

(٩٠) من الراجح هنا إنها إشارة إلى عودة ال"با" إلى جسد الإنسان الذي يعتبر من العناصر المكونة له والذي سوف يحتجزه مثلما تحتجز الشبكة صيدها.

(٩١) يأمل الإنسان أن شفاءه سيحمل الآلة على إصدار حكم ينصفه ويمكنه من بلوغ الحياة الأبدية. وربما كان يشير "إمدس" إلى "انبو". (أنوبيس) والقاعة المقدسة هي قاعة المحكمة.

(٩٢) يستطيع الرجل الميسور أن يوفر لنفسه كل ما يحتاج إليه من ماديات للبقاء حيا (موميا – مقبرة – خدمة جنائزية). أما الإنسان المحروم من الموارد فعليه الانتفاع من الحياة لأنه لا يضمن ما قد يحدث له بعد الوفاة.

(٩٣) حرفيا :"هذا الأخير" الذي يشير إلى ال"با".

فالإنسان يتحدث تارة إلى الـ "با" بصيغة الغائب، وتارة أخرى يوجه إليه الحديث بشكل مباشر.

(٩٤) الموت هو المصير الذي ينتظر الجميع ولكنه انتقال إلى حياة جديدة وأحد شروطها هو الإبقاء على ذكرى اسم المتوفى. وبالفعل وبفضل قدرة الكلمة الخلاقة، فإذا نطق اسم شخص ما، يعنى المساهمة في بعثه.

(٩٥) ليحمل "با"ءه على تقبل "الموت" يعشمه الإنسان بتحويلات سعيدة : مماثلة لتحويلات الملوك الراقدين في الهرم – أو تلك التي تضمنها الخدمة الجنائزية التي تكفلها لهم ذريتهم بعد وفاتهم، لتؤمن لهم الحياة الأبدية.

(٩٦) أي جسد الإنسان ووعاء "با"ه.

(٩٧) أي في انتظار حلول الأجل المضروب للوفاة (؟)

(٩٨) سيضطلع ال"با" بالدور الذي يقع على عاتق الابن في المعتاد. إذ اصبح الإنسان وحيدا على الأرض.

(٩٩) الجبانة التي تقع في المعتاد على الأرض مرتفعة على حافة الأرض المنزرعة.

(١٠٠) موضوع ثابت في أناشيد الولائم

(١٠١) قصة تفتقر إلى الوضوح إذ تضم فجوات على قدر من الخطورة.

(١٠٢) توحد اللغة المصرية بين النفور المادي (الراجع إلى رائحة مقززة) والنفور المعنوي. فالكلمة الدالة على المعنيين واحدة.

(١٠٣) يقودنا ذلك إلى الاعتماد على صورة مادية أحيانا وروحية أحيانا أخرى، تتجمعان فيما بينهما على حد سواء

(١٠٤) من الراجح انه زوج الأم.

(١٠٥) حرفيا :"الذي ينفذ إلى القلب ".

(١٠٦) حرفيا :"هو" الانتقال إلى صيغة الغائب للدلالة على الإنسان ذاته.

(١٠٧) يتطابق الانسحاق الذي يجلبه الموت بالانسحاق الذي توفره سعادة المعرفة المكتسبة.

(١٠٨) "الذي يوجد هنا" يشير إلى "اليائس" ذاته. ويؤكد النشيد حقه في الأبدية، ككيان حي مؤله، يشارك في رحلة قارب الشمس.

[تاسعا]

فن الحياة للوزير " بتاح حوتب"[١]

تعاليم عمدة المدينة "بتاح حوتب" وزير ملك الوجهين القبلي والبحرى "إسيسى"[٢] الحى على مر الزمان وإلى الأبد

تمهيد

يقول عمدة المدينة الوزير " بتاح حوتب"[٣]

" أيها العاهل، أيا سيدى، لقد حلت الآن السن المتقدمة، وانقضت الشيخوخة(علىّ). والتدهور دون توقف يتحدد بعد أن فرض نفسه فرضاً [٤]. والمرء يغفو طوال اليوم. والعينان مريضتان والأذنان صماءان. والقوة ذهبت لأن القلب منهك، والفم صامت لا يتكلم ابدا، والقلب لم يعد يفكر، [٥] بل إنه لم يعد يتذكر الأمس. العظام باتت مصدراً للألم بسبب طول مدة الحياة. وماكان مصدر سعادة بات الآن تعاسة. لقد دلت جميع الأحاسيس، أن ما تسببه الشيخوخة للإنسان، هو أمر سيئ، من جميع النواحي. الأنف لم تعد تتنفس، والوقوف والجلوس مؤلمان على السواء. اسمح إذن بأن يصدر الأمر بأن يشكل خادمك[٦] لنفسه عصا الشيخوخة[٧] حتى أستطيع أنْ أقول كلمات الذين أنصتوا في الماضي ونصائح الأجداد الذين أطاعوا الآلهة. عندئذ سيفعل القوم من أجلك الشيء ذاته، وتطرد الشرور بعيداً عن شعب مصر وتعمل الضفتان من أجلك[٨].

تكلم إذن جلالة هذا الإله (=الملك) قائلاً: (علّمه كلمات الزمن الماضي. فلتجعل منه نموذجاً لصبية العظماء، فلينفذ إليه الانشغال بالإصغاء، مثله مثل العدالة

التي في كل قلب، وذلك عندما يخاطبه الناس. ليس هناك طفل صار حكيماً منذ صباه.

كلمات مأثورة:

بداية الحديث المؤلف من كلمات جميلة وطيبة الذي فاه به النبيل، الأمير، الأب الإلهي، المحبوب من الإله، ابن الملك الذي هو من صلبه، عمدة المدينة الوزير "بتاح حوتب" (فاه به) بينما كان يعلم المعرفة لمن لا يعرف، ويعلم قواعد الكلام الصحيح. سوف ينطوي ذلك على أعظم النفع لمن يصغي إليها، ولكنه سيكون وبالاً على من يخرج عليها.

يقول لأبنه

عن التواضع

* ليت قلبك لا يكون متحرفا بسبب ما تعرفه. لا تملأ عقلك بفكرة أنك عالم، شاور الجاهل بنفس الأسلوب الذى تشاور به الإنسان صاحب المعارف، فالمرء لا يصل أبداً إلى حدود فن من الفنون، ولا يوجد حرفى بلغ حد التفوق. الكلمة السديدة قد تكون مختفية أكثر من زمردة، ويمكن للمرء أن يعثر عليها بين الخادمات المنحنيات على الرحى- (**الحكمة الأولى**).

عن المحادثة

* إذا التقيت بمحاور فى (أفضل) لحظاته، وكان سامى القلب ماهرا أكثر منك، عندئذ اخفض ساعديك، واحن ظهرك. ولا تحسده، [٩] ولكن عليك ألا تمكنه من أن يستند عليك. وسوف تحط من قدره إذ (قال) كلمة سوء،

ولا يفوتك أن تفنده فى الوقت المناسب، بحيث يقال عنه "ياله من جـاهل!" إلى أن يقضى قلبك على أساليبه (**الحكمة الثانية**).

* إذا التقيت بمحاور فى (أفضل) لحظاته، وكان مساويا لك، وصاحب منصب، عندئذ تصرف بحيث تظهر مهارتك كأرقي من مهارته لا تلتزم الصمت (لاسيما) عندما يقول قولا سقيما. وسوف يؤيدك المستمعون. وتصبح لك سمعة كرجل صاحب معرفة طيبة وسط العظماء - (**الحكمة الثالثة**)

* إذا التقيت بمحاور في (أفضل) لحظاته، وكان رجلا متواضعا، ولم يكن بالتأكيد مساويا لك، فلا يثورن قلبك ضده لأنه ضعيف ولا تطرح عليه أسئلة، للترويح عن نفسك، كما لا تهدئ قلب الذى يعارضك على هذا النحو "اطرحه-على -الأرض" حتى يعاقب نفسه بنفسه.[١٠] إنـه لمن المؤسف أن يهان رجل لأنه محدود الفكر- إذ أن كل أمريء يتصرف حسب مافى قلبه - ولكنك ستضربه عن طريق استهجان العظماء- (**الحكمة الرابعة**)

العدالة والحقيقة.

* إذا كنت رئيسا، يصدر أوامره إلى جمع غفير من الناس، اغتنم كل فرصة للعمل الخيرّ، بحيث يكون سلوكك لاغبار عليه.

هامة هى "الحقيقة- العدالة" فثروتها تدوم، ومنذ زمن خالقها، فإنها لم تتعرض أبدا للعواصف، ويعاقب كـل مـن يخرج على نواميسها. إنهـا سراط يمتد أمام الجاهل. أما الخسة فلم يسمح لها أبدأ بالرسو فى أى من الموانىء قد تستطيع الدناءة أن تحقق الثروات ولكن قوة "الحقيقة- العدالة" هى فى دوامها، ويستطيع المرء أن يقول (عنها): إنها الثروة التى كان يمتلكها أبى- (**الحكمة الخامسة**):

عن الوداعة

* لا تبث الرعب بين الناس وإلا فسيعاقبك الإله بالمثل. إذا فكر إنسان أن يعيش بهذا الأسلوب، فأن فمه سيحرم من الخبز...[11] لا تسمح للخوف من الناس أن يظهر، فمشيئة الإله هى التي ينبغى أن تظهر. وستعمل على أن يعيش الناس فى سلام، عندئذ سيحضرون ويعطونك من تلقاء أنفسهم (**الحكمة السادسة**)

عن آداب المائدة

* إذا كنت واحدا من المدعوين الجالسين إلى مائدة شخصية أرفع منك شأنا، فتناول ما يعطيك عندما يقدم لك ذلك. لا تنظر إلى ما أمامه، بل إلى ما هو أمامك. لا ترشقه بنظرات كثيرة، لأن "المساس به" على هذا النحو هو أمر يمقته الـ"كا". لا تتحدث إليه، إلى أم يوجه إليك الكلام، لأنه يصعب على المرء أن يعرف ما قد لا يعجب. ابق وجهك منخفضاً، إلى أن تسأل، ولا تتحدث إلا بعد أن يطرح عليك السؤال. اضحك عندما يضحك، فذلك سيثلج قلبه جدا، يجب أن يكون ما تفعله مرضيا له، فلا يعرف المرء أبدا مافى القلب.

إذا جلس شخص عظيم إلى المائدة، فإن سلوكه يتحدد حسب توجيهات "كا"ئه، فيعطى من له حظوة لدية. والحق أن العظيم يعطى لمن يستطيع أن يصل إليه، لكن "كا"ءه هو الذى يبسط ذراعيه (ليعطى)، إن أكل الخبز يعتمد على المقاصد الإلهية، وجاهل من يشكو من ذلك -(**الحكمة السابعة**)

كيف تكون رسولاً أميناً

* إذا كنت رجلا موضع ثقة، أوفده عظيما من العظماء إلى عظيم أخر، كن شاهدا أمينا على شخصية من أوفدك، وسلم الرسالة كما أمليت عليك، ولا تنس شيئا. تجنب تحريف الكلمات (التى أؤتمنت عليها) حتى لا تزرع الشقاق بين عظيمين. التزم بالحقيقة، ولا تتجاوزها، فالهدوء لا يعود أبداً. (كذلك) لا تتحدث إلى أى كان، سواء كان الرجل كبيرا أم صغيرا (عن الرسالة) لأن الـ"كا" يمقت ذلك -(**الحكمة الثامنة**).

عن الكرم

* إذا حرثت فليكن حقلك مزدهراً، وليعطك الإله بوفرة ولا تتباه كثيرا بذلك، ولا تطالب من لا يملك بشيء. حاذر لكلامك لدى جيرانك، فعظيم هو الاحترام الذى يحظى به الرجل الصامت، الإنسان القوى [١٢] هو إنسان ثرى، لأنه يتحكم فى القضاة، [١٣] مثل التمساح كما لا تطلب شيئاً ممن له أولاد. لا تصدر نقدا أو تعرب عن المباهاة بهذا الصدد. عدد كبير من الأباء هم أيضاً معوزون. وربما كانت الأم التى انجبت، أقل رضا من (امرأة) أخرى إن الإله هو الذى يحيى الإنسان الوحيد. فى حين يتضرع رب الأسرة من أجل خلف و .. (**الحكمة التاسعة**).

الاحترام الواجب فى حديث النعمة

* إذا كنت فقيراً وفى معية رجل مرموق فاعمل على أن يكون سلوكك كله كاملاً لدى هذا الإله. (؟) [١٤]. تجاهل وضعه البسيط فيما مضى. لا تكن متعجرفا معه بسبب ما تعرفه عنه من قبل. بل تحلى فى حقه بشيء من الاحترام بسبب ما حدث له، فالثروة لا تهبط من تلقاء نفسها. إن ما يرغبه

(هؤلاء البشر) هو قانونهم، والذى يغزو يثير الخوف. ولكن الإله هو الـذى خلقـه ماهراً وهو الذى يقترب منه أثناء نومه- **(الحكمة العاشرة).**

فى السعادة

* اتبع رغبتك على امتداد حياتك. لا تفعل أكثر مما هـو محـدد لـك ولكن لا تختصر زمن "التقيد-بالقلب". (١٥) إن إبادة لحظة هو أمر يمقته الـ "كا"! لاتصرف نشاطك إلى الأعباء اليومية، بدافع من الاهتمام المبالغ فيـه بشئون دارك. وعندما تأتى الثروة اتبع رغبتك، لأن الـثراء لا يكتمـل إذا لم يكـن المـرء سـعيدا - **(الحكمة الحادية عشرة).**

السلوك فى حق الأبناء

* إذ كنت رجلا ذا شأن، وإذا انجبت أبناء، بفضل الإله، وإذا كـان هذا الأخير دمثـا، وإذا كـان قريبـا مـن طبيعتـك وينصـت إلى تعـاليمك، وكـانت نصائحه موفقة فى دارك، وإذا كان يعنى بممتلكاتك كما ينبغـى، عندئـذ انشـد لـه الخير. لأنه ابنك المولود من بذرة "كا"تك، ولاتفرق بين قلبك وقلبه.

ولكن بذرة الرجل يمكن أيضا أن تخلق عدوا. وإذا ضل هـذا الأخير وخـرج علـى نصائحك، وإذا لم يتبع تعليماتك، وإذا كانت مقـاصده سـيئة داخـل بيتـك، وإذا تمرد على ما تقول، بينما يتفوه فمه بكلمات شريرة، فاعرض عنه، ولا يؤول شـيئا إلى ملكيته، أطرده لأنه بالتأكيد ليس ابنك و لم يأت إلى الدنيا من أجلـك. واجعـل منه خادما بسبب كل كلامه، وضعه فى زمرة الذين يستحقون التوبيخ فلقد كتـب الإله له الشقاء منذ أن كان فى بطن (أمه).

أولئك الذين يقومون لا يستطيعون السير عكس الطريق، (وبالمثل) فالذين لا يملكون قاربا لا يستطيعون العبور- (**الحكمة الثانية عشرة**).

احترام البروتوكول

* إذا تواجدت فى قاعة انتظار، فلتقف أو تجلس طبقاً للتعليمات التى أمليت عليك فى اليوم الأول. ولا تتجاوزها، فقد ينصرف القوم عنك. والوجه البشوش يكون فى انتظار من يدخل بعد الإعلان عن قدومه، وكبير سيكون "مقعد" [١٦] من يُنادى عليه. قاعة الانتظار تخضع لقاعدة، وكل تصرف له قيمته المحددة. ولكن الإله هو الذى خلق التفوق وهو الذى يهب الترقية لصاحب الطبيعة الطيبة والمستقيمة. ولايربح شيئاً من شق طريقه عنوة- (**الحكمة الثالثة عشرة**).

عن الإخلاص

* إذا كنت فى صحبة (غيرك) من الناس، فلتصنع لنفسك زبائن بفضل إخلاصك، فالرجل المخلص، يكون ذا سمعة طيبة، عندما لا يستجيب لما تمليه عليه بطنه.[١٧] أما بالنسبة للرجل الغنى، فماذا يجب أن يكون عليه سلوكه لكى يصبح هو نفسه رئيساً ؟ على الناس أن يهابوه ليس إلا، وفقا لمركزه. (وهكذا) ستكون سمعتك طيبة حتى دون أن تتكلم، وسيتغذى جسدك جيدا، ووجهك سيلتفت إلى من يحيطون بك. وسيمتدحك الناس حتى دون أن يعرفوك. ولكن الذى يضل قلبه بالاستجابة لبطنه، سيحتقره الناس بدلا من أن يحبوه، وسيكون قلبه أقرع [١٨] وجسده ضعيفاً.

الرجل صاحب القلب الجياش، هبه من الإله ولكن من يستجيب لبطنه ينتمى لعدو - (الحكمة الرابعة عشرة).

عن الرسول

* انقل توجيهاتك بأمانة، (١٩) عندما تعرض شئونك فى مجلس سيدك. أما فيما يتعلق بالإنسان المشوش فيما يقول، فمن السهل أن يختلط الأمر على الرسول الذى ينقل (أقواله):" ولكن، ترى من ذا الذى يعرف ذلك؟" أما السيد الذى ستضطرب أعماله، فإنه إذا أراد أن يعاقبه (= الرسول) على ذلك، فلن يستطيع هذا الأخير سوى أن يصمت بعد أن يكون قد تكلم- (**الحكمة الخامسة عشرة**).

أن يكون المرء رئيساً

* إذا كنت رئيساً فعلى قراراتك أن تسير فى طريقها فى (٢٠) حرية، بناء على أوامرك، كما عليك أن تحقق أشياء سامية فكر فى الأيام التى ستلى ذلك، حتى لا يأخذ أى فعل (يستوجب الندم) مكانة وسط المدائح. عندما يحضر التمساح، تفاجئنا الكراهية، ويعود المرء إلى التمرد -(**الحكمة السادسة عشرة**).

* إذا كنت رئيسا، فأنصت فى هدوء إلى كلمات الشاكى، ولا تصرفه، طالما لم "ينظف" جسده من كل مكان يفكر فى أن يقوله. يميل الإنسان البائس إلى غسل قلبه أكثر من أن يرى أن ما جاء من أجله يتحقق. (٢١) كم هو مفرح لكل شاك أن (يلمس) الأعراب عن العون والاهتمام.

أما الشخص الذى قد يصد من جاء يرفع إليه التماسا، فسوف يقال عنه:" لماذا طرده إذن؟" من المؤكد أن كل ماكان يريد أن يطالب به لن يتحقق. ولكن الاستماع باهتمام إلى هذا (البائس) هو بمثابة "ترتيب" على قلبه(٢٢) - **الحكمة السابعة عشرة).**

عن خطر النساء

* إذا كنت ترجو لصداقة أن تدوم، في منزل تتردد عليه، كسيد أو كأخ أو كصديق، وفى أى مكان تذهب إليه، فتجنب الاقتراب من النساء. فأينما وجدن. لا يكون الجو طيبا. ليس فطنا من ينكسر بسببهن. ولكن هكذا ينصرف آلاف ينصرف الناس عما يجلب الخير لهم. ويمكن أن يفقد الإنسان رشده من أجل جسد لامع ليصير المرء أشبه بحجر "حرست". [٢٣] إنها للحظة قصيرة، كلمح البصر أشبه بحلم، ويحل الموت فى النهاية، لأننا عرفناهن. إنها كلمة يائسة " أطلق ضربة على العدو". ويخرج المرء [٢٤] للقيام بها، ولكن القلب (= العقل) يرفضها. لا تفعل ذلك إنه أمر يمقته الأولاد. هكذا، كن خاليا من الحزن، كل يوم.

أما الرجل الذى قد يخطئ بسبب ما يكنه من شهوة لهن، فلن يتوج أى مقصد من مقاصده بالنجاح- (**الحكمة الثامنة عشرة**).

عن الجشع

* إذا أردت أن يكون سلوكك كاملا، أعرض عن الشر أيا كان. وابتعد (بشكل خاص) عن أفعال الطمع، لأنه مرض موجع، لا شفاء منه، يبعد عنك جميع المترددين عليك. إنه يذل الآباء والأمهات والأخوة والأخوات على السواء، وتجعل وداعة الصداقة حادة، وتبعد الصديق عن سيده، وتفرق بين الزوج

وزوجته. إنه "حزمة " مشكلة من كل ما هو سيئ إنه كيس يحوى ما يستحق اللوم.

ولكنة سيعيش طويلا ذلك الرجل الذى تكون الحقيقة- العدالة هى خط سلوكه والذى يسير حسب خطواتهما.

وبفضل ذلك سيتمكن من كتابة وصية. بينما الرجل الجشع لن يكون له قبر- (الحكمة التاسعة عشرة).

* لا تكن جشعا عند القسمة، لا تكن شرها إلا فيما يخص نصيبك، لاتكن نهما حيال من يحيطون بك. إن شكوى الرجل الوديع أكثر أهمية من شكوى الرجل القوى. من يخون محيطه،هو رجل له القليل، وهو محروم من مساندة الكلمة. [٢٥] إن هذا القليل الذى حرم منه هو الذى يحول (أحيانا) رجلا وديعا ولطيفاً بطبعه إلى عدو -(**الحكمة العشرون**).

من أجل الفوز بزوجة صالحة

* إذا كنت رجلا رفيع المقام، فأسس بيتا وأعزّ زوجتك فى منزلك كما ينبغى. أملأ بطنها وأكس ظهرها. والأدهنة هى أيضا علاج (حقيقى) لأعضائها. ومن ثم أجعلها سعيدة مادمت حيا. إنها حقل خصب لمن يملكه. لا تحكم عليها، بل ابقها بعيدا عن القيادة، لأنها قد تثير العواصف. " ربت" على قلبها بما يتأتى لك من (سعادة). ومن ثم سوف تبقى فى بيتك. إذا صددتها. عندئذ تنهمر الدموع. والمهبل هو ما تقدمه فى إطار ظروفها،(٢٧) وما تطلب به هو أن يعد المرء لها قناة- (**الحكمة الحادية والعشرون**).

عن الأصدقاء

* ارض أصدقاءك بفضل ما يتأتى لك (من أمور سعيدة)، إن الإله يثنى على ما يتأتى للمرء. إذا قصّرت فى إرضاء أصدقائه (على هذا النحو) سيقال (عنك) : هذا إنسان أناني.

مامن إنسان يستطيع أن يعرف ما يمكن أن يحدث، ولو كان يعتقد أنه يستطيع معرفة الغد. الرجل النزيه الذى يرضى(٢٨) هو رجل (حقيقى) لأن من يفكر فى الغد. لا يعرف ما سيأتى به هذا الغد - إذا صادفتك فرص مواتية، فالأصدقاء هم الذين يقولون: " مرحبا!" وإن لم يتمكن المرء من إعادة الهدوء إلى منزله، فيمكن اللجوء إلى الأصدقاء عند وقوع بعض القلاقل- **(الحكمة الثانية والعشرون).**

عن النميمة

* لا تردد النميمة، بل لا تستمع إليها، لأن مصدرها _رجل) ذو طبيعة مندفعة، ردد مسألة رأيتها وليس التى سمعتها، هذه عليك أن تحتقرها ولا تتحدث عنها قط. عندئذ سيعرف مدى سموك. (وبالمثل)، إذا حرض شخص على سرقة، فسوف يظهر الناس الكراهية لمن سرق.(٢٩) والنميمة أشبه بفعل ينتمى للحلم، (٣٠) يتعين معاقبتها. أما أنت فتحاشاها كلية- **(الحكمة الثالثة والعشرون).**

عن الكلام

* إذا كنت رجلا متميزا يأخذ له مكاناً فى مجلس سيده " استجمع قلبك" طلباً للسمو. كن صامتا، فذلك أكثر نفعا من الإضراب، لا تتحدث، إلا عندما تدرك أنك تستطيع أن تقدم حلا. إن "الفنان" هو الذى يتحدث فى

المجلس، لأن الحديث اصعب من أى عمل (آخر). ومن يفهمه يكتسب السلطة- **(الحكمة الرابعة والعشرون).**

أن يكون المرء رئيساً

* إذا كنت رجلاً قديراً فاعمل على أن يخشاك الناس بسبب علمك وكلامك الهادئ. لا تأمر إلا لكى تقود. أن يكون (المرء) عنيفا، يعنى الإنسياق للشر، لا تكن متعال، حتى لا تنحط. ولا تكن صموتا، ولكن تجنب الإساءة أو الرد بكلام حاد. أشح بوجهك. وتمالك نفسك، فلهيب مزاج (شديد) الاندفاع يمكن أن "يعصف" بالإنسان الطيب الذى سيساء هكذا إليه وتداس دروبه.

الإنسان ذو القلب المغموم طوال اليوم، لا يعرف لحظة سعادة ولكن الإنسان ذا القلب غير المكترث لن يستطيع تأسيس بيت(٣١) من يرمى السهام لدية مخزون كبير، مثل من يدير السكان للرسوّ، بينما يمسك آخر بحب المرساة، (ومثل) الذى يطيع قلبه (=عقله) عندما يصدر الأوامر (٣٢) - **(الحكمة الخامسة والعشرون).**

عن احترام العظماء

* لا تقاوم سلطة عظيم، ولا تناوئ من كان حمله ثقيلاً. لأنه سيرتكب خطأ فى حق من يعاديه ولكنه سيحسن [٣٣] إلى من يحبه. من هو مع الإله [٣٤] له مدد من القوة، وما يرغبه سيتحقق من أجله. هدئ إذن وجهك بعد العاصفة، وسيحل السلام إلى جانب شخصك. (واترك)العدوانية للعدو. إن قوة الإنسان هى التى تنمى الحب- **(الحكمة السادسة والعشرون).**

* علّم الرجل العظيم ما يمكن أن يعود عليه بالنفع وهيئة بذلـك لأن يلقـى ترحيباً سعيداً بين الناس. واعمل على أن تؤدى حكمتك إلى نجاحـه. لأن معاشـك هو فـى أن تظـل إلى جـوار شـخصه. (وبـالمثل) سيصبح جسـد صـاحب الحظـوة راضياً.[٣٥] و(بالمثل) سيجد ظهرك الكسـوة نتيجة لذلـك، وستظللك لكـى تمنـح الحياة لبنيك وستبقى إلى جوار رئيسك الـذى تحبه، والـذى يحيا مـن وراء ذلـك، (وفى المقابل) سيكون (لـك) عونـا حميـدا. ومـن ثـم فـإن السـكينة والحـب لـك، سيدومان فـى أجسـاد أولئك الذيـن تحبهـم إنـه لرجـل [٣٦] ذلـك الـذى يحـب الإنصات– **(الحكمة السابعة والعشرون)**.

عن العدالة

* إذا كنت ابنا لأحد القضاة ورسولا ينال إعجاب الجماهير حـافظ على حياد العدالة ولا تنحاز إلى طرف. تجنب أن يقول (شخص ما) بصدد قـرارك "أيها القضاة، إنه قد أدلى بحديث فيه محاباة". عندئذ قد ينقلب عملك ضدك[٣٧] – **الحكمة الثامنة والعشرون)**.

* إذا كنت قد تسامحت فى قضية سابقة، فملت لصالح رجل بسبب استقامته، فدعه وشأنه، وأنساه مادام قد بقى صامتاً بخصوصك فى اليوم الأول **(الحكمة التاسعة والعشرون)**.

* إذا أصبحت عظيما بعـد أن كنـت رقيـق الحـال، وإذا كنـت حصلت على ممتلكات، فى مدينة تعرفهـا، بعـد أن عرفـت الفاقـة فيمـا مضـى، تندب حالك بسبب ما كنت عليه فـى المـاضى، كمـا لا تضـع ثقـة (كبـيرة) ثروتك. فهذه الثروة التى واتتك هى منحة من الإله ومن ثم فـإنك لـن توضـع فـى خلف رجل آخر مساو لك ممن حدث له نفس الشيء [٣٨]– **(الحكمة الثلاثون)**.

عن احترام السلم الوظيفي

* احن ظهرك فى حضرة من هو أعلى منـك، رئيسك فـى القصـر الملكى، ومن هنا سيدوم منزلك بثرواتك وسوف تكسب أجرك بشرف. فالذراع الممدود لن يبقى مشلولا. (٣٩) إنه أمر سيئ أن يقاوم المرء، فالمرء رئيساً يحيا طالما حافظ على مرونته.

لا تستول على منزل الجيران. لا تضع يدك على أملاك قريب. فهذه ليست بالأمور الطيبة، لمن يرتكبها، حتى لا يشكون منك إلى أن ترتد الشكوى إلى مسامعك. إن الاعتراض هو ميل سيئ من جانب القلب، ومن يمارسه(٤٠) سيصبح عدوا، إذ أنه من المستهجن خلق القلاقل فى الجوار - **(الحكمة الحادية والثلاثون)**.

ضد الشذوذ الجنسى

* لا تزاوج حدثا مخنثا، لأنك تعلم أنك تعارض هذا "الماء الذى على قلبه"،[٤١] ولن يستطيع أن يهدأ بسبب هذا الذى لا يزال فى جسده لا تسمح له أن يقضى الليل فى ممارسة ما هو محرم. ومن ثم سيهدئ روعه بعد أن يكون قد أرضى شهوته بشكل وهمى- **(الحكمة الثامنة والثلاثون)**.

عن الحصافة

* إذا أردت اختبار طباع صديق، فلا تطرح أسئلة، ولكن تقرب منه، وابق وحدك فى صحبته، بطريقة لا تجعله يعانى من ذلك وتحدث معه بعد فترة من الزمن، واختبر قلبه فى معرض تبادل،[٤٢] وإذا أقدم على فعله أثارت استياءك فالزم الصمت أو ابق على ودك، ولكن لا تول وجهك عنه. وكن حذراً،

إذا كشف لك عن مشكلة، ولا ترد عليه بعمل عنيف لا تنفصل عنه، لا تصرفه، وتجنب اتهامه. فلم يحن بعد زمنه، ولكن أحداً لا يفلت من قدره - (**الحكمة الثالثة والثلاثون**).

عن الكرم

* كن كريما وديعا [٤٣] طوال أيام حياتك. إن ما يخرج من الاهراء لا يعود إليه، والناس نهمون بشأن نصيبهم في الخبز. من كان خاوى البطن (سرعان) ما يوجه الاتهامات وتتحول المعارضة إلى كراهية لا تعمل على أن يكون في بطانتك إنسان مماثل. [٤٤] إن الدماثة هي ما يتذكره الناس من المرء على مر السنين بعد (أن يترك) منصبه الرسمي -(**الحكمة الرابعة والثلاثون**).

عن الطبيعة الطيبة

* اعرف الأقربين جيداً، [٤٥] بذلك تبقى ثروتك. لا تكن سيئ الطبع مع أصدقائك فهذا شاطئ مغمور بالمياه، [٤٦] وأهم من الثروات. لأن ما يمتلكه أحدهم قد يمتلكه (فيما بعد) آخر. ولكن طبع ابن رجل كريم الأصل يجلب له الخير. إننا نتذكر الطبع الحميد- (**الحكمة الخامسة والثلاثون**).

عن ردع الشر

* عاقب عقابا شديداً، وقوم تقويما قاطعاً. وسيكون ردع الجريمة مثالا (على قوة) الطبع. ولكن طالما أن الأمر لا يتعلق بفعله سيئة، فدع الشكوى تأتى من الخصم [٤٧] -(**الحكمة السادسة والثلاثون**).

عن المرح النسائى

* إذا تزوجت امرأة (؟) وكانت مرحة ويعرفها جميع أهل مدينتهـا، وإذا كانت كل لحظة لها جاذبيتها بالنسبة لهـا، لا تصدهـا، وأطعمهـا جيـدا، لأن فرح القلب يسمح بتذوق. .. (؟) -(**الحكمة السابعة الثلاثون**).

خاتمة

عن الأب والابن

* إذا أنصت إلى أقوالى ، فسوف ترتفع مكانتك وتسمو. وستدوم حقيقة (هذه الأقوال) فهى ثروتها. ولن تفارق ذكراها أفـواه البشـر، لأن حكمهـا جميلة وطيبة. وسف تتواتر كـل هـذه الأقـوال، ولـن تفنـى أبـداً فـى هـذه البـلاد. وستصبح من أرقى التعبيرات عن (الفكر)، وعنها سيتحدث العظماء.

ذلك يعنى إذن تعليم الإنسان كيف يتحـدث إلى الخلـف، فمـن سينصت إليها فى بداية الأمر سيصير فيما بعد شخصاً ينصت النـاس إليـه. ومـن المستحسن التوجه بالكلام إلى الخلف، لأنهم سينصتون...

لو جاء مثال موفق ممن هو رئيس فسيظل مصـدر خـير إلى الأبـد وستبقى حكمته بالكامل طوال الأبدية.

الإنسان صاحب المعرفة يغذى (باءه) عن طريق ماهو دائم، ومن ثم تسـير جميـع الأمـور علـى الأرض علـى مـا يـرام مـن أجلـه، فهـو مشـهور بفضـل

خبرته.(وبالمثل) ينبغي لأن يكون العظيم مشهوراً بأفعاله الصالحة. وسوف يوزن قلبه ولسانه فى نفس الوقت. ومن ثم يتعين أن تكون شفتاه سيدتين عندما يتحدث. وينبغى على عينيه أن تشاهداً كما ينبغى على أذنيه كليهما، أن تنصتا إلى ما يمكن أن يفيد ابنه- الذى عليه أن يتقيد بالحقيقة والعدالة وأن يكون بعيدا عن الأكاذيب.

* الإنصات مفيد لابن مطيع. ينفذ واقع الإنصات إلى المستمع ومن ثم يصبح المستمع إنساناً مطيعاً. (٤٩) حسن أن ينصت المرء وحسن (بالمثل) أن يتحدث. يمتلك المستمع شيئاً مفيداً: من المفيد فى واقع الأمر للمستمع أن ينصت. الإنصات هو أجمل مافى الوجود. وبسبب ذلك يمكن أن تولد مودة هنية.

كما أنه يطيب للابن أن يتلقى أقوال أبيه، فسوف يصل (هو أيضاً) إلى الشيخوخة ومعه هذا الحمل.

من ينصت ويطيع فهو محبوب من الإله. والإنسان الذى يبغضه الإله هو إنسان غير مطيع.

القلب هو الذى يصنع من صاحبه إنسانا ينصت أو إنساناً لا ينصت، فالقلب هو الإنسان "الحياة-والصحة- والقوة".

والمستمع هو ذلك الذى ينصت إلى كل ما يقال، والذى يحب الاستماع يحقق فيما بعد كل ما يقال.

كم هو جميل أن ينصت الابن إلى أبيه، كم هو سعيد من يقال له ذلك: "الابن لطيف لأنه يتحلى بالطاعة" ومن يقال عنه ذلك، سيزدهر بدنياً (٥٠)

وستظل ذاكراه على فم الأحياء، سواء أولئك الذين يقيمون الآن على الأرض أم أولئك الذين سيأتون فيما بعد.

* إذا تلنى ابن رجل عزيز المنبت أقوال بصدر رحب، فلن يتدهور عمل من أعماله. علم ابنك الطاعة، حتى يتفوق وسط العظماء. " فيقود فمه" حسب ما قيل له، وحتى ينظر إليه كرجل منضبط. هذا الابن متفوق ومسيرته ستكون مرموقة، فى حين سيكون الفشل من نصيب من لا ينصت.

الإنسان صاحب المعرفة يستيقظ مبكرا لتدعيم (وضعه)(٥١) فى حين أن الإنسان الفاقد ليس وسعه سوى "الامتثال".

* الأحمق الذى لا ينصت، لن يستطيع أن يفعل شيئا، لأن المعرفة والجهل فى نظره متساويان، وما هو مفيد مماثل لما هو ضار. إنه يأتى كل ما يدينه الناس من أفعال، حتى أنه يتعرض للوم يومياً بسبب ذلك. إنه يعيش على ما يميت الناس (فى المعتاد)، فغذاؤه هو الكلام الآثم " وطبعه يعرفه العظماء الذين يقولون: " حياته تدمر كل يوم " ويمر الناس مر الكرام على أخطائه، بسبب كثرة المآس التى تنهال عليه يوميا.

* الابن المطيع هو خادم لـ "حورس" (٥٢) فكل شيء بالنسبة له يسير على ما يرام بعد أن يكون قد أنصت.

وعندما يبلغ (بدوره) سن الشيخوخة ويصبح " إيماخو" سوف يتحدث بالمثل خلفه إلى أولاده، مجدداً تعاليم أبيه. وكل شخص يعلم حسب ما تعلم، ويتحدث إلى مثلما سيتحدث هؤلاء، ذات يوم، فيما بعد إلى خلفهم.

اضرب المثل: لا تسمح بأن يسئ إليك أحد. دعم الحقيقة والعدالة، حتى يستطيع أبناؤك أن يحيوا.

ذلك الذى يسير وقد أعيته الملمات سيقول الناس إذا رأوه: هذا يتفق وطبعه(٥٣) ومن يسمعونه سيقولون الشيء نفسه.

ضع كل الناس فى الاعتبار، وارض عددا كبيراً من الرجال فالثروة لا يمكن الحصول عليها بدونهم، لا تنتقص من أى قول ولا تزد عليه، ولا تضع شيئاً مكان غيره. تجنب أن تحل الخبال التى فيك، (٥٤) تحاشى (كثرة) الكلام. تعلم التعرف على الأشياء، أنصت- إذا رغبت أن تدوم على فم الناس. تكلم بعد أن تكون قد تمكنت من فن (الكلام) (٥٥) وتحدث عن الشئون ذات الأهمية الكبرى فحسب. ومن ثم سيحتل كل قصد من مقاصدك مكانه السليم.

* تحكم فى قلبك، راقب فمك. ومن ثم سيكون مقامك وسط العظماء. كن دقيقاً كل الدقة لدى سيدك (٥٦) اعمل بحيث يقال له: "إنه ابن هذا الرجل" ومن سيستمعون إليه سيقولون :" هنيئا له من جاء من أجله إلى الدنيا!".

كن صبوراً مادمت تتحدث، وتفوه بأقوال نابهة، عندئذ سيقول العظماء الذين سيستمعون إليها: " كم هو جميل وطيب ما يخرجه من فمه!".

* اعمل أيضا بحيث يقول سيدك بشأنك: " كم هو كامل هذا الذى علمه أبوه، بعد أن خرج من صلبة. لقد قال له ما كان قد اكتسبه، بالكامل- ولكن ما فعله هو أعظم بكثير مما قيل له.".

تنبه، الابن الصالح هبة من الإله. وعليه أن يعطى أكثر بكثير مما يطالبه به سيده عليه إقامة العدل. وهكذا يفعل قلبه حسب خطواته.

وهكذا تلقانى، نضر الجسد، فى حين أن الملك راض عن كل هذه الأحداث. ليتها تطول سنوات حياتك المديدة! إن ما فعلته الأرض ليس بالأمر الهين: لقد بلغت من العمر ١١٠ سنة، منحنى الملك إياها. إن الحظوة التى تمتعت بها تفوق حظوة الأجداد لأننى أقمت العدالة من أجل الملك من خلال منصب "إماخو".

هوامش

(١) فى حوزتنا أربع نسخ من هذا النص: ثلاث مسطورة على ورق بردى واوحدة على لوحة صغيرة من الخشب.

وأكمل هذه النصوص المدون على بردية بريسPRISSE (وهى موجودة حاليا فى المكتبة الوطنية فى باريس Bibliotheque Nationale de Paris) وترجع نسختها إلى الدولة الوسطى. أما النسختان المسطورتان على البردى والموجدتان فى المتحف البريطانى British Museum (وأرقامها 10509-10371/10345) فإنها ترجع إلى الدولة الوسطى والدولة الحديثة. أما للوحة الصغيرة: كارنافورن رقم واحد Carnavan 1، فهى فى متحف القاهرة. وقد دونت أيضا خلال الدولة الحديثة، ولكنها تعرض بداية النص فقط.

كان "بتاح حوتب" وزير الملك "إسيسى" وهو الملك قبل الأخير من ملوك الأسرة الخامسة (حول ٢٤٠٠ ق.م)

أن النص الذى بين يدينا هو أقدم مبحث فى الأخلاق نعرفه.

النص المصرى:

E. Devaud, Les Maximes de Ptrhotep, Fribourg, 1916

(٢) فى عهد هذا الملك، كان منصب الوزير من الأهمية بمكان، نظرا لأن وظيفة "حاكم الجنوب"(التى أنشأها "إسيسى" لمراقبة حكام أقاليم الوجه القبلى، البعيدين عن بلاط منف) قد أسندت فى عهده إلى الوزير- وكان آنذاك- الشخصية المرموقة التى تلى الملك فى المقام،

(٣) "بتاح- حوتب" حرفيا: " ليت الإله بتاح يكون راضيا"

(٤) حرفيا: " بعد أن يكون قد امتد"

(٥) حرفيا: " لم يعد للقلب وجود"- إذ كان القلب مركز الحياة الإنفعاليه والفكر فى المقام الأول.

(٦) أى "بتاح- حوتب" شخصيا. وهو أسلوب، شرقى جداً، لإبراز التواضع الذى يتحلى به المرء فى علاقته مع رئيس.

(٧) أنها ترجمة حرفية للتعبير المصرى، ومن ثم فإن استخدام تعبير مماثل فى لغتنا الحديثة يضرب بجذوره فى غياهب الماضى.

(٨) القيد "السحرى" للكلمات: أن منفعة يقابلها أخرى، عملا بقانون "التبادل الضمنى".

(٩) حرفيا: "لا توجده غربتك هذه".

(١٠) بمعنى : إما "حض براهينه" أو احتقره" بالأحرى. وبتالى يفضى موقفه الخاص إلى عقابه الخاص

(١١) مقطع قصير، غامض المعنى.

(١٢) حرفيا:"عنده شخصية".

(١٣) لا يستطيع أن يقومها أحد.

(١٤) لاشك أن المقصود بها هو السيد شخصيا.

(١٥) أيام العمر أو الحياة.

(١٦) المقصود هنا قاعة الانتظار الملحقة بقاعة الاجتماعات. أن احترام البروتوكول يؤدى إلى "اعتدال مزاج "السيد حيال من يلتزم به. ومن ثم يكون المنصب الذى يسند إليه من الأهمية بمكان.

(١٧) أى غريزته وجشعه. ومن يتعين أن يقوده القلب= العقل.

(١٨) دون فكر أو رد فعل.

(١٩) حرفيا : " دون أن تبتلع قلبك".

(٢٠) حرفيا: "على قراراتك أن تسير بخطى واسعة بناءاً على أوامرك".

(٢١) راجع الشكوى السابعة من شكاوى الفلاح الفصيح. إذ نجد تعبيراً مماثلا فى نص قصة "الفلاح الذى تعرض للسطو".

(٢٢) تعبير إيجابى جداً للدلالة على السكينة أو الفرح الذى يمكن أن يسببها لشخص ما

(٢٣) العميق الأحمر. وبسبب لونه الأحمر (وهو لون الصحراء الجدباء والعدائية) ارتبط بأفكار الفواجع والجنون. فى حين أن الفيروز، الأخضر اللون، هو حجر جالب للخير، لأن لونه يشير إلى عالم النبات الدائم التجديد، رمز الحياة.

(٢٤) فى داره.

(٢٥) لا تسمح له خيانته بالاعتماد على الكلمة للدفاع عن نفسه.

(٢٦) حرفيا: ط ناضر- الجسد".

(٢٧) وتبعها كزوجة وكأم.

(٢٨) يستعمل النص كلمة "كا" التى تدل هنا، على ما اعتقد، على شخص الإنسان ذاته.

(٢٩) وليس ضد من أمر بالسرقة. وبالمثل قد يظهر الإستهجان ضد من يعمل على نشر النميمة، وليس ضد من هو مصدر هذه الأكذوبة.

(٣٠) إنه إذن فعل لا عقلانى بحت، وخيالى فى الغالب.

(٣١) يوصى "بتاح حوتب" بتوازن عادل، فى موقف الإنسان فى مواجهة الحياة.

(٣٢) من الراجح أن هذا المقطع وهو على قدر من الغموض، يعنى أن كل شخص سينال ما يستحقه.

(٣٣)حرفيا: "سيحل "كا"ءه"

(٣٤) العظيم، وهو الشخص صاحب السلطة والنفوذ.

(٣٥) سوف يطعم صاحب الحظوة طعاما جيداً.

(٣٦) حرفيا: " إن الـ"كا" شخصية قوية.

(٣٧) حرفيا : " سينقلب فعلك إلى حكم"

(٣٨) سوف يكون رأى الناس فيك طيبا- وأحسن من الرأى الذى خصوا به آخرين مثل منصبك.

(٣٩) لن يمتد هباء، ولكنه سينال.

(٤٠) هناك ترجمة أخرى يقترحها "زابا" ZABA

(Les Maximes de Ptahhotep, Prague, 1956,p56)

"لا ينبغى أن تضاجع امرأة (مازالت) صبية". ولكن من الواضح أن المقصود به هنا هو "اللواط". فالإشارة إلى الشخص المعنى، كما وردت بعد ذلك، تعتمد على ضمير المذكر فالتعبير المصرى " حمت خرد" لا يشير إذن إلى "امرأة" بالغة بل إلى صبى مراهق أو حدث مخنث.

" الماء الذى على قلبه" هو النطفة التى كان القلب مصدر تدفقها حسب الفكر المصرى.

(٤٢) إذا أفشى سرا- إذا لم يكتم السر.

(٤٣) حرفيا: ط لتكون وجهك مضيئاً " – "متألقا"

(٤٤) حرفيا: " لا تخلقه حتى يقترب منك".

(٤٥) حرفيا:" ين ينتمون إلى ظلك".

(٤٦) حرفيا: "غارقا".

(٤٧) يتعين معاقبة الجريمة. ولكن فى حالة الجرائم الأقل خطورة يبغى إعطاء الفرصة للإجراءات القانونية العادية أن تأخذ مجراها.

(٤٨) تعذر تحديد المعنى الدقيق للعديد من الكلمات الواردة فى هذا المقطع.

(٤٩) تقدم هذه الجمل تلاعباً (برسم العلامات وبالأفكار) بالكلمة "سحم" التى تعنى فى اللغة المصرية :" ينصت" و"يطيع". أنه أسلوب كان المصريون مولعين به جدا، كما أنها تقدم فى نفس الوقت عرضا أخلاقيا حول فضائل الانضباط والطاعة.

(٥٠) حرفيا: ط متفوقا فى جسده".

(٥١) أى "إثراء ممتلكاته، وتعاظمها".

(٥٢) استعارة دينية.

(٥٣) حرفيا:" ذلك يتفق مت تلك".

(٥٤) "الحبال " التى تحافظ على السلوك القويم للفرد، تشبه حبال السفينة، التى تحافظ على الشراع، فتضمن مسارا سليما للقارب.

(٥٥) حرفيا:" بعد أن تكون قد أدركت صنعته الحرفى"

(٥٦) لا شك، أن الملك هو المقصود بذلك.

قائمـــة المراجع

أولاً: المراجع العربية:

١- ابن صاعد : طبقات الأمم، نشر لويس شيخو -بيروت ١٩١٢م

٢- ابن النديم : الفهرست، تحقيق فلوجل، مطبعة الخياط، بيروت ١٩٦٤م

٣- **أحمد عثمان** : أثينا السوداء- وأصل الحضارة اليونانية، الحياة، لندن، العدد ١٢٢١٦، ٧يونيو ١٩٩٦م / ٢١ محرم ١٤١٧ هـ.

٤- **الدكتور أحمد فخرى** : مصر الفرعونية (موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق.م، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، أكتوبر ١٩٦٠م.

٥- **أفلاطون** : الجمهورية، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، دار الكاتب العربى، ١٩٨٦م.

٦- **أفلاطون** : فايدروس، ترجمة الدكتوره أميره حلمى مطر، دار المعارف، ١٩٦٨م.

٧- **الألوسى (الدكتور حسام محيى الدين)** : بواكير العلم الإغريقى، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الثانى، العدد الثانى، ١٩٧١م.

٨- **الألوسى (الدكتور حسام محيى الدين)** : بواكير الفلسفة قبل طاليس، أو من الميثولوجيا إلى الفلسفة عند اليونان، بغداد، العراق، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م.

٩- **أمنه صبرى مراد (الدكتوره)** : لمحات من تاريخ الطب القديم، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٠- **الأهوانى (الدكتور أحمد فؤاد)**: فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، القاهرة، ١٩٤٥م.

١١- **أورسيل (بول ماسون)** : الفلسفة فى الشرق، ترجمة محمد يوسف موسى، القاهرة، ١٩٤٥م.

١٢- **باقر (طه)** : مقدمة فى تاريخ الحضارات القديمة، بغداد، ١٩٥٦م) (جزءان كبيران).

١٣- **باقر (طه)** : ملحمة جلجامش، ط ٢، بغداد، ١٩٧٢م.

١٤- **بدوى (الدكتور عبد الرحمن)** : ربيع الفكر اليونانى، القاهرة، ١٩٥٨م.

١٥- **بدوى (الدكتور عبد الرحمن)** : أفلوطين عند العرب، ط٢، دار النهضة العربية، ١٩٦٦م.

١٦- برستيد (جيمس هنرى): تطور الفكر والدين فى مصر القديمة، ترجمة زكى موسى، دار الكرنك، القاهرة، ١٩٦١م.

١٧- **بورج**: تراث العالم القديم، الجزء الأول، ترجمة زكى موسى، مراجعة الدكتور يحيى الخشاب، ودكتور صقر خفاجة، دار الكرنك، ١٩٦٥م.

١٨- **بول غليونجى**: ابن النفيس، الكويت، بدون تاريخ.

١٩- **بول غليونجى**: الحضارة الطبية فى مصر القديمة، دار المعارف. ١٩٦٥م.

٢٠- **البيرونى**: تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل، أو مرذولة، حيدرآباد، ١٩٥٨م.

٢١- **تاجور (رابندانات)**: سادهانا أو تحقيق الحياة، ترجمة محمد طاهر الجبلاوى، ألا نجلو المصرية، بدون تاريخ.

٢٢- **توفيق الطويل (الدكتور)** : أسس الفلسفة، طبعة خامسة، ١٩٦٧م القاهرة.

٢٣- **تملين** : (فلاسفة الشرق)، ترجمة عبد الحميد سليم، مراجعة علي أدهم، دار المعارف، ١٩٧٧م.

٢٤- **الجابرى (على حسين)** : الحوار الفلسفى بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان بغداد، العراق، ١٩٨٥م.

٢٥- **جارودى (روجيه)**: النظرية المادية فى المعرفة، تعريب إبراهيم قريط، دار دمشق، بدون تاريخ.

٢٦- **محاطوم نور الدين (وآخرون)** : موجز تاريخ الحضارة. مصبعة الكمال، القاهرة، ١٩٩٦٥م.

٢٧- **حسن حنفى (الدكتور)** : أثينا السوداء- أثينا المصرية، مجلة القاهرة، العددان ١٥٦،١٥٧، ١٩٩٥م.

٢٨- **حسن كمال (الدكتور)**: الطب المصرى القديم، الطبعة الثانية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٤م.

٢٩- **الحسيني (السيد أبو النصر أحمد)** : الفلسفة الهندية، الطبعة الأولى، القاهرة، بدون تاريخ.

٣٠- زكريا إبراهيم (الدكتور) : مشكلة الفلسفة، طبعة منقحة، القاهرة، ١٩٧١م.

٣١- سارتون: تاريخ العلم، العلم القديم فى العصر الذهبى لليونان، ترجمة إلى العربية لفيفٌ من المعنيين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣م.

٣٢- سارتون: العلم القديم والمدنية الحديثة، ترجمة عبد الحميد صبره، القاهرة، ١٩٦٠م.

٣٣- شبل (الدكتور فؤاد محمد) : البوذية، دار المعارف، مصر، ١٩٧٧م.

٣٤- شمار (جورج بوييه) : المسؤولية الجزائية فى الآداب الآشورية والبابلية، ترجمة سليم الصويص، بغداد، ١٩٨١م.

٣٥- **الشهرستاني**: الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، القاهرة، ١٩٦٨م.

٣٦- **صبحى رشيد (الدكتور)** : تاريخ الآلات الموسيقية، بيروت، ١٩٧٠م.

٣٧- **عامر سليمان (الدكتور)** : القانون فى العراق القديم، جـ١، الموصل ١٩٧٧م.

٣٨- **عبد اللطيف البدرى** (الدكتور): الطب الآشورى، بغداد، ١٩٧٦م

٣٩- **على عبد الواحد وافى (الدكتور)**: الأدب اليونانى القديم، القاهرة، ١٩٦٠م.

٤٠- **على فهمى خشيم**: آلهة مصر العربية، المجلد الأول، الطبعة الأولى، الدار الجماهيرية النشر والتوزيع والإعلان، مصراته، ليبيا، ١٩٩٠م.

٤١- **فوزى رشيد (الدكتور)** : قواعد اللغة السومرية، بغداد، ١٩٧٣م.

٤٢- **كريم متى**: الفلسفة اليونانية قبل سقراط، بغداد، ١٩٦٧م.

٤٣- **كلير لالويت**: نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة، الترجمة العربية، ماهر جويجاتى، مراجعة الدكتور ماهر عبد الحكيم، دار الفكر، القاهرة- باريس، المجلدان الأول والثانى، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٩٦م.

٤٤- **كولر (جون)** : الفكر الشرقى القديم، ترجمة كامل يوسف حسين، مراجعة الدكتور إمام عبد الفتاح إمام، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٥، العدد ١٩٩.

٤٥- ليفى مارتن: الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية فى وادى الرافدين، ترجمة وتعليق د/ فياض المياحى وآخرون، بغداد، ١٨٩٠م.

٤٦- محمد جمال الدين مختار (الدكتور) : أحمد كمال- العالم الأثرى الأول فى مصر، المجلة التاريخية المصرية، العدد ١٢، ١٩٦٤م -١٩٦٥م.

٤٧- محمد كاظم العطار (الدكتور) : حمورابى ذلك العظيم، بغداد، ١٩٨٣م.

٤٨- مسكويه (أبو على أحمد بن محمد) : الحكمة الخالدة، جاويدان خرد، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوى، النهضة المصرية، ١٩٥٢م.

٤٩- مطر (الدكتورة أميرة حلمى) : الفلسفة عند اليونان، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٧م.

٥٠- المقدسى: البدء والتاريخ، تحقيق كليمنت هوارد، باريس، ١٩٨٩م. (فى عدة أجزاء).

٥١- نجيب ميخائيل إبراهيم (الدكتور) : مصر والشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، مصر الإسكندرية، الطبعة الثالثة، ١٩٦٠م.

٥٢- هانز ريشنباخ: نشأة الفلسفة العلمية، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، القاهرة، ١٩٦٧م.

٥٣- هيجل: محاضرات فى فلسفة التاريخ، ترجمة الدكتور إمام عبد الفتاح إمام، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٧٤م.

٥٤- ويد جيرى (ألبا ن.ج) : المذاهب الكبرى فى التاريخ، من كونفوشيوس إلى توينتى، ترجمة ذوقان قرقوط، الطبعة الثانية، دار القلم، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م.

٥٥- ياسين خليل (الدكتور): منطق البحث العلمى، بيروت، ١٩٧٤م.

٥٦- ياروسلاف تشرنى: الديانة المصرية القديمة، ترجمة الدكتور أحمد قدرى، مراجعة الدكتور محمود ماهر طه، مطبعة هيئة الآثار المصرية، ١٩٨٧م.

٥٧- يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، طبعة ثالثة، ١٩٥٣م.

ثانيا المراجع الأجنبية:

1- **Alexander (A..B.D.)** : " A Short History of Philosophy, 3rd Ed. Glasgow, 1934.

2- **Aurodirdo,** Bases of Yoga, Calcuta, Arya Publishing House, 1936.

3. **Bernal (Martin):** Black Athenam, the Afroasiatic roots of classical civilization; Rutgers University Press., New Braunswick, New Jerset, U.S.A. Vol. 1, 1785-1985, 1987, Vol.2. 1991, Vol. 3. In print.

4. **Burnet**: "Early Greek Philosophy, London, 1963.

5. **Carus (P.)** "Chineese Thought, Chicago; Open Court, 1907.

6. **Chartles Leveque**, Platon Foundateurde l'Esthetique, 1857.

7. **Conteneau, (G.),** Manuel d'archeologie orientale, Paris, Picard, 1930.

8. **Copleston, (F.) :** A History of Philosophy, 1950, Vol. 2.

9. **Cornford, F. M.** : " From Religion to Philoshophy" Honsper, Tockbook, 1957.

10. **Crowther, (G.G.)** " The Social Relation of Sciences, London , 1967.

11. **Deaseu (p.)** SechzigUpanishads des Veda, Zene edi., Paris, 1912.

12. **Delitzsch (F.),** Assurbanipal und die Assyrische Kultur Seiner Zeit, Leipzig, 1909.

13. Dhorme, Edouard, Les Religions de Babylonie et d'Assyrie. Paris, 1945.
14. Drikwater (J.): " The outline of Literature, London, Vol. 1.
15. Duyreendak (J.L.L.) Etudes de Philosophie Chinoise, Revphilos. 1930.
16. Erman (Ed.), Religion Egyptienne, Trad. Fraus., Paris, 1907.
17. Farrington: Science in Intiquity, 1936.
18. Festugiere, A.J. Platon et L'Orient, Reuve de Philogie, 1947.
19. Frankfort (H.), Before Philoshopy, London, 1959.
Genouillac (H.de), Tablettes Sumeriennes Archaiques, 20. Paris, 1908.
21. George (G.M. James): " Stolen Legacy; San Francisco, 1976.
22. Giles (H.A.), Confuciacnism and its Rivals, London, 1915.
23. Gilson: History of Cristian Philosophy in the Middle Ages. Newyork, 1955.
24. Grousset (R.), Historie de L'Extreme - Orient, Paris, 1929 (2 Vol.).
25. Grousset (R.), Les Philosophies Indiennes, Paris, 1931.
26. Hegel (G.W.F.): The Philosophy of History, tran. by J. Sibree.
27. Hobhouse: "Mind in Evolution", London 1951.
28. Hurry (J.B.), Imohotep, The Vizier and Physician of King Zoser, Oxford, 1926.
29. Jaeger (W.): Aristotle Seconded. Oxford, 1988.
30. Jeager (W.): "Paiedeia, The Ideals of Greek Culture, Oxford, 1939, Vol. 1.
31. Jeager (W.): The Theology of the Early Greek Philosophers, Oxford, 1988.
32. La Vallee-Poussin (L.de), Buddhisme, Paris, 1909.
33. La Vallee-Poussin (L.de), The Way to Nirvana, Cambridge, 1917.
34. Lioyd (G.E.R.): Early Greek Science. London. 1970.

35. Meillet (A.), Introduction a L'Etude Compatative des Langue Indo-Europeenes., Paris.
36. Moret (A.), Du Caractere Religieus de la Royaute Pharonique, 1903.
37. Moret (A.), Le Nil et La Civilisation Egyptienne, Paris, 1926.
38. Oldenberg (H.), Die Lehre Der Upanishaden Und Die Anfange des Buddhismus, Berlin, 1915.
39. Olenberg (H.), Die Religion Des Veda, Berlin, 1894.
40. Richmond, W.R., "Socrates and the Western World, London, 1954.
41. Russel (B.): History of Western Philosphy, 1961.
42. Scheil (V.), Trad. du Code de Hammurabi (Mem. Pub. par La Deleg, Fr. enperse, t.IV), Paris, 1902.
43. Sinclair (T.A.), A History of Greek Political Thought, London, 1959.
44. Smith, Prof. G. Elliot, The History of Mummification in Egypt, proceedings of the Royal Philosophical Society of Glasgow, 1910.
45. Strauss (O.), Indishe Philosophie; Munchen, 1925.
46. Taylor, A.E.: Plato, The Man and his work, 1952.
47. White, 4.A., " Ikhnaton; the Great Man and the Culture Process, in Jaos, LXVIII (1948).
48. Wieger (L.) Les Peres D' Systeme Taoiste, 1913.
49. Winspear, A.D.: The Genesis of Plato's Thought, 1940.
50. Xenophone: Memorabilia.
51. Zeller (Eduard): Outline of the History of Greek Philosophy, London, 1963.

الفهرس



هذا الكتاب

إن البحث الموضعي الهادئ ، يؤدى إلي الإعتراف بوجود «قفزة» أو «تبدل كيفي» في مسار الحضارة البشرية حصل مع مجيئ الحضارة اليونانية ، إلا أنه تبدل حدث من تجمع كمي هو حصيلة ما كسبته البشرية من تقدم قبل اليونان ، قدمته حضارات الشرق القديمه.

وهذا الكتاب ـ الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي ـ إثبات تفضيل لحالة «التفكير النظري» في أهم الحضارات المحيطة بالأفق الإغريقي وهي حضارات الشرق القديمة، وهو محاولة نؤكد بها علي أن مدارس الفكر الأوروبي العنصرية التي زعمت تفوق الجنس الأري الأبيض، لا تستند إلي حقيقة من التاريخ ، وإنما تقيم دعواها علي فلسفة عنصرية عدائية دعائية.

فالعقل الشرقي لايقل عمقا وأصالة عن العقل الغربي ، وجميع ما يحوبه التفكير الإغريقي ، يبدو أمامنا علي حقيقتة إذا عرض تحت ضوء العلاقات بين الشرق والغرب. وبالتالي فالذين ينكرون إمكان قيام فكر نظري في الشرق وتأثر اليونانين به ، يعوذهم التقدير الكافي للحضارات الشرقية القديمة ، وتعوذهم الخبرة بأحوال الإنسـ وجهي هذا القصور كان يمكن الإغضاء عنه منذ قرن مضي أما اليوم فلا عذر لأ

